زرعت أحساكا منبتها الصدر
فكيف ننساكا انا إذن غدر

للمزيد أنظر : جريدة البصائر، عدد 35، السلسلة الثانية الموافق لـ 1948.

35 ـ الإبراهيمي، عيون، ج II ، ص 364.

36 ـ أصدر العقبي جريدة الإصلاح الثانية في عددها 15 الموافق لـ 28 ديسمبر 1939، وتوقفت عن الصدور في عددها 73 الموافق لـ 3 مارس 1948، وبرزت الإصلاح إلى الوجود في مرحلة حرجة جدا في الوقت الذي تعطلت فيه الصحف الأخرى وبرغم ماقيل عن هذه الجريدة فقد أوضح صاحبها أنّ الصلاحية الثانية لم تخرج في أهدافها عن الصلاحية الأولى التي أصدرها ببسكرة سنة 1927 ،أشار إلى ذلك بقوله : جريدتنا للفكرة الثابتة والمبدأ الصحيح في الإصلاح ليست هي بآلة تجارة ولا أداة استغلال واسترباح، بل لفكرتنا الثابتة هذه ومبدئها الحق الذي لا نتحول عنه مابقينا وحتى النفس الأخير من حياتنا ، أسسناها ورفعنا الصوت بها كما رفعناه في جرائد إصلاحية أخرى عالية مدوية يوم كان الشعب الجزائري ـ الأ مارحم الله ـ يغط في نومه العميق ... يوم لايكاد يوجد ناطق بكلمة الحق الصريحة»

للمزيد أنظر : جريدة الإصلاح، عدد 46، السنة العشرين، 10 أفريل 1947.

37 ـ المدني، مذكرات، ج II ، ص 382.

38 ـ جريدة الإصلاح، عد 59، السنة العشرون، 29 أوت 1947.

39 ـ خير الدين، مذكرات، ج II ، ص 19.

40 ـ محمد العيد آل الخليفة، ديوان محمد العيد، ط I (الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر 1967) ص 444.

41 ـ عبد الله ركيبي، دراسات في الشعر الجزائري الحديث، ط I ، (الدار القومية للطباعة والنشر القاهرة) ص 34.

42 ـ جريدة البصائر، العدد 14، السلسلة الثانية، نوفمبر 1947.

43 ـ كمال عجالي، أبو بكر مصطفى بن رحمون حياته وشعره، ط I ، (ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 1991) ص 154.

44 ـ ابن رحمون، ديوان ابن رحمون، ط I (الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر 1980) ص 143.

Créé avec
nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

الحرب النفسية والإستعمار الفرنسي للجزائر*

أ.د. عبد الحفيظ مقدم

1 ـ مقدمة

إنّه مهما تعددت الأسباب الظاهرية للحرب العدوانية ومهما تنوعت الأسلحة المستعملة فهي تسعى أولا وقبل كلّ شيء إلى تحطيم معنويات الخصم وتحطيم الإرادة الدفاعية وإدخال اليأس إلى أفراده وإشعارهم بالقصور ومن ثم إخضاعهم لإرادته وإستغلالهم لصالحه.

فالمتأمل حينئذ في العوامل الأساسية الدافعة للحرب يجد أنّها نفسية، وأنّ النتائج التي تستهدف تحقيقها نفسية بالدرجة الأولى. وإذا كانت الحرب عبارة عن صراع مسلّح بين دولتين أو أكثر حيث يعمل كلّ طرف على تحطيم الطرف الآخر والتفوق عليه، فإنّ الصراع في علم النفس هو حالة انفعالية مؤلمة تنتاب الفرد عندما يهدد في كيانه أو عندما تحبط دوافعه أو رغباته أو طموحاته.

ونتيجة الحرب هي الإنتصار أو الهزيمة. وكلاهما حالات نفسية. فالإنتصار حالة مسرة ناجمة عن الشعور بالتفوق والنجاح على الخصم والسيطرة عليه. والهزيمة هي أيضا حالة نفسية مؤلمة مصحوبة بالقلق واليأس والشعور بالهوان والخضوع والإستسلام وفقدان الثقة في الذات. لذلك نجد ظاهرة التهديد والوعيد وإبراز القوى أو وسائل الفتك وهذا سواء على مستوى الأفراد والجماعات أو الدول إنما تستهدف أحداث الشعور بالهزيمة لدى الخصم ومن ثمة إخضاعه وقهره بدون إقتتال).

* هذا المقال هو إثراء وتنقيح للمداخلة التي تقدم بها الباحث في اليومين الدراسيين اللذين نظمهما معهد التاريخ بمناسبة الذكرى الأربعين لثورة نوفمبر، في الفترة من 19 إلى 22 أكتوبر 1994.

وقد أدرك بعض القادة السياسيين منذ القديم أنّه يمكن تحقيق هذا الهدف - قهر الخصم وإخضاعه - بدون اللجوء إلى الإقتتال ولعلّ أهم من أشار إلى هذا هو المحنّك الصيني (صن تزو) في كتابه (فن الحرب) منذ ألفين وخمسمائة سنة حيث قال : (إنّ الهدف الأسمى والأبرز في الحرب هو قهر العدو وإخضاعه دون إقتتال)[1].

ويرى هتلر زعيم النازية ومطور أسلوب الحرب النفسية بأنّ مايهمه من الحرب هو (التحطيم المعنوي للخصم قبل إنفجار الحرب) ويعتبر بأن الناس يقتتلون فقط عندما لايستطيعون الوصول إلى أهدافهم بطريقة أخرى. (هناك إستراتيجية موسعة بالأسلحة الفكرية، لماذا أحطم معنويات العدو بالطريقة العسكرية إذا كنت أستطيع تحقيق ذلك بشكل أفضل وأقل إقتصادا وبأساليب أخرى... إنّ إستراتيجيتنا هي تحطيم العدو من الداخل والتغلب عليه عن طريقه هو نفسه)[2].

يعكس هذا التصريح أربع جوانب على الأقل :

- أولها : أنّ تحطيم الجانب النفسي (المعنوي) للخصم كفيل بأن يحقق بقية الأهداف الأخرى. فإذا إستطعت إرهاب الخصم يمكن الإستسلاء عليه بسهولة.

- ثانيا : أنّ تحطيم هذا الجانب لايستدعي بالضرورة اللجوء إلى الإقتتال وإستعمال القوة العسكرية، مادامت هناك وسائل أخرى لاتقلّ أهمية وربما أكثر فاعلية، وهي الحرب النفسية التي نؤثر على معنويات الخصم وإتجاهاته وخلق تذمر وإنشقاق بين صفوفه.

ثالثا: جعل الخصم يحطم نفسه بنفسه وذلك بإثارة الفتن بين صفوفه.

- رابعا : أنّ إخضاع العدو بالوسائل السيكولوجية يعتبر أقل تكلفة بكثير من إخضاعه بقوة السلاح.

ويعتبر ضم النمسا وتشوكوسلوفاكيا إلى ألمانيا أثناء الحرب العالمية الثانية بدون إقتتال تطبيقا لهذا المبدأ. وحتى الدول الكبرى يمكن أن تُخدع وتُضلل بحيث تصبح تشك في ثقتها وفي جيشها.

Créé avec nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

وقديما سُئل عنترة بن شداد المعروف ببطشه وهيبته، كيف إكتسبت هذه الهيبة حتى أصبح الفرسان يخافونك ؟

فأجاب : إني أختار الضعيف فأضربه ضربة قوية يرتعش لها القوي فتنهار قواه وإرادته. ومهما كانت مصداقية هذه الرواية فإنها تؤكد تطبيق مبدأ الترهيب وإحداث الشعور بالهزيمة في نفسية الخصم قبل مواجهته.

بالرغم من أنّ الروح العدوانية متشابهة لدى المستعمرين، فإنّ تفريغها يختلف من مستعمر لآخر، فإذا كان هتلر يفضل إستعمال الحرب النفسية لتحطيم معنويات العدو، فإنّ الإستعمار الفرنسي كما بيّن لنا الواقع ذلك خلال 132 سنة من الإحتلال للجزائر يفضل إلى جانب ذلك إتباع أساليب الفتك والقتل وسياسة الأرض المحروقة لإضطهاد الأهالي وقهرهم وإخافتهم.

ولعلّ هذا الإختلاف يعود إلى سببين رئيسيين أولهما إختلاف في الأهداف وثانيهما إختلاف في الخصائص النفسية والثقافية لكلّ منهما. وإذا كان هتلر يهدف إلى إشباع نزعة السيطرة وإثبات تفوق العنصر الآري على بقية العناصر الأخرى، فإنّ فرنسا في الواقع بالإضافة إلى هذا كانت تهدف إلى إستيطان الجزائر كأرض وكموارد، وللوصول إلى ذلك لابد من إفناء من عليها من الأهالي بالقتل والإبعاد. إلا أنّ صمود الأهالي ومقاومتهم المتواصلة رغم ماأوتي العدو من عدد وعدة، جعلت المستعمر الفرنسي يراجع نظريته في فعالية قوته التدميرية المادية في اخضاع الأهالي الجزائريين، فلجأ حينذاك إلى استعمال الأساليب السيكولوجية لمحاربة العقل وتحطيم معنويات هؤلاء الأهالي واستمالتهم إليه بشتى الإغراءات والإشاعات والأكاذيب.

إنّ الأعمال الوحشية التي إقترفها الجيش الفرنسي ضد الشعب الجزائري تعكس نفسية عدوانية متطرفة خاصة إذا عرفنا أنّه لم يكن في موقع إنتقامي حتى يمكن تبرير سلوكه العدواني المتطرف مثلما هو الحال بالنسبة للألمان مع اليهود أثناء الحرب العالمية الثانية. وكما أنّه لم يكن في مواجهة خصم قوي يهدده بالفناء

ومن ثمّ يجد نفسه مجبرا على القيام بكل أساليب الفتك والتدمير للدفاع عن نفسه.

لقد كان سلوك المحتلين الفرنسيين مع الأهالي العزل يشبه سلوك الساديين مع ضحاياهم.

والسادي أو السادية كلمة مشتقة من إسم المركيز الفرنسي دي ساد الذي كتب مطولا في هذا الموضوع وارتكب العديد من جرائم الجنس[3]. فالسادية هي الحالة القصوى للعدوانية وهي في الواقع حالة نفسية مرضية تستهدف إلحاق الألم بالآخرين والسيطرة عليهم والحط من شأنهم، وليس من أجل إشباع اللذة الجنسية فقط وإنما من أجل تأكيد الذات.

ويذكر أنطونيني في كتابه (الإنسان الغاضب) أنّ جوهر السادية يكمن في البحث اليائس عن الأنا في الحاجة إلى تأكيد الذات. (ها أنا، أنا هنا ـ يقول السادي ـ يجب أن تلاحظ وجودي. إذا لم تلاحظه بحبتي فعليك أن تدركه من خلال ألمك. إني أنا من يجعلك تتألم، بألمك تعترف بوجودي الذي يصبح أكثر واقعية بمقدار ماتكبر معاناتك)[4].

وهناك كثير من الأمثلة للسادية الفردية والجماعية. فالسادية الفردية نجدها في مجرمي الإغتصاب ومجرمي الحرب. أما السادية الجماعية فنجد لها أمثلة كثيرة في العالم المعاصر كالمجازر التي ارتكبتها الدول الإستعمارية الغربية كفرنسا وأمريكا، وألمانيا وبريطانيا التي مازال التاريخ يشهد عليها وينعتها بالجرائم اللاإنسانية النابعة من قلوب باطشة وسادية ومريضة. وأقرب مثال للسادية المعاصرة جرائم الصهيونية ضد الفلسطينيين وجرائم الصرب ضد المسلمين البوسنيين.

والسلوك العدواني التدميري يبدأ أولا بفك الإرتباط العاطفي بالآخر كما فعل التنصل الفرنسي مع الداي بحيث تنهار روابط الألفة والمحبة والمصير المشترك ليحل محلها روابط العداء والغربة والإضطهاد. الشيء الذي يجعل المعتدي يقدم أحيانا على فعل القتل أو الإبادة ببرودة تامة وبلا مبالاة وكأنّه يقوم بأمر تافه لاقيمة له.

Créé avec nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

وعادة مايقوم السادي بعملية شرعنة لتبرير عدوانيته وإزالة المسؤولية عنه بوضعها على الضحية[5].

2 مفهوم الحرب النفسية :

ـ يقصد بالحرب النفسية استخدام الدعاية والإشاعة والأساليب السيكولوجية الأخرى للتأثير على معنويات العدو وإحداث مشاعر معينة بين الجماهير لغرض زعزعة ثقتها بنفسها وبقادتها ومعتقداتها وحتى بتاريخها وهويتها، وكذا تفتيت عزيمتها وإضعاف إرادتها وخلق انشقاقات بينها مما يشغلها عن قضيتها الأساسية ويسهل الإنقضاض عليها وإخضاعها لإرادته دون مقاومة تذكر.

ويعد مصطلح الحرب النفسية من المصطلحات الشائعة بين المصطلحات الأخرى التي تؤدي نفس الوظيفة تقريبا. كالحرب الدعائية والحرب الفكرية والحرب السياسية والحرب الباردة وحرب الأعصاب وغسل الدماغ وغير ذلك. وكلها في الواقع تستهدف التأثير على نفسية الخصم ومعنوياته.

والحرب النفسية هي أحدث أسلحة الحرب توجه ضد الفكر والعقيدة والشجاعة والثقة، وضد الرغبة في القتال. وهي حرب دفاعية هجومية. وذلك لأنّها تحاول أن تبني معنويات الشعب والجنود بينما تحطم في الوقت نفسه معنويات العدو[6].

والحرب النفسية جزء من الحرب الشاملة تشن قبل الحرب وفي أثنائها وفي أعقابها، ثم أنّها لا تخضع لرقابة القانون ولا لعادات الحرب. وقد تظهر آثارها حينا، وقد لا تظهر إلا بعد سنوات وق تبقى آثارها قرونا من الزمن.

والحرب النفسية خاضعة للنجاح والفشل كبقية الحروب الأخرى. ونجاحها يمكن أن يكون ساحقا برغم صعوبة تقديرها كميا، كما أنّ فشلها قد يكون قاتلا وإن كان غير ملموس، ولكن يمكن الكشف عنه وإدراكه[7].

والحرب النفسية أكثر شمولا واتساعا لأنّها لا تشمل القوات المقاتلة فقط وإنما توجه إلى كلّ فئات الشعب. وكما أنها لاتعتمد المواجهة الصريحة كما يحدث في

المعارك العسكرية ولكنها تلجأ إلى أساليب خفية وملتوية ومقنعة غير معروفة بالنسبة لغالبية الشعب. لذلك يكون تأثيرها أكثر خطورة[8].

- وسائل الحرب النفسية :

وإذا كانت وسائل الحرب العسكرية هي الأسلحة النارية والأسلحة البيضاء فإنّ وسائل الحرب النفسية هي في أغلبها أفكار قاتلة على حد تعبير مالك بن نبي ( ) وهي أكثر فاعلية من الأسلحة النارية. فالرصاصة ينتهي مفعولها مباشرة بعد خروجها من ماسورتها، وسواء أصابت أم لم تصب هدفها. أما الأفكار فهي نادرا تموت بل تتجدد وتزداد انتشارا حتى بعد انتهاء الحرب خاصة إذا لم تتخذ الأمة أسباب المناعة والإحتياط ضد إنتشارها أو إبطال مفعولها. وإذا كان العدو في الحرب العسكرية يختفي وراء التلال والجبال والخنادق فإنه في الحرب النفسية يختفي وراء الدين والتعليم والصحافة والمنشورات والإشاعات والنكت والفكاهات وغير ذلك.

وسنتعرض هنا إلى الدعاية والإشاعة كأهم أساليب الحرب النفسية.

الدعاية : يقصد بالدعاية نشر معلومات بين الناس لغرض التأثير على آرائهم ومعتقداتهم وجعلها تتخذ إتجاها معينا. وتعتمد الدعاية على الإستهواء والتضليل واختلاق الأكاذيب. والدعاية تعتمد على أحدث وسائل الإتصال كالراديو والتلفزيون والسينما والصحافة والكتب والمنشورات وغير ذلك.

الإشاعة : وتعرف بأنها مجموعة من المعلومات التي تبلغ إلى الرأي العام شفاهيا أو عن طريق الصحف والإذاعة وهذا دون أن يكون لها دليل واضح على صحتها أو مصدرها، والإشاعة تعبر عن حالة معينة من حالات القلق أو الكبت الجماعي. وتحدث أكثر أثناء الحروب والأزمات حيث يسود الغموض وتعتم الرؤية لأحداث الواقعة في المجتمع[9]. وتستهدف كل من الإشاعة والدعاية مايلي :

Créé avec nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

1 ـ بث اليأس من النصر في نفوس القوات المعادية.

2 ـ تشجيع القوات المعادية على الإستسلام.

3 ـ تقسيم الرأي العام وتفتيت وحدته حتى يسهل السيطرة عليه كإطلاق الإشاعات المتعلقة بأحداث الصراعات بين القادة أو بين الفئات الإجتماعية.

4 ـ إثارة البلبلة وافتعال الأزمات كإشاعة حدوث صدام مسلح بين الجيوش المتحالفة.

5 ـ إساءة سمعة بعض القادة أو الحكومات أو الشخصيات المرموقة قصد التقليل من شأنها وبالتالي تخفيض تعلق الأفراد بها.

6 ـ تحوير الإتجاهات نحو أو ضد بعض المواقف والأشخاص.

7 ـ وقد تستعمل الإشاعة والدعاية أيضا لرفع المعنويات وتوحيد الصفوف وذلك بنشر الأخبار والمعلومات المرغوب فيها.

8 ـ التشكيك في هوية الشعب وإحداث مشاعر النقص.

- الأسس النفسية للحرب النفسية :

تعتمد الحرب النفسية الحديثة على ماتوصلت إليه نظريات ودراسات علم النفس النفس للبشرية. منها :

- نظرية التحليل النفسي.

- النظرية السلوكية.

- نظريات علم النفس الإجتماعي.

يتوقف نجاح الحرب النفسية على ثلاث عوامل أساسية :

1 ـ دراسة مستفيضة للنفس البشرية لمعرفة نقاط الضعف الكامنة فيها وتحليل مجتمع العدو وتأثيره على الأفراد.

2 ـ الحجج الموثقة والمعلومات الغزيرة والوقائع الفعلية التي يمكن استخدامها كما هي أو تحريفها لتحدث التأثير النفسي المطلوب. ومواد هذه المعلومات تؤمنها أجهزة التجسس.

3 ـ وسائل الدعاية القوية المنظمة التي تكفل نشر هذه المعلومات والإستفادة منها بالشكل المطلوب[10].

3 ـ سيكولوجية الإحتلال الفرنسي :

لماذا احتلت فرنسا الجزائر ؟

كثيرا مايشاع أنّ احتلال فرنسا للجزائر كان بدافع أخذ الثأر لإستعادة كرامة القنصل الفرنسي بالجزائر الذي يزعم أنّ الداي حسين ضربه بمروحته الورقية على وجهه سنة 1828.

والحادثة وقعت حينما استقبل الداي حسين قنصل فرنسا في 27 أفريل 1828، فعبّر له الداي عن تعجبه من عدم رد فرنسا على رسالته المؤرخة في 26 أوت 1826 المتعلقة بالديون المترتبة عليها. فأجابه القنصل دوڤال Douval إجابة تنم عن استخفاف بالداي قائلا : إنّ ملك فرنسا مشغول عن الرد على داي من مقام الداي حسين فأستاء الداي من سلوكه هذا فضربه بمروحته وأمره أن يخرج من مجلسه.

إنه مهما صدقت هذه الرواية فإنها لم تكن إلا وسيلة لنوايا عدوانية أخرى. وقد سبق أن ذكرنا أن الشخص السادي أو العدواني يبدأ سلوكه العدواني أولا بفك الإرتباط العاطفي بالآخر بحيث تنهار روابط الألفة والمحبة ليحل محلها علاقات العداء والكراهية التي تمهد الطريق للعدوان. والواقع أنّ فرنسا حاولت عدة مرات قبل هذه الحادثة أن تفك الإرتباط الدبلوماسي مع الجزائر بعدة استفزازات وشروط تعجيزية إلا أنّ سياسة الداي حسين وتحمله لهذه الإستفزازات حال دون فك هذا الإرتباط. فالمروحة ماهي إلا وسيلة نفسية استفزازية لجرح كرامة الداي الشيء الذي يجعله يفقد أعصابه مما يضطره إلى الدفاع عن كرامته والرد عليه بطريقة عصبية سريعة فكانت المروحة كما يمكن أن تكون عصا أو أمرا بتوقيفه وسجنه أو غير

Créé avec nitro PDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

ذلك من الإحتمالات التي تصب كلها فيما خططت له فرنسا التي تبني عليها حجتها في احتلال الجزائر وإضفاء الشرعية على ذلك ومن ثمّ استباق انجلترا التي كانت تطمح إلى نفس الهدف. ومما يؤكد أيضا أنّ العملية مدبرة ظهور سفينتين فرنسيتين على الشاطئ لنقل دوڤال بعد مقابلة الداي مباشرة[11]. ومن هنا يمكن القول أنّ الإحتلال الفرنسي بدأ بحرب نفسية انتصر فيها على الداي حسين.

والواقع أنّ غزو الجزائر من طرف فرنسا يدخل ضمن مخطط النفوذ الأوروبي على الدول الإسلامية بعد القضاء على الأمبراطورية العثمانية.

إنّ نية الإستعمار الفرنسي تنكشف لنا من مقال نشره العالم الإقتصادي سيسموندي قبيل الحملة العسكرية. ومما جاء فيه أنّ (الجزائر لن نحتلها فقط بل نستعمرها وسنجعل منها بلدا آخر يستقر بها الزائد من سكاننا وينشر فيها الفائض من نشاط بلادنا في مختلف الميادين)[12]. لقد كان الهدف الأول لفرنسا حينئذ هو جعل الجزائر مقاطعة من فرنسا. ولتحقيق هذا الهدف سعت فرنسا منذ وصولها إلى الجزائر إلى القضاء على مقومات الشعب الجزائري المتمثلة في الأرض والدين واللغة.

ولقد استعملت في ذلك شتى الوسائل المادية والنفسية لمحو هذه الآثار بل وأكثر من ذلك محو كلّ ماهو كائن جزائري من على الأرض الجزائرية. ولقد جاء في رد نابليون الثالث على مطالب المعمرين الأوربيين الجشعين بزيادة التدمير والتقتيل قائلا : (هل تريدون أن نلقي بثلاث ملايين من الأهالي في البحر)[13]. وسنحاول هنا توضيح هذه الأساليب وانعكاساتها النفسية التي ماتزال آثارها إلى اليوم.

أولا ـ نزع ملكية الأرض من الأهالي الجزائريين.

تعتبر الأرض موطن الإنسان وهي رمز وجوده وسيادته فبدونها يعيش الإنسان تائها غريبا لايستقر له قرار ولا معيشة وضياع ملكية الأرض من صاحبها قد يؤدي به إلى ضياع الذات وإلى الشعور بالإستلاب الذي قد يؤدي بالشخص إلى حالة من الجنون والهذيان.

ولقد لجأ الإستعمار الفرنسي إلى عدة طرق لإنتزاع الأراضي من الجزائريين والإستسلاء عليها منها :

- الطرد التعسفي والتقتيل للأهالي، والمصادرة بعد عجز الأهالي عن تسديد الديون التي تفرضها عليهم. وكان المستعمر يختار الأراضي الخصبة وقد جاء على لسان الجنرال بيجو في 14 مايو مايلي: (حيث توجد الأراضي الجيدة والخصبة هناك بالذات يجب توطين المعمرين دونما استفسار عن صاحبها)[14].

وقد شرعت حكومة الأمبراطور نابليون الثالث منذ قيامها عام 1852 في ترحيل المجرمين والسجناء والمعارضين لسياستها إلى الجزائر لتتخلص من مشاكلهم. وقد تقرر من جراء هذه السياسة تهجير حوالي مائة ألف أوربي، حيث تمّ تخصيص أراضي لهم تتراوح من 2 إلى 20 هكتار للفرد الواحد[15].

وقد انجرّ عن هذه السياسة انتشار الفقر والمجاعة وأصبح الأهالي الجزائريين عبيدا للمعمرين في أراضيهم بعدما كانوا أسيادا فيها.

ثانيا - القضاء على الدين الإسلامي

لقد كان الدين الإسلامي في نظر الإستعمار الفرنسي هو العدو التاريخي اللدود للصليبية، وكما يعرف أنّ هذا الدين هو أحد المقومات الرئيسية للشعب الجزائري، وأنّه هو عامل التماسك والإلتحام بين أفراد هذا الشعب، لذلك كان القضاء على الدين الإسلامي هو الهدف الثاني الذي يعزز طموح فرنسا في جعل الجزائر مقاطعة منها أرضا وديانة. وقد كتب الرحالة الفرنسي بوجولا مذكراته في رحلته ينوه فيها برسالة فرنسا التبشيرية في الجزائر. وقال (أنّ الحرب التي نقوم بها في افريقيا إنما هي حلقة من حلقات الحروب الصليبية)[16]، ولقد وضعت فرنسا خطة للقضاء على هذا الدين تمثلت في تدمير المساجد وإغلاق المؤسسات الدينية واضطهاد رجال الدين والتنصير.

Créé avec nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

1 - تدمير المساجد والزوايا :

لقد شرع الإستعمار الفرنسي منذ وصوله إلى الجزائر في تحطيم المساجد والزوايا وتحويل بعضها إلى كنائس أو متاحف. يقول بيشون في تقريره للحكومة الفرنسية عند بداية الحملة الفرنسية مايلي : (إنني منذ وصولي وشروعي في العمل سمعت بأن اللجنة المكلّفة بالحملات العسكرية لم تهتم بشيء مثل اهتمامها بالإستيلاء على المساجد. إنّ كثيرا من المسؤولين لم يبالوا بنظر الحكومة في الموضوع فهم يريدون القضاء على بقية المساجد وعلى الدين الإسلامي)[17].

وتجدر الإشارة إلى أنّه بالرغم من أنّ هدف المستعمر هو القضاء على المساجد والزوايا والمعالم الدينية. فإنّه ترك بعضها لإستغلاله لصالحه[18] فالإهتمام الذي أبداه نابليون الثالث بالزوايا ليس لغرض تطوير التعليم الإسلامي، وإنما خلق طبقة من (المخبرين والجواسيس) تعتمد عليهم فرنسا في فرض رقابتها السياسية والفكرية، والحيلولة دون قيام ثورة أو تمرد يمكن أن ينطلق من هذه الزوايا)[19] لذلك كانت فرنسا لا تسمح بفتح مدرسة قرآنية إلا بعد الحصول على رخصة من عامل الغمالة، أو قائد الفيلق العسكري، ويشترط أن يقتصر التدريس على حفظ القرآن مع عدم التعرض لتفسير آياته. وكان محظورا دراسة التاريخ العربي أو جغرافية الجزائر أو البلاد العربية والأدب العربي والرياضيات[20].

2 - اضطهاد رجال الدين :

لم يكتف المستعمر بتحطيم المؤسسات الدينية فحسب وإنما عمل أيضا على اضطهاد رجال الدين والعلم في الوقت الذي عمل على تدجين البعض الآخر ممن سهل عليه إغراؤهم أو كسبهم بالترغيب والترهيب ليكوّن منهم أعوانا لمساعدته على تحوير عقول الأهالي أو تحريف عقيدتهم عن طريقها الصحيح بإدخال بعض الخرافات عنها.

3 - التنصير :

لعل الإستعمار الفرنسي فكر في أنّ محو الدين الإسلامي من عقول الأهالي لايضمن كسبهم إليه، بل وقد يرجعون إليه في يوم من الأيام على اعتبار أنّ

العقيدة الدينية هي أحد المقومات الأساسية للشخصية تصونها من الضياع النفسي. لذلك عمل الإستعمار على استبدال العقيدة الإسلامية بالعقيدة المسيحية عند الأهالي لضمان سيطرتهم وبقائهم في الجزائر. ولما عين لافيجري Lavigerie اسقفا على رأس كنيسة الجزائر لم يخف نواياه ضد الإسلام والمسلمين. فأول تقرير أرسله في الموضوع قال فيه : (أنّ إدخال الأهالي للديانة المسيحية واجب مقدس... فأول مايجب عمله معهم هو الحيلولة بينهم والقرآن، وينبغي علينا أن نهتم بالصبيان فندخل في عقولهم تعاليم جديدة ألا وهي تعاليم الإنجيل، بعد ذلك يمكن الإختلاط بهم، وإلا فلنبعدهم إلى الصحراء بعيدين عن الشعب المتمدن[21]. ولقد استغل لافيجري المجاعة التي أصابت الجزائريين والتي أدت إلى وفاة مايزيد على ثلاث مئة ألف جزائري وجمع حوالي 1753 طفلا تتراوح أعمارهم بين 8 و15 سنة وأسس مركزا لتنصيرهم. وقد كان يمنع الإتصال بين هؤلاء الأطفال وبين ذويهم حتى يجنبهم أي تأثير عليهم وحتى تكون عملية تحوير عقولهم تامة لايشوبها شائب.

ولقد عاش الكثير من هؤلاء الأطفال فيما بعد في ظروف تعسة إذ لم يستطيعوا الإندماج مع الفرنسيين لأنهم لم يعترفوا بهم كمسيحيين ولأنهم كانوا يحملون أسماء عربية وألوانهم كانت تحمل الطبع الأهلي.

ومن جهة أخرى لم يستطيعوا العودة إلى أهاليهم حيث قاطعهم السكان المسلمون وصاروا يسمونهم بالمتجنسين. وهكذا عاشوا مذبذبين يحملون أسماء مختلفة مثل روبير بن عبد القادر وجوزيف بن عبد الله وغير ذلك[22] لقد عاش هؤلاء بدون هوية لاهم مسلمون جزائريون ولاهم مسيحيون فرنسيون، لقد تجسدت فيهم أهداف حملات التنصير المسيحية التي كانت توصي المبشرين بتهديم العقيدة الدينية للمسلم ولكن لا ليدخلوه في المسيحية وإنما ليخرجوه من دينه ويتركونه من دون دين أو عقيدة[23] وبمعنى آخر دون هوية ذاتية أو إجتماعية يشعر من خلالها بوجوده وانتمائه ويحتمي بها ضد الإستلاب والضياع النفسي. ومانجدر الإشارة إليه هو أنّ عملية التنصير كان الغرض منها تكوين أعوان من الأهالي لخدمة فرنسا وضمان بقائها، وليس لتحضير الأهالي كما كانت تدعي ذلك فرنسا.

Crée avec nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

ثالثا ـ القضاء على اللغة العربية :

كانت اللغة العربية من بين أهم انشغالات الإستعمار الفرنسي إلى جانب الدين الإسلامي، فاللغة تعتبر أحد المقومات الأساسية لشخصية الأمة. فإلى جانب أنها وسيلة اتصال بين أبناء الأمة الواحدة المتميزين عن غيرهم فهي تحمل في طياتها عناصر التلاحم والتماسك. فالقضاء عليها كفيل بالقضاء على هذا التلاحم والتماسك، ومن ثمة تفكيك شخصية الأمة، لذلك عمل الإستعمار الفرنسي على تدمير المدارس التي تعلم هذه اللغة واضطهاد معلميها، وإحلال الفرنسية محلها في التعليم والمعاملات الرسمية والصحافة، وقد انتهجت فرنسا سياستين متناقضتين سياسة التجهيل وسياسة تكوين النخبة، إلا أنهما ترميان إلى تحقيق هدف واحد هو تدعيم الموقف الفرنسي.

1 ـ سياسة التجهيل :

استكمالا لعمليات الإبادة المادية والمعنوية لمقومات الشخصية الجزائرية وضمانا لأحكام السيطرة على هذا الشعب لجأت فرنسا إلى إتباع سياسة التجهيل لأفراد الشعب على اعتبار أنّ الشعب الجاهل هو شعب يسهل استعباده وأنّه لايعرف حقوقه وأنّ الذي لايعرف حقوقه لايطالب بها.

ولقد اعترف بعض المؤرخين الفرنسيين أنفسهم بما ألحقه الإستعمار الفرنسي من تدمير بالمراكز الثقافية والعلمية في الجزائر. ويشير المؤرخ الفرنسي بولار على سبيل المثال في هذا في قوله (لقد شاع دخول الفرنسيين في الأوساط العلمية والأدبية اضطرابا شديدا، فهجر معظم الأساتذة الكبار مراكزهم[24]...

ويتفق معظم الباحثين والمؤرخين أنّ التعليم بالجزائر قبل الإحتلال الفرنسي كان مزدهرا، ويشمل كل فئات الشعب، وكلّ المستويات التعليمية، وأنّ نسبة الأمية ضئيلة جدا. فعلى سبيل المثال لاحظ الجنرال فالازي Valaze في جلسة يناير 1834 أنّ (جميع العرب تقريبا يعرفون القراءة والكتابة، وتوجد في كلّ قرية مدرستان)[25]. ويشير بولار أنّ عدد الطلاب قبل سنة 1830 كان يقدر بمائة

وخمسين ألف طالب أو يزيد. ولكن لم ينج من سياسة التدمير سوى عدد قليل من المدارس الصغيرة القليلة الأهمية، وحرمت أجيال عديدة من التعليم[26]. ولقد نجم عن هذه السياسة أن أصبح التعليم بين سنتي 1830 ـ 1944 بالنسبة للجزائريين معدوما أو شبه معدوم، بينما كان عاما بالنسبة للفرنسيين. فالمدارس لاتقبل إلا نسبة ضئيلة جدا من الجزائريين، وفي أغلب الأحيان بصفة امتياز. وقد نصت وثيقة مؤتمر المستعمرين في الجزائر سنة 1908 على مايلي : (اعتقادا منا بأنّ تعليم الوطنيين في الجزائر أمر ينطوي على محاذير حقيقية سواء في المضمار الإقتصادي أو بالنسبة للسكان الأوربيين ـ الفرنسيين، فإن المؤتمر قد أعرب عن رغبته في إلغاء التعليم الإبتدائي لهؤلاء الوطنيين الغاء نهائيا[27].

2 ـ ماوراء سياسة التعليم الفرنسي :

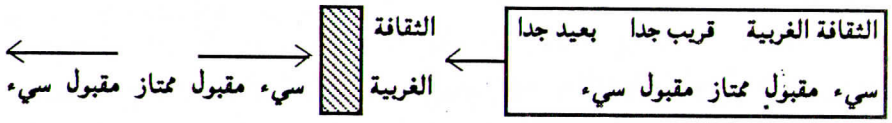
واستجابة لبعض الأصوات المنادية بضرورة تعليم الأهالي لتجنب المخاطر التي أصبحت تشكّلها جمعيات محو الأمية وجمعية العلماء بفتح المدارس الخاصة في المدن والقرى، لجأت فرنسا إلى تدارك الأمر ببناء المدارس الفرنسية ونشر التعليم الإبتدائي بين الجزائريين، غير أنّ هذه السياسة في الواقع كانت لها صفة مدروسة وموجهة أكثر مما كانت تتصف بصفة المصلحة العامة.

وقد قامت كولونا بدراسة معتبرة في هذا الشأن حول العلاقة بين السلطة والمدرسة والمجتمع أثناء الحكم الإستعماري وبينت كيف كانت تعمل السلطة الإستعملرية لكي تحصل من المدرسة التي تختارها وتكونها من مدارس ترشيح المعلمين، على الأعوان الأكثر ملاءمة، لكي يتحولوا إلى معلمين ودعاة للثقافة الفرنسية[28].

وقد أخضعت الباحثة نحو مائة من الأحكام التقييمية للتحليل وتوصلت منها إلى تمييز ما تدعوه (التعريف الإستعماري للإمتياز) وهو تعريف يرى أنّ (مايحدد التلاميذ الممتازين لايقتصر على كمية الخصال أو النقائص وإنما يشتمل كذلك على نمط من العلاقات مع الثقافة الفرنسية.

Crée avec nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

وتلاحظ كولونا على الخصوص أنّ الحكم الإستعماري يدعو ممتازين أولئك الذين ليسوا بعيدين عن الثقافة الفرنسية. فمعيار الإمتياز يحدد بعبارات "المسافة" من هذه الثقافة، أو مدى بعده أو قربه منها، وبعبارة أخرى فالممتازين هم أولئك الذين يوجدون بعيدا بما فيه الكفاية عن دائرة الإمتياز حتى لايشكلوا خطرا على أصحابها، وقريبين بما فيه الكفاية. كذلك حتى يمكن للسلطة الفرنسية أن تستعملهم استعمالا مفيدا، كما يوضح ذلك الشكل التالي :



إنّ مبدأ المسافة الوسطى هذا قد اتضح جيدا في الأحكام التي لخصتها كولونا. إنّ ماينتظر من هؤلاء الوسطاء الثقافيين هو انقيادهم وإرادتهم ومرونتهم، أما الباقي ذوي الملمح التقني والحذق البيداغوجي فيأتيان في المرتبة الثانية.

وخلاصة القول أنّ المعلم في حكم الإستعمار الفرنسي لكي يكون جيدا لايهم أن يكون ذكيا أو مجتهدا بقدر مايهم أن يكون لينا وأن يكون فرنسيا جيدا.

ومما يؤكد هذا ماجاء في كتاب موريس بولار في كتابه "تعليم الأهالي في الجزائر"[29] إذ يقول (أنّ المعلمين الأهالي بعيدين جدا عن أن يكونوا قد قدموا ماكان ينتظر منهم ـ ونعترف بصدق ـ بأنهم على العموم قد برهنوا عن استعدادات أفضل منذ أن نظمت دروس الترشيح في بوزريعة تنظيما جيدا، وكان بعضهم يظهر نفس الحماس والنشاط الذي يظهرهما المعلم الفرنسي، ولكن هؤلاء سوى استثناءات ـ وما نخشاه هو أنّ هؤلاء المعلمين الأهالي الذين يوجدون في الغالب معزولين عن وسط أهل ديانتهم سوف يصبحون خطرا علينا أكثر منهم أدوات تحضير وتهدئة. لذلك لجأت أكاديمية فرنسا إلى وضع المعلمين الجزائريين تحت سلطة معلمين فرنسيين يراقبونهم. ولايستطيع المعلم الجزائري أن يتولى إدارة مدرسة إلا إذا برهن عن حسن سلوكه وولائه)[30].

إستراتيجية فرنسا أثناء الثورة :

وعندما اندلعت الثورة بقيادة جبهة التحرير الوطني لمقاومة الإستعمار الفرنسي قامت فرنسا بتطوير استراتيجيتها على الأصعدة العسكرية والإقتصادية والإجتماعية والنفسية للقضاء على الثورة وهي في المهد قبل انتشارها واحتضانها من طرف الشعب، مما قد يشكل خطرا حقيقيا يهدد وجودها وطموحاتها في الجزائر.

1 ـ الإجراءات العسكرية :

قامت فرنسا ببناء قوة عسكرية كبيرة لضرب الثورة والقضاء عليها. وقد وصل على سبيل المثال عدد الجنود الفرنسيين في حدود 1958 حوالي نصف مليون جندي وحوالي 370 طائرة[31] ناهيك عن عدد الدبابات والمدافع وغير ذلك. وقد تزامن مع هذا عدة إجراءات أخرى منها:

أ ـ إعلان حالة الطوارء في البلاد.

ب ـ تزايد الإجراءات القمعية.

جـ ـ توسيع المناطق المحرمة.

د ـ تجميع الأهالي في المحتشدات.

هـ ـ التعذيب.

2 ـ الإجراءات السياسية :

استهدفت هذه الإجراءات إرضاء الجزائريين واستمالتهم إليها للحيلولة دون التحامها مع ماكانت تسميهم بالمتمردين ولصرف نظرهم عن فكرة تقرير المصير، وذلك بإغراء النخبة من الأهالي بزيادة نسبة تمثيل الجزائريين في المؤسسات الإستعمارية بالجزائر من خلال الإنتخابات الإقليمية المعلن إجراؤها في 29 ماي 1960.

3 ـ الإجراءات الإقتصادية والإجتماعية :

اتخذت فرنسا جملة من الاصلاحات الإقتصادية والإجتماعية لتحسين ظروف معيشة الجزائريين كتوفير فرص العمل، وتغيير العلاقات الملكية، لعلّ ذلك يساعد

على تخفيف درجة المعاناة والتذمر التي كان يشعر بها الشعب الجزائري تجاه المستعمر، ومن ثمة إخماد الوعي الثوري الذي كان ينتشر بينهم.

4 ـ حرب نفسية ضد ثورة نفسية :

تمت الإشارة سابقا إلى أنّ الحرب النفسية ضد الجزائر قد سبقت الإحتلال ومهدت له من خلال قصة المروحة، وظل الإستعمار الفرنسي يستعملها جنبا إلى جنب مع سياسة القمع والتدمير والحرق والتقتيل والإبعاد والقضاء على قيم الشعب وتراثه الثقافي والحضاري كالدين الإسلامي واللغة العربية، وكذا إنتهاج سياسة التنصير والتجهيل. وماهذه إلا أساليب من أساليب الحرب النفسية التي استهدفت تحوير العقول للسيطرة عليها وإخماد المقاومة المتواصلة من طرف الجزائريين. إلا أنّ إندلاع ثورة نوفمبر فاجأ الإستعمار الذي شعر بتغيير موازين القوة حيث وجد نفسه هذه المرة أمام قيادة محنكة سياسيا وعسكريا وجيش منظم تنظيما عصريا وأمام شعب ثار ثورة نفسية عارمة أفشل كلّ قوى التدمير التي جاءت بها فرنسا من حلفائها. وقد استدعى هذا الأمر فرنسا إلى مراجعة استراتيجيتها، ورأت أنّه إذا كانت المدافع والطائرات وكلّ وسائل البطش لم تستطع التأثير على نفسية هذا الشعب، فإنهّ لابد من حرب نفسية لإخماد هذه الثورة النفسية. وقد صرح جنرالات فرنسا كالجنرال سالان والجنرال ماسو بأنّ الهدف البعيد من هذه المعركة هو إبعاد المدنيين عن الثوار وعزل هؤلاء روحيا وعقليا عن الشعب الذي يمدهم بالتشجيع والمؤونة والمال. ثم هناك أهداف أخرى تلتقي كلها في هذا الهدف العام وهو خلق البغضاء في نفوس الجزائريين إزاء الثورة، وإظهار مزايا الجيش الفرنسي على الجزائر ومايعده من مشاريع طيبة لمستقبل الجزائر الجديدة)[32].

ولتحقيق هذا الهدف عملت فرنسا على إنشاء مصلحة خاصة للحرب النفسية والإعلامية أو ماكان يسمى بالمكتب الخامس وكان يسيّر هذه المصلحة ضباط كانوا قد استفادوا من أساليب هذه الحرب أثناء الحرب العالمية الثانية، إلى جانب ضباط آخرين يحسنون اللغة واللهجات المحلية. وقد لجأت هذه المصالح أيضا إلى إغراء بعض الأعوان الجزائريين لإستعمالهم وسيلة للتغلغل وسط الأهالي أو في صفوف

Créé avec nitro PDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

جبهة وجيش التحرير لنكشف عن تحركاتهم وخططهم أو لزرع الفتن بينهم حتى يسهل القضاء عليهم.

ولقد بلغ عدد مستخدمي هذه المصالح النفسية الفرنسية سنة 1958 ما يقدر بـ 884 ضابطا مساعد و 1740 جنديا، وكانوا موزعين على 660 دائرة[33].

ولتدعيم هذه المصالح بمختصين في أساليب الحرب النفسية والدعائية وفي مقاومة حرب العصابات التي انتهجتها الثورة قررت السلطة الفرنسية إنشاء (مدرسة نفسية) قرب مدينة سكيكدة بديرها الكولونيل بيجار. وقد تخرج منها ستون (60) خبيرا في سنة 1958 وقد صرح بيجار بهذه المناسبة أنّ جميع تلاميذه قد جرى تجديدهم من الوجهتين المعنوية والمادية وأنهم (منتفخون) إلى أقصى حدود (الإنتفاخ) بحيث أصبح في مقدورهم (تكسير الفلاق) (34). ولقد جرّب الإستعمار الفرنسي كلّ أساليب الحرب النفسية للقضاء على الثورة منها :

1 ـ اختلاق الدعاية لتضليل الرأي العام.

2 ـ تشويه صورة المجاهدين.

3 ـ بث الإشاعات.

4 ـ الحرب الإعلامية : تزوير الصحافة والإذاعة.

5 ـ إنتهاك الحرمات.

6 ـ التعذيب والقمع.

7 ـ إنتهاج سياسة العزل.

8 ـ عزل القيادة عن الشعب والجيش.

9 ـ عزل الجزائر عن العالم الخارجي.

10 ـ عزل القيادة وتفكيك تماسك الشعب والجيش.

11 ـ إستصدار فتوى دينية لإخماد الثورة.

12 ـ التمييز العنصري.

Créé avec nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

13 ـ بث تصريحات ونداءات مضادة للثورة.

14 ـ غرس الشعور بالذنب.

15 ـ غرس عقدة التكفير عن الذنب.

16 ـ غرس عقدة النقص.

17 ـ الإستلاب.

18 ـ تفكيك الهوية النفسية والإجتماعية.

وسنذكر هنا بعض الأمثلة عن كلّ أسلوب من هذه الأساليب.

1 ـ اختلاق الدعاية :

لجأت الدعاية الفرنسية من خلال الصحافة المكتوبة والمسموعة والمرئية إلى تضليل الرأي العام الجزائري والفرنسي والدولي، وذلك بإيهامه تارة بأنّ مايجري في الجزائر هو مجرد تمرد لبعض المجرمين وأنها ستقضي عليهم حالا، من ذلك مثلا ماقاله موندیس فرانس أثناء الجمعية الفرنسية في 12 نوفمبر 1954 للنظر في القضية الجزائرية (إنّ روح الإجرام المتأصلة في حفنة من الرجال يجب أن تقابل بقمع حاسم لايعرف الهوادة).[35] ويسعى تارة أخرى إلى تبرير هذه الثورة بمشاكل اقتصادية واجتماعية[36]. أما وزير الداخلية آنذاك فرانسوا ميتران فإنهّ وإن كان يجد مبررا لقيام حركات تحررية لأسباب إقتصادية وإجتماعية وسياسية وإدارية فإنهّ يستثني الجزائر من ذلك لأنّه يعتبر أن الأوضاع بها مختلفة، فهو يعتبر قيام سكان (مقاطعات فرنسية) بثورة خروجا منهم عن الدولة. فالثوار الجزائريون هم إذن أعداء للوطن، ولغة التفاهم معهم في هذه الحال هي الحرب[37].

2 ـ تشويه صورة المجاهدين :

كانت الصحافة الفرنسية حتى الجدية منها تنشر منذ أيام الحرب الأولى عن جبهة التحرير وجيشها صورا تظهر فيها هؤلاء الرجال والنساء كما لو كانوا ذئابا ووحوشا وقتلة محترفين. فمناضلوا جيش التحرير يسمون بالإضافة إلى الفلاق

بالخناقين وقاطعي الرقاب والإرهابيين وغير ذلك من الأوصاف التي تتفنن بها لغرض تشويه صورة الثوار لدى الرأي العام المحلي والعالمي، ورفع درجة الحقد والكراهية لدى الفرنسيين وبصورة خاصة الجيش الفرنسي لدفعه إلى مزيد من القمع والتنكيل بكلّ من يشتبه في إنتمائه إلى جيش وجبهة التحرير[38].

وقد ذكر أيفية بريستير كيف تفنن الإستعمار الفرنسي في سرد القصص المرعبة لغرض أحداث نوع من الهلع لدى الفرنسيين والرأي العام العالمي لجعلهم يعتقدون أن ترك الفلاقة يسيطرون على الساحة في الجزائر يعني انتصار البربرية على الحضارة فكانت تختلق أكاذيب مثل تشويه الجثث واغتصاب الأوروبيات وغير ذلك.

ويعلق بريستر على هذه الأكاذيب في قوله (يجب التأكيد أنّ التمثيل بجثث القتلى ليس من عادات جيش التحرير وليس لديهم متسع من الوقت لممارسته، ولكن وعبر شهادة بعض جنود السلطات، نعرف أنّ بعض ضباط الجيش الفرنسي يشوهون عمدا جثث قتلاهم كي يهيئوا جنودهم نفسيا للمشاركة في الحملات الثأرية ضد القرى الجزائرية .... أما الأحداث التي اغتصبت وذبحت فيها النساء الأوروبيات فقد انتجتها (فبارك) أكاذيب الدعاية الفرنسية)[39].

3 ـ بث الإشاعات :

عملت فرنسا على بث مجموعة من الإشاعات لخلق نوع من القلق والإرتباك والحيرة لدى أفراد جبهة وجيش التحرير من جهة وأفراد الشعب من جهة أخرى. وكما عملت على بث إشاعات أخرى تظهر فيها أفراد الجيش الفرنسي كأبطال يحاربون وينتصرون على المتمردين أو أنهم على وشك القضاء عليهم.

وكانت جملة من الإشاعات تظهر انقساما على وشك الظهور في صفوف الثورة أو حول محاولة العسكريين الإستيلاء على القيادة، أو حول وجود حرب طاحنة بين المتطرفين والمعتدلين أو حول تنظيم القبائل لإنقلاب قريب أو حول إندلاع معركة عنيفة بين الكولونيلات أنفسهم[40].

Créé avec nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

كما ظلّ الإستعمار الفرنسي يظهر قيادة جبهة وجيش التحرير الوطني منذ اليوم الأول الذي اندلعت فيه الثورة بالشيوعية وبأنّهم عملاء روسيا. وقد نجحوا بذلك في جلب الحلف الأطلسي إلى محاربتنا[41].

وعندما شاع في الجزائر سفر وفد الحكومة الجزائرية إلى الصين إعتز الجزائريون وشعروا أنّ الجزائر أصبحت لها مكانة ممتازة في الميدان الدولي، وأدركوا أنّ الجزائر لم تعد وحدها في مواجهة العدو. ومن الطبيعي أن يعزز هذا الشعور التيار التحرري ويزيده قوة. وأدرك الفرنسيون هذه الحقيقة فأرادوا أن يعملوا بوسائل دعايتهم النفسية على محو ونزع ثقة الشعب في حكومته. فسجلوا أسطوانة وزعوا منها نسخا عديدة في جميع الجهات لتذاع على الناس في الأسواق، وتشتمل هذه الأسطوانة على مايلي : (أيها المسلمون إنّ حكومتكم هكذا خائنة، إنها تفاهمت مع الشيوعيين في الصين، تأتي بالأسلحة والطائرات من هناك. فيجب أن تتخذوا مع الفرنسيين كتلة واحدة لمقاومة الشيوعية عدوة الإسلام يجب أن نتكتل جميعا لمحاربة حكومتكم الخائنة)[42].

4 ـ الحرب الإعلامية :

تعتبر وسائل الإعلام المكتوبة والمسموعة والمرئية هي أهم وسائل الحرب النفسية وذلك لما لها من دور في تغيير الإتجاهات وتوجيه الرأي العام. وكانت صحافة المستعمر هي السائدة في الساحة الجزائرية ولم يكن لها منافس يكشف نواياها الخبيثة وأسلوبها في تخدير الجزائريين وتنويمهم بطريقة تجعلهم يرضون بوضعهم المزري ولايبدون أي تذمر أو مقاومة. وكانت تصور لهم وضعهم ذلك بأنه شيء طبيعي ومقدر من الله. ولم يكن هذا الأسلوب حديثا أو مقصورا على افة فحسب وإنما كان موجودا لدى القيادة الفرنسية العليا ومنذ الإحتلال. ففي غداة زيارته للجزائر طالب نابليون الثالث الجزائريين بضرورة قبول السيطرة الفرنسية والخضوع للأمر الواقع الذي اعتبره من (أقدار الله وحكمته ومشيئته الأزلية)، وحذرهم من مغبة الثورة ضد فرنسا[43].

وموازاة مع هذا كانت السلطة الإستعمارية تفرض قيودا شديدة على الصحافة التي كانت تنشرها بعض الجمعيات كجمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي كانت تحاول تنوير عقول الجزائريين وفتح نافذة على وضعهم وقضيتهم وإعادة الإعتبار لمقومات شخصيتهم، إلا أنها كانت مهددة دوما بالتوقف والمصادرة من طرف السلطة الفرنسية[44].

ولم يكتف المعمرون بهذا فقط بل كانوا يصادرون حتى الصحف الفرنسية والأوربية التي كانت تأتي من وراء البحر وكانوا يمنعونها على الجزائريين لأنها كانت تثير من حين لآخر قضية الجزائر بطريقة لاتعجبهم[45] ويخافون أن توقظ لديهم روح المقاومة. كما لجأت إلى تزوير الصحافة والإذاعة الجزائرية.

أ ـ تزوير صحيفة المجاهد:

وعند صدور صحافة الثورة المتمثلة في جريدة المقاومة ومن بعدها جريدة المجاهد التي كانت تتميز بأسلوب المواجهة والتحدي للسلطات الإستعمارية، والتي كانت تعمل على إستثارة الشعب الجزائري على الإستعمار الفرنسي وتعريف القضية الجزائرية للرأي العام العالمي والتي كانت تعمل أيضا على التأثير على الرأي العام الفرنسي وعلى الجيش بصورة خاصة. شعرت فرنسا بخطورة هذه الصحافة فعملت بكلّ الوسائل على ملاحقتها أو مصادرتها وتوقيفها. ولما كانت هذه الصحافة تطبع خارج الوطن وتوزع بطريقة سرية عمد الإستعمار إلى تزوير بعض الأعداد من جريدة المجاهد الصادرة باللغة الفرنسية، وكان التزوير يتم إما بإعادة طبع الجريدة كليا أو باستبدال بعض المقالات بمقالات أخرى. فعلى سبيل المثال كان العدد الصحيح الصادر بتاريخ 25 مارس 1960 يحمل الموضوعات التالية :

ـ (خرافة إنتخابات المناطق).
ـ (فرنسا تتابع الدور الجهنمي للإعدامات).
ـ (لماذا صمت الجزائر وقد دعم هذا الموضوع بخريطة الجزائر).
ـ (أرقام غير صحيحة).

Créé avec nitro PDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

وقامت مصالح فرنسا الإعلامية بإلغاء هذه الموضوعات واستبدالها بالموضوع التالي :

ـ (الدم يقابل الدم) الذي يجعل الجبهة تتبنى بواسطته بعض عمليات التقتيل التي يحاول المعمرون إلصاقها بها أدمجت فيه صورة للجزائر.

ـ تبين مجموعة من رجال الكوماندو المدنيين وصورتين لموتى مشوهين أعيرت من النشرة المعنونة (وحشية الثورة) التي صدرت بايعاز من روبير لاكوست ردا على البوم أو حالة الثورة الجزائرية الذي نشرته جبهة التحرير الوطني والذي كان لها عملا فذا في مجال الدعاية المنظمة[46].

ب ـ التزوير الإذاعي :

تلقت السلطات الإستعمارية والمعمرين صدمة أخرى أشد وأقسى من الأولى حين اكتشفوا أنّ جبهة التحرير الوطني لم تكتف فقط بالصحافة المكتوبة بل أصبحت لها إذاعة تسمع صوت الجزائر لكل شعوب العالم. وقبل ذلك كان صوت الجزائر يبث من عدة إذاعات بلدان العالم مثل (صوت العرب) من القاهرة، إذاعة لوزان، تونس، موسكو، لكسمبورج، أوربا رقم (01) ومونتوكارلو.

وقامت المصالح الإعلامية الفرنسية بعدة محاولات لإبطال هذا الصوت تارة بالتشويش عليها وتعكير صوتها وتارة بمنع أجهزة الراديو على الجزائريين، وتارة أخرى بملاحقة هذه الإذاعة المتنقلة ومحاولة تفجيرها والقضاء عليها نهائيا، وتارة رابعة بالتزوير والتحايل عليها، ومن ذلك إنشاء دار للإذاعة تقوم بتزوير البلاغات والتعليقات عن جيش التحرير الوطني وتزييف (إذاعة كاملة) حيث تذيع باسم (إذاعة صوت العرب من القاهرة)[47] وكانت أع ال هذه الدار التي كانت تسمى بدار سوستيل نسبة إلى الجنرال سوستيل المنظم للمخابرات الفرنسية، والمتجمعة في مركز كليبير تتخلص في النقاط التالية :

1 ـ حصص إذاعية عادية ـ تسجل كلها بالعربية، وتذيعها محطة الإرسال الباريسية رقم 02 في مساء كلّ يوم ابتداء من الساعة العاشرة.

2 ـ حصص إذاعية تحمل (صوت الجزائر) وتقوم بالدعاية للحركة العمالية التي يوجهها البوليس السري الفرنسي ويغذيها بعناصره وامكانياته لتقوم بأعمال التخريب والخيانة ضد الوطنيين الجزائريين المقيمين بفرنسا.

3 ـ حصص التزوير وهي المهمة الأساسية لمركز كليبير. وتنقسم أعمال الإذاعة الموزعة إلى خمسين قسم يذيع باسم (إذاعة صوت العرب من القاهرة) على نفس موجات صوت العرب وفي نفس الوقت وبنفس اللهجة التي يصحبها قليل من التشويش الإذاعي حتى يقتنع المستمع بأنها إذاعة صوت العرب الحقيقية.

أما القسم الثاني من أنواع التزوير الإذاعي فكان تزوير بلاغات عسكرية منسوبة إلى قيادة جيش التحرير وهي ترسل إلى قيادة الجيش الفرنسي في الجزائر.

4 ـ تحرير نشرات باللغة العربية ومنها :

أ ـ المجلة العربية بباريس.

ب ـ جريدة البرق ويشرف عليها الكولونيل تيريس.

جـ ـ (الجزائر) وهي مجلة يشرف عليها الكومندان غويس.

5 ـ تكوين عناصر إضافية لإستخدامها في أحد الفروع السابقة.

وقد تفطنت جبهة التحرير الوطني لهذا التزييف الإعلامي وعملت على فضح المصالح الدعائية الفرنسية لدى الرأي العام العالمي مما أفقدها مكانتها في نظر الصحافة الدولية التي أطلقت على هذه الممارسات إسم (السطو السياسي) (47 / 48).

5 ـ إنتهاك الحرمات :

تعتبر كرامة المرأة وشرفها من الأشياء المقدسة في الديانات السماوية وفي معظم ثقافات العالم. والمرأة في الإسلام وفي التقاليد الجزائرية لها مكانة حتى أنّ مكانة الرجل وعزته وكذا درجة نبل الأسرة في القبيلة يتوقف على مدى حرمة المرأة

Créé avec nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

وشرفها، وأنّ زوال هذه الحرمة هو من أهم عوامل الذل والهوان التي تصيب الرجل والأسرة، لذلك فالدفاع عنها بشتى الوسائل هو من أقدس المقدسات. ولما كان الإستعمار الفرنسي يعرف هذا فإنّه لجأ إلى إستغلاله في قهر الشعب الجزائري وإذلاله وفي تكسير مقاومته وحمله على التجنيد في صفوف الحركة تارة أخرى. وكان ضباط مكتب الشؤون الأهلية (لصاص) عندما يريدون تجنيد فرقة من الأهالي في صفوف الجيش الفرنسي يلجأون إلى الإعتداء على الحرمات، من ذلك ماوقع لإحدى القرى القريبة من زمورة، حيث طلب الضابط الفرنسي المسؤول عن ذلك المركز من رجال القرية التطوع لتكوين فرقة من جنود الحركة لرحباط هجومات جيش التحرير. ولما رفض سكان القرية هذا الطلب رفضا قاطعا، عمد إلى محاصرة القرية بفرقتين فرنسيتين وجمعوا الرجال في ساحة القرية وأيديهم مقيدة وراء ظهورهم باسلاك حديدية، وعلى بعد نحو ثلاثين مترا جمعوا كلّ نساء القرية التي تتراوح أعمارهن من 12 إلى 50 سنة. وبإشارة من الضابط الفرنسي راح الجنود الفرنسيون يهتكون أعراضهن وسط الدموع والصراخ والعويل وعلى مشهد من أزواجهن وآبائهن وأبنائهن المقيدين. وهددهم الضابط الفرنسي بتكرار هذه العملية حتى يقبلوا بتعيين الفرقة. واستمرت هذه العملية فعلا ثلاثة أيام إنهارت على إثرها مقاومة الرجال وصبرهم. ولم يجدوا بدا من الرضوخ لطلب الضابط الفرنسي وتكوين الفرقة[49] لتخليص أنفسهم وأهليهم من المشاهد الفضيعة التي دنست شرفهم وكرامتهم وحطمت نفوسهم وأفقدتهم عقولهم.

6 ـ التعذيب والقمع :

لقد تفنن الإستعمار الفرنسي في إستعمال شتى أنواع التعذيب والإرهاب والتنكيل والتجويع مع الجزائريين بصورة عامة ومع المعتقلين بصورة خاصة لإخضاعهم وتحقيق إنهيارهم ومطاوعتهم للحصول على إعترافاتهم أو إعطاء معلومات عن جنود جيش التحرير. ويذكر مصطفى الأشرف أنّ الكثير من الضباط الذين جاءت بهم فرنسا لإخضاع الأهالي والذين وجدوا أنفسهم بعيدين عن أوربا حيث كانت تراعي بعض القوانين الإنسانية في ميدان القتال، سرعان ماتحرروا من

كلّ وازع أخلاقي، فانساقوا مع ميولهم العسكرية إنسياقا تاما وانقادوا للعنف وصاروا يطبقونه لينفسوا عما يعتمل في نفوسهم من أهواء[50]. وقد أيقظت الحرب غرائزهم الحيوانية المتوحشة المليئة بكل مظاهر العنف والقسوة، وأصبح التلذذ بتعذيب الأهالي الذي هو من خصائص الشخصية الساديّة يعد من الأشياء المشاعة لدى الجلادين الفرنسيين. ويذكر فرانتز فانون أنّ التعذيب في الجزائر ليس وسيلة للحصول على المعلومات. إنّ التعذيب يجري في الجزائر رغبة في التعذيب[51].

وكان البوليس الفرنسي يتفنن في إستعمال أقسى أساليب التعذيب لإشباع شهوته السادية. وقد كشف عن هذه الأساليب الضباط الفرنسيون أنفسهم الذين عاشوا أجواء التعذيب التي عرفها الشعب الجزائري. وسنعرض هنا شهادة أحد الضباط كما جاءت في الرسائل التي أرسلها إلى صديقه بفرنسا يوم 6 يونيو 1956 والتي وردت في كتاب بيير ماسون (ضد التعذيب)[52].

(صديقي جون، إني لم أشعر بالنفور والكراهية والإشمئزاز في حياتي كما شعرت بها هذه المرة أمام أعمالنا الوحشية، إنّ الألمان يعتبرون أطفالا صغارا بالقياس إلينا. فقد شاهدت المكتب الثاني لجنود المظلات كيف يستجوب المعتقلين. أنهم يعذبونهم طوال النهار إلا أن يدلوا بمعلوماتهم. ويستعملون معهم التعذيب بالماء إلى أن يخرج الماء من جميع نواحي الجسم. ثم يربط الجنود أيدي المساجين وراء ظهورهم ثم يعلقونهم في الفضاء من أيديهم حتى تتمدد المفاصل ثم يوجعونهم ضربا. وزيادة على هذا يستعمل الكهرباء أيضا في تعذيب المساجين بوضع سلك كهربائي في العضو الجنسي والسلك الآخر في الرأس ثم يمرر التيار الكهربائي في دفعات متتالية، وتنتهي العملية أخيرا بإثبات سكين في الظهر، إنّ جميع رفقائي في الفرقة ساخطون كارهون ومشمئزون من أساليب الإستجواب هذه، ومما يلاحظ أنّ الحكام والمثقفين الفرنسيين عندما ينددون بهذه الأساليب الوحشية إنما خوفا على جنودهم من أن ينزلقوا إلى الفاشيستية أو أن تؤثر هذه التعذيبات على إتجاههم الفكري. أما أعمال القمع الجماعي والإغتصاب والتعذيب للجزائريين فلا يهمهم.[43].

Créé avec nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

7 ـ إنتهاج سياسة العزل :

يستمد المقاتلون والفدائيون قوتهم المعنوية والمادية من شعبهم أولا ومن المساندين الأجانب ثانيا ولما كان الإستعمار يعرف دور العزل في تحطيم المعنويات وفي الإسراع من انهيارها استعمل كلّ وسائله الدعائية والمادية لعزل جيش وجبهة التحرير الوطني عن الشعب وكذا عزل الجزائر عن جيرانها وعن العالم الخارجي.

8 ـ عزل جيش وجبهة التحرير الوطني عن الشعب :

عندما عجز الجيش الفرنسي ويئس من ملاحقة أفراد جيش التحرير الذين كانوا يلجأون إلى البوادي والجبال الوعرة، وعندما عرف أنّ سكان هذه البوادي والجبال هم مصدر قوة هذا الجيش إذ يزودونهم بكل مايحتاجون إليه مؤن وتدعيم مادي ومعنوي لجأ في أواخر 1957 إلى ترحيل جماعي لسكان الجبال وأجبر سكان قبائل بني يعلى وبني ورتلان وبني شبانة وبني حافظ وبني عشاش وبني إبراهيم على مغادرة أراضيهم وديارهم وأملاكهم وحيواناتهم وجمعوهم في محتشدات لا تتوفر على أدنى وسائل الحياة حيث تعرضوا لمجاعة حقيقية وأمراض مزمنة[54] وتوالت هذه المحتشدات لتشمل عدة مناطق في الأوراس وفي مناطق أخرى في الوطن[55] واستغلّ الجيش الفرنسي هذه المحتشدات لبث دعايته وإشاعاته المصحوبة بسياسة الترغيب والترهيب لغرس الكراهية والعداوة في نفوس الأهالي نحو جيش التحرير وإظهار هذا الأخير في مظهر مشين ويصورونه لهم بأنه هو سبب المآسي التي يعيشون فيها، ومن ثمّ يحثونهم على محاربته وعدم التعاون معه.

9 ـ عزل الجزائر عن العالم الخارجي :

لم تكتف فرنسا بمحاولة عزل الشعب عن جيشه فحسب بل ذهبت إلى أبعد من ذلك وطبقت نفس الأساليب الدعائية والمادية لعزل الجزائر وفصلها عن العالم الخارجي حتى لا يعلم الرأي العام العالمي مايجري من مجازر وظلم وقهر في هذا البلد وحتى لايجد الثوار أي دعم من الخارج سواء كان ماديا أم معنويا. وقد استعملت فرنسا عدة أساليب منها :

1 ـ تسييج الحدود الشرقية والغربية بالأسلاك الشائكة الملغمة والمكهربة لمنع أي تسرب لأفراد جيش التحرير عبر حدود المغرب وتونس.

2 ـ محاولة إرغام بعض الدول العربية على التخلي على دعمها للقضية الجزائرية خاصة تونس ومصر من ذلك مثلا ضرب ساقية سيدي يوسف لتهديد تونس، والمشاركة إلى جانب إسرائيل وأمريكا في العدوان الثلاثي ضد جمهورية مصر العربية.

3 ـ إستعمال نفوذها في الأمم المتحدة للحيلولة دون إدراج القضية الجزائرية ضمن جدول أعمالها.

10 ـ عزل القيادة وتفكيك تماسك الشعب والجيش :

تلعب القيادة دورا أساسيا في تماسك أفراد الجماعة وفي توجيه نشاطاتهم نحو تحقيق الأهداف المسطرة. ولم يغب هذا عن الجيش الفرنسي فركز جهوده على مطاردة قيادات جيش وجبهة التحرير تارة بالإغتيال وتارة بالسجن وتارة ثالثة بالإختطاف ناهيك عن الإشاعات التي تبثها المصالح الدعائية الفرنسية حول بعض الشخصيات القيادية لتشويه سمعتها عند أفراد الجيش والشعب ونزع ثقته فيها مما يؤدي إلى تفكيك الترابط الموجود بينهما الشيء الذي يؤدي بدوره إلى إنهيار معنويات أفراد الجيش والشعب وتخليهم عن أداء واجبهم في غياب قيادة موجهة.. ولعلّ من أبرز الأمثلة التي تبين فضاعة أساليب الإستعمار الفرنسي ضد قيادات جبهة التحرير الوطني تلك القرصنة الجوية التي تمّ بموجبها إختطاف طائرة زعماء الثورة الجزائرية في الثاني والعشرين من أكتوبر 1956 والتي كانت ضد القوانين الدولية والمبادئ الديمقراطية التي كانت تنادي بها فرنسا. ولقد لقي هذا الإختطاف إستنكارا شديدا من طرف الرأي العام العربي والدولي وحتى بعض الشخصيات السياسية الفرنسية آنذاك كوزير الدولة الفرنسي (ألان سافاري) الذي قدم استقالته احتجاجا على هذا الأسلوب البشع. كانت الطائرة المغربية المتوجهة من مراكش إلى تونس تنقل على متنها خمسة من زعماء الثورة هم أحمد بن بلة ومحمد خيضر

Créé avec nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

وأحمد آيت حسين ومصطفى الأشرف ومحمد بوضياف. وبينما كانت الطائرة تتجه نحو هدفها تصدت لها طائرة حربية فرنسية أرغمتها على الهبوط في مطار العاصمة، واقتيد القادة الخمسة إلى المعتقلات الفرنسية ليتعرضوا للتحقيق والتعذيب[56]. واعتقدت فرنسا أنها بهذا العمل ستقضي على الثورة الجزائرية لكن آمالها سرعان ماخابت واكتشف فيما بعد أنّ الثورة هي ثورة شعبية وأنّ قيادتها لم تكن محصورة في شخص أو في بضع أشخاص فقط يؤدي القضاء عليهم إلى القضاء على الثورة.

وكانت سياسة بث الإشاعات والإفتراء على القادة والزعماء قد إتبعتها منذ السنين الأولى لإحتلالها، وهذا لغرض تشويه سمعة الثائرين عنها وحمل الشعب على التخلي عنهم كالدعاية التي بثتها حول الشيخ المقراني والشيخ الحداد عندما أعلنوا الثورة ضدها. "وقالت إنما ثاروا لأنّ فرنسا عزلتهم من مناصبهم في النظام الإستعماري. والحقيقة طبعا غير ذلك.

كما عمد الإستعمار الفرنسي إلى كتابة رسائل ووثائق باسم القادة لتضليل الأهالي وايهامهم بأنّ قادتهم أعلنوا ولاءهم لفرنسا كالعريضة التي وقعها نابليون الثالث باسم المقراني إلى جانب عشرين من البشغات والآغات والقياد يعبرون فيها عن ولائهم وإخلاصهم لفرنسا. وكانت معظم هذه الوثائق تكتب من طرف فرنسا ثم تعطى للأعيان للإمضاء عليها طواعية أو كرها وأحيانا لا تلجأ إلى الإمضاء تماما[57].

ولم ينج الأمير عبد القادر وهو في منفاه من هذه المناورات، فقد نشرت جريدة "المبشر في فاتح جوان 1871 ثلاث رسائل مؤرخة في 9 و 20 أبريل 1871 زعمت أنّ الأمير يتحدث فيها عن إبنه كما لو كان لايزال في الجنوب الجزائري يحث الأهالي على الثورة ضد الإستعمار الفرنسي، ويعلن فيها الأمير عن سخطه منه وتبرأة ذمته من أعماله. وكانت فرنسا تعلم مكانة الأمير في قلوب الأهالي لذلك اعتقدت أنها بنشرها لهذه الرسائل المزورة كفيلة بإخماد ثورة الأهالي.

11 ـ إستصدار فتوى لإخماد الثورة :

ولما كان الإستعمار الفرنسي يعرف أنّ إعلان الأهالي الجهاد ضدهم كان باسم الإسلام، لجأ إلى علماء الإسلام في القيروان ومكة واستطاع الحصول عن طريق جاسوسه ليون روش على فتوى تدعو الجزائريين باسم الإسلام على وقف الحرب والإستسلام بدعوى أنّ القتال غير متعادل وأنّ مواصلته سوف تترتب عنه عواقب وخيمة[58] وقام الإستعمار بنشر الفتوى في المساجد والأماكن العامة ليطلع عليها الأهالي ويتوقفوا عن مقاومتهم، غير أنّ الجزائريين لم يعملوا بهذه الفتوى لاعتقادهم بعدم صحتها وبأنها من أعمال الدعاية الفرنسية. وعلى عكس توقعات السلطات الفرنسية فإنّ المعارك والمقاومة حسب المؤرخين إزدادت شدة وانتشارا كمعركة سيدي إبراهيم في 1845 وغيرها[59].

12 ـ التمييز العنصري :

لقد عان الشعب الجزائري من كلّ أساليب التمييز العنصري منذ أن وطئت أقدام الإستعمار الفرنسي أرض الجزائر وهذا سواء في ميدان التعليم أو دفع الأجور أو تمليك الأراضي أو في العدالة أو المعاملات. فالجزائري لم يكن يعامل معاملة السيد لعبده فحسب وإنما كانت المعاملة أشد وأقسى، إذ كان الجزائري في نظر المعمرين مجرد بربري متوحش يجوز الفتك فيه أينما ،جد واخضاعه بكل الطرق من ذلك مثلا ماأمر به بيجو بأن يعلّق كلّ جزائري على ثيابه لافتة مشينة كتب عليها (عربي خاضع)[60].

أما العدالة الفرنسية فكانت تعتبر أن كل جزائري هو إنسان مشبوه، وأن كل مشبوه يجب أن يكون مجرما، وأن كل مجرم يجب أن يحاكم، وكلّ من يحاكم يجب أن يعدم[61].

13 ـ بث تصريحات ونداءات مضادة للثورة :

من بين الأعمال الأخرى التي قامت بها المخابرات السيكولوجية الفرنسية، إستعمال بعض العملاء لإجبار بعض الثوار المقبض عليهم على الإدلاء ببعض

Créé avec nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

التصريحات أو النداءات المضادة للثورة عبر الراديو والجرائد والمناشير لغرض إقناع الجيش والشعب بعدم جدوى إستمرار الحرب وهذا بإبراز النوايا الحسنة لفرنسا من جهة، ومن جهة أخرى إختلاق بعض الأكاذيب حول القيادات السياسية والعسكرية لإثارة الفتن وزعزعة الثقة بينهم.

ومن بين هذه النداءات رسالة أحد المسؤولين السياسيين الذي ألقي عليه القبض في سنة 1958. وهذا نص الرسالة : (الجزائر 30 نوفمبر 1958 ... أنا المسمى ... أعلن اليوم أني إلتحقت بصفوف جيش التحرير منذ 40 شهرا حيث قاومت بكل قوة داخل مختلف القيادات التي تقلدتها وقد ألقي عليّ القبض يوم 17 نوفمبر 1958 بجبال الزبربر. وقد أتيحت لي الفرصة بعد عدة محادثات مع القبطان (ماريون) لكي أفهم أن الوضع في الجزائر إلى اليوم لايشبه في أي شيء حاله سنة 1954. فمع مجيء الجنرال ديغول على رأس فرنسا والطمأنينة التي قدمها في مختلف أعماله وخطبه لاسيما خطاب قسنطينة يدفعني للإعلان الصريح أنّ مواصلة الكفاح لم يعد له أي معنى بل يؤدي إلى المزيد من الآلام غير المجدية. أنا متؤسف لأن مسؤولي الخارج لم يفهموا أو لم يريدوا فهم كلمات الجنرال ديغول لهذا فأنا أعتقد أنه من حق مسؤولي الداخل البدء في الإتصالات المرفوضة من جماعات الخارج. وبدون أن أرفض الماضي أقول فقط أنني أؤكد أنني عازم على العمل من أجل وضع حد لهذا الإقتتال بالعمل المتوافق والتفاهم الكلي للذين وضعوا فيّ وبكل حرية ثقتهم الكاملة. ولهذا فإنني أتمنى العمل من الآن فصاعدا على بناء جزائر جديدة... تلك الجزائر التي يريد بناءها الجنرال ديغول. وهذه الكلمات أقولها نابعة من إيماني وعهدي تجاه نفسي من إيماني ونفسي وعائلتي وشرفي كمسلم جندي ورجل.[62].

14 ـ غرس الشعور بالذنب :

من بين الأساليب السيكولوجية التي إنتهجتها السياسة الإستعمارية هي غرس الشعور بالذنب لدى الجزائريين. والشعور بالذنب هو شعور الفرد بأنه إرتكب خطيئة أو شيئا غير مشروع أو مخالف للقواعد الأخلاقية والدينية أو المصلحة

العامة. وهو إتجاه إنفعالي قد ينشأ عن أسباب حقيقية أو وهمية نتيجة للصراع بين الذات العليا والأنا الذي قد يؤدي بالفرد إلى إرتكاب بعض الأخطاء للتخلص من هذا الصراع. وكان الفرنسيون يعمدون إلى غرس هذا الشعور بالذنب وإحداث حالة من الصراع[63] في الفرد أثناء توزيع المواد الأغذية بعد قطعها عليهم وتجويعهم لفترات طويلة. ثم يوهمونهم بأن الفلاقة هم السبب في هذا الإنقطاع وأن فرنسا تبذل كل مجهوداتها من أجل توفير المؤن للشعب والعناية بهم. ومن أجل ذلك لاينبغي أن يقابل جميل فرنسا إلا بالجميل والتعاون معها [illegible] الذين كانوا السبب في تجويعهم.

15 ـ غرس عقدة التكفير عن الذنب عند الفرنسيين :

وبمقابل غرس الشعور بالذنب عند الجزائريين غرس الشعور بالتكفير عند جنود الفرنسيين وهذا بإظهار المجاهدين بمظهر المذنبين الذين يقومون بأعمال وحشية مضادة لكل المبادئ الأخلاقية ولذلك يجوز الفتك بهم والقضاء عليهم دون رحمة وشفقة.

16 ـ غرس عقدة النقص :

تنشأ عقدة النقص عن الصراع بين الدافع الرامي إلى نيل إعتراف الآخرين أو القيام بأعمال إيجابية وبين الخوف من الأذى الناجم عن الخيبة والإحباط. وقد كان الإستعمار الفرنسي حريصا على إشعار الجزائري بالنقص والدونية وبوجوب الخضوع لهم كما أمر بيجو بوجوب حمل لافتة في ظهر كلّ جزائري يكتب عليها (عربي خاضع). وكما يحذرونه من مغبة القيام بأي عمل يتحدى فرنسا لأن ذلك من شأنه أن يقابل برد شديد وصارم.

17 ـ الشعور بالإستلاب :

كانت نتيجة السياسة التدميرية للإستعمار الفرنسي أن أصبح الجزائري يشعر بالإغتراب (الإستلاب) ماديا ومعنويا، ماديا بنزع ملكيته منه. وأصبح بين عشية وضحاها دون أرض أو ملكية أو حتى مأوى يأوي إليه. ومعنويا ناتج عن الأول

Créé avec nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

وهو فقدان الشعور بالذات وبالوجود والهوية. أو هو تعبير عن الحرمان والضياع. فالإغتراب يقضي على شعور الفرد بإنتمائه لنفسه وإمتلاكه لقدراته الخاصة، وبالتالي فإن المقابل الحقيقي للإغتراب هو إمتلاك الذات.

وقد سلب الإستعمار الفرنسي العناصر الأساسية المكونة للذات أو الهوية أو شخصية الجزائري وهي الأرض والدين واللغة. وقد وصف المستشرق الفرنسي جاك بيرك حالة الإغتراب التي دفعت الجماعات العربية فريسة لها أنّ الإستعمار قد سلب تلك الجماعات عاداتها وتاريخها ووجودها الحضاري وقذف بها إلى عالم غريب من الأشياء والمعاني والدلالات، فلم يكن في إستطاعتها حتى بعد إسترجاع إستقلالها أن تتحرر تماما من تلك الغربة[64].

18 ـ تفكيك الهوية النفسية والإجتماعية :

كان الهدف الرئيسي للإستعمار الفرنسي تفكيك الهوية النفسية الإجتماعية للجزائري وبعبارة أخرى تفكيك الهوية العربية الإسلامية حتى يسهل عليه الإستيطان فيما بعد، ذلك لأن هذه الهوية تتميز بكل الخصائص الإيجابية على تلحيم أفراد الشعب الجزائري وتشكيل وحدة قوية تتحدى فرنسا. ثم أن هذه الهوية تعتبر مشتركة مع بقية الشعوب العربية الأخرى مما قد يؤدي إلى تضامن هذه الشعوب مع الشعب الجزائري.

إنّ تفكيك هذه الهوية وما ينجم عنه من آثار سلبية على الحياة النفسية والإجتماعية كفيل بأن يحقق الأهداف الاستيطانية للمستعمر الفرنسي. فالهوية النفسية هو شعور الفرد بنفسه وبقيمته وبتماسك ذاكرته واستمراره في الوجود. والهوية النفسية يمكن إدراكها في الإتجاهات العقلية والأخلاقية والتي ماإن يصادفه موقف مثير حتى يشعر في نفسه بنشاط وحيوية عميقين وشديدين[65] يدفعانه لأن يعلن بصوت مرتفع عن أناه الحقيقية بالدفاع عن هذا الموقف المثير أو الدفاع ضده.

وتتقوى الهوية النفسية باعتزاز الفرد بنفسه وانه ذو قيمة وأهمية ومنفعة وكما أن الصحة النفسية للفرد تتوقف على الطريقة التي يدرك بها هويته النفسية.

فإن كان يدرك ذاته ايجابيا فإن ذلك يعزز صحته النفسية، أما إذا كان يدرك ذاته بطريقة سلبية فإن ذلك يضعف صحته النفسية.

أما الهوية الإجتماعية فهي شعور الفرد بالإنتماء إلى جماعة معينة ذات معايير ومعتقدات وقيم مشتركة. فالهوية النفسية الإجتماعية تتكون لدى الفرد منذ الصغر من خلال التنشئة الإجتماعية في البيت والمدرسة والعمل ومؤسسات المجتمع الأخرى. وهي تتشبع بالعقيدة الدينية وبالقيم الثقافية والايديولوجية السياسية. ومن هنا فإن حيوية أي مجتمع وتماسكه واستمراره في الوجود يتوقف على :

أولا : قوة الهوية النفسية للفرد وفيما إذ كانت إيجابية أو سلبية وبعبارة أخرى فيما إذا كان للفرد صورة إيجابية أو سلبية عن نفسه.

ثانيا : درجة ولاء الفرد للمجتمع وامتثاله لمعاييره ومعتقداته وقيمه وتقاليده، وشعوره بأنه جزء لايتجزأ من ثقافته وحضارته والإعتزاز بها.

ولقد اهتم المختصون في علم النفس المرضي بأهمية الهوية في الصحة النفسية وأكدوا أهمية العوامل النفسية ـ إجتماعية في الإضطرابات الخطيرة التي تصيب شعور الفرد بهويته كالإغتراب وتشوش الهوية واختلال الوحدة الذاتية والتي تكون نتيجة للصدمات التي يتعرض لها الفرد أثناء الحرب(66).

ونظرا لأهمية الهوية النفس إجتماعية في صحة الفرد النفسية والعقلية وفي تماسك المجتمع فإن الخطوة الأولى التي تتبعها الدول العدوانية في عمليات التحوير الفكري وغسل الدماغ هي تشكيك الفرد في هويته وتفكيكها لدرجة لايستطيع أن يميز بين الجماعة التي ينتمي إليها والجماعات الأخرى، وأكثر من هذا تنكره لهويته الحقيقية. والإنسان الذي تفكك هويته يكون سهل الانقياد والاستيلاب.

Créé avec nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

ـ الخلاصة :

حاول هذا المقال توضيح بعض الجوانب النفسية للحرب العدوانية خاصة تلك التي مارسها الإستعمار الفرنسي في الجزائر. ويمكن تلخيص ما جاء فيه في ثلاث نقاط رئيسية :

أولا : أنه مهما كانت الأسباب الظاهرية للحرب العدوانية فإن أسبابها ونتائجها الحقيقية هي في الواقع نفسية بالدرجة الأولى. فالنصر والهزيمة كلاهما حالات نفسية. فالإستعمار العدواني يستهدف إحداث الشعور بالهزيمة لدى الخصم وقهره وإخضاعه لإرادته.

ثانيا : أنّ الحرب الفرنسية هي أسلوب قديم ـ جديد يستهدف قهر الخصم وإخضاعه لإرادته بوسائل الدعاية والإشاعة والأساليب السيكولوجية الأخرى دون اللجوء إلى الإقتتال.

ثالثا : إنّ الإستعمارالفرنسي مهد لإحتلال الجزائر بحرب نفسية من خلال إستثارة أعصاب الداي حسين، ثم تابع إحتلاله بأسلوب تدميري قمعي شامل إستهدف إبادة الجزائريين من على الأرض الجزائرية ليستوطنها إلى الأبد. ولما لم يفلحوا نتيجة للمقاومة الشديدة من طرف الجزائريين، لجأوا مرة أخرى إلى الحرب النفسية والفكرية جنبا إلى جنب مع سياسة القمع والإبادة. وإستهدفت الحرب النفسية هذه المرة محو معالم الشخصية الجزائرية العربية الإسلامية من خلال :

1 ـ القضاء على الدين الإسلامي وما يرتبط به من مؤسسات دينية وتعليمية.
2 ـ القضاء على اللغة العربية.
3 ـ إتباع سياسة التجهيل.
4 ـ إتباع سياسة التنصير.
5 ـ زرع الفتن بين الجزائريين.
6 ـ زرع عقد سيكولوجية لتدمير الهوية النفسية وتفكيك وحدتها وانسجامها.

وتجدر الإشارة إلى أنّ المقاومة في كلّ مرة تزداد شدة، الشيء الذي جعل الجيش الفرنسي يفكر في إستراتيجيته في الحرب النفسية، وعمد إلى تكوين مصلحة خاصة لذلك أثناء ثورة التحرير تقوم بشتى أنواع اختلاق بعض الأكاذيب حول القيادات السياسية والعسكرية لإثارة الفتن وزعزعة الثقة بينهم.

الهوامش

1 ـ السيد نجم 1994 "طقوس الحرب" مجلة العربي العدد 431 ـ 160، 164، الكويت.
2 ـ نادر العطار : العرب والحرب النفسية الإسرائيلية، الشورى، العدد 12 مارس 1976.
3 ـ أسعد رزق 1979 موسوعة علم النفس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ بيروت.
4 ـ مصطفى حجازي 1976 : التخلف الإجتماعي مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور. لبنان : معهد الإنماء العربي.
5 ـ مصطفى حجازي : نفس المرجع.
6 ـ مالك سليمان نحول (1980) علم النفس العسكري، المطبعة الجديدة ـ دمشق.
7 ـ ن.م، ص 109.
8 ـ محي الدين مختار 1982. محاضرات في علم النفس الإجتماعي، ديوان المطبوعات الجامعية ـ الجزائر.
9 ـ مقدم عبد الحفيظ : الإشاعة : مفهومها، أسسها السيكولوجية، مجالات إستعمالها والوقاية منها، المجلة الجزائرية لعلم النفس وعلوم التربية العدد 5، 1992 ـ 1993.
10 ـ نادر العطار : م.س. ص 56.
11 ـ ورد هذا في تدخل الأستاذ هلال مدير معهد التاريخ في تعقيبه على هذا التدخل.
12 ـ محمد شريف ساحلي (1967) "ما وراء حادثة المروحة". المجاهد الثقافي، العدد 2 أوت، 15 ـ 19.
13 ـ يحي بوعزيز (1979) سياسة نابليون الثالث في الجزائر من خلال أقواله وأفعاله، الثقافة العدد 50، 14 ـ 33 وزارة الثقافة والإعلام ـ الجزائر.
14 ـ حسن بهلول (1976) القطاع التقليدي والتناقضات الهيكلية في الزراعة بالجزائر : تجديده ونظام دمجه في الثورة الزراعية. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ـ الجزائر.
15 ـ مصطفى طلاس وبسام العسيلي (1984) الثورة الجزائرية ـ طلاس الدراسات والترجمة والنشر، دمشق.
16 - Poujoulat : Voyage en Algérie, 1845.
17 ـ المهدي البوعبدلي : الإحتلال الفرنسي للجزائر : مقاومة الشعب في الميدان الروحي : الأصالة، العدد 3، 305 ـ 320، 1972، وزارة الشؤون الدينية ـ الجزائر.
18 ـ عبد المجيد مزيان : مظاهر المقاومة في الثقافة الجزائرية. الأصالة، العدد 8، 155 ـ 164، 1972، وزارة الشؤون الدينية ـ الجزائر.
19 ـ يحي بوعزيز.م.س.
20 ـ عبد الرحمان عواطف : الصحافة العربية في الجزائر : دراسة تحليلية للصحافة الثورية الجزائرية، 1954 ـ 1962.
21 ـ المهدي البوعبدلي.م.س. ص 312.
22 ـ ن.م.س. ص 313.
23 ـ محمد قطب : هل نحن مسلمون. دار المشرق. لبنان

Créé avec nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

24 ـ عبد الرحمان عواطف (1985) الصحافة في الجزائر. المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر.
25 ـ مصطفى الأشرف (1965) الجزائر : الأمة والمجتمع، ترجمة حنفي بن عيسى، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر.
26 ـ عبد الرحمان عواطف م.س. ص 15.
27 ـ مصطفى طلاس وبسام العسيلي. م.س.
28 ـ باساغانا (1983) مبادئ علم النفس الإجتماعي. ترجمة عبد الله غلام الله. ديوان المطبوعات الجامعية ـ الجزائر.
29 - Alger, Imprimerie Administrative Gojosso 1910 p. 238.
30 ـ باساغانا. م.س. ص 125.
31 ـ ايقيه برستير . م.س.
32 ـ المجاهد ـ العدد 26، 1958.
33 ـ جاب الله بلقاسم (الإعلام والدعاية وحرب التحرير) مجلة أول نوفمبر عدد خاص 39 / 1979، المنظمة الوطنية للمجاهدين، الجزائر.
34 ـ المجاهد ـ العدد 26، سنة 1958، ص 9.
35 ـ محمد السويدي (1990) مقدمة في دراسة المجتمع الجزائري، ديوان المطبوعات الجامعية ـ الجزائر.
36 ـ ن.م.س.
37 ـ ايقيه بريستير م.س. ص 240 ـ 241.
38 ـ ن.م.س. ص 241.
39 ـ نفسه.
40 ـ فرانتزفانون، من أجل إفريقيا، ترجمة محمد الميلي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر.
41 ـ المجاهد، المجلد الأول 1958.
42 ـ يحي بوعزيز، م.س.ص.
43 ـ عبد الرحمان عواطف، م.س. ص 33.
44 ـ بلقاسم جاب الله. م.س. ص 101.
45 ـ بلقاسم جاب الله. م.س. ص 107.
46 ـ المجاهد ـ العدد 60 ـ يناير 1960، ص 4.
47 ـ المجاهد، العدد 68، 16 ماي 1968.
48 ـ بلقاسم جاب الله، م.س.ص، 107.
49 ـ المجاهد، العدد 66 ـ أفريل 1960، ص 11.
50 ـ مصطفى الأشرف .م.س.
51 ـ قانون م.س. ص54.
52 ـ جريدة المقاومة الجزائرية العدد 22، 1957، ص 10.
53 ـ قانون . م.س. ص 54 ـ 55.

54 ـ المجاهد، العدد 66 ـ 18 أفريل 1960، ص 10.
55 ـ المجاهد، العدد 75 ـ 22 أوت 1960، ص 5.
56 ـ مصطفى طلاس. م.س. ص 325.
57 ـ م. محمد ساحلي. م.س.
58 ـ أبو القاسم سعد الله : (1992) الحركة الوطنية الجزائرية، المؤسسة الوطنية للكتاب.
59 ـ مصطفى الأشرف م.س.ص 104.
60 ـ ن.م.س. ص 290.
61 ـ بسام العسيلي (1986) المجاهدون الجزائريين، دار النفائس، بيروت.
62 ـ الوجه الآخر، عدد 82، 14 ـ 20 جانفي 1995.
63 ـ أسعد رزق . م.س. ص 209.
64 ـ زكريا إبراهيم "معنى الإغتراب عند الإنسان العربي المعاصر" مجلة العربي، عدد 194، يناير 1975، ص 152 ـ 155.
65 - ERIKSON. E, (1968) "Psychosocial identity" The international Encyclopedia of the Social Sciences Volum 7, pp 61 - 65, Crowell Collier and Macmillan, inc.
66 - Op.Cit.

القسم الأول

ب ـ التاريخ الوسيط

Créé avec nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

تلمسان مركز إشعاع ثقافي في المغرب الأوسط*

أ.د. عبدالحميد حاجيات.

لا شك أن ما يلاحظ بلادنا من اهتمام الكثير بالهوية الثقافية يجعلنا نلتفت، بمزيد من الإمعان والتدقيق، إلى دراسة القضايا المتعلقة بالمجال الفكري، والإشكاليات المطروحة حولها. والحديث عن مراكز الإشعاع في المغرب العربي يتطلب تسليط الأضواء على تطور ثقافتنا الوطنية في مختلف العصور، والتعرض لميزاتها وخصائصها، وعوامل نشأتها وازدهارها، وماتلا ذلك من فترات مظلمة في عهد الإستعمار، وصفحات مشرقة أثناء النهضة المعاصرة. ولذا، فإن التعرف على العوامل التاريخية والحضارية، التي أثرت في تطور ثقافتنا، يشكل جانبا هاما للأبحاث التي ينبغي القيام بها في هذا المجال، لأنه يساعد على تعليلها وإيضاح بعض نقاط الغموض التي لا تزال عالقة بها، وتقييم تأثيراتها ونتائجها بكل موضوعية ونزاهة.

والتعرف على المراكز التي ساهمت في الإشعاع الثقافي من أهم المحاور التي تندرج ضمن هذه الإهتمامات، وتشكل زاوية أساسية من زوايا البحث في هذا المجال. ومدينة تلمسان، موضوع حديثنا، تعد من أهم مراكز الإشعاع الثقافي في بلادنا، وبخاصة في العهد الإسلامي، إذ أنها تمثل إحدى العواصم التاريخية والحضارية فيها، إلى جانب تيهرت وقلعة بني حماد وبجاية وقسنطينة والجزائر العاصمة.

(*)- نص محاضرة ألقيت في الملتقى الدولي حول المراكز الثقافية في المغرب الإسلامي، (وهران 18-20 أفريل 1993).

Créé avec nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

وقبل الشروع في معالجة الموضوع، يبدو من الضروري أن نحدد الغرض من مفهوم الإشعاع الثقافي في حديثنا، علما بأن مدلول الثقافة أصبح يطلق على مختلف مظاهر المعرفة والفنون والسلوكات والقيم والعادات وغير ذلك. والذي نقصده هنا هو الإزدهار الفكري والعلمي، وما ينجم عن ذلك من إنتاج وإبداع، وتأثير وتأثّر، ومساهمة بنّاءة في التقدّم الحضاري، ممّا يتجلى من آثار العلماء والأدباء ورجال الفكر. وعليه فإن موضوعنا يخصّ بالدرجة الأولى التعرف على فترة الإزدهار والإشارة إلى ميزاتها وتقييم تأثيراتها.

أما الإطار الزماني، فإن قدم مدينة تلمسان قد يبعث إلى افتراض تراكم عناصر ثقافية منذ العهد القديم، ولا سيما في المجال الفكري والديني، إلا أننا لا نجد أي أثر لذلك في مالدينا من المصادر، وكل ما وصل إلينا من الأخبار حول ذلك يمتّ إلى الحضارة العربية الإسلامية، ويقع بعد الفتح، في فترات متأخرة نسبيا. ومن الصعب جدا تبيّن مراحل نشأة الحياة الثقافية العربية الإسلامية بتلمسان، بما يتطلبه ذلك من الدّقة والوضوح، لانعدام المعلومات حول ذلك أو ضآلتها. وإذا كنّا نعلم أن الإسلام انتشر بسرعة في هذه المنطقة، فنحن نجهل كل شيء عن مراحل التعريب فيها، علما بأن انتشار التعريب شرط أساسي لقيام ثقافة عربية إسلامية.

والذي يلاحظ، في هذا الصدد، هو أن الثقافة العربية قد واجهت أحيانا، في الأقطار المفتوحة، بعض العوائق التي أخرت انطلاقها ونموّها. وفيما يخص تلمسان، فإن وقوعها في بلاد نائية بالنسبة لجزيرة العرب والشرق الأدنى، وفي منطقة جبلية يصعب فيها الإتصال بالأهالي، بالإضافة إلى العائق اللغوي، يفسّر مايلاحظ من بطء نسبي لحركة التعريب فيها، بالمقارنة بمدن أخرى من المغرب الإسلامي، مثل القيروان والمسيلة وكثير من مدن الأندلس.

ويبدو أن هذه العوائق قد لعبت دورها بصورة فعّالة أيام انتشار مذاهب الخوارج والشيعة الأدارسة والفاطميين، لما طبع هذه التيارات السياسية من نزعة استقلالية إزاء الخلافة السنية. غير أن ظهور بعض العوامل المساعدة لذيوع

Créé avec nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

التعريب بين أهالي تلمسان أخذت تهيئ الجو الملائم لنشأة الثقافة العربية الإسلامية فيها، وبخاصة منذ القرن الخامس الهجري.

وذلك أن صعوبة الإتصال بين العرب القادمين إلى المغرب الأوسط والأهالي، أخذت تخف شيئا فشيئا، نظرا لما قامت به الدول التي تعاقبت على السلطة في المنطقة من تأسيس المدن والعمل على النهوض بالعمران. فبعد اختطاط ابن رستم لتيهرت، حوالي سنة 160هـ، تمّ تأسيس مدن تنس وهنين ووهران، على يد تجار أندلسيين، في آخر القرن الثالث الهجري والمسيلة، سنة 313 هـ، من طرف أمراء بني حمدون، ثم أشير، سنة 327 هـ، على يد زيري بن مناد الصنهاجي. ثم كان اختطاط الجزائر والمدية ومليانة، في أواسط القرن الرابع هـ، على يد بلقين بن زيري، وقلعة بني حماد، سنة 398 هـ. فكانت هذه الإنجازات العمرانية تشكل مجالا واسعا لاختلاط الأهالي بالعرب، وتوسع حركة التعريب في المغرب الأوسط، لما يوجد من ارتباط وثيق بين الإزدهار الثقافي والتطور العمراني. فتكاثر المدن يؤدي إلى تزايد تحوّل المجتمع البدوي أو الريفي إلى مجتمع حضري، ويشكل الإطار الأمثل للإشعاع الفكري.

وبعد تأسيس تاجرارت، تلمسان الجديدة، بجانب أجادير، من طرف يوسف بن تاشفين، خطوة حاسمة في تطور مدينة تلمسان، حيث أن المرابطين أولوها عناية خاصة، وجعلوها مقر ولاية المغرب الأوسط، فشيدوا قصرا جعلوه مقرّ الوالي، وبنوا المسجد الأعظم بإزائه، كما بنى الأمراء والوجهاء منازل فخمة حوله، وأصبحت المدينة الجديدة تستقطب العلماء والأدباء والتجّار والعديد من الوافدين من مختلف أنحاء الدولة.

وفي عهد الموحدين تواصل التوسع العمراني بموازاة مع تزايد النشاط التجاري، من جهة، وانتشار التعريب والثقافة العربية الإسلامية، من جهة أخرى. واستفادت تلمسان الجديدة من عناية الموحدين، الذين أبقوها كمقر لولاتهم على المغرب الأوسط، وشيدوا أسوارها، محققّين بذلك حصانتها. ثم أن إمتداد الدولة الموحدية إلى سائر أنحاء المغرب الإسلامي أدّى إلى توثيق العلاقات بين مختلف

المناطق، وتكثيف الأتصال بين سكانها. وأصبح كثير من العلماء والطلبة، في مختلف المناطق، يرحلون إلى البلدان المجاورة، للأخذ على علمائها، وللتدريس والإستقرار بها.

وهكذا، فإن تلمسان لم تزل، منذ القرن الرابع هـ، تستقطب العلماء، وتتجه بخطى حثيثة نحو النمو الثقافي والحضاري، وقد عبّر البكري عن ذلك، في وصف تلمسان القديمة (أجادير)، بقوله: «ولم تزل تلمسان دارا للعلماء والمحدثين وحملة الرأي على مذهب مالك بن أنس رحمه الله».[1] فهذا أبو جعفر أحمد بن نصر الداودي المسيلي الأصل وأحد كبار المحدثين والفقهاء في عصره، ينزل تلمسان وينشر بها العلم إلى أن توفي سنة 402 هـ.[2] وهذا أبو جعفر أحمد بن [illegible]، من علماء الأندلس يستقرّ بها، ويأخذ عنه طلبة العلم إلى وفاته بها سنة 524هـ. ومن رجال العلم والصلاح الذين اشتهروا بها أبو محمد عبدالسلام التونسي، الذي قدم من أغمات ونزلها ودرّس بها، فكان من تلامذته عبدالمؤمن بن علي الكومي، مؤسس دولة الموحّدين، وتوفّي حوالي سنة 530هـ.[4] ومنهم عبدالعزيز بن الدبّاغ، من أهل مرسية، رحل من الأندلس إلى فاس ثم إلى تلمسان، فاستوطنها، وكان فقيها ومحدّثا، وتوفي بها سنة 602هـ[5] ومن أشهر العلماء، أبو عبدالله بن عبدالرحمن التجيبي، من أهل إشبيلية، نزل تلمسان وأخذ عنه كثير من طلبة العلم، وتوفي بها سنة 610هـ.[6] ولا شك أن توافد الكثير من رجال العلم على مدينة تلمسان أدّى إلى تكوين أجيال من العلماء من بين أهلها، أمثال ابن أبي قنّون، المتوفّى سنة 557هـ،[7] وأبي عبدالله بن عبدالحق، المتوفّى سنة 625هـ،[8] وغيرهما ممّن نبغوا في مختلف العلوم. كما أن كثيرا من علماء تلمسان رحلوا إلى أقطار أخرى واستقروا بها، أمثال الأديب أبي علي بن الأشيري، المتوفّى بعد سنة 569هـ،[9] وأبي عيسى بن عمران، الذي ولي القضاء بإشبيلية ومراكش، وتوفي بهذه المدينة سنة 578هـ،[10] وابنه أبي الحسن علي، الذي ولي قضاء فاس، وتوفي سنة 594هـ،[11] وأبي عبدالله ابن مروان، الذي ولي قضاء مراكش، وبها توفي سنة 601هـ،[12] وابنه أبي عمران موسى، الذي ولي القضاء بمالقة وغرناطة، وتوفي بها

nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

سنة 608هـ،[13] وأبي عبدالله الفازازي، الذي ولي القضاء بقرطبة ومرسية ثم بغرناطة، وبها توفي سنة 621هـ.[14] وكان كل هؤلاء، وغيرهم ممّن لم نذكرهم، قد برعوا في كثير من العلوم، وقاموا، إلى جانب وظيفة القضاء، بمهمة التدريس، فساهموا مساهمة ملحوظة في الإشعاع الثقافي. غير أن النمو الثقافي لم يبلغ أوجه بتلمسان إلا في عهد ملوك الدولة الزيانية.

هذا، ويظهر ممّا سبق ذكره أن نشأة مراكز الإشعاع الثقافي تتطلب توفير بعض الشروط، وقد يستغرق ذلك مدة يتفاوت طولها حسب الموقع الجغرافي، والعوامل السياسية، وأهمّيّة النموّ العمراني، وكثافة التبادل التجاري والعلاقات الإجتماعية، وغير ذلك. وتكتسي مرحلة النشأة هذه أهميّة خاصة، حيث أنها تتّسم ببعض الخصائص، التي تشكل غالبا الطابع الذي يميز تلك المراكز. وفي هذا الصدد، يلاحظ أن الحياة الثقافية بتلمسان، في مراحلها الأولى، تمتاز بالتركيز على العلوم الدينية، وبخاصّة الحديث والفقه، والعلوم اللسانية، من لغة ونحو وصرف وبلاغة وشعر ونثر. ويتجلى الإهتمام بالجانب الديني في انتشار تيّار التصوّف بتلمسان وناحيتها آنذاك، وخاصة بعد وفاة الولي أبي مدين شعيب بن الحسين الإشبيلي، ودفنه، سنة 594هـ، برابطة العبّاد، خارج تلمسان، وذيوع فكره الصوفي.[15] غير أن الأوضاع تغيرت بصفة جذرية عندما تأسّست الدولة الزيّانية، على يد يغمراسن بن زيّان العبد الوادي، سنة 633هـ. وذلك أن تلمسان أصبحت إحدى عواصم المغرب الإسلامي الأربع، إلى جانب تونس وفاس وغرناطة، وصارت مقرّ السلطة المركزية في المغرب الأوسط، وفيها بلاط ملوك هذه الدولة، الأمر الذي من شأنه أن يضاعف عوامل الرقي والنموّ في المدينة، ويمكّنها من توفير مزيد من وسائل النموّ الثقافي، من تشييد مؤسّسات تعليمية وجلب مشاهير العلماء والأدباء وغير ذلك.

ويلاحظ، في مرحلة أولى تمتدّ إلى أواخر القرن السابع هـ- أن عاصمة الزيّانيّين شهدت توسّعا عمرانيا ملحوظا، نتيجة التضخم السكاني الذي نتج عنه تأسيس الدولة، وتزايد عدد المهاجرين القادمين من الأندلس، من جراء تفاقم الخطر المسيحي بها، وسقوط كثير من أمصارها في قبضة الإسبان، مثل قرطبة وإشبيلية

وبلنسية ومرسية. ومن بين الأندلسيين الذين نزحوا ألى تلمسان آنذاك، أبو بكر ابن خطّاب المرسي، الأديب الكاتب، الذي أسند إليه يغمراسن رئاسة ديوان الإنشاء، وتوفي سنة 686هـ.[16] كما أن هذا الأخير أولى عنايته بتشجيع رجال العلم، وحرص على استقدام مشاهير العلماء، أمثال أبي إسحاق التنسي، المتوفّى سنة 680هـ، والذي استقدمه من مدينة تنس وطلب منه أن يستقر بتلمسان ليستفيد الطلبة فيها من غزارة علمه، وهو مؤلف شرح التلقين لعبد الوهاب، في عشرة أجزاء، الذي ضاع أثناء الحصار الكبير،[17] كما استقدم أخاه أبا الحسن التنسي، المتوفّى سنة 706هـ، الذي كان مختصا في التعاليم، وهو أستاذ الابلي وغيره.[18] وفي هذه المرحلة، امتاز النمو الثقافي بمساهمة كثير من أهل تلمسان، وبلوغ بعضهم مستوى عال من النبوغ والإبداع. ومن أشهرهم أبوإسحاق التلمساني، المتوفّى سنة 690هـ بسبتة، صاحب الأرجوزة الشهيرة في الفرائض،[19] وأبوعبدالله محمد بن عمر بن خميس، المتوفّى سنة 708هـ بغرناطة، الذي قال عنه يحيى بن خلدون بأنه «شاعر المائة السابعة».[20] ويمكن اعتبار هذه المرحلة بداية عهد الإزدهار الثقافي بتلمسان.

وذلك أن القرن الثامن الهجري شهد تقدّما سريعا في سائر المجالات الحضارية بتلمسان، وأن الملوك الزيانيّين ضاعفوا الجهود لتوفير مختلف شروط النموّ، وأصبحوا يولون عناية خاصّة للنشاط الثقافي والفنّي وللأنجازات العمرانية. ففي أوائل عهد أبي حمو موسى الأول بنيت بتلمسان أول مدرسة في المغرب الأوسط، وأسند التدريس بها للأخوين أبي زيد وأبي موسى ابني الإمام، وكانا عالمين جليلين، قدما من مدينة برشك، واستقرا بتلمسان، فأخذ عنهما جماعة وافرة من طلبة العلم، منهم الآبلي وأبوعبدالله الشريف والمقّري الكبير وسعيد العقباني وابن مرزوق الجدّ وغيرهم ممّن ذاع صيتهم في مختلف الأنحاء. وقد ذكر أحمد بابا التنبكتي أن هاذين العالمين الأخوين «كانا يذهبان إلى الإجتهاد وترك التقليد»،[21] الأمر الذي يضفي على تعليمهما طابع الجِدّة والتفتّح وحرية الرأي والإتجاه نحو التحقيق والبحث.

Créé avec nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

وفي عهد أبي تاشفين الأول بنيت المدرسة التاشفينية الشهيرة، التي أشاد بذكرها المؤرخون، ووصفوا ما امتازت به من إتقان تشييدها وجمال زخارفها، والعناية بأساتذتها. فكان الملوك الزيانيون يقدّمون المنح للطلبة، ويدفعون الرواتب للأساتذة، ويحرصون على تزويد هذه المؤسسات التعليمية بالمكتبات الغنية. ثم حظيت تلمسان، خلال القرن الثامن هـ، ببناء مدرسة العبّاد، أيام ستيلاء أبي الحسن المريني عليها، والمدرسة اليعقوبية، التي أسّسها أبوحمو موسى الثاني، تخليدا لذكر أبيه أبي يعقوب، وعيّن للتدريس بها أبا عبدالله الشريف، أحد كبار علمائها، وأولاها عنايته الخاصّة، كما شمل اهتمامه العلم الجامع الأعظم، الذي أقام فيه مكتبة أودع فيها عددا كبيرا من المخطوطات. فكان بلاط أبي حمو الثاني ميدانا خصبا لازدهار الآداب والعلوم، كما يتجلى ذلك من خلال حفلات الميلاد النبوي الشريف التي كان يعنى بإقامتها.[22] ويبدو أن هذه الإنجازات لم تأت صدفة أو لمجرد رغبة الملوك في تخليد ذكرهم، بل اقتضاها النموّ الثقافي الذي شمل أقطار المغرب، وقد تمت إنجازات مماثلة، خلال تلك الفترة في تونس وفاس، ممّا يجعلنا نعتقد أن بلاد المغرب كانت كلها، آنذاك، تعرف نهضة ثقافية قوية، مثلما كان الأمر في أقطار أخرى بأروبا، وبخاصة إيطاليا. ولذا فليس من الغريب أن يشهد القرن الثامن هـ نبوغ عدد كبير من رجال العلم والأدب، وبروز إنتاج ثقافي غزير، يحمل طابع الإجتهاد والإبداع، ويخصّ سائر المجالات، حتى الرياضيات والفلك والطب، التي لم تحظ قبل ذلك بكثير من التفات العلماء في بلاد المغرب.

ومن العلماء الذين كان لهم أثر بالغ في إرساء دعائم هذه النهضة، أبو عبدالله الابلي (681 - 757هـ)، الذي درس التعاليم على أبي موسى ابن الإمام وأبي العباس بن البنّاء المراكشي وغيهما، ونبغ في الفلسفة والمنطق والرياضيات وسائر العلوم العقلية، وقضى حياته في خدمة العلم، وكوّن جيلا من كبار العلماء، أمثال عبدالرحمن بن خلدون وأخيه يحيى وأبي عبدالله الشريف وأبي عبدالله ابن النجّار والمقّري الكبير وسعيد العقباني وابن الصبّاغ المكناسي.[23] وإليه يرجع الفضل في اتجاه عبدالرحمن بن خلدون نحو فلسفة التاريخ وعلم العمران البشري وما يمتاز به

الفكر الخلدوني من تحكيم العقل في ل العلوم الإسماعية.[24] ويلمس الباحث نفس الإتجاه عند مطالعة كتاب مفتاح الوصول في علم الأصول لأبي عبدالله الشريف،[25] الأمر الذي يدعونا إلى دراسة آنتاج علماء هذه النهضة وتقييمه وتحقيقه ونشره. وعلى كل، فإن ما نشر منه إلى يومنا هذا، وهو قليل جدا، ينم عن مستوى راق وملكة قوية للمادّة العلمية ومنهجية سليمة. فمن ذلك كتاب المسند لإبن مرزوق الخطيب، الذي تناول تاريخ عصره من الناحية الحضارية، فبرع في معالجة كثير من الجوانب الأثرية والفكرية والسياسية، ممّا جعل هذا الكتاب «بالمقارنة مع المصادر الأخرى عن الفترة يفوقها من حيث أنه يعكس البنى العقائدية لتلك الفترة ومفاهيمها الروحية وعقليتها ونمطها الحضاري».[26] ومن ذلك كتاب بغية الرواد ليحيى إبن خلدون، نزيل تلمسان، والمتوفّى بها سنة 780هـ، وهذا الكتاب أيضا يحمل طابع منهجية التاريخ الكامل، أذ أنه يشتمل على فصول تتناول الإطار الجغرافي لمدينة تلمسان، ثم تراجم علمائها، ويلي ذلك عرض مختصر حول الدول التي تعاقبت عليها، ثم عرض اتنولوجي حول قبائل البربر عامة، وقبيلة بني عبدالواد خاصة، وينتقل بعد ذلك إلى ذكر أخبار الملوك الزيانيين إلى زمانه.[27]

فهذه عينات تشهد على ازدهار ثقافي متميز في شتى المجالات. ممّا يؤسف له جدا أن معظم إنتاج هذه الفترة لم يحظ بإقبال الباحثين على دراسته وتحقيقه، حيث أن بعضه فقد وضاع، وبقي البعض الآخر مودعا في غياهب المكتبات، ينتظر من يكتشفه ويخرجه إلى النور. ومن العلماء الذين نبغ ذكرهم في هذه الفترة ولم يسبق الإشارة إليهم، أبو عبدالله بن هديّة، المتوفّى سنة 735هـ، والذي شغل منصب كاتب السر لأبي تاشفين الأول وولي قضاء تلمسان، وألف شرح رسالة لابن خميس، وتاريخ تلمسان.[28] ومنهم أبو عبدالله بن النجار، المتوفّى سنة 749هـ، والذي درس التعاليم على الابلي وأبي العباس بن البناء المراكشي وأبي عبدالله بن هلال، سارح المجسطي، ونبغ في علم الفلك، وهو أستاذ أبي الحسن علي بن الفحّام، صاحب المنجانة الشهيرة.[29] ومنهم سعيد العقباني، المتوفّى سنة 811هـ، والذي نبغ في مختلف العلوم، من عقائد وتفسير وفقه وأصول ومنطق وهندسة وحساب،

Créé avec
nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

وترك فيها تآليف عديدة، وولي القضاء في بجاية ومراكش وسلا ووهران وهنين وتلمسان،[30] ومنهم أبو الفضل محمد بن مرزوق الحفيد، المتوفّى سنة 842هـ، والذي أخذ على سعيد العقباني وعبدالرحمن بن خلدون وعدد كبير من علماء المغرب والمشرق، وألف عشرات الكتب في مختلف العلوم [31] ومنهم أبو عبدالله الحبّاك، المتوفّى سنة 867هـ، العددي، الفرضي، الفلكي، ومؤلف شرح تلخيص ابن البنّاء، وأرجوزة بغية الطالب في علم الأسطرلاب، وشرحها، وشرح التلمسانية في الفرائض.[32] ومنهم محمد بن يوسف السنوسي، المتوفى سنة 895هـ، صاحب التآليف الشهيرة في العقائد والحديث والتفسير والمنطق والجبر والأسطرلاب والفرائض وغيرها.[33] ومنهم أبو عبدالله التنسي، المتوفّى سنة 899هـ، الحافظ، الفقيه، المؤرخ، ومؤلف كتاب نظم الدر والعقيان في بيان شرف آل زيان.[34] ومنهم أبو العباس أحمد بن زكريا، المتوفى سنة 899هـ، الحافظ، الأصولي، ومؤلف بغية الطالب في شرح عقيدة ابن الحاجب، وشرح الورقات للجويني، وغيرهما.[35] ومنهم محمد بن عبدالكريم المغيلي، المتوفّى سنة 909هـ، والذي نبغ في التفسير والحديث والفقه والمنطق، واشتهر بموقفه من يهود توات، وبرحلته الطويلة إلى بلاد السودان، اتصل أثناءها بسلطان كانو، وكتب له رسالة فيما يجب على الملوك، كما زار بلاد التكرور، وقام خلال رحلته بالحض على تغيير المنكر، ونشر أحكام الشرع.[36]

والجدير بالملاحظة أن معظم هؤلاء العلماء باشروا التدريس مدة طويلة من حياتهم، إلى جانب التأليف ووظائف أخرى كالقضاء والإفتاء، وتكوّن على يديهم عدد كبير من طلبة العلم الوافدين من مختلف الأنحاء، وأن كثيرا منهم رحلوا إلى بلدان أخرى في المغرب الإسلامي أو المشرق أو بلاد السودان، فكان لهم فيها أثر محمود في نشر العلم وخدمة الثقافة العربية الإسلامية، مما جعل تلمسان، في مرحلة إزدهارها الحضاري، تشكل أهم مركز إشعاع ثقافي بالجزائر.

وبعد، فهذه عيّنات ذكرناها على سبيل المثال لا الحصر، وغرضنا من ذلك الإشارة إلى أهمية النهضة الثقافية التي كان انطلاقها خلال القرن السابع هـ وازدهرت في القرن الثامن، ثم دخلت خلال القرن التاسع هـ، في فترة استقرار نسبي واتجاه نحو التقليد، في بعض المجالات، لعوامل مختلفة أدت في القرون التالية

إلى تناقص تدريجي في المجال الثقافي شمل سائر أنحاء المغرب. غير أن تلمسان لم تفتأ تقوم بدور إشعاشي محدود أثناء العهد العثماني وفترة الإحتلال الإستعماري، بما امتازت به من الحفاظ على الثقافة الوطنية وما تتّسم به من أصالة، وبخاصة في مجال العادات والتقاليد والفنون الشعبية والقيم الإسلامية.

Créé avec nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

الهوامش

(1)- البكري، المسالك والممالك (نشرة دي سلان)، 76-77.

(2)- انظر: القاضي عياض، ترتيب المدارك، ج3 ص 116-124 وج4، ص623-624، ابن فرحون، الديباج المذهب، ص 35: يحي بن خلدون، بغية الرواد، ج1 (تحقيق عبدالحميد حاجيات)، ج1، ص 127، 158.

(3)- انظر: بغية الرواد، ج1، ص 127، 158: ابن بشكوال، الصلة، ج1، رقم 169، ص77.

(4)- عن عبدالسلام التونسي، انظر: ابن الزيّات التادلي، التشوّف، رقم 13 ص 88-91: ابن قنفذ، أنس الفقير، ص 107-108: بغية الرواد، ج1، ص 125-156: ابن مريم، البستان، ص 122.

(5)- انظر: الذخيرة السنية، ص 40.

(6)- انظر: ابن القاضي، جذوة الإقتباس، ص 171-172: المقري، نفح الطيب، ج2، ص 360.

(7)- انظر: ابن الزبير، صلة الصلة، رقم 294: بغية الرواد، ج1، ص 101-102، 133: الحفناوي، تعريف الخلف، ج2، ص 258: عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص 72.

(8)- انظر: ابن الابّار، التكملة، رقم 1628: بغية الرواد، ج1، ص 112-113، 144: معجم أعلام الجزائر، ص 77.

(9)- عن ابن الأشيري، انظر: التكملة، ج1، ص 270: البيذق، أخبار المهدي ابن تومرت (تحقيق عبدالحميد حاجيات)، ص 85.

(10)- انظر : عبدالواحد المراكشي، المعجب، ص 245-246 : بغية الرواد، ج 1، ص 101-102، 134.

(11)- انظر : المعجب ، ص 246 : بغية الرواد، ج 1، ص 101.

(12)- انظر: المعجب، ص 264، 312 : بغية الرواد، ج1، ص 113،145.

(13)- انظر: بغية الرواد، ج1، ص 113.

(14)- انظر: المعجب، ص 312: بغية الرواد ج1، ص113.

(15)- عن أبي مدين شعيب الإشبيلي، انظر: ابن قنفذ، أنس الفقير، ص 11-20: التشوّف، ص 316-325: بغية الرواد، ج1، ص 125-156: البستان، ص 108-114.

(16)- انظر: ابن الخطيب، الإحاطة، ج2، ص 275-278: بغية الرواد، ج1، ص 129، 160: البستان، ص227.

(17)- انظر: بغية الرواد، ج1، ص 114، 146: البستان، ص 66-68: نيل الإبتهاج، ص 35-37.

(18)- انظر: إبن مرزوق، المسند، ص 266، 479: بغية الرواد، ج1، ص 109، 146.

(19)- انظر: الإحاطة، ج1، ص 181: الديباج المذهب، ص 90: بغية الرواد، ج1، ص 109، 142.

(20)- انظر بغية الرواد، ج1، ص 109، 142: طاهر توات، ابن خميس، د. م. ج، الجزائر، 1991.

(21)- نيل الإبتهاج، ص 166، س 31. انظر أيضا: بغية الرواد، ج1، ص 130، 161.

(22)- انظر: عبدالحميد حاجيات، أبو حمو موسى الزياني، حياته وآثاره، ص 159-183.

(23)- عن الابلي، انظر : ابن خلدون، التعريف بابن خلدون، ص 12- 13- 33- 39 : بغية الرواد، ج 1، ص 17- 18- 24- 25، 102.

(24)- انظر :
N. Nassar, le maître d'Ibn Khaldun-al -Abili, dans Studia Islamica, XX, 1964, PP. 103-115.

(25)- انظر : أبو عبدالله الشريف، مفتاح الوصول في علم الأصول، مكتبة الوحدة العربية، الدار البيضاء، بدون تاريخ.

(26)- ابن مرزوق الخطيب، المسند، مقد المحققة ماريا خيسوس بيغيرا، ص 77.

(27)- انظر : يحي ابن خلدون، بغية الرو ج 1، مقدمة المحقق عبدالحميد حاجيات، ص 58-62.

(28)- عن ابن هدية، راجع : بغية الرواد، ج ص 116 : نفح الطيب، ج 7، ص 158-159.

(29)-عن ابن النجار، انظر : بغية الرواد، ج 1، ص 11 : التعريف بابن خلدون، ص 48 : نفح الطيب، ج 7، ص 160-162 : البست 154-1

(30)- انظر : بغية الرواد، ج 1، ص 123، 155 : الديبا 124-125 : نيل الابتهاج، ص 125-126 : البستان، ص 106-107.

(31)- انظر السخاوي، الضوء اللامع، ج7، ص 50 : نيل الابتهاج البستان، ص 201-214: معجم أعلام الجزائر، ص 290-292.

(32)- انظر : البستان، ص 219-220 : نيل الابتهاج، ص 316 : معجم ص 119-120.

(33)- انظر : البستان، ص 237-248 : تعريف الخلف، ج 1، ص 176 : معجم الجزائر، ص 180-181.

(34)- انظر : الضوء اللامع، ج 8، ص 120 : تعريف الخلف، ج 1، ص 161 : نيل الابتهاج، ص 299، البستان، ص 248-249 : معجم أعلام الجزائر، ص 85.

(35)- انظر : البستان، ص 38-41 : معجم أعلام الجزائر، ص 159.

(36)- انظر : البستان، ص 253-257 : تعريف الخلف، ج 1، ص 166 : معجم أعلام الجزائر، ص 308.

Créé avec nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

إطلالة على الفكر السياسي الإسلامي في الجزائر
نموذج لأبي حمو موسى الزياني

د. قويدر بشار

الوسط الثقافي في الجزائر:

لعلّه من الصعوبة بمكان محاولة الإلمام بعناصر المحيط الثقافي في الجزائر إبان العصور الإسلامية الزاهرة، نظرا لإتساع الرقعة الجغرافية لهذا الوطن، وتعاقب الفترات التاريخية التي شكلت وسطا ثقافيا وتراكمات حضارية لاتختلف في الواقع من حيث الكم والكيف عن نظيرها في إحدى بلدان المشرق.

ولا نبالغ إذا قلنا أنّ ماساد في بلاد الشام أو العراق من مظاهر حضارية، له نظيره في المغرب، لكنّ الفارق بين المشرق والمغرب يكمن أساسا في جديّة الأبحاث المقامة والدراسات الحديثة حول هذا التطرّف أو ذاك.

والحقيقة أنّ الجزائر لم تحظ للأسف باهتمام المؤرخين كبلاد الشام أو العراق، ولعلّ ذلك سيزول في المستقبل عندما يلتفت أبناء هذا البلد إلى أهمية تراثهم وإلى خلّفه أسلافهم من رصيد حضاري وعناصر ثقافية كانت بالأمس تشع بأنوارها تضيء سبل الشعوب المغاربية وتنير طريقها وتوجّهها إلى مافيه الخير والصلاح.

يدل على ذلك دلالة واضحة ماتركه العلماء الجزائريون من مصنفات ومؤلفات تناولت مختلف التخصّصات، والتي كان بإمكانها أن تحتل مكانة مرموقة في الرصيد الحضاري للأمة الإسلامية والبشرية أيضا، لو حظيت بالعناية ونالت اهتمام الباحثين المعاصرين والمشرفين على الثقافة في هذا البلد[1].

رمهما يكن فإنّ هناك حقيقة تاريخية لاينكرها أحد وهي أنّ الجزائر كغيرها من البلدان العربية الإسلامية قد شهدت تطوّرا حضاريا رفيع المستوى خلال العصور الإسلامية الزاهرة، وقد أثبت ذلك عدد كبير من الباحثين المعاصرين الذين تناولوا بعض الفترات التاريخية للأمة الجزائرية، وأشار بعضهم إلى الدور الريادي الذي مثله العلماء والزعماء الجزائريون في الميدان الثقافي[2].

وإذا إتفقنا على أنّ ماقدّم لحد الآن لايعكس أصالة التراث الجزائري من حيث الكم والكيف، ولايخدُمه بالطريقة المرجوّة، فكيف الحال لو شحذت الهمم، ورصدت الإمكانات؟ لاشك أننا سنجد أنفسنا أمام تراث هائل ورصيد حضاري زاخر سيمثل دوره في إنعاش الثقافة للأجيال حاضرا ومستقبلا.

إنّ الحديث عن الثقافة في الجزائر لاتستوعبه هذه الدراسة، وإنما هي محاولة من المحاولات التي تهدف إلى الإشارة وتثير الهموم والخواطر، أما مجال التحقيق والتدقيق فهو من إختصاص الباحثين المهتمين بهذا الفنّ العريق في هذا البلد المفدى.

ولنمكّن القارئ من الإطلاع على الخطوط العريضة للموضوع، إقتصرنا هنا على محاولة جمع أبرز الخصائص والمميزات التي شكلت إحدى روافد الثقافة الإسلامية وهو الفكر السياسي الإسلامي[3]، وأتبعناه بالعوامل المساعدة لهذا الفكر في الجزائر على إعتبار أنّ لأبناء هذا البلد مساهمة لاتقل أهمية عن مساهمة غيرهم في بلدان إسلامية أخرى.

خصائص ومميزات الفكر السياسي الإسلامي :[4]

سبق لي طرح هذه المسألة في كتابي «الفكر السياسي الإسلامي»، وأرى أنّه لامانع من محاولة إدراج بعض الخصائص والمميزات في هذه الدراسة تعميما للفائدة وربطا للمواضيع بعضها ببعض.

Créé avec nitroPDF professional
téléchargez la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

ولقد تميّز الفكر السياسي الإسلامي بمميزات عديدة، ساهم في توضيحها عدد هام من العلماء والمفكرين مشرقا ومغربا، ونظرا لصعوبة تحديد مظاهر هذا الإنتاج الفكري لأنّه يحتاج إلى دراسة مستقلة فإننا إكتفينا بمحاولة رصد أهم خطوطه العريضة تاركين المجال مفتوحا لمن أراد البحث والتعمّق في مثل هذه المسائل الحيوية في تراثنا العربي الإسلامي.

ويمكن حصر هذه الخصائص والمميزات في النقاط التالية :

1 ـ تأثرت الكتابات في الفكر السياسي الإسلامي بالمفهوم العام لتوجيهات القرآن الكريم والسيرة النبوية الشريفة، تأثرا واضحا في طرح النظريات وفي إختيار الأمثلة، فظهر منهج العدل والشورى أساس معظم الكتابات السياسية، وسيطرت فكرة الأخلاق الحميدة وحسن النية وصدقها سيطرة واضحة على معظم من رُشّحوا للحكم في الدولة الإسلامية.

2 ـ إنّ واقع الدولة الإسلامية يُعد مصدر إلهام المفكرين السياسيين المسلمين فإلى عصر النبوّة إستنبط معظم المفكرين السياسيين نظرياتهم وآراءهم السياسية، فهو يُعد بحق العصر المثالي الذي تحققت فيه المثل العليا للإسلام، وهو عصر التأسيس الذي مورست فيه معظم النظريات السياسية الإسلامية ممارسة ميدانية وشكّلت النموذج المفضّل لحياة المجتمع الإسلامي.

3 ـ تبنى المفكرون السياسيون بعض الأطروحات السياسية المستمدة من التراث الفارسي، واعتبروا الدولة الساسانية الفارسية نموذجا مثاليا لذلك، كما إعتمدوا على بعض النظريات والحكم المستنبطة من التراث الإغريقي والهندي.

4 ـ وجد المفكرون السياسيون مادة خصبة لهذا الفكر في تجارب خلفاء وأمراء الدولة الإسلامية منذ نشأتها حتى فترة عصرهم، فجاءت كتاباتهم متضمّنة لعدد هام من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة والممارسات الميدانية لعدد هام من قادة الدولة الإسلامية.

5 ـ لم يهمل المفكرون السياسيون تجاربهم الخاصة ومواقفهم الشخصية إزاء الأوضاع السياسية التي عاصروها.

6 ـ إرتبط الفكر السياسي عندهم بالفكر الأخلاقي وحاولوا إحداث التجانس بينهما في معظم الممارسات السياسية، فالسياسة عندهم أخلاق قبل كل شيء.

7 ـ إنّ العمل السياسي في نظر المفكرين المسلمين لايهدف إلى إحلال السلم وتوفير الرخاء فحسب، بل إلى ضمان الحياتين الدنيا والآخرة.

8 ـ أدان معظم المفكرين المسلمين التعسف والظلم، وأشار كثير منهم إلى الأخطاء والحماقات المرتكبة في إطار هذا المنهج وانتقدوا ذلك إنتقادا شديدا، وخاصة تلك التصرفات التي تخرج عن دائرة الشرع.

9 ـ لم تعد فكرة السياسة الرشيدة تقتصر في نظرهم على فن الحكم وإنما تعدّتها إلى مجالات أخرى منها السياسة الإقتصادية والعمرانية وغيرهما من المجالات الحيوية.

10 ـ معظم الكتابات السياسية طرحت موضوع الإصلاح السياسي بشكله العام المحايد وتجاوزت الأفكار المذهبية والحساسيات الطائفية.

11 ـ تميّزت الكتابات السياسية عند المفكرين المسلمين بالإعتماد على منهجين أساسيين أحدهما يعكس الجانب النظري وثانيهما يعكس الجانب العملي فيتعرّض إلى فنون الحكم وأساليب التسيير.

12 ـ في إطار هذين المنهجين عرض المفكرون السياسيون مادة الفكر السياسي الإسلامي وصنّفوها ضمن أطر ومحاور أساسية يمكن إيجازها فيما يلي :

أ ـ المحور الأول ويهتم برأس الهرم في السلطة وهو الملك فيتناول الآداب السلطانية وعلاقة الحاكم بأعوانه من ولاة وقضاة لاسيما الوزراء منهم.

ب ـ المحور الثاني ويتناول قضايا إصلاح الجيش والإقتصاد وما شابه ذلك من القطاعات الحيوية في الدولة

Créé avec nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

ج ـ المحور الثالث ويناقش مظاهر المعاملات ومسائل إحترام القوانين الشرعية والآداب العامة وهو مايعرف عندهم بـ «الحسبة والمحتسب».

الفكر السياسي الإسلامي في الجزائر

ساعدت عوامل كثيرة على نمو وتطوّر الفكر السياسي الإسلامي في الجزائر في العهود الإسلامية إبان العصر الوسيط، ولاشك أنّ مسألة البحث حول مثل هذه المواضيع رغم جديتها وطرافتها فإنها تؤدي بنا إلى مسالك متخصّصة لانريد الولوج إليها في مثل هذه الدراسة، وحسبنا هنا مجرّد الإشارة إلى خطوطها العريضة.

وليس الغرض من ذلك سوى جلب إنتباه الدارسين الباحثين في حقل الدراسات الإسلامية في الجزائر إلى أهمية مثل هذه المواضيع ونجاعتها في بعث التراث العربي الإسلامي في الجزائر.

إنّ العلماء والمفكرين الجزائريين في العصر الإسلامي الوسيط لايختلفون عن أترابهم من علماء المشرق في القاهرة أو في بغداد ودمشق، فقد كانت تربطهم علاقات ثقافية متينة وجادة فتأثّر بعضهم ببعض.

ولاشك أنّ هناك عوامل عديدة ساهمت مساهمة فعالة في بناء هذا الصرح الحضاري، وفي نشر هذا المناخ الثقافي، والتي يمكن إيجازها فيما يلي :

1 ـ حرية العلماء الجزائريين في التنقل على المستوى الإقليمي وعلى المستوى الدّولي والقيام بالرحلات العلمية شرقا وغربا.

2 ـ كثرة خزائن الكتب النفيسة في الجزائر، وإحتوائها على تعداد هام من التخصّصات.

3 ـ رعاية الملوك والأمراء الجزائريين للعلماء والمفكرين ومساندتهم ماديا ومعنويا.

4 ـ كثرة مجالس الأدب وحلقات العلم في معظم المدن والحواضر الجزائرية.

5 ـ الصلات الحميمة ومراسيم الإحترام القائمة بين الحاكم والعالم في الجزائر مكّنت هذا الأخير من الجمع بين النشاط الفكري ومباشرة الوظائف الحساسة في الدولة.

6 ـ مثلت المساجد في الجزائر دورا هاما في خدمة الثقافة وتزكية جهود العلماء والمفكرين، ومع مرور الزمن صارت أشبه بالدّور الذي تقوم به الجامعات في عصرنا الحالي.

7 ـ تبنى العلماء والمفكرون الجزائريون لمناهج تعليمية جيدة كانت محطّ إعجاب المؤرخين ومنهم إبن خلدون الذائع الصيت.

8 ـ تنوّع ثقافة العلماء الجزائريين وسعة أفقهم مكّنت طلاب العلم من الإستفادة منهم وتبني أفكارهم ومحاولة نشرها والترويج لها في الجزائر وخارجها.

9 ـ تنوّع أفكار العلماء في الجزائر بتنوّع المذاهب والفرق وشيوع مظاهر الجدل والنقاش العلمي والمناظرات بينهم.

10 ـ إنعكاس هذا التنوّع بظهور مؤلفات كثيرة شملت علوما شتى وخدمت تخصّصات عديدة[5].

11 ـ آثار هجرة علماء الأندلس إلى الجزائر واستقرار عدد كبير منهم في مدنها وحواضرها أعطى دفعا قويا لتطوّر العلوم والفنون في الجزائر عبر مراحل تاريخية عديدة.

إنّ هذه العوامل التي حاولنا جمع بعضها والإشارة إلى بعض خطوطها العريضة في التراث العربي الإسلامي في الجزائر، وإنّما هي حقائق تاريخية يجد الباحث صداها ماثلا في أيّة محاولة فاحصة لمظاهر تاريخية لأي فترة من فترات تاريخ الجزائر الثقافي.

ولعلّ مايدل على ذلك بوضوح ـ وعلى سبيل المثال ـ الفترة التي عاش فيها أحد أقطاب الفكر السياسي الجزائري وهو السلطان «أبو حمو موسى الزياني» الذي

nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

نعتبره نموذجا حيا لتلك العوامل التي ساهمت في إرساء قواعد الحضارة والتطوّر الثقافي في ربوع هذا البلد.

المناخ الثقافي لأبي حمو الجزائري :

يرتبط التكوين الثقافي والسياسي لأبي حمو موسى بالتطوّر الحضاري الذي شهدته مدينة تلمسان العريقة [6]. ففيها تربى وترعرع، وفيها حكم وألّف، وعنها كرّس كلّ إهتماماته وأفنى حياته من أجل أن تعيش هذه المدينة في ذاكرة الشعوب وفي مرآة التاريخ.

ويرتبط التطوّر الثقافي والحضاري في مدينة تلمسان إرتباطا وثيقا بمجهودات سلاطينها وأمرائها، وهناك إشارات كثيرة في مصادر تاريخ المغرب إلى هذه المساعي النبيلة.

لقد إعتاد سلاطين وأمراء تلمسان على محاولة جعل هذه المدينة قبلة العلماء والباحثين المتخصّصين في جميع المجالات، وتشهد الروايات التاريخية شهادات صادقة على نشاط هؤلاء العلماء، وعلى تضحياتهم الجسام من أجل بعث الثقافة وترويج العلوم في ربوع هذه المدينة.

ونتج عن هذا الاهتمام الدؤوب ظهور مجالس العلماء المتنوعة تنوع الفنون والآداب المطروحة للنقّاش عصرئذ، فارتفع مستوى المناظرات في شتى العلوم والآداب، وتطوّرت مناهج التدريس ومظاهر التحصيل العلمي تطوّرا ملحوظا لدرجة أنّ العلاّمة إبن خلدون أشاد بذلك وأعجب به إعجابا بليغا.

وصحب هذا التطوّر الثقافي تطوّرا مماثلا له في ميدان المؤسسات التعليمية ودور الثقافة وخزائن الكتب والمصنّفات التي لاتختلف من حيث الفن المعماري والدور الحضاري عن مثيلاتها في بلدان المشرق.

ونخصّ بالذكر هنا الجامع الأعظم بتلمسان الذي مثل الدور الريادي في هذا المجال إلى جانب المدرسة التاشفينية وغيرها من المدارس التي بنيت في تلمسان

وخارجها وكانت شبيهة بالمدارس النظامية التي عرفتها مدينة بغداد في أزهى عصورها الحضارية.(7).

وفي هذه المدارس إشتهر علماء وذاع صيتهم لافي تلمسان فحسب، بل في معظم العواصم المغاربية والمشرقية أيضا، كما تخرّج منها طلبة بلغوا الدرجة العلمية التي بلغها أساتذتهم ومثلوا دورهم الحضاري في نشر العلوم والمعرفة في ربوع الجزائر وخارجها أيضا.

ولسنا بحاجة إلى الإشارة إلى أسماء هؤلاء وإلى تخصّصاتهم لأنّ ذلك يتطلّب دراسة مستقلة، وقد قام بذلك بعض الباحثين الجزائريين ممن نعتزّ بأبحاثهم في هذا المجال(8).

لكنّ الذي لاخلاف حوله هو أنّ أبا حمو عاش في وسط حضاري وفي مناخ ثقافي رفيع المستوى فتأثّر به وأثّر فيه، حتى قيل أن عصره كان العصر الذهبي لتاريخ تلمسان الثقافي خاصة ولتاريخ الجزائر عامة.

ولاجدال في ذلك فالرّجل تربى في أحضان العلماء المجتهدين منذ نعومة أظافره وأخذ عنهم كلّ علم نفيس، ولاشك أنّ هؤلاء قد شعروا بنباهة هذا الشاب الطموح فلم يبخلوا عليه بسرّ من أسرار الفنون ولاحرموه من منهج ناجع حتى صار الرّجل ملهما في معظم الفنون ومدركا لمختلف العلوم والآداب.

ولقد أشاد بذلك معظم من أرّخوا له، أو تحدّثوا عن أطوار حياته قبل إمارته على تلمسان أو بعدها، ويدل على ذلك دلالة واضحة ماخلّفه هذا من آثار فكرية متنوعة، والتي تعكس بجدّ مدى قدرته على الإستيعاب والتحصيل وعلى الإبداع وحسن التفكير.

إنّ آثار أبا حمو الكثيرة تحتاج إلى إهتمام الباحثين في مختلف التخصّصات وهي تُمثّل صورة صادقة لتاريخ الجزائر الثقافي والحضاري في الفترة الهامة من تاريخ هذا البلد المفدى (9).

Créé avec nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

لقد كتب هذا السلطان العالم في مجالات عديدة وناقش مسائل وقضايا كثيرة، يصعب التعلّيق عنها في هذه الدراسة التي تهدف إلى محاولة الإشارة إلى فكره السياسي دون سواه، لأنّ للمجالات الأخرى أصحابها وهم أقدر من غيرهم على بيان ذلك وإجلاء غموضه وإدراك معانيه وأغراضه(10).

الفكر السياسي في نظر أبي حمو :

ترك أبو حمو آثار فكرية دلّت على سعة أفقه وعلى إطلاعه الواسع في ميدان الثقافة العامة من أدب وشعر، وهي تعكس بصدق مستوى الثقافة والتحصيل العلمي في الجزائر في ذلك الوقت(11).

ولاشك أنّ مثل هذه الآثار لاتزال محتاجة إلى من يبحث عنها ويدرسها حتى تعطى لها قيمتها الحقيقية وتمنح لها أهميتها وفعاليتها في المجتمع الجزائري عصرئذ(12).

وفي الحقيقة فانّ الذي يعنينا من هذا التأليف هو كتابه الذي سماه «واسطة السلوك»، إذ به، دخل أبو حمو عالم الفكر السياسي وفيه وضع تصوّره للمَلِك الصالح أو الحاكم المثالي.

والظاهر أنّ أبا حمو لم يستخدم في هذا الكتاب كلّ طاقته الفكرية ولم يوظّف كل قدراته العقلية، وإنما جاء هذا التأليف على شكل برنامج عمل ومجموعة نصائح عملية، قدّمها هذا الرجل لإبنه «أبا تشفين» المرشح للإمارة بعده : «وقد وضعنا لك، يابني هذا الكتاب... وجمعنا لك مايصلح لك بين أمور الدنيا والآخرة...»(13).

فالغرض من الكتاب حينئذ هو محاولة رسم قواعد السياسة وتنظيم الملك، لولي العهد في الجزائر حين يستقل بالسلطة بعد أبيه (14) وهذه الظاهرة ليست جديدة في تاريخ الدولة الإسلامية، في الجزائر أو غيرها من البلدان حيث اعتاد الملوك تربية ولاة العهد تربية تؤهلهم إلى تحمل المسؤوليات الهامة في المستقبل.

لكنّ الجديد عند أبي حمو هو جدية الطرح والتكفل بالمهمة بنفسه وإعطائها العناية الكافية لدرجة التأليف والإصرار على ضبط الأفكار وتوضيح الرؤية وغيرها من مظاهر الإجتهاد في المسائل الحيوية التي أشار إليها كما سنلاحظ.

إتبّع أبو حمو في كتابه «واسطة السلوك» طريقة تربوية إعتمد فيها على التوجيه وإسداء النصيحة، مستخدما في ذلك منهجين جوهريين أحدهما يعتمد إعتمادا أساسيا على الفكر السياسي النظري أي تقديم وجهات النظر في القواعد السياسية الحكيمة، وثانيهما يعتمد على الفكر السياسي العملي أي الأفكار المستمدة من الواقع الذي عاشه وخاض غماره في الميدان من خلال تجربته الشخصية كملك للجزائر أو من خلال أمثلة عن بعض الحكام والملوك الذين سبقوه.

ولاشك أنّ الربط بين هذين المنهجين ليس بالأمر السّهل، وخاصة عندما يتعلّق الأمر بمسائل حساسة كمظاهر الفكر السياسي مثلا. ولئن دلّ ذلك على شيء فإنّها تدلّ على نباهة هذا الكاتب وعلى قدرته على التحكم في مناهج التربية والتوجيه.

إنّ كتاب «واسطة السلوك» يحتل موقعا وسطا في الفكر السياسي كما يدل عليه عنوانه، فهو يتوسط بين المنهج النظري والمنهج العملي لقواعد السياسة من جهة، ومن جهة أخرى فإنّه يستجيب لظاهرة معقّدة في الفكر السياسي وهي محاولة الربط بين التوجيه الأخلاقي أي المظاهر الخُلقية والخصال الحميدة التي ينبغي للحاكم أو الملك وحاشيته التحلي بها، والتوجيه السياسي أي ضبط قضايا الحكم والتسيير وتدبير شؤون الدولة.

ومما لاشك فيه أنّ محاولة ربط هذه المعادلات بعضها ببعض، وتوضيحها وتيسيرها وجمعها ضمن كتاب واحد موجه إلى ولي العهد لايزال يخطو خطواته الأولى في عالم السياسة ومكايدها، ولم تصقل الأيام والتجارب ذهنيته بعد، ليس بالشيء اليسير إبلاغه.

إنّ مسألة توضيح آراء أبي حمو السياسية وأطروحاته في قواعدها الشائكة ليست عملية سهلة، وإنّما تتطلّب دراسة عميقة تفهم أفكار هذا الرجل وأهدافه التي كان يرجو الوصول إليها من خلال هذا الطرح.

Créé avec nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

وحسبنا في هذه الدراسة مجرد الإشارة إلى الخطوط العريضة لهذه الأطروحات تاركين المجال مفتوحا إلى غيرنا عساهم يوفقون أحسن منا في توضيح الرؤى، وتيسير سبل الفهم العميق لمثل هذه المسائل الفكرية الهامة.

قدّم أبو حمو كتابه «واسطة السلوك» في أربعة أبواب :

- **الباب الأول** ويتناول مجمل النّصائح السياسية العامة وتدور أفكاره حول قواعد المُلك والوصايا والآداب والحِكم المرشدة إلى الطريق الصحيح، المؤدي إلى النجاح في الدنيا والآخرة، وهي في عمومها الإلتزام بالعدل والتقوى والمحافظة على الأموال والعناية الفائقة بالقوة العسكرية وعناصر الجيش.[15].

- **الباب الثاني** ويتناول فيه أركان المُلك وقواعده الأساسية، وما يحتاج المَلك إليه لترتيب وإقامة سلطته، ويمكن تحديدها عموما فيما يلي : العقل والحكمة، السياسة الرشيدة، العدل والإنصاف، الإعتناء الشديد بقضية الأموال والإهتمام التام بشؤون الجيش.

ونشير هنا إلى أنّ هذا الباب هو أهم الأبواب الأربعة في كتاب أبي حمو، لما يحتوي عليه من أفكار عميقة تدور معظمها حول قضايا الفكر السياسي من الناحيتين النظرية والعملية أيضا.

وفي هذا الباب كما في غيره حاول المؤلف المزج بين الفكر السياسي النظري وبين تجاربه الخاصّة التي إعتبرها نموذجا من نماذج السياسة الرشيدة التي يجب على إبنه وولي عهده إتباعها.

والواقع أنّ ما في هذا الباب يعكس صراحة وجهة نظر المؤلف في معظم المسائل السياسية ومنها على سبيل المثل تصنيفه لرتب الملوك حسب درجات سياستهم وحكمهم في التسير وتحمل المسؤوليات وهي على التوالي:

- من الملوك من له عقل وظّفه لإصلاح دنياه وآخرته ومثاله في ذلك الخليفة الأموي «عمر بن عبد العزيز»[16].

- من الملوك من له عقل وظّفه لإصلاح دنياه دون آخرته ومثاله في ذلك ملوك الفرس وبعض الخلفاء الحازمين من بني أمية وبني العباس.

- من الملوك من له عقل وظّفه لإصلاح آخرته دون دنياه ولم يشر إلى مثاله عن هذا الصنف.

- من الملوك من له عقل لم يوظّفه لا لإصلاح دنياه ولا لآخرته ومثاله في ذلك الخليفة الأموي الوليد بن يزيد والخليفة العباسي الأمين بن هرون الرشيد.

ومن الطبيعي أن يكون أفضل الأصناف عند المؤلف هو الصنف الأول من الملوك الذين تمكنهم قدراتهم من النجاح في إصلاح شؤون الأمة الدنيوية دون التفريط في مصالحهم الأخروية وهي بمعنى آخر التوفيق في المزج بين مايسمى بالسياسة المدنية والسياسة الدينية، أي أنّهم يقومون بشؤون الأمة ويرعون مصالحها على أكمل وجه دون المساس بأدنى قواعد الشريعة الإسلامية.

وفي نظره أنّ النجاح في هذا المزج مطية للنجاح في السياسة العامة وسبيل مثالي لدوام السلطة واستقرار حياة الأمة نظرا لما فيه من عدل وانصاف ولما يحققه من أمن واستقرار على الصعيدين المادي والمعنوي أو الزماني والروحي.

ومع تفضيل أبي حمو لهذا الصنف وإعجابه به فإنّه لم يتنكّر لأهمية الصنف الثاني من الملوك وهم الذين يصلحون أمور دولتهم على حساب آخرتهم، لأنّ أصحاب هذا الصنف عادة ما يوفّقون في إصلاح شؤون الأمة بتكوين دولة قوية تستجيب لمصالح المجتمع وتحقق من خلال ذلك تطوّرا وارتقاء في مجالات عديدة تساعد على دوام الدولة واستقرار السلطة بها، وبهذا يكون أبو حمو قد أجاز فكرة دوام الدولة حين يلتزم الحاكم بالعدل والعمران دون مراعاة قواعد الشرع.

وأمّا الصنف الثالث والرابع من الملوك فلا دوام لسلطتهم ولا استقرار لدولتهم، ففي نظره أنّ من يصلح دنياه على حساب آخرته أو يصلح آخرته على حساب دنياه، فإنّ مصير دولته آيل للزوال والخراب.

Créé avec nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

وحدّد أبو حمو بعض مظاهر هذه السياسة وهي في عمومها تخالف منهج العدل في الرعية وما يصحب ذلك من مظاهر الظلم والإستبداد واحتكار السلطة والمسؤوليات من قبل أناس ضعاف الشخصية لايربطهم بالأمة غير مصالهم الخاصة.

وفي ظلّ هذه السياسة المقيتة تقع التجاوزات وتفرض الإلتزامات غير القانونية وغير الشرعية كإرهاق الأمة بالضرائب ورفع أسعار المعيشة وغير ذلك من التصرفات الجائرة التي لا تخدم الصالح العام.

وهناك أمثلة عديدة لسياسة هذا الصنف من الملوك والحكام، ولاشك أنّها معروفة عند الكثير نظرا لما عانت منه الشعوب الإسلامية ماضيا وحاضرا للأسف الشديد، وقد نعود إلى التعليق عن هذا الموضوع لاحقا.

ومصدر هذا يعود إلى أهمية الصنفين الأولين وإلى إحتياج الأمة الإسلامية إلى تأكيد ذلك باستمرار هذا من جهة، ومن جهة أخرى نلاحظ أنّ المؤلف «أبا حمو» منح لهذا الموضوع جلّ أفكاره النظرية والعملية معا. ولذلك يعدّ هذا القسم من أهم أقسام كتابه «واسطة السلوك».

ففيه يعكس ملاحظات وأفكارا ثاقبة تدل دلالة واضحة على عمق تفكيره وعلى سعة إطلاعه وفهمه للفكر السياسي الإسلامي كما تبرهن إنتقاداته الصائبة لبعض المواقع السياسية والأحداث التاريخية على وعي بصير بشؤون الأمة الإسلامية (17).

لعل أهم مظاهر ذلك تركيزه على مسألة العقل، حيث إعتبره حجر الزاوية لأهم أفكاره السياسية، بل جعله أول قاعدة من قواعد أركان السلطة واللّبنة الأساسية في صرح فكره السياسي : «والعقل غريزة يضعها الله تعالى حيث شاء، وهو نور يقذفه تعالى في القلوب الفاضلة»(18).

ولهذا نلاحظ أنّ أبا حمو يشترط على الملك أو السلطان أو من نصّب للمسؤولية الحساسة أن يكون متميّزا بعقل نير يصوّب به الرأي ويتخذ به القرار، ومن ثمة يسلك به السلوك الحسن في جميع المجالات وفي كل المواقف والحالات.

وينعكس هذا الإمتياز على كلّ تصرفات الملك في تدبير شؤون دولته ومنها على وجه الخصوص حسن إختيار الأعوان من قواد وقضاة وولاة ولاسيما الوزراء إذ بصلاحهم تستقيم كلّ مظاهر تدابير سياسة الدولة.

ولا يتمكّن الملك من ذلك إلا إذا كان - إلى جانب سداد عقله - مطلّعا على المراسيم السلطانية وعلى دراية فائقة بتصنيف الرجال ومعرفة مراتبهم حتى يضع كلّ واحد من أعوانه في الموضع الذي يتلاءم وشخصيته وحتى يتمكّن من أداء واجبه على أحسن مايرام.

فالعقل والمعرفة في نظر أبي حمو كفيلان بسدّ أي ثغرة في تسيير شؤون الدولة، أمّا ماعدا ذلك فالأمر هيّن إذ أنّ فطنة الملك وحسن تدبيره يخولانه لحلّ القضايا المطروحة وإعداد العدة للطوارئ المستجدة من حين لآخر كما سنلاحظ.

ومن بين القضايا التي أولاها أبو حمو العناية الخاصة هي قضية الإهتمام بالمسألة المالية دون تحديد مظاهر الإصلاح الإقتصادي، وإنما يطرح المسألة من زاوية مايسمى بفكرة جمع المال وإدخاره أو الحفاظ عليه لما له من دور فعال في العمران وفي بناء قوة الدولة من الناحية المادية المعاشية ومن الناحية العسكرية.

ويعتبر أبو حمو ظاهرة الإهتمام بالجيش وإعداده الإعداد الصحيح، ركنا أساسيا وقاعدة متينة من قواعد السياسة الرشيدة، وذلك باختيار القادة الأكفاء والأمناء، ويركز على موضوع الشجاعة والتضحية وحسن تنظيم الجيوش، ويحذّر تحذيرا شديد اللّهجة من إرتكاب الأخطاء في هذا الموضوع الحسّاس لما له من صلة وثيقة بأمن الدولة واستقرارها.

وما من شك في أنّ الجهاز العسكري عبر تاريخ الدّول يعدّ العمود الفقري لنجاح الدولة أو فشلها، ولعلّ هذه الأهمية هي التي جعلت من أبي حمو يركّز تركيزا خاصا على هذه المسألة حيث إعتبر الخطأ في تكوين هذا الجهاز أو في تسييره وترتيب شؤونه يؤدي إلى الهزيمة والفشل وبالتالي إلى زوال هيبة الدولة وخرابها

Créé avec nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

وينتقل أبو حمو بعد ذلك إلى توجيه النصائح العامة في ترتيب شؤون الدولة وهي لاتخلو من طرافة وعمق في التفكير منها على سبيل المثال الإلتزام باليقظة والحزم لاسيما في الأوقات الحرجة، كحلول الشدائد ومواجهة الأعداء.

ومن ذلك إختيار أكفأ رجل من أعوانه يكون وزيره وحافظ أسراره يدّخره للمهام الصعبة فيستعين بسداد رأيه ونجاعة خبرته واختيار ملجأ سريّ له، وجواد من عتاق الخيل، وأثمن الجواهر وأغلاها لتشغل كلها في الأوقات الصعبة وخاصة عندما يباغته عدو قوي ماكر.

وما من شك في أنّ مثل هذه التوجيهات لم تكن وليدة التفكير النظري فحسب، بل هي وليدة تجارب ميدانية كان هذا الرجل قد عاش بعضها خلال حياته السياسية في الجزائر أو لاحظ مظاهرها في المحيط السياسي المغاربي الذي تأثر به قبل إعتلائه السلطة وأثناءها.

والظاهر أنّ هاجس هجوم عدو شرس ومباغت كان يراود فكر أبي حمو باستمرار مما يعكس لنا صورة صادقة عن أحوال دويلات بلاد المغرب في ذلك الوقت.

ولذلك فقد أصرّ في كتابه على التحذير من مغبة هذه الظاهرة ولم يدخّر وسعا في توجيه إبنه وولي عهده إلى إتخاذ الحيطة والتدبير لمواجهة مثل هذه الأخطار المحتملة.

إنّ تحليل المؤلف لبعض المواقف وآراءه من أجل الإنتصار على العدو تحمل فكرا سياسيا مرنا يجعل من سياسة صاحبه -ليست قادرة على الصمود والتصدي فحسب- بل ردّ العدو على أعقابه مهما كانت الظروف ومهما كان الثمن.

ومن أجل تحقيق هذا الغرض فإنّ أبا حمو يوجه إبنه وولي عهده إلى كلّ الإحتمالات المتوقعة، بل يدعوه إلى إستخدام كل أنواع الحيل والدّهاء والمكر والخداع؛ فالغاية عنده إنقاذ الدولة قبل كلّ شيء.

والعدوّ في نظر هذا السلطان المحنّك يتميّز عموما بثلاثة أصناف: الصنف الأول عدو قوي، والصنف الثاني مساو في القوة، وأما الصنف الثالث والأخير فهو العدو الضعيف، وعلى ضوء هذه الأصناف يحدّد أبو حمو المواقف إزاءها ويفصّل في الإجراءات الكفيلة باتخاذ أنجع السبل للوصول إلى حلّ المعضلة حلاً جذريا مهما كلّف الأمر.

وحول هذه القضية يركز المؤلف على العناية الفائقة بمسألة الجوسسة وأهميتها في تقصّي أخبار وتحركات العدو كإجراء أساسي قبل إتخاذ أية مبادرة : «أن تكون لك جواسيس في بلاد العدو، يرتقبون أفعاله عن البعد والدّنو، وعيون تلاحظ أعماله، وتشاهد أحواله، لا يفارقونه ليلا ولا نهارا، ... فكلما رام هذا العدو خداعا، وأظهر فيك أطماعا، جاءت الجواسيس بأخباره... فتأخذ في قوام مدافعته...».

ومن مظاهر هذه السياسة على سبيل المثال في حالة خشية هجوم عدو قوي إستخدام الأموال والهبات لإغراء أهم رجالات العدو وأصحاب القوة الفاعلة في دولته لإستمالتهم وتلطيف العلاقة معهم قصد حثهم على العدول عن مهاجمته.

وإذا لم تحقق هذه الخطّة أهدافها فعلى الملك أن يلجأ إلى أخرى أكثر فعالية وهي على سبيل المثال إستخدام الحيلة والدّهاء كمحاولة إثارة البلبلة والفتنة بين عناصر العدو، وأعطى أمثلة كثيرة حول مظاهر هذا الأسلوب من أساليب السياسة مثل محاولة تزوير مراسلات على لسان قادة ووزراء العدو، تشهد على تواطئهم وعلى خيانتهم، فيلقي البلبلة بينهم.

وفي حالة ما إذا لم تنجح هذه الخطة أيضا، فعلى الملك أن يلجأ إلى محاولة إستخدام كلّ وسائل التضييق على العدو وهو في معقله فإن تمكّن من الضغط عليه وإخراجه من تحصيناته وبالتالي العدول عن مهاجمته فذلك هو المبتغى وإن لم يحصل ذلك وبقيت جيوش العدو متماسكة وقادرة على مهاجمته في أي لحظة، فإنّه يتحتّم عليه كحل أخير هو الفرار من الهيجاء إلى أبعد نقطة ممكنة حتى إذا فكّر

nitroPDF professional
téléchargez la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

هذا العدو في عملية الهجوم نال منه العناء نيلا كبيرا قد يكون مطية لانكساره وفشله في آخر الأمر.

وفي كلّ هذه الإجراءات يركز أبو حمو على مسألتين جوهريتين أحداهما اليقظة التامة لتحركات العدو ورصد أطماعه، وثانيهما الرأي السديد في إتخاذ الموقف الحاسم لتحقيق الإنتصار وحماية الدولة.

وفي الحالتين يعتمد المؤلف إعتمادا أساسيا على منهج الحيلة والمكر والدّهاء، والحرب عنده هي «الخدعة» قبل كلّ شيء، ولعلّ مصدر هذه الأفكار تعود أساسا إلى الظروف السياسية الصعبة التي عاشها هذا الرجل في معظم تحركاته على المسرح السياسي في الجزائر في ذلك الوقت.

ولا شك أنّ أكبر المعارك الحاسمة في التاريخ البشري لم تحسم بالقوة العسكرية والعتاد الحربي فحسب، وإنّما بحنكة القادة وقدرتهم على المناورة والتمويه وغير ذلك من فنون وأساليب إدارة الجيوش وحسم الصراعات ومظاهر الإقتتال.

مما يزيد من فعالية هذه المقترحات التي قدّمها هذا الرجل لإبنه وولي عهده بهذا الشأن الأمثلة الواقعية والتجربة الميدانية التي طبّقها على أرض الجزائر إبّان عملية إرساء قواعد دولته في هذا الوطن[19].

ومع ذلك كلّه فإنّه يوصي أيضا بتفادي مواجهة العدو القوي مواجهة مباشرة، وعدم الدخول معه في صراع مكشوف مهما كانت الظروف، فإن كان لابد من الإصطدام به فإنّه يفضّل ضربه من الخلف لا من الأمام، لما لهذه الخطة من وقع سيء على معنويات العدو المهاجم وعلى تشتيت قواته وإثارة سوء التنظيم بين صفوفه.

وحين يتحدّث أبو حمو عن هذه الخطة فإنّه لاينطلق من أفكار نظرية وتصوّرات خيالية، وإنما كان حديثه مبنيا على أصول واقعية وعلى إجراءات ميدانية كانت تمارس في عصره وتطبع العلاقات الحربية بطابعها المميّز، ومن ذلك قوله : «أنّ العدو إذا قصد بلادك وأراد قهرك ونكادك، فإنّه يأتيك بجميع أحشاده وأنصاره... ويترك بلاده خالية من الحماة، ومعرضة للآفات، فتقصدها أنت لفرصة

تنتهزها... فإنّه إذا سمع العدو أنّ قد أوقعت في بلاد الشتات، وشتنت عليه الغارات مرضت نفسه لذلك، وأيقن أنّه واقع في المهالك...»

وإذا لم تنجح هذه الخطة لأي سبب من الأسباب فإنّ أبا حمو يقدم بديلا آخر لا يقل أهمية عن سابقه ويتمثل في محاولة التضييق على العدو والإجتهاد في قطع خطوط رجعته، وبذل الجهد في تشتيت إهتمامه حتى لا يركّز على خطة محكمة، وغير ذلك من المحاولات التي تربك العدو وتفسد تنظيماته وتدابيره.

والهدف من كلّ ذلك حسب وجهة نظر هذا المنظر أنّ الملك إذا أراد أن ينجح في صراعه ضدّ أعدائه فإنّه يتحتّم عليه إستخدام الحيلة والمكيدة في إتجاه العدو في كلّ وقت وفي أي مكان يتحرك تجاهه حتى لا يستفحل أمره، ويتحكم في زمام أمور الحرب.

قال أبو حمو مخاطبا إبنه بخصوص هذا الشأن : «ولا تترك من أتباعه ـ العدو ـ من يتحرك في حيلته، فيكره مقامه ويجنح إلى رحلته، فلا يزل ذلك دأبك مساء وصباحا، حتى تضيق عليه المسالك قتالا وكفاحا،... ويصير محصورا بعد أن كان حاصرا ومقهورا بعد أن كان قاهرا...».

والظاهر أنّ أبا حمو حين يطرح هذه الآراء ويجتهد في إبداء الرأي والنصيحة يحاول قدر الإمكان طرد شبح الهزيمة وتفاديها بكلّ مالديه من أفكار وما إكتسبه من خبرة في الميدان.

ولعلّ ذلك مايفسّر لنا طرحه لكلّ الخطط والمكائد الحربية بكلّ تفاصيل وقائعها الميدانية، سواء أكان ذلك على مستوى الجيوش القوية أو على مستوى الجيوش الضعيفة، فالحرب عنده دائما ينبغي أن تضبط خططها وأن يكون الهدف منها دائما الإنتصار وحماية الدولة بأقل تكلفة ممكنة.

ومن ذلك ما طرحه على مستوى مجابهة العدو المتكافئ معه في القوة حين يقرّر حتمية غريبة ويصرّح بها بوضوح قائلا : «أنّ المطلوب يغلب الطالب حتما...!؟» ويوضح ذلك ميدانيا وبالأدلة والخطط الحربية القائمة دوما على

Créé avec nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

الاجتهاد في الرأي والحزم وعلى استخدام الدّهاء والمكر، ففي نظره أنّ المطلوب أقوى من الطالب جلدا وصدرا، فلا يأمن الطالب منه متى اجتهد في ذلك، ويعطي أمثلة حيّة حول ذلك منها ثقل جيش الطالب، وكثرة حركته مقابل خفّة الجيش المطلوب ورزانته وتحصنه في معاقلة وغير ذلك من الأمثلة التي خاض هو نفسه ميدانها حين تعرضت دولته للهجمات المتكرّرة من طرف أعدائه المتربصين به، وينهي حديثه عن هذا الموضوع بتشجيع إبنه وولي عهده على خوض غمار الحرب إن فرضت عليه ويهنئه بالنصر إن هو أحكم الخطّة وأجاد في حَبْكِ الخدعة.

وأما إذا كان العدو ضعيفا فإنّ المسألة هينة نسبيا، شريطة أن لا تكون مصحوبة بالغرور وما يصحب ذلك من مظاهر عدم الإكتراث وحسابات العواقب، وفي هذا المجال يظهر أبو حمو حازما يقظا في كلّ الحالات، فهو لاينقص من قيمة العدو الضعيف، بل يطالب بضرورة إتخاذ الحيطة والحذر، مسترشدا في ذلك بالتجارب الميدانية وبالخبرات التاريخية، فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة.

وخلاصة هذه التجربة يحصرها في منهجين أساسيين: أحدهما إختبار الوقت المناسب للهجوم وثانيهما إحكام الخطة والتدابير التي تجعل من هذا الهجوم عملية فعالة مؤثرة على معنويات العدو بأقل الخسائر الممكنة.

ويتضح ذلك في قوله : «... فينبغي حينئذ أن تغزوه مرتين في السنة، ولا تغفل في يقظة ولا سنة، وذلك في زمن الصيف والخريف وحين تستوي الخيرات من بلاده... فتأكل زرعهم في أوان حصاده، وثماره في إبان جنائها، وتزلزلها في جميع أنحائها، حتى تضيق عليه كلّ التضييق، وتخرج الرعية من طاعته بالتشتيت والتفريق.

وهذه هي خطة من بين الخطط التي إقترحها أبو حمو لمجابهة العدو الضعيف، فإذا أردنا أن نحلّل هذه الخطة وحدها فقط أدركنا جيّدا سعة أفق الرّجل وخبرته من الميدان العسكري والسياسي أيضا، فمسألة ضرب العدو إقتصاديا لها تأثير قوي على معنويات العدو ماديا ومعنويا، ولم يتفطّن لها من القادة العسكريين إلا القليل بعد أن تطوّرت فنون الحرب تطوّرا كبيرا.

وأبو حمو لا يقف عند حدود هذه الخطة بل يواصل تزكية تأثيرها على معنويات العدو، وذلك بالإستيلاء على حصونه ومحتوياتها واحدا تلو الآخر، وفي المقابل تبنى البروج والتحصينات حتى لا يفكّر العدو في إسترجاعها مرّة أخرى. لأنّ القبضة قد أحكمت حولها، ولأنّ فعاليتها لم تشل فحسب، وإنما صارت تخدم مصلحتك بعدما كانت في خدمة عدوك.

ومع كلّ هذا يطرح المؤلف خطةً عامة لمجابهة العدو سلميا كخطّة ختامية تتمثّل أساسا في إستخدام المرونة وليونة المعاملة، وذلك باستمالة العدو إلى المصالحة والمهادنة ربحا للوقت وحقنا للدماء.

وهو حين يطرح هذه المسألة يدرجها ضمن إطار المكيدة ومخادعة العدو وتفويت الفرص عليه، ويعتبر هذا الإجراء من بين الإجراءات الحاسمة لمجابهة الأعداء لما لها من فعالية على مستوى التصدي للعدو والحدّ من تأثيرات عداوته على أمن واستقرار الدولة.

فالعدو في نظره لا أمان له مهما كانت نياته، ولذلك ينبغي أن تكون مصالحته ومهادنته جزءا من أجزاء الصراع ضدّه والكيد له : «...أن تحاوله بالمصالحة والمهادنة، فتكون مصالحتك له جملة من المكائد، ومن الدّهاء الذي يبلّغ للمقاصد. لأنّ مصالحة العدو متى تظفر به مكيدة، وتلك سياسة وكيدة، وإن كانت عند الناس مذمومة، وصفتها بالغدر موسومة، فهي عند الملوك محمودة، وآثارها مشهورة...».

والحقيقة أنا أبا حمو في هذا الموضوع قد سبق «مكيافلي» في النظرية القائلة بأنّ الغاية تبرّر الوسيلة، فهو رغم إعترافه بأنّ مخادعة العدو والهجوم عليه بعد مهادنته ومصالحته موقف مذموم، إلا أنّه يستحسنه من وجهة نظره كسياسي، مهمته الأساسية كسر شوكة عدوه من أجل الحفاظ على دولته.

ففي هذا الإقتراح يبالغ الرجل في إكرام العدو، وينصح إبنه وولي عهده بالإسراف والمبالغة في إستمالته بفيض جزيل العطايا والهدايا «حتى يظن أنّك تخاف... وحين يستأنس [illegible] يقترح أبو حمو إنتهاز الفرصة

بالإعلان عن مهاجمته وضرب قواته في العمق، معلقا على هذا الموقف بقوله : «فإذا فعلت ذلك على حين غفلة، فيرجى لك الظفر به من أول وهلة...».

وفي كتاب أبي حمو أفكار سياسية كثيرة لاتخلو من طرافة ولعلّ أدق ما فيها خبرته وعمق تفكيره في مزجه بين الفكر النظري ومحاولة تطبيقه ميدانيا سواء أكان ذلك عن طريق منهج إسداد النصيحة لولي عهده أو منهج رصد خبرته الميدانية وتقديمها كأمثلة واقعية للأفكار السياسية المقترحة.

ويتضح [illegible] تناوله لبعض المسائل الحساسة التي تدخل في إطار المواصفات العامة للملك وما ينبغي عليه مراعاتها، ومنها على سبيل المثال مسألة الشجاعة والفراسة وصلتها بالتكوين السياسي للملك، حيث قدّمها هذا المصلح تقديما جيدا دلّت دلالة واضحة على عمق تفكيره السياسي وعلى منهجه في هذا الميدان أيضا.

إنّ أبا حمو حين تناول قضية الشجاعة والفراسة في كتابه «واسطة السلوك» لم يتناولها من زاوية الإشادة بها واستحسانها كصفة ينبغي على الملك التحلي بها، وإنما طرحها من زاوية أخرى حين حلّل مضامينها وعمّق فعاليتها في تكوين شخصية الملك وفي آثارها على إتخاذ مبادراته وقراراته «إعلم يابني أنّ الشجاعة وصف محمود، وبها يتفاخر الوجود... وأصل الشجاعة الصبر في المواقف، وربط الجأش عند المخاوف، ورأسها الحذر والتوقي، وسياستها الممارسة عند التلقي».

إنّ الشجاعة في نظر هذا المصلح ليست خصلة حميدة ما لم تقترن بحسن التدبير أي أنّ قيمتها الحقيقية فيما تحقّقه من نفع في الميدان ولصالح حماية الدولة على وجه الخصوص، ولذلك يصنفها إلى أربعة أصناف هي :

- أن تكون مصحوبة بالرأي.
- أن تكون مصحوبة بالعقل دون الرأي.
- أن تكون غير مفرطة.
- أن لا تكون مصحوبة بالعقل ولا بالرأي.

Créé avec nitro PDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

وأفضل الأصناف عنده هي الأولى لجديتها ونجاعتها في الميدان، ولتوضيح ذلك نجد أبا حمو يستعرض أمراء كثيرين ونظريات عديدة تدور معظمها حول مسألة إعداد الجيش وتنظيمه وترتيب صفوفه وغير ذلك مما يدخل في إطار ما يسمى بالفنون العسكرية وترتيبات القيادة قبل الحرب وأثناءها.

ومن فرط إهتمامه بالموضوع وجدنا الرجل يدقّق في كل مسألة يتعلّق بهذا الموضوع، فهو إذن قد حوّل فكره ووعيه وإخلاصه من أجل حماية الدولة إلى تعليمات ميدانية أصرّ على ولي عهده بضرورة العناية بها، مما يدل على أنّ الرجل لم يكن يعنيه تقديم نصائح وإرشادات بقدر ما كان يهدف إلى تكوين دولة قوية تراعي فيها كل إمكانيات البقاء والديمومة.

ويدل على ذلك دلالة واضحة طموحه إلى تكوين قائد يتحلى بكل المواصفات الحميدة ومنها على وجه الخصوص الشجاعة بالرأي على حد تعبيره. وهي التي يعتمد فيها الملك على سياسة رشيدة في كلّ مواقفه الحربية تجاه عدوه : «وإذا إقتحمت القتال، فغايتك أنّ تكون حاكما على نفسك صابرا ثابتا في جأشك..» ويأخذ بعد ذلك في الحديث عن كيفية قيادة الجيش قيادة حكيمة، ويدل حديثه حول هذا الموضوع عن خبرة ميدانية واسعة نظرا للتفاصيل التي أجاد في تقديمها[20].

وأما الأصناف الأخرى من الشجاعة فلا يعتبرها أبو حمو ذات نفع نظرا لقلّة مردودها وفشلها في الميدان «فهذا يابني شجاعته مذمومة وبالجهالة موسومة وهي في الحقيقة هور والعمل بها خطر...».

وبنفس المنهج الذي إتبعه في الحديث عن الشجاعة، تناول به قضية الفراسة، حيث إعتبرها ركنا هاما من أركان السياسة، وميزة أساسية لا ينبغي للملك إهماله لما لها من تأثير بالغ على مستوى إدارة الدولة وحمايتها من الأخطار.

وأبو حمو حين يتناول قضية الفراسة فإنّه لا يربطها كعادته بمدى قدرة الملك على استعمالها ميدانيا موضحا ذلك بالأمثلة الواقعية وبالأدلة المقنعة، والتي تدل

Créé avec nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

في عمومها على خبرة واسعة في هذا الميدان كما في غيرها من الميادين السياسية الأخرى.

الفراسة في نظر أبي حمو ينبغي أن تكون ملازمة للملك حاضرة في كلّ تصرفاته، وخاصة مع أعوانه ومستشاريه من وزراء وقادة وغيرهم من أهل المراتب والوظائف الحساسة في الدولة[21].

ويركّز تركيزا خاصا على الوزير لإعتبارات معروفة، ولأهمية الدور الذي يمثله صاحب هذا المنصب في الدولة، حيث يشير بل يلح على وضع هذا الرجل تحت المراقبة الدقيقة في كلّ الحالات حتى تتمكن فراسة الملك من معرفة قوة شخصيته في كلّ الأحوال.

ولمعرفة ذلك يضع أبو حمو جملة من التوجيهات يصعب التعليق عليها نظرا للأمثلة الدقيقة التي طرحها بهذا الشأن لكن يمكن إيجازها في مايلي :

إختيار الوزير عن طريق تمويهه بالتظاهر والإلحاح على مظاهر فاسدة لمعرف وجهة نظره الحقيقية حول ذلك، كمحاولة إظهار الشك في مواقف أحد الأعوان المخلصين.

عدم سماع الكلام من أول وهلة، بل يجب أخذ بحكم الفراسة على التفصيل والجملة.

- إختبار قوّة شخصية الوزير في حالة الغضب والرضى، فإنّ غضب أو رضي لأدنى الأمور فإنّه «ناقص العقل مضطرب الفعل، وإذا كان على العكس من ذلك فإنّه كامل العقل يمكن الإعتماد عليه، بعد التفرّس في حالة إنبساطه وانقباضه.

- ضرورة الإكثار من الكلام إليه لإستخراج ما في ضميره، وذلك عن طريق التلطف والإيناس والتألف.

- ونفس المنهج يتبع تجاه بقية الأعوان والمستشارين لمعرفة قدرتهم على كتم الإسرار وعلى الإخلاص للملك وغير ذلك مما يدخل في مثل هذه الإختبارات،

ومنها على سبيل المثال معرفة طباعهم ودراجات تملقهم و اصطناعهم في كل الأحوال (و كيفية اختبارهم أن تنظر إلى وجوههم في الحين فتتبيّن منهم أحوال المتحببين و غير المتحببين) لان الانبساط والانقباض يفيضان من القلب على الوجه...

ان الأمثلة الكثيرة التي طرح ابو حمو في مجال الفراسة تد ل دلالة واضحة على خبرته الواسعة في هذا الموضوع، وعلى تحكمه الجيّد في معرفة الطباع والأحوال النفسية، و مثل هذه المعارف لايحصل عليها إلا الخبراء النفسانيون ممّن شحذت هممهم التّجارب الميدانية وصقلت ذهنيتهم المحن والشدائد .

وتتّضح هذ ه الخبرة وضوحا بينا في معظم التوجيهات التي أشار إليها هذا الرجل و هو بصدد تلقين إبنه قواعد الفراسة وكيفية الإطلاع على أسرار الرّجال والوسائل المستخدمة في ذلك، ولا شك انّ مثل هذه الوسائل ليست سهلة وخاصة عندما يتعلق الأمر بتطبيقها على مستوى عال كما هو الشأن في هذا المجال الذي أشار إليه السلطان أبو حمو.

ونظرا للأمثلة الطريفة التي أجاد في إستحضارها هذا المصلح حول قضايا سياسية حساسة فإننا نرى من الأحسن إلحاقها بهذه الدراسة كما وردت في النّص الأصلي الذي كتبه أبو حمو وذلك تعميما للفائدة.

Créé avec nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

المصادر والمراجع :

1 - أبو حمو موسى، واسطة السلوك في سياسة الملوك.

2 - ابن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ...

3 - ابن خلدون، المقدمة.

4 - بشار، الفكر السياسي الإسلامي (تحت الطبع).

5 - بشار، المخطوطات في زوايا الجزائر (تحت الطبع).

6 - بشار، بغداد مدينة السلام، دار دحلب للطباعة والنشر، الجزائر، 1993.

7 - بشار، دراسات وأبحاث في التاريخ الإسلامي (سيصدر قريبا).

8 - بشار، آراء في إصلاح الدولة الإسلامية، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر، 1990 محمد بن عمرو الطمّار، تلمسان عبر العصور.

9 - محمد بن عمرو الطمّار، تاريخ الأدب الجزائري، الجزائر، 1969.

10 - عبد الحميد حاجيات، أبو حمو موسى الزياني (حياته وآثاره)، الجزائر 1394 هـ / 1974م.

11 - دائرة المعارف الإسلامية.

الهوامش

(1) أشرف على فرقة بحث، مهمّتها تقصي أحوال المخطوطات في الجزائر، ومن خلال هذا العمل أدركنا قيمة التراث الحضاري لهذه الأمة، وتأسفنا على قلّة المهتمين به، وتعاهدنا على إزالة الغبار عنه والترويج له كلما سمحت الفرصة بذلك.

(2) معظم أساتذة معاهد التاريخ في كل من جامعات وهران والجزائر وقسنطينة قاموا بمجهودات في هذا الإطار، وفيهم من نشرت أعمالهم لكن أغلبها لم تر النور للأسف.

(3) خصّصت لهذا الموضوع دراسة مستقلة سميتها «الفكر السياسي الإسلامي» وستصدر قريبا.

(4) للمزيد حول هذا الموضوع راجع، بشار، «الفكر السياسي الإسلامي»

(5) أقوم بالإشراف على فرقة بحث تحت رعاية وزارة الثقافة مهمتها تقصي أخبار المخطوطات في الجزائر، فعثرنا على عدد هام من مؤلفات العلماء والمفكرين الجزائريين، لاتختلف عماقام به علماء المشرق، بل تفوقها في بعض التخصصات. وهذا العمل يعدّ للطبع والنشر على شكل فهارس للمخطوطات في الجزائر وسيعرف النور قريبا إن شاء الله.

(6) إحدى أعظم المدن الإسلامية في الجزائر، كانت عاصمة للمغرب الأوسط في أزهى عصوره، وقد مثلت أدوارا تاريخية مهمة على المستوى المغاربي والإفريقي وعلى المستوى الدولي أيضا، وقد حضيت المدينة باهتمام مؤرخين عديدين منهم القدماء ومنهم المعاصرين، أنظر على سبيل المثال دائرة المعارف الإسلامية ـ مادة «تلمسان» ومحمد بن عمرو الطمار، تلمسان عبر العصور، عبد الحميد حاجيات، أبو حمو موسى الزياني، حياته وآثاره.

(7) عن تطوّر المدارس في بغداد، أنظر، بشار، بغداد مدينة السلام، ص 73 - 83.

(8) أنظر على سبيل المثال ماقام به كلّ من الأستاذ الدكتور عبد الحميد حاجيات في كتابه عن أبي حمو موسى الزياني، ومحمد بن عمرو الطمار، في كتابه "تلمسان عبر العصور"، وكتابه "تاريخ الأدب الجزائري".

(9) تناول هذا الموضوع الأستاذ حاجيات في كتابه السابق الذكر، كما حظي الموضوع بعناية الأستاذ محمد بن عمرو الطمار في كتابيه السابقين.

(10) لا يدّعي صاحب هذه الدراسة محاولة التخصص في مجال الفكر السياسي الإسلامي وإنّما يستهويه هذا التخصص وقد كانت له محاولة أخرى في هذا المجال وقد سبقت الاشارة إليها وهي «كتاب آراء في إصلاح الدولة الإسلامية»، وكتاب «الفكر السياسي الاسلامي».

(11) حول هذا الموضوع راجع، المقري، أزهار الرياض، ج1، ص 239 وما بعدها، يحي بن خلدون، بغية الرواد، جـ 1، ص 23 وما بعدها. حاجيات، أبو حمو، ص 185 الطمار، تاريخ الأدب الجزائري، ص 239 وما بعدها.

(12) إهتم بإنتاج أبي حمو عدد قليل من الباحثين نذكر منهم، الأستاذ محمد الطمار في كتابه، تاريخ الأدب الجزائري، والأستاذ عبد الحميد حاجيات في كتابه، أبو حمو موسى الزياني.

(13) أبو حمو، واسطة السلوك.

(14) مسألة ولاية العهد من المسائل الهامة في سياسة الدولة الإسلامية ونظرا لتأثيرها على واقع الدولة الإسلامية في مراحل عديدة من تاريخها فقد أفردت لها حديثا خاصا في كتابي [illegible] في التاريخ الإسلامي الوسيط.

(15) يتطرّق أبو حمو في هذا الباب إلى ذكر ثلاثة قصائد شعرية من تأليفه: الأولى في الفخر والثانية في التقوى ومدح الرسول (ص)، والثالثة فيصوّر بها نجاحه في إستعادة تلمسان وترتيب الدولة الزيانية. وسوف لن نتعرّض إلى هذه القصائد لأنها لاتعنينا الآن في مثل هذه الدراسة عن هذه القصائد أنظر كتاب واسطة السلوك، ص 5 ـ 7 و 10 ـ 11 و 15 ـ 19 على التوالي.

(16) من أشهر خلفاء الدولة الإسلامية، تولى الحكم عام 99هـ / 717م، أغلب المؤرخين معجبين بسياسته وعدله، وتعتبره القدوة الحسنة لكلّ حاكم مسلم، ويلقبونه بـ «عمر الثاني» أي بعد عمر الأول وهو «عمر بن الخطاب» الخليفة الراشدي، ونظرا للمكانة المرموقة التي يحتلّها إبن عبد العزيز فقد تناولته المصادر باسهاب فتحدّثت عن عدله وعن رجاحة سياسته، عكس الخليفة الوليد بن يزيد الأموي والخليفة الأمين العباسي اللذين اشتهرا بسوء التدبير وفساد الرأي في معظم مراحل تجربتهما في حكم وسياسة الدولة الإسلامية.

(17) أشار أبو حمو في معرض حديثه وفي مناسبات عديدة إلى سوء تصرف بعض الحكام والملوك المسلمين السابقين لعهده وانتقدهم انتقادات شديدة وفي نفس الوقت مدح بعضهم وتبنى مظاهر سياستهم لما فيها من صلاح لشؤون الأمة واستقرار الدولة. عن تفاصيل ذلك أنظر الملحق الخاص بهذه الدراسة.

(18) أبو حمو، واسطة السلوك، ص 29.

(19) عن تجربته الخاصة في هذا الميدان، راجع، حديثه عن سياسته وتجربته في الحكم من خلال الإشارات التي أشار إليها في كتابه واسطة السلوك.

(20) اعتمدنا اهمال ذكر تفاصيل هذا الموضوع نظرا لقلة فائدته الآن بعد تطوّر فنون الحرب وآلياتها الحديثة. وأما قيمة الموضوع من الناحية التاريخية فلا جدال حول أهميتها.

(21) «وينبغي أن تكون فراستك في وزيرك وكاتبك، وقاضيك ومفتيك، وصاحب شرطتك، وصاحب أشغالك وقوادك...»

Créé avec nitro PDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

القسم الأول

جـ ـ التاريخ القديم

Créé avec
nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

صور من حياة الريف في إفريقيا الرومانية من خلال مشاهد الفسيفساء*

أ. د. محمد البشير شنيتي

تظهر لنا في الخرائط الأثرية لشمال إفريقيا بقايا دور الملاك الكبار للأراضي، وعلى مسافات منها أمارات القرى وأكواخ الخدم والعمال التي تلاشت آثارها لهشاشتها وبقيت أطلال الدور الكبرى والضيعات لمتانتها. إنها تلك الدور التي عثر في أرضياتها على لوحات فسيفساء تعكس مشاهد لها وللحياة التي كانت تدور من حولها.

لقد أمكن التعرف من خلال تلك النماذج على صور للحياة اليومية في عالم الريف بكل مكوناته. فهي تقدم لنا مناظر للنشاط الفلاحي كما كان معاشا، وبواقعية تكاد تكون صورا فوتوغرافية للنشاط الريفي اليومي وسط بيئة تضم فونا وفلور عايشهما الإنسان وتنفس معهما الحياة، فهي تعد بذلك وثائق حية لأهل زمانها.

لقد وجد صناع الفسيفساء وهواتها من الرومان في الطبيعة الإفريقية مايساعد على إنتشار هذا اللون الزخرفي وإزدهاه. إن إفريقيا (أقصد الشمال) المتوفرة على أنواع جيدة من الرخام ذي الألوان الجميلة قدمت مادة خام ثمينة لورشات الفسيفساء فنشطت وانتشرت وذاع صيتها، فظهرت على جدران وأرضيات المباني العامة ودور الأثرياء كي تثير لدى أصحابها إحساسا بالرفاهية المنسجمة مع مناخ المنطقة.

(*)- نص محاضرة ألقيت في جمعية الآثار بالإسكندرية يوم 22 أبريل 1992

Créé avec nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

لقد تنوعت موضوعات المشاهد في الفسيفساء، ولكنها أخذت طابعا ميثولوجيا في المباني العمومية، بينما حرص أصحاب الضيعات والدور الخاصة الريفية على أن تكون مناظرها عاكسة لحياتهم اليومية. وهكذا أصبحت الزخارف خاضعة لارادة أصحاب المباني وأذواقهم. إن ملاك تلك الضيعات والدور الريفية لم يكن يهمهم سوى العالم المحيط بهم، فكانت اللوحات المفضلة لديهم تلك التي تبرز عالمهم الخاص : أهلهم وأملاكهم، خدمهم وحيواناتهم، نشاطاتهم اليومية في الحقول والمزارع. لقد كانوا حريصين على تجسيد ذلك في مشاهد الفسيفساء كي تصبح حياتهم أكثر غبطة وحبورا بما تزخربه من نشاط متنوع : صيد وقنص، أو تجوال في الحقول ثم إرتخاء في بستان الضيعة تحت ظلال الشجر الوارف... ومن ثم كان بناة الفسيفساء يستلهمون مشاهدهم من الطبيعة ويستمدون تفاصيلها من الحياة اليومية. فكان الفنان يتأمل الطبيعة الحيّة ويجسدها بكل دقة وواقعية، من بناية الضيعة إلى مشاهد الحرث وقطف العنب، وجني الثمار ولانطلاق إلى الصيد أو العودة منه بعد ملاحقة الطرائد. إن تنوع المشاهد المتبقية على أرضيات الدور الريفية وتبيان تقنياتها يدل على أن صناعها لم يكونوا يرددون صورا خزنوها في ذاكتهم لمناظر متواترة كمشاهد المتولوجيا الإغريقية الرومانية التي تفص بها فسيفساء المباني الحضرية. لقد كانو حريصين فيما يظهر على الواقعية المرتبطة بتباين مناظر المحيط الطبيعي فجاءت مشاهدهم صورا متنوعة ثرية بعوالم ريفية غنية بالحيوية زاخرة بالمعلومات التاريخية. وهكذا نلاحظ حرص فسيفسائي الدور الريفية على أن يتوفر المشهد على نماذج من الوسط الطبيعي المعاش والنشاط اليومي لصاحب الضيعة فيه : أشجار متنوعة يحتويها عقاره، نباتات مختلفة، أزهار وورود تفضلها سيدة المنزل، حيوانات مستأنسة وبرية كانت محل قنص وصيد.

وكثيرا مايحرص الفسيفسائي على وضع شخصيات المشاهد في حركات معبرة عن نشاطهم اليومي لخدمة السيد. وذلك بجعلهم في أوضاع مختلفة وأنشطة متباينة تبعا لطبقاتهم الإجتماعية، فنرى بعضهم يحرث والآخر يقطف. وذلك يعزق الأرض وبعضهم يسقي أعشاب [illegible] يقدم خدمات لسيده، وأخرى

لسيدتها... وهكذا... ولم يهمل الفنان ملابس الأشخاص فجعلها متمايزة من حيث النوع واللون والزخارف تبعا لطبقاتهم الإجتماعية ودرجة قربهم من السيد. وثوب الخادم أو العامل العادي هو عبارة عن قميص يشده حزام على الخصر، لونه أصفر باهت، وهو لون الصوف التي تصنع منها الأثواب عند العبيد والفلاحين الأتباع. ويرتدي الخدم عادة أثوابا طويلة ودافئة في الشتاء وقصيرة وخفيفة في الصيف، وكثير من العمال يبدون حفاة الأرجل وبعضهم يلبس خفا مشدودا بسيور (خيوط) على الساق، هو أشبه بماكان يرتديه الفلاحون الفقراء في الأرياف المغاربية قبل سنوات، وهو عبارة عن قطعة جلد ثور أو بعير مربعة الشكل تشد بخيوط (حبال رفيعة) من أطرافها على الرجل والساق بعد لفها بخرق بالية. أما ثوب السيد فهو لا يختلف في الشكل أثناء الصيد عن أثواب خدمه وأعوانه، لكنه يفضلها نوعا وزخرفا ومتانة.

تظهر لنا مشاهد الفسيفساء الدور الريفية بكونها ذات أبراج قائمة على الزوايا الأمامية من جهاتها الأربع. وتبدو الأبراج أعلى من جسم الفيلا. والغرض من ذلك أن تكون مشرفة على العقار قصد المراقبة والحراسة، ولبعض الدور غرف عليا لها نفس الغرض بالإضافة إلى كونها توفر إقامة في جو منعش لفصل الصيف، وهذا الأسلوب ظل معمولابه في المباني الريفية الهامة إلى العصر الحديث (تدعى الغرفة) كما تظهر بعض الدورفي مشاهد الفسيفساء وكأنها حصون، تحيطها أسوار متينة عالية وأبراج، وذات بوابات حصينة (موناستير قرطاجة).

إن ذهنية التحصن والدفاع الذاتي هي التي أملت على المهندسين إختيار أشكال الدور الريفية ومخططاتها بشمال إفريقيا. وهو ماأكدته الدراسات الميدانية للمؤسسات الفلاحية. لقد تبين ذلك من خلال إتخاذ تلك الدور أشكال الأبراج بالإضافة إلى سمك الأسوار (حوالي متر وأكثر) فبدت الضيعات وكأنها حصون عسكرية.

nitro PDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

النشاط الريفي والإنتاج الفلاحي :

أبرزت لوحات الفسيفساء فكرة الربط بين الأنشطة الفلاحية ونظام الفصول. لقد رمزت لوحات كثيرة إلى الفصول الأربعة بشمال إفريقيا حيث نلاحظ في مشهد السيد يوليوس مثلا أن فصل الربيع رُمز له بالزهور، وللخريف بالأشجار المثقلة بالثمار كالتفاح والعنب. فنرى السيد يستقبل سلة عنب من خادمه وأرنبا بريا يقتنص في هذا الفصل. بينما رمز للشتاء بنفض الزيتون وجمع ثماره، وتلاحظ عودة أحد الخدم يحمل طائرا بريا يقتنص في الشتاء، في حين برز الصيف في منظر لحقل القمح الناضج وقطيع الغنم والماعز وراعيه المستظل تحت شجرة يعزف على نايه أنغام الغبطة والحبور، وأبرز لنا الفنان في نفس المشهد سيدة العقار تروح على نفسها لإبعاد الحر عن جسدها الذي يبدو عاريا في أعلاه وهي جالسة بين شجرات السرو السامقة.

وعموما يرمز للربيع بالزهور وللصيف بسنابل القمح وللخريف بعناقيد العنب وللشتاء بأغصان الزيتون المليئة بالثمار.

أبرزت لوحات شرشال (قيصرية سابقا) أعمال الحرث والبذر بشكل بارز لا يظاهي. حيث نلاحظ في اللوحة المسماة بأعمال الحقل، أشغال الحرث والبذر بين أشجار الزيتون والكروم التي نفضت أوراقها، وهو يرمز إلى حلول الخريف وإلى أن الحرث والبذر يجريان في تلك الفترة. كما نلاحظ في المشهد أثواب الفلاحين الشتوية. وهو منظر تكرره لوحات أخرى بشمال إفريقيا.

يظهر في لوح شرشال قيصرية أن الحرث يتم بمحراث يجره ثوران قويان. وهذه طريقة لا تزال مستعملة حتى الآن في الأرياف المغاربية، حتي نوعية المحراث وطريقة القرن وكيفية الإستخدام لم تتغير منذ ذلك الوقت. نرى الحراث في مشهد شرشال ممسكا بمقبض المحراث بيده اليمنى ويركز بقوة عليه كي تنغرس السكة وتتعمق أكثر. ويبدو على الثورين الجهد والإندفاع بقوة مما يدل على جفاف الأرض وحرص الفلاح على تعميق أثلامه. كما تبدو عملية البذر في الشريط الثاني من

نفس اللوح. وهي تتم بين أشجار الزيتون. مما يدل على أن الزراعة كانت مختلطة (شجر، حبوب) وهو ما يزال معمولا به في بعض مناطق المغرب العربي وبإيطاليا حتى الآن.

ويظهر البذار أمام الثورين بسلة البذور المشدودة إلى صدره وهو يمسكها بيده اليسرى ويبذر الحب باليمنى. وهي كيفية لا تزال مستعملة في وقتنا الحاضر.

بعد البذر والحرث يُترك الحقل على حاله إلي موسم الحصاد دون تدخل لتنقية حقول الحبوب (القمح) من الحشائش. وقد ذكر كولومال ذلك موعزا إياه إلى جودة التربة الإفريقية على عكس الأراضي الإيطالية التي كانت تتطلب أعمال التنقية. ولم نلاحظ في مشاهد الفسيفساء ما يشير إلى عملية تنقية حقول القمح أثناء الربيع عندما تكثر الحشائش الضارة بالمزروعات. مما يوحي بصدق كلام كولومال. مع أن النصوص التشريعية المنسوبة لمانكيا بشمال إفريقيا تشير إلى هذه الأعمال (العزق وتنيقية الحقول) كإحدى أعمال السخرة المطلوبة من المتعاقدين.

- الحصاد والدرس :

كثيرة هي اللوحات التي تعكس الأنشطة الفلاحية المتعلقة بجمع المحصول : الحصاد والدرس. ومناظرها تتسم بإبراز الحصدة بمناجلهم وهم في أوضاع العمل يمسكون السنابل بالأيدي اليسري والمناجل باليمنى في حركة حثيثة. وكذلك مناظر درس السنابل في البيدر على الهواء الطلق لملاءمة الطقس الإفريقي لذلك. ويجري الدرس بواسطة قرن مجموعة من الخيول أوالبغال إلى بعضها وإدارتها على طرحة السنابل لتدوسها فينفصل الحب عن السنابل. ويظهر فلاح يحث الخيل على الجري وآخر يعيد السنابل المتناثرة إلى الطرحة (البيدر).

ونلاحظ في مشاهد أخرى ذري المدروس لفصل الحب عن التبن بتعريضه إلى الرياح كما هو في الوقت الحاضر. ولا تبرز المشاهد في ضيعات العقارات عملية الدرس بواسطة العصي أو الذري بآنيات يدوية كما هو الشأن عند الفلاحين الصغار.

Créé avec nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

- الزيتون :

إن الزيتون والزيت إلى جانب الحبوب (القمح خاصة) هي مواد غذائية أساسية في شمال إفريقيا منذ العصور الغابرة. فالزيت مادة دهنية رئيسية في الأطعمة اليومية لجميع السكان. وهو أفضل وأنسب من الدهنيات الأخرى كالزبدة والشحوم الحيوانية لكون مناخ المنطقة يتطلب ذلك. كما يستعمل الزيت في أغراض أخرى كالإنارة الزيتية وصناعة الصابون وغيرها ولذلك ظهرت العناية بشجر الزيتون وإنتاج الزيت وتسويقه بين المقاطعات الإفريقية وروما التي أدخلته كمادة أساسية في الجباية (الأنونا) حيث إحتل الزيت المرتبة الثانية بعد القمح ويأتي بعده الخمر في الصادرات الإفريقية نحو روما وإيطاليا خاصة.

لقد توفرت الشروط الطبيعية الملائمة لشجرة الزيتون بشمال إفريقيا فنمت وانتشرت في البلاد بصفة طبيعية منذ عصور ماقبل التاريخ. فهي من النبات البري بشمال إفريقيا، وقد مثلت مشاهد الفسيفساء شجر الزيتون في معظم اللوحات الرومانية، سواء في شكل شجر مثقل بالثمار أو في حالة جني أو كأغصان زخرفية لتجميل مناظر اللوحات.

ومع ذلك ذكر بلين القديم أن شمال إفريقيا ليست بلد زيتون بسبب شيوع الرعي وعدم التحكم في الخريطة الزراعية في زمانه. حقيقة أن شجرة الزيتون تقتضي حياة الإستقرار في الريف وتعارض البداوة وتربية المواشي المضره كالماعز خاصة. ولذلك كان توسيع الخريطة الزراعية وتنمية غراسة الزيتون في العهد الروماني قد أبعد الرعي والبداوة عن المناطق التلية الزراعية في الشمال. ويذهب كثير من المؤرخين إلى القول بأن الإحتلال الروماني ساهم في تنمية زراعة الزيتون فأزدهرت الفلاحة الشجرية بشمال إفريقيا وتخلصت بلاد التل من خطر البداوة...

والجميع يعرف القصة التي رددتها المصادر العربية المتعلقة بفتح إفريقيا والتي مفادها إندهاش الفاتحين من الثروة الهائلة التي وجدوا عليها أهل البلاد فلما سألوا أحدهم أشار إلى نواة حبة زيتون فأدركوا السبب.

Créé avec
nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

تظهر لنا مشاهد الفسيفساء عملية جني الزيتون بالأيدي، وهي طريقة لا تزال مستعملة إلي الآن. وهي أفضل من القطف بالضرب على الأغصان بالعصي لأنها تتلف البراعم وتجرح الأغصان. كما تظهر سلال الزيتون في بعض المشاهد على العربات لنقلها إلى الضيعة. ولاتخلو أطلال الضيعات من شواهد لمعاصر الزيتون، مما يدل على أن عملية إستخراج الزيت من الزيتون كانت تتم في الضيعة نفسها، وهي طريقة لا تزال مستعملة عند الفلاحين الجبليين، حيث توجد عند الكثير منهم معاصرهم الخاصة. لكن هناك معاصر كبرى كانت قائمة بعيدا عن الضيعات بالمناطق التي شهدت حقولا واسعة لشجر الزيتون، وهي عبارة عن مصانع تحويلية قائمة على مادة الزيتون. نذكر منها "مركب" برزغن قرب مدينة تبسة الذي يتوفر على قرية للعمال وورشات مختلفة، فإزدهار فلاحة الزيتون ساهم في ظهور أنشطة مكملة.

الكروم والعنب :

يعود الفضل في إدخال زراعة الكروم ببلاد المغرب إلى الفنيقيين مع ماصحب ذلك من تقنيات زراعية وتنويع منتوجات العنب وتحويله إلى خمور أو تجفيفه، وما إلى ذلك مما كان محتاجا إليه. وقد ترك ماغون عالم الزراعة القرطاجي معارف هامة وقواعد علمية جيدة لهذه الزراعة وغيرها فاستفاد منها الرومان. ولكن زراعة الكروم وإنتاج العنب والخمور تعرضت للضرر وكادت تختفي بعد تدمير قرطاجة. حتي أن بلين القديم (القرن الأول ميلادي) إعتقد أن الكروم ليست من مزروعات شمال إفريقيا. ثم عاد الإهتمام بزراعة الكروم في الفترة التالية (القرن الثاني) التي إنتشرت فيها زراعة الزيتون، فأخذت أهمية العنب والخمور تتزايد في المنطقة حتي أصبحت جزاء من مغارمها.

تعكس لوحات الفسيفساء زراعة الكروم في شكل خطوط متوازية لا تختلف عما نشاهده اليوم في حقول الكروم بشمال إفريقيا وإيطاليا. لكننا نجهل إن كانت أشجار الكروم متباعدة، أو تتخلل صفوفها أشجار أخرى كالزيتون (لوحة طبرقة) أو غيرها.

وتبرز لنا مشاهد الفسيفساء شجرة العنب (الكرمة، الدالية) في أشكال مختلفة، منها القصيرة التي توضع تحت أغصانها دعامات عندما تكون مثقلة بالعناقيد (لوحة طبرقة) ومنها التي تطول أغصانها إلى حد أن القطف يتم بواسطة السلالم (لوحة شرشال) وهي كروم يمكن القيام بإستغلال الأرض تحتها كما هو مبين في لوحة شرشال.

- الأشجار المثمرة الأخري :

تتضمن مشاهدة الفسيفساء أنواعا من أشجار الفواكه المختلفة كالتفاح والأجاص والرمان، وهي أشجار يعود الفضل في إنتشارها إلى الزراعة الفنيقية - القرطاجية، حيث يعتقد أنهم جلبوها من الشام. وأشهر الأشجار المثمرة التقليدية هي التين الذي كان ثمره متميزا ومرغوبا في أسواق روما. ويذكر أن كاتوس أحد أعضاء مجلس الشيوخ الذي كلف من قبل المجلس عام 150 ق. م. للتحقيق في النزاع بين قرطاجة وجارتها نوميديا قد حمل معه تينات طرية وقدمها في مجلس الشيوخ قائلا إن هذا الثمر الطيب على مسافة ثلاثة أيام من أسوار روما وهو بيد عدوكم. كان ذلك ترغيبا لهم في إتخاذ قرار الحرب ضد قرطاجة... ولقد أدخلت روما ثمر التين في قائمة الغلال المفروضة عليها المغارم (الجباية = الأنونا). ولايزال التين ثمرا مفضلا عند كثير من الجبليين ببلاد المغرب، وهو يدخل في مدخراتهم الغذائية بعد تجفيفه ومعالجته. غير أن لوحات الفسيفساء تكاد تخلو من رسوم شجر التين، وهذا يفسر اقتصار المزارعين الرومان على الأرضي السهلية، أراضي الحبوب والكروم والزيتون، فأهملوا التين وتركون للأهالي.

أما الحوامض كالليمون والبرتقال فهي لا تلحظ في المشاهد ويعتقد أن الفضل في إدخالها إلي بلاد المغرب يرجع إلى العرب المسلمين في العصورالوسطى.

- الحيوانات الداجنة :

إن أشكال الحيوانات المتمثلة في مشاهد الفسيفساء أشبه ما تكون بالسجل (الكاتالوج) حسب تعبير أحد الذين درسوا الفسيفساء. لقد شمل لوح واحد من

Créé avec
30 nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

أنواع الحيوانات واحدا وعشرين نوعا، منها الداجن ومنها البري، كالطيور والدواب والغنم والبقر والخيل وما إلى ذلك. بالإضافة إلى حيوانات برية مفترسة كالأسود والفهود. وقد مثلت حيوانات الحمل والجر في حالة عمل بالحقول وفي أوضاع وظائفية متباينة، كما مثلت حيوانات الإستهلاك كالغنم في حالة رعي، كلوح السيد يوليوس الذي يظهر فيه القطيع راتعا وقربه الراعي يشدو ألحانا بمزماره القصبي، وغيره يعرض أمام سيده حملا صغيرا حديث الولادة... (لوحة طبرقة).

- الصيد أو القنص :

كان الصيد في إفريقيا الرومانية نشاطا مكملا لأعمال الفلاحة وتربية الماشية، فهو نوع من الحماية للحقول والقطعان من الحيوانات البرية المضرة، فالحيوانات الوحشية كالأسود والفهود والخنازير والدببة والذئاب والثعالب، وكذا الأرانب وحتى الغزلان، عندما تتكاثر تشكل خطرا على المزروعات والفلاحين والمواشي والدواجن بالضيعات.

وقد عكست مشاهد الفسيفساء أعمال المطاردة ضد هذه الحيوانات وتبرز فيها الأنواع حسب المناطق، ففي الجهات الجنوبية المحاذية للصحراء (قفصه مثلا) تظهر الغزلان. وفي السهوب الداخلية نرى حيوانات أخرى كالأسود، وفي المناطق الغابية تظهر الخنازير البرية خاصة.

وتبرز لنا المشاهد كيفية الصيد المتبعة بالنسبة لأنواع من القنائص (لوحة وذنة). وأشهر الكيفيات الممثلة بالنسبة للحيوانات الضارية هو الشباك، وكان يوضع على خنادق تحفر خصيصا وتغطى وتموه وتساق إليها الطرائد، أو يربط أمامها حيوان داجن يجذب الطريدة الجائعة فتقع في الشباك.

وكان خنزير الغابة أفضل الطرائد لأنه مرغوب جدا في الطعام عند الرومان، فكان من أفضل التقدمات على موائدهم، وكان كثير العدد ولا يزال بغابات شمال إفريقيا. خاصة وأن الأهالي لا يستهلكونه سواء قبل أو بعد الإسلام. (*)

(*)- للبحث ملحق يتضمن مشاهد الفسيفساء المعتمدة مع التعليق عليها، لكن العوائق التقنية حالت دون طبعه.

مصادر ومراجع البحث

Dictionnaire des antiquités Greques et romaines, III. 1918. P. 2088 - 2128.

La Mosaïque Greco-Romaine, C.N. R. S. Paris. 1965.

Enciclopedia d'ell' Art Antica vd. PP. 209 - 240.

P. Goukler "Musium Opus" Dict. ant. Gr. rom. III, (2).

Th. P. Ganoge. La vie rurale en afrique. romaine. 1966.

A. Merlin. " La Mosaïque du S. Julius de carthage". BCTH. 1912.

G. Boissier l'Algerie romaine.

Poissot, Lantier. "Note sur les etablissements agricoles d'épargne romaine". Bulletin. Ass. Not. Ant. de France. 1928.

Pline l'ancien. H. N. V. 3.

H. F. Comps. L'Olivier et L'huile. en Afrique romaine. 1956.

G.ch. Picord. La civilisation romaine en Afrique. du nord. 1965.

L. Leschi. "La vigne et le le vin dans l'afrique. romaine " et. Ep. 1918.

R. Billcard. La Vigne dans l'antiquité. 1961.

J. Aymard. Essais sur les chasses romaines. 1965.

R. Cagnat. L'annone d'Afrique. 1912.

ش. اندري جوليان . ترجمة مزالي، بوسلامة. تاريخ افريقيا الشمالية. ج. I تونس 1965.

م. البشير شنيتي التغيرات الإقتصادية والإجتماعية في المغرب أثناء الإحتلال الروماني. الجزائر 1984.

م. البشير شنيتي موريطانيا القيصرية دراسة حول الليهس ومقاومة المور. أطروحة دولة 1993.

Créé avec nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

أهمية حوض غدامس الحضارية منذ الألف الثاني عشر قبل الميلاد إلى عهد الإستقرار

د. إبراهيم بشي

ظهور الجفاف :

لقد واجه سكان الصحراء صعوبات كثيرة كالجفاف وتباعد المراكز العمرانية عن بعضها البعض فكان على الإنسان الصحراوي أن يصارع الموت في سبيل الحياة، لإنه لم يكن هناك عيش أو قوت يلبي حاجياته المختلفة، ولعل هذا هو السبب المباشر لإكتشاف حوض غدامس في المنطقة المحصورة طبيعيا بين الحمادة الحمراء في الجنوب الغربي من ليبيا. والعرق الشرقي الكبير في جنوب شرق الجزائر، وجنوب تونس.

وهذه المنطقة تشكل حوضا داخلها واسعا يطلق عليه حوض غدامس، يحده العرق الشرقي الكبير من الشمال الغربي. والحمادة الحمراء من الجنوب الشرقي، والجنوب بعض الأودية والشطوط من الشمال داخل الأراضي التونسية.

كما أن هذه المنطقة تشتمل على عدد كبير من الأحواض والشطوط الصغيرة المالحة، والكثبان الرملية العالية التي يزيد إرتفاعها عن الألف متر تكسوها بعض الأشجار النادرة في المناطق الأخرى مثل "العريش" الذي يرجع وجوده إلى 10.000 سنة ق م أي ما قبل العصر الحجري الحديث.

يضاف إلى ذلك أن هذه المنطقة غنية جدا بأدوات هذا العصر :الحجرية والطينية ومن خلال ملاحظتنا الميدانية لبقايا رؤوس النبل وسهام، التي أستخدمت

في ندارة الحروب كسلاح بين القبائل التي تصيد وترعى في هذه المناطق منذ بداية عهد الجفاف وظهور مايسمى بالصحراء في الوقت الحالي.

علاوة على وجود النباتات الأخرى مثل الحلفاء "الدرين" والبائل - المعروف محليا - وشجر الأزال الذي تعددت فوائده للحيوان والإنسان إذ يقبل على جمع أغصانه اليابسة كحطب لأنه قليل التدخين وإشتعال النار به مفضل لدى سكان البادية لسهولة جمعه وكسره.

وهذه المنطقة غنية بالمياه الجوفية وعلى أعماق مختلفة. ولهذا نجد الأبار المحصورة منذ العهد البزنطي والتركي متباعدة عن بعضها البعض. وليس هناك إشارات أو علامات تعرف بوجودها وإنماتحددها طرق معلومة من قبل سكان ورعاة هذه المناطق ولها أسماء متعارف عليها مأخوذة من أسماء الطبيعة والأشخاص الذين كثر ترددهم على المنطقة مثل " بئر أحمد، بئر فاطمة، وبئر لحرش، زمله الصابري، إميه عيسى، بئر الغرافة ...إلخ"

وتحدد المسافات بين مواقع هذه الأبار بمشي عدد الأيام على الأقدام أو الإبل. "يقال المسافات مثلا بين فاطمة والغرافة مدة ثلاثة أيام مشيا على الجمال". كما أن هناك من بين هذه المناطق الرملية العالية الإرتفاع من الكثبان الرملية يبلغ إرتفاعها أكثر من 1000 متر وتجدها أحيانا في شكل سلاسل رملية تسمى "بالغرود" ومفردها «غرد».والكثبان الأقل منه إرتفاعا يعرف "بالزملة" وهي تعادل الهضبة كما يعادل الغرف الجبل، والكثبان الرملي الأصغر منه الممتد على شكل سيف يعرف بالسيف وجمعه "سيوف". وإذا كان مرتفع فيه أشجار وليس فيه كثبان رملية يعرف "بالحدب" لإن شكله محدب. وهناك بعض الأودية الرملية أو الحصوية تتخللها بعض الكثبان الرملية وغالبا تكون مكسورة بنبتات موسمية وغير موسمية وتكون خضراء نسبيا ما بين شهري يناير وماي من كل عام تكون صالحةلرحي الإبل والأغنام وتجوب هذه المناطق بعض الحيوانات الأخرى البرية المتوحشة مثل الغزال والبقر الوحشي وحتى الزواحف كالأفاعي الصغيرة الحجم ويبدو أنها كانت توجد بكثرة منذ 527 ميلادي.

Créé avec nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

مدينة غدامس :

وفي المقابل هناك واحة تارخية تتربع في الهضاب تظهر على شكل جزيرة خضراء تفصل بين الأراضي الصخرية والرملية، ومحاطة بسور ويرجع تاريخ إنشاؤها إلى العهد الفنيقي أي ماقبل العهد الروماني أي 830 ق م. ومن بعض الأدلة المادية التي ترجح أن مدينة غدامس ترجع إلى العصر النيوليتي في هذه المنطقة، لإن هذا العصر تعد مخلفاته نتيجة إتصال التقاليد المحلية بما جلب من الخارج لإنه كان حديث العهد نسبيا ويظهر أنه لا يسبق تأسيسها بكثير4000 سنة قبل الميلاد. والعصر النيوليتي في بلاد المغرب القديم ممتد إلى العصور التارخية الأخرى. لإنه - حسب رأى بعض المؤرحين أن هناك إنعدام فترة إنتقالية تالية للعصر النيوليتي هي بالفعل من خصائص ماقبل التاريخ في منطقة حوض غدامس. لإن حتى الفنيقيين قد أسسوا مراكزهم التجارية الأولى في أتيكه أو عتيقة سنة 1100 ق م. وقرطاج المدينة سنة 814 ق م.

اذن كان هذا التأسيس في عالم ذي مدينة نيولتية ومدينة غدامس تدخل ضمن هذا المضمار. وقد لعبت دورا هاما فيما بعد في تجارج القوافل منذ القدم. وهذه الواحة اشتق اسم هذا الحوض من اسمها.

وغدامس اشتهرت بهدا الإسم منذ القديم الزمان حيث اطلق عليها المؤرخ اللاتيني بلينى الأكبر - الذي ولد سنة 23 م - إسم كيداموس CYDAMIS ويؤكد هذا المؤرخ في إشارته أن القائد الروماني كورنيلوس بالبوس قد غزاها سنة 19 ق .م. في حملة على البلاد فزان وما جاورها كما أن علاقة منطقة غدامس قبل ذلك ترجع إلى عصور ما قبل التاريخ وهذا ما دلت على الرسومات الصخرية التى تعتبر امتداد لرسومات التاسيلي الصخرية، وتتمثل في البقريات التى توجد صورها في أغلب المناطق التاسيلية، وربما الكثير منها موجود في المناطق الصخرية القريبة من غدامس التي غطتها الرمال ولم يبقى منها إلا صورة بقرة واحدة في الجنوب الغربي من مقبرة سيدي البدري في الجزء الصخري من الصور المقابل للثكنة القديمة (المتحف) حاليا.

ومن المحتمل أن هناك صور أخرى كثيرة ردمت بفعل الرياح أو الإنسان الذي أتلفها بعد إستقراره في هذه المنطقة، كما أن ثقافة ماقبل التاريخ واضحة المعالم في حوض غدامس من خلال مشاهد الأدوات والأواني الفخارية المنتشرة فيه والمتناثرة هنا وهناك والتى مازالت ماثلة للعيان كشاهد حي إلى حد الآن.

ويبدو أن الإنسان في حوض غدامس وما جاوره منذ ذلك الحين ترك آثاره واضحة من خلال أدواته التى بقيت موجودة بكثرة في هذه المنطقة. ولكن تعقب خطواته من طرف الباحثين كانت محدودة جدا وخاصة في فترة ماقبل التاريخ التي كانت لها وجود وإنتشار أكثر من تلك المنطقة في فترة أخرى، ومن خلال هذه البقايا الأثرية يمكن للباحثين الذين يطلبون المعرفة معرفة الإنسان الذي عاش في هذه المنطقة من خلال استخراجهم لآلات العصر الحجري الحديث من جوف العرق الشرقي الكبير والأودية والهضبات المجاورة لمدينة غدامس والدبداب ويدرسون لصور الناصعة المرسومة في الأودية القريبة من "بئر فاطمة" وغيره...، من عهد ماقبل التاريخ، ومن الأفضل للباحثين التنقيب في المقابر القديمة المتواجدة في المنطقة هنا وهناك ويخرجون جماجمهم قديمة من مدافنها مجاورة سور مدينة غدامس، وينقلون أهمها - أي أهم هذه الأدوات والأواني والجماجم والهياكل العظيمة - إلى المخابر لتحديد زمنها وعهودها، وبذلك يكونون قد نفضو التراب عن تلك البقايا، ويحفرون الأرض في هذا الحوض يجدوا بقية ما تركه أهل هذه المنطقة أو الذين عبروا عليها. ومن خلال التوصل إلى نتائج ملموسة، يمكن القول بأن تصبح منطقة حوض غدامس هي الأصل لبعض الثقافات وتعطي دليل على الإتصال الحضاري بالنسبة للإنسان القديم. كما أن قلة المدن في هذا الحوض - فيما بعد - ترجع إلى أن الإنسان بقي فترة طويلة يعيش في مرحلة يسودها الإضطراب والقلق لإن على - مايبدو أن تحرر نفس الإنسان الذي يدفعها إلى التطلع والإبداع لا يكون اذا لم يأمن الإنسان من الخوف والقلق[1].

ومن خلال الأدلة المادية أن انسان هذه المنطقة من المحتمل أنه كان يعيش في خوف دائم من ظاهرة الجفاف الذي حدث منذ سنة 10.000 ق. م . يضاف إلى ذلك

nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

أن هذا التحدي الطبيعي لم يعرفه الإنسان من قبل. وبالتالي من المحتمل أنه بقي زمنا طويلا في قلق واضطراب لم يتمكن من التكييف مع الظروف الجديدة. هذا فضلا من النزوات الداخلية والخارجية التى تعرض لها سكان هذه المنطقة من طفر أقوام أخرى يحتمل أنها كانت مدفوعة بحاجة للحصول على قوتها بعد أن جفت معظم الأنهار والأودية والبحيرات وقلت النباتات والحيوانات البرية، بفعل قلة الأمطار وزحف الرمال على أهم المراعي ومناطق الصيد وجفت الصهاريج... واتجه هؤلاء نحو منطقة حوض غدامس الغنية بالمياه لتعريض ذلك فوقع بينها وبين الأقوام التى سبقتها إلى تلك المناطق صراعات عديدة أدت إلى حروب طاحنة. تسببت في كثرة الأموات، ونهب الأموال، وهذا - على ما يبدو أنه قد أدى إلى قلة السكان في هذه المنطقة - وانحصر ذلك في مناطق تعمها ظاهرة انتشار المقابر والمدافن، وأدوات هذا العصر.

ولربما تعرض سكان هذه المناطق للإصابة بأوبئة قاتلة فتاكة أدت أيضا إلى انتشار هذه الظاهرة أو تعرضت هذه المناطق لهجرة جماعية نحو مناطق أخرى جذابة قد يكون العيش فيها أيسر، وتأمين الغذاء المطلوت أكثر "كنهر النيل مثلا".

وبالتالي قد تكون اجناس هذه المنطقة قد وضعت أسس المدينة التي انتهت إلى أيدينا اليوم بعد إكتشاف الزراعة وإستئناس الحيوان واستقرار الإنسان بالقرب من الأودية والأنهار.

وهذا دليل على الإتصال الحضاري بالنسبة للإنسان القديم من هذه المنطقة إلى مناطق أخرء مجاورة لحوض غدامس ويبدوا من الثابت اليوم أن الظاهرة إزدهار هذا العصر في منطقة حوض غدامس هي الإنتقال لنشاط الإنسان من الصيد والرعي إلي الزراعة وبناء المساكن والأسوار. كبناء واحة غدامس مثلا. وتنظيم الطرق البرية عبر الهضاب والوديان والرمال إلي إتجاهات مختلفة لا تزال آثارها باقية إلى اليوم. وعملية تنظيم الطرق في القديم قد ساعد سكان غدامس وغيرهم على توسيع وتبادل الخبرات والثقافات بينهم. هذا فضلا عن الغزوات الأجنبية التي تعضرت لها هذه المنطقة كحملة كورنيلوس بالبوس سنة 19 ق. م، غيرها ويبدو من خلال ماتقدم

ذكره أن موقع منطقة حوض غدامس قد يؤهله ليتضمن شروط حضارية تساعد على قيام نهضة عامة مزدهرة مستقبلا، لإن من شروط قيام الحضارة بصفة عامة تجمع عدة عناصر ضرورية لقيام حضارة إنسانية. وأهم هذه الشروط متوفر في منطقة حوض غدامس، أي وجود عنصر الأرض المناسبة، وهذه الأرض كما يشير المؤرخ الإنجليزي تونبي : أن هذه الأرض قد تستجيب للتحدي المتمثل في مقاومة ظاهرة الجفاف، وبعد المسافات بين هذه المنطقة وبين المناطق الحضارية الأخرى.

وقد تكون الإستجابة ظاهرة اذا توجه لها الإنسان المسلح بالعلم بعناية وجدية وتوظيف التكنولوجيا وإستثمار نسبة من عقدات الثروات البترولية التي تزخر بها هذه المنطقة وتوجيهها لبناء واستثارة تفاعل البيئة الطبيعية لاكتشاف أهم عناصرها وتسخرها لخدمة الإنسان لإستعاب أكبر عدد سكاني قد يخلف من حدة الضغط الموجود في المناطق الشمالية المتمثلة في الشريط الساحلي من القارة الإفريقية.

أهم أسباب تأسيس مدينة غدامس والظروف التي ساهمت في ذلك، يبدو من إشارة بعض المراجع المختصة في تاريخ هذه الفترة، فإن من المحتمل أن الظروف المناخية التي سادت جو حوض غدامس والصحاري المجاورة له في العصر الحجري الحديث كانت الدافع الأول لتأسيس مدينة غدامس. وكان موقعها المكان المفضل لإستيطان الإنسان الغدامسي القديم، بفضل ماكان يسقط عليها من أمطار وفيرة، وكان ينمو في هذه المناطق من نبات وحيوان.

ومع بدء العصر الحجري الحديث - من المحتمل - أصيب موقع حوض غدامس بالجفاف وزحف الرمال من الشمال الغربي، كما تسبب - فيما بعد - في تكوين سدود طبيعية من الكثبان الرملية، أدت إلى توقف مجاري الأودية الصخرية الآتية من الجنوب. واصبح تصرب المياه نحو الشمال بطيئا، نتيجة لزيادة تكاثف كثبان الرمال. وهذا ما ادى إلى تكوين بحيرات بالقرب من غدامس، زادت فيها نسبة الملوحة على السطح لتعرضها فترة طويلة لحرارة الشمس فحدثت عملية تبخر جزء كبيرا من مياهها ومع مرور الزمن أصبحت هذه المنطقة تحتوي على مخزون من

Créé avec nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

الماء، وبذلك تشكل إحتياطي مائي قد يساعد سكان هذه المنطقة على إستغلالها وإستثمارها في التنمية الإقتصادية، لتكون هذه المنطقة، منطقة جذب وإستقرار كبرين. يعين الإنسان في هذه المنطقة على زيادة إنتاجه الثقافي بالخصوص ويساعده على توفير الموارد الإقتصادية. وبالتالي تنتهي مرحلة القلق والإضطراب التي تسبب فيها عصر الجفاف في الماضي والحاضر والمستقبل. وقد تحرر نفس الإنسان في هذه المنطقة من عقدة العزلة، ويندفع إلى التطلع للمستقبل، ويتشجع للإبداع الفكري والمادي، هذا بعد أن يأمن الإنسان في هذه المنطقة بأن العناصر الحضارية متوفرة وأن العوامل المساعدة على ذلك سواء كانت فكرية أم مادية قابلة للتكييف، مع ما يعتبر تراث للإنسان في هذه المنطقة وما يجلب لها من تأثيرات حضارية من مناطق أخرى من أنظمة إجتماعية، وعادات إقتصادية وعقلية وخلفية جديدة وتهذيبها أثناء التمسك بها في سبيل الإحتفاظ بهذه العوامل مقاييس للأمل في البناء الحضاري في منطقة حوض غدامس.

أولا - العوامل الجيولوجية : أن حوض غدامس قد يكون في مرحلة تتوسط عصرين : عصر مطير رطب. قد يعاود الأرض بعد دورة الذبذبة المناخية.

وعصر جفاف قاتل للإنسان والحيوان والنبات، وربما هذا العصر قد يعطي للإنسان نوع من التعاون لتحدي الطبيعة. وقد ساهم في تكييف الإنسان مع الظروف المناخية الجديدة، كما يؤدي ذلك إلى البحث عن المياه، وبناء المدن الجديدة، وتطوير الزراعة الصحراوية المسقية في هذه المناطق.

ثانيا - العوامل الجغرافية : إن الحرارة الموجودة في منطقة حوض غدامس تؤدي حتما إلى تكييف الإنسان في جميع أنماط حياته معها، وخاصة في بناء مسكنه وتجهيزه بما يلائم ذلك منذ بداية إستقرار الإنسان في هذه المنطقة وهذا ما يؤثر على صرف جهود الإنسان عند الضروريات في الحياة التي هي قوام المدينة في الماضي. اما عندما يتغير حال الإنسان نحو الكماليات وهي قوام المدينة الحديثة.

وقد يؤثر ذلك على تنوع المزروعات الصحراوية المسقية بصفة عامة وتكييفها مع ضروريات العصر بصفة خاصة. وحتى الماء يعد عامل أساسي هام لقيام الحضارة، لأن الماء وسيلة الحياة وقد يكون أهم من ضوء الشمس، لإن معظم الحضارات العريقة كالحضارة الفرعونية، والبابلية المتماسكتين تم بناءهما على وجود المياه التي لها الفضل الأكبر في الزراعة والنقل والمواصلات. هذا العامل - حسب إشارة الدراسات الحديثة - متوفر وبكثرة في منطقة حوض غدامس والمناطق المجاورة له.

ثالثا - العوامل الإقتصادية : وهي أيضا من العوامل الرئيسية لبناد حضارة ما، فقد يكون لكل شعب - حسب قول ويل ديورانت - « مؤسسات إجتماعية وتشريع خلقي رفيع، وقد تزدهر صغريات الفنون، كما هو الحال مع الهنود الأمركيين، إذ يستحيل عليهم أن يتحولوا من الهمجية إلى المدنية تحولا تاما فيبني الإنسان الدور - بعدما كان يسكن في كهوف والأكواخ - والمعابد والمدارس ويخترع الآلات تساعده على الإنتاج، ويستأنس بعض الحيوانات التي تفيده من كل النواحي... »[3]

الصيـــــــد : تُجمع معظم الإشارات أن تحول نشاط الإنسان من مرحلة الجمع والتقاط البدائية إلى مرحلة أكثر تطور منها في المجالين الفكري والمادي مرحلة الصيد، وعندما تعرض لهذه الظاهرة من نشاطات الإنسان في الماضي السحيق في القدم، تجدر بنا الإشارة في هذا الصدد أن نُدخل حياة المجتمع الذي كان يعيش في العصور السابقة في هذه المنطقة منقبين عن أصول هذه الحضارة الواغلة في القدم في منطقة حوض غدامس منذ عصر الصيد الذي كان يهدف الإنسان من وراء ذلك إلى توفير طعامه لبقاء حياته وإستمرارها منذ ستين ألف سنة تقريبا.

ويبدو من خلال المشاهد العديدة الموجودة في سفوح جبال التاسيلي - وخاصة تدرارت تأكوكاس - ومن البقايا الصوانية لأسلحة الإنسان في المنطقة المجاورة لغدامس من الشمال الغربي تبين لنا تلك المصادر المادية أن الإنسان في هذه المناطق، كان صيادا قادرا على تسليح نفسه برمح ذو رأس مدببة وشظايا صوانية متقنة

nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

ولكن، السلاح الحقيقي الذي عانت منه الحيوانات أكثر من سواء في هذه المنطقة، لم يتمثل في الأدوات بقدر ما تمثل في قدرة الصياد في هذه المناطق الصحراوية بما فيها حوض غدامس على العمل الجماعي المنظم في إدارة الصيد.

حيث إستطاع الإنسان أن يسخر الطبيعة لصالحه، وهي ظاهرة جديدة - في تقديرنا - الإنسان بالطبيعة من حوله، وتعد هذه الظاهرة خطوة سابقة على إستقرار الإنسان في عصور ماقبل التاريخ في حوض غدامس، وخطوة متقدمة لممارسة الزراعة وإستأنس أنواع الحيوانات التي تكثر في هذه المناطق.

لا شك أن عملية الصيد كانت لها أهمية بالغة في حياة الشعوب البدائية عامة. لكن حرفة الصيد في منطقة حوض غدامس وماجاوره، يبدو أنها لم تكن وسيلة طلب قوت فحسب بل كانت أيض حربا المقصود منها الحصول على السيادة والطمأنينة. ويتضح هذا من خلال مشاهدة المناظر والصور التي لا تزال منقوشة على الجدران صخور تاسيلي التي يظهر فيها الإنسان الصياد برمحه الموجه صوب الحيوانات المراد صيدها.[4]

كما تجمع الإشارات على أن منطقة حوض غدامس بعدما تعرضت للجفاف - في بداية العصر الحجري الحديث - من المحتمل أن الإنسان بقي زمنا في الغابة يقاتل ويصارع في سبيل الحياة يعيش على المحاولة والخطأ، لأنه لم يكن هناك عيش أو قوت يلبي حاجياته الضرورية، كما أن المجتمع الذي نزح من مناطق أخرى أجف، من حوض غدامس. يبدو من خلال كثرة بقايا الأسلحة وخاصة الموجودة في الشمال الغربي من منطقة الدبداب، تدل على أن الإنسان في هذه المنطقة ظل لا يحصل على عيشه ورزقه، إلا الصياد المقاتل أو من يستخدم لنفسه حيوانا مقاتلا.[5]

ويبدو أن منطقة حوض غدامس، من خلال أحراشها وهضابها، وأوديتها الصخرية، ومنخفضتها - حاليا - تدل على أنها كانت المكان المفضل لمعيشة الحيوانات المتوحشة التي كانت في شبه حرب دائمة بينها وبين الإنسان، والتي بقيت

آثار بقايا هذه الحرب من خلال أدواتها المعروضة في المتاحف العالمية، كالهراوات، والرماح وحبال الصيد ورؤس النبل والسهام...إلخ.

وبواسطة هذه الآلات إستطاع إنسان هذه المنطقة أن يفرض بها سيطرته وسيادته على الأرض.

كما أن الصيد الذي كان يمارس في منطقة حوض غدامس من أوجه النشاط الإقتصادي الذي ضمن لهؤلاء السكان البقاء والإستمرارية في الحياة.

ومن هنا نلاحظ بأن المدنية الحديثة قائمة على تهيئة الإنسان لطعامه. وفي هذا الصدد يمضي ويل ديورانت يروي في قصته -الحضارة -قائلا : « لم يكتف الإنسان بالصيد فحسب بل طور أساليب الحياة إلى الرعي، الذي إقتضى إستئناس الحيوان وتربية الماشية وإستعمال اللبن، فبدأ يستخدم الحيوان كوسيلة للنقل وأصبحت النساء تطعم صبيانها بعد سن معينة بلبن الحيوان عوض الرضاعة، وبهذه قلت نسبة وفيات الأطفال مما أدى إلى تكاثر الناس وثبات الحياة، و أصبحت سيادة الإنسان على الأرض أكثر طمأنينة.[6]

كل ما تقدم من هذا النص يبين لنا بصورة واضحة أنه ينطبق تقريبا على ما حدث في الماضي في جميع نواحي الأرض بما فيها حوض غدامس وما جاوره في ممارسة الإنسان لظاهرة الصيد أو الرعي.

الرعـــــي:

بعد أن بدأ الإنسان يتطور فكريا، صاحبه ذلك التطور في أساليب حياته إلى الرعي، الذي إقتضى إستئناس الحيوان وتربية الماشية، وإستعمال لحمه ولبنه وجلوده، وبالتالي تطورت حياته من مرحلة الصيد المليئة بالقلق والإضطراب إلى مرحلة الرعي التي كانت أكثر هدوءا وإطمئنانا وأوثق إتصالا، هذه الحياة في منطقة حوض غدامس قد تطلبت - كما هو محتمل - خصائص ذات أخطار عظيمة وهي ربما إستئناس وتربية الماشية وإستعمال اللبن.

Créé avec nitroPDF professional
téléchargez la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

إن إستئناس الإنسان للحيوان في هذه المنطقة غير معروف؟ متى؟ وكيف ؟.

ولكن، ويل ديورانت يمضي يروي إفتراضا في قصته قائلا فيه : « فربما حصل ذلك حين ساق الصيادون صغار الحيوانات التي إصطادوها فتوجهوا بها لمساكنهم ليلهوا بها. وبعد إمهالها فترة من الزمن أخذ يستخدم هذه الحيوانات كأداة للنقل، فكان الحيوان زميلا للسكان وشريكه في العمل والإقامة، ثم أدرك معجزة التناسل بين صنوف الحيوانات أخضعها لإشرافه، وإستطاع بذلك أن ينشئ لنفسه قطيعا من ذكر وأنثى الحيوان، فخف عن النساء حمل الرضاعة بأستعمال لبن الحيوان فقلت نسبة الوفيات في الأطفال وبذلك ظفر الإنسان بمورد جديد ومضمون من موارد الطعام، وذلك كله أدى إلى تكاثر الإنسان وإزدياد الحياة ثباتا فأصبحت سيادة الإنسان على الأرض أكثر إطمئنانا ».[7]

كل ما تقدم من هذا النص يبين لنا صورة واضحة أن حرفة الرعي قد أضافت للإنسان خطوة جديدة نحو التحضر، لإن الحضارة تبدأ عندما ينتهي القلق والإضطراب، وهذا - حسب تقديرنا - إفتراضا في محله أكد عليه ويل ديورانت في عدة إشارات في مؤلفه الكبير قصة الحضارة.

ويبدو مما هو عميق الدلالة في هذا الصدد أن أهم الموضوعات البارزة من خلال رسومات التاسيلي التي تعرف بمرحلة البقريات، التي تكثر في مضامنها مشاهد لمجموعات البقر، والرعاة وقليل من مشاهد الحياة اليومية، وتشير معظم المصادر أن هذه المرحلة قد بدأت منذ حوالي 6000 سنة ق. م.

وأن أصحاب هذه المرحلة قد أنتقلوا إلى الشمال وإلى الجنوب في هجرة جماعية بعد بداية إنتشار الجفاف في المنطقة. وبقيت مخلفات وآثار هؤلاء تضمنها عدة مشاهد في كل من « عين عبدي حيث توجد أشكال بشرية وأبقار ترجع إلى الدور الرعوي الحديث يضاف إلى ذلك منظر عام لجداريتين عنيوين في منطقة لالان، كما أن مناظر الرعاة تظهر بطول قامة فائقة.

غير أن المشاهد يغلب عليها أنواع الأبقار في المرتبة الأولى أما ظهور صور الزراعة والحصان والكركدان والماعز والوعل الذي يظهر في المناظر الموجودة في إن مهجاج ...إلخ.

فهي في المرتبة الثانية بعد البقريات. وحوض غدامس لايبعد عن هذه الأماكن إلا قليل، ولهذا من المحتمل أن هذه الأنواع من الحيوانات هي التي كانت منتشرة في حوض غدامس. كما أن الحيوانات الضارية كانت منتشرة في معظم الشريط الرملي من طيبة في مصر إلى المغرب الأقصى. وهذا ما يشير إليه هيردوت في الفقرة 181 من الكتاب الرابع إذ قال : « وإلي الداخل بعيدا عن مواطن أولئك اللبيين يوجد ذلك الأقليم الليبي ترتاده الوحوش الضارية ويوجد إلى ما وراء ذلك شريط رملي يمتد من طيبة في مصر حتى أعمدة هرقل ».(8)

الزراعـــــــة:

يبدو أن الزراعة في بداية عصر الجفاف كانت تعتمد على سقوط الأمطار الموسمية، قبل إستقرار إنسان الصحراء في الوحات.

وتشير أهم المراجع المختصة إلي أن ظهور الزراعة على وجه العموم في مناطق أخرى من العالم القديم، في فترة واغلة في القديم ترجع إلي عصر الصيد قبل 8000 سنة ق. م. ويمضي ويل ديورانت يروي في قصته في هذا الصدد قائلا : «بينما كان الرجل منشغلا بالصيد، كانت المرأة تحفر الأرض حول الكهف أو الخيمة لتلتقط كل ما عساها أن تصادفه فوق الأرض من مأكول، فتوصلت بذلك إلى أكبر كشف إقتصادي وهو معرفة ما يمكن أن تخرجه تربة الأرض من طيبات ...إلخ.(9)

والجدير بالملاحظة في هذا الشأن - مما تقدم ذكره - أن المرأة كانت لها المبادرة الأولي في إكتشاف الزراعة وتطورها. وبالتالي بقي حرث الأرض منهة للنساء طويلة كما أن المرأة تقوم بحرث الأرض قد أضافت طريقة ووسيلة جديدة لإختزان الطعام الذي خفف على الرجال من أعباء الصيد ومخاطره، ومن عدم، إستقرار الراعي.

ويضيف ويل ديورانت يروي في قصته في هذا الصدد قائلا : « غير أنه لا يعرف متى أدرك الإنسان لأول مرة وظيفة الحبوب، ومرور عملية الزراعة بمختلف المراحل هذه البدايات هي أسرار تارخية ولايعرف إلى يومنا كيف أدرك الإنسان [illegible] كانت أدوات الحفر بسيطة »(10)

وتشير بعض الدلالات الأولى من خلال رسومات التاسيلي أن هذه المنطقة من خلال تكوينها الجيولوجي أنها عرفت البدايات الأولى للزراعة، إذ ظهرت صور إنسان في مشهد يمشي خلف ثور ويجر عمودين متوازيين ربما يكون ذلك محرثا.

وموقع حوض غدامس لا يبعد عن موقع المشهد وتأثيراته إلا بضعة كيلومترات. وبالتالي نستطيع أن نقول فيما يخص المرحلة التي تلت ذلك في قدم الزراعة وأدواتها وإنتشارها بين بني البشر فهي : المرحلة التي إستعمل فيها الفأس في الحرث وبعد مرور فترة طويلة من الزمن حاول الإنسان أن يطور هذه الوسيلة، فقد ركب - على مايبدو - في طرف الحافرة عظمة ، وربط فيها قطعة أخرى مستعرضة لتكون صالحة. لضغطها بالقدم أو باليد وبالتدريج تطورت الفكرة إلى إستعمال أدوات أثقل، فكبرت حتى أصبحت محراث فقد ساعد ذلك على إكتشاف خصوبة التربة وأصبح للحرث طرق متعارف عليها بين بني البشر ليس في حوض غدامس فقط. بل في جميع أنحاء المعمورة.

وكل ماتقدم من هذا الإحتمال، يدل على أن الإنسان تطور فكريا وماديا. مما سمح له أن يغير من أسلوب حياته، وذلك تغيرت سيرة الإنسان تغيرا كاملا، فزرع أنواع من النباتات التي تتلائم مع مناخ وتربة هذه البيئة. كما تعلم إنسان هذه المنطقة من خلال مرور القوافل وتبادل التجارب في هذا الصدد مع الأخرين خبرة جديدة أضافها إلي خبرته السابقة، وبالتالي أصبحت تزرع في حوض غدامس أنواع كثيرة من النتاتات والفواكه التي كانت مستعصية عليه زراعتها والتحكم في إنتاجها من قبل وإستنبتت أنواعا أخرى كما أصلح وطور الأنواع التي كان يزرعها كالحبوب قبل ذلك. وإكتشف طرق عديدة لري هذه المزروعات. وبذلك أخذ الإنسان الحيطة لحياته المستقبلية وتعلم من ذلك فكرة الزمن من الفصول الزراعية وتعلم تخزين المحصول، وكيفية التبصر في العواقب.

وبما أن ممارسة الزراعة مرتبطة، إرتباطا وثيقا بالثقافة، لإن معرفة زراعة الأرض، وطرق التفنن فيها، وصناعة ملتزماتها تعتبر ثقافة في حد ذاتها. وترتبط بها كما ترتبط المدينة بالمدينة.

nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

ويبدو من خلال تلاقي التجار في مدينة غدامس لتبادل السلع والأفكار، حول مواضع مختلفة قد أفاد بدون شك سكانها في معرفة الكثير من المزروعات التي كانوا يجهلونها من قبل.

ولمدينة غدامس مستقبلا حضاريا مزدهرا إذ وجهت العناية والجدية للتحكم في التطور المادي ليكون مناسبا للتطور الفكري الأصيل هذه المدينة العريقة في تقاليدها المبنية على التكافل والتعاون الإجتماعي، رغم تلقيها جميع التأثيرات الداخلية عنها إلا أنها بقيت صامدة صمود الطبيعة المحيطة بها وهي التي صنعت شعبا وليس الشعب الذي يسكنها هو الذي صنعها.

ومن هنا يصدق قول ويل ديورانت عليها في هذا الصدد الذي قال : «المدينة تبدأ في كوخ الفلاح وتزدهر في المدن، وليس الجنس الذي يصنع المدينة مهما كان لون بشرته وموقعه، بل المدينة هي التي تصنع شعبا...»(11).

التجـــارة:

إن حرفة التجارة - كما يبدو لنا - هي التي ساهمت في إعطاء الأهمية لحوض غدامس بصفة خاصة وشمال إفريقيا بصفة عامة. وفضلا عن أهمية الحوض التجارية في الوقت الحالي، فمنذ عهد الفنيقيين كان التبادل التجاري مزدهرا بين أهالي شمال إفريقيا " ليبيا قديما" والقرطاجيين وقد أشار هيردوت إلى رواية في هذا الصدد في كتابه الرابع قائلا فيها (وتحكى قصة أخرى كذلك على لسان القرطاجيين فهم يقولون : « أن هناك مكانا في ليبيا حيث يعيش قوم خلف أعمدة هرقل، وإليه يأتون ويفرغون بضائعم وبعد وضعها بإتقان على الشاطىء يذهبون إلى ظهور سفنهم ويوقدون نارا ذات دخان، فيرى الأهالي الدخان. وعند مجيئهم إلى البحر يضعون على الأرض ذهبا ثمنا للبضائع وينسحبون بعيدا عنها ثم يهبط القرطاجيون إلى البحر ويتأملون الذهب فإن بدا لهم ثمنا عادلا أخذوه ومضوا في سبيلهم، وإن لم يمكن كذلك ذهبوا ثانية إلى ظهور سفنهم ينتظرون، يعود الأهالي ويزيدون الذهب حتى يرضى رجال السفينة.

Créé avec nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

وفي هذه العملية "كما يقال" لا يخدع أي فريق منهما الأخر، فإن القرطاجيين لايأخذون الذهب حتى يعادل قيمة سلعهم.

كما أن الأهالي لا يمسون البضائع حتى يأخذ رجال السفينة ذهبهم)(12)

كل ما تقدم من هذا النص يبين لنا بوضوح طريقة التعامل التجاري بين القرطاجيين والأهالي من الليبيين، وهذه الطريقة من المحتمل أنها كانت السائدة في معظم مناطق شمال إفريقيا بما فيها منطقة حوض غدامس، لأنها لعبت دورا هاما في التبادل التجاري بين الشمال والجنوب، وبين الغرب والشرق، كما أن مناخ حوض غدامس كان يختلف عن باقي المناطق الأخرى والتي يرتبط بها بطرق تجارية كانت معروفة لدى أغلبية التجار الذين يرتادونها ذهابا وإيابا.

وخاصة العلاقة الوثيقة التي كانت تربط مدينة غدامس بجرمة عاصمة الجرمنت. وربما كانت مدينة غدامس على علاقة تجارية مع سكان الكهوف الذين كانو مطاردين من طرف سكان جرمة.(13)

ويبدو مما هو عميق الدلالة في هذا الصدد، أن هذه المناطق قد إستفادت من مرور القوافل التجارية، الأتية، من مناطق، بعيدة والمحملة ببضائع مختلفة، وربما تكون نادرة أو ليست في متناول عامة النّاس، ويصدق عليها قول ابن خلدون في إشارته في هذا الشأن إذ يقول : « التجارة البعيدة أكثر فائدة من التجارة القريبة، لإن لا تستطيع عامة النّاس الحصول عليها، وتبقى في متناول خاصة النّاس من التجار فقط »(14)

ومن أهم العوامل التي تجعل هذه المنطقة مزدهرة تجاريا هو موقع حوض غدامس الذي يحتوي على شبكة لابأس بها من الطرق : الطريق الأول الذي يبدأ من جنوب بسكرة، ويتجه إلى واد سوف، ومن هناك إلى غدامس، وغات، ومرزق...

والطريق الثاني طرابلس إلى تمبكتو، ويمر على سناون وبرج ويلر غربا إلى تماسين والبيوض طبعا على غدامس أين يتصل بطريق قسنطينة إلى تمبكتو، ولهذا الطريق فرع من غدامس إلى غات وبير عسيو وأقاديس إلى سوكوتو وكاستنا غربا وإلى أقاديم وقاو شرقا(15).

وطريق أخر يمر من غدامس على تخمالت أزقر عبر فضنون إلى إهرير وجانت ثم إلى الهقار.

ومن غدامس يمر طريق إلى ورڤلة وغرداية ومنها إلى المنيعة ثم إلى توات، وهناك فرع لهذا الطريق التجاري يأتي من غدامس إلى زاوية سيدي موسى ثم عين صالح ومنها إلى بلاد شنقيط.

كما أن معظم الرحالة العرب الذين جابو فيافي الصحراء وكتبوا عنها أمثال : ابن بطوطة والإدريسي وابن حوقل، والحسن الوزان، وابن خلدون والبكري وغيرهم فيما بعد الأوربيون الذين عبروا الصحراء ومروا على غدامس وحوضها عن طريق الحملات العسكرية والبعثات الإستكشافية المكثفة التي كانوا يرسلونها إلى الجنوب الجزائري والجنوب الليبي ومنها غدامس.

وخلاصة القول أن كل ما تقدم من هذه الإشارات يبين لنا بصورة واضحة أن حوض غدامس قد كان المكان المفضل للتبادل التجاري والتلاقي الحضاري بين وسط القارة الإفريقية وشرقها وبين شمالها وجنوبها. كما أنه قد يساهم ذلك في بناء أكبر مجمع سكاني صحراوي في المستقبل، إذا توفرت شروط النهوض التنموي والأعمال الجادة بهذه المناطق.

لإن التجارة بالنسبة لحوض غدامس قد تصبح ورقة المعاملة الرابحة التي هي ضرب من السلوك المهذب والذي هو من خصائص المدينة وحدها - في رأي أهل المدن - إذ يتلاقى التجار في هذه المنطقة وخاصة مدينة غدامس لتبادل السلع والأفكار والتجارب التي تساهم في رقي حياة الإنسان.

كما تساهم التجارة في نقل الثقافة وكسر الحواجز النفسية التي تعرقل في التقارب بين شعوب هذه المنطقة، وربما التجارة تورث الأجيال الناشئة تراث بعض الشعوب التي يأتي منها التجار، وكذلك بعض المعارف والعلوم والفنون والأخلاق.

والتقاليد وبذلك يكون حوض غدامس في المستقبل القريب قد لعب دورا هاما في التلاقي في طريق الوحدة الشاملة التي تطمح إليها أغلب شعوب الشمال الإفريقي على الخصوص

Créé avec nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

والعالم العربي على العموم. وأن تنمية هذه المنطقة وأعمارها قد يخفف من عبء البداوة، علاوة على توسط وإنفتاح حوض غدامس على مجتمعات حضارية مستقرة في كل من الشمال والشرق والجنوب والغرب ولهذا قد يلعب دور حضاري أخر في ربط أو التقارب الإجتماعي والثقافي بين شعوب شمال القارة ووسطها.

وإذا ما أنجزت المشاريع التنموية في ميدان الصناعة والزراعة والتجارة، فإنه سيضاف إلى قائمة المنجزات العملاقة لسكان هذه المنطقة. وإستيعاب أكبر عدد ممكن من سكان الشمال الإفريقي لتخفيف، الضغط الذي تسبب فيه النمو الديمغرافي والقضاء على البطالة، وسيقضي على خرافة أن الصحراء قاحلة لا تصلح أن تكون فيها حواضر ومدن مزدهرة. ويفتح المجال على مصراعية لرأس مالي دول المنطقة للإستثمار في مشاريع التنمية الشاملة.

الهوامش

1 – ويل ديورانت، قصة الحضارة، ترجمتد/نجيب محمود الجزء الأول ط 1965 ص. 112.
2 – بليني الأكبر. التاريخ الطبيعي، الكتاب الخامس، الفقرة 5. ترجمة علي فهمي خشيم نصوص ليبية طرابلس 1967. ص. 123.
3 – ويل ديورانت، المرجع السابق، ص. 109.
4 – هنري لوط، الفنون الصخرية في تاسيلي، 1958، ص. 201.
5 – إبراهيم العيد بشي، مقدمة في تاريخ تاسيلي، إيليزي، 1994،ص. 2.
6 – ويل ديورانت، المرجع نفسه، ص. 116.
7 – ويل ديورانت، المرجع نفسه، مكرر ص. 116.
8 – هيردوت، النصوص المتعلقة بتاريخ إفريقيا الشمالية، ترجمة ستيفان قزال، 1915، ص. 25،19.
9 – ويل ديورانت، المرجع السابق نفيه، ص. 121.
10 – ويل ديورانت، المرجع نفسه مكرر، ص. 121.
11 –ويل ديورانت، المرجع نفسه، ص. 132.
12 – هيردوت ونصوص ليبي، ترجمة علي فهمي خشيم، طرابلس 1967، ص. 96.
13 – بليبي. الأكبر المرجع السابق، ص. 123.
14 – ابن خلدون، المقدمة، المجلد الأول، بيروت 1966، ص. 720.
15 – د/يحي بوعزيز، مجلة الثقافة، إهتمامات الفرنسيين بجنوب الجزائر والصحراء العدد 58، يوليو 1980، ص. 47.

Créé avec nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

القسم الثاني

أ – قضايا ورؤى تاريخية

النظام العالمي الجديد
مقاربة نقدية للوضع الدولي الراهن*

د. جمال ڤنان

منذ سنة 1990 وبالضبط منذ أزمة الخليج بدأ الحديث عن نظام عالمي جديد يفتح أمام الإنسانية أبوابا عريضة نحو مستقبل سمته الرخاء والحرية والديمقراطية. لقد إنتشر إستعمال هذا المصطلح إلى درجة أنه أصبح الموضوع المهيمن في الأدبيات السياسية العالمية في يومنا هذا.

سنحاول إلقاء نظرة في عمق هذا المصطلح ومحتواه الحقيقي كما عبر به عن نفسه على مسرح أحداث السياسة الدولية، منذ ثلاث سنوات لتلمس معالمه الرئيسية وطبيعتة التركيبية وإستشفاف توجهاته المستقبلية المحتملة.

وقبل هذا يجب أن نشير بكون كلمة نظام في هذا السياق تعني تلك الأنماط من العلاقات والتفاعلات المتبادلة بين العناصر المشكلة لحالة معينة، وعندما ترتبط هاته بصفة مميزة مثل النظام العالمي فهو يعني تلك الوضعية الناجمة عن العلاقات والتفاعلات القائمة بين مختلف الأطراف المشكلة للحياة الدولية.

أولا : بدايات النظام العالمي الجديد :

تتمثل الفترة بين سنتي 1986 وحتى منتصف سنة 1990 بدايات النظام العالمي الجديد. وتعتبر سنة 1986 من زاوية تاريخ العلاقات الدولية سنة مرجعية لإعتبارات أساسية ثلاثة : ففي هذه السنة أشهرت الولايات المتحدة وحلفائها الغربيون حربا إقتصادية إستهدفت البلدان المنتجة للبترول، لتتسع دائرتها فيما بعد

* - عرضت الأفكار الرئيسية لهذا المقال في محاضرة ألقيت في مدينة سعيدة يوم 7 ماي 1993 بمناسبة الذكرى 38 لمجازر 8 ماي 1945 تحت رعاية جمعية 8 ماي 1945.

Créé avec nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

لتشمل كلّ بلدان مايسمى بالعالم الثالث، كما سجلت هذه السنة تطور الإستراتيجية الأمريكية، منذ حرب الفيتنام، في إتجاه التدخل المباشر فيما كان يسميه البيت الأبيض بالنزاعات الخفيفة الحدة[1]. كما بدأت التغيرات التي حدثت في القياة السوفياتية في ربيع سنة 1985 بتعيين ڤورباتشوف أمينا عاما للحزب الشيوعي السوفياتي ـ والتصفيات التي أعقبت هذا التغيير للعناصر (المحافظة) في داخل هياكل الحزب وفي السلطة التنفيذية ـ تنعكس آثارها على الساحة الدولية ليبدأ بذلك فصل جديد في العلاقات السوفيتية الأمريكية المتمثل في الوفاق بين الشرق والغرب والذي سيكون فصل الختام للحرب الباردة.

لقد إتخذت الحرب الإقتصادية التي شنت على بلدان الجنوب شكل حرب الأسعار التي إستهدفت النيل من قيمة البترول كسلعة إستراتيجية تشكل عصب التنمية في هاته البلدان لتصبح مجرد مادة أولية من مواد الخام الأخرى. وبالفعل لقد إنخفض سعر البترول بمعدل الثلثين خلال بضعة أسابيع. فمن 30 دولار لسعر البرميل عند شهر ديسمبر 1985 إلى حوالي عشر دولارات للبرميل عند أواخر شهر جانفي 1986[2]. وضاعف من حدة إنهيار البترول إنخفاض الدولار ليفقد ربع قيمته خلال نفس الفترة تقريبا[3].

لقد نجم عن هذه الوضعية الجديدة وبشكل آلي وقف سياسات التنمية في مجموع البلدان المصدرة للبترول وإستفحال خطر المديونية بإشتداد وطئتها على مجموع بلدان العالم الثالث. ففي الجزائر على سبيل المثال، قفزت الميونية خلال خمس سنوات من حوالي 15 مليار دولار في سنة 1985 إلى 25 مليار في أواخر عام 1990 أي بمعدل 67٪.

في الواقع، فإن الولايات المتحدة وحلفائها كانوا قد إستعدوا لخوض هاته الحرب منذ وقت طويل ـ فتأسيس الوكالة الدولية للطاقة في عام 1975 وسياسات التقشف في إستهلاك البترول التي إتبعتها البلدان الغربية إلى جانب البحث وتطوير إستخدام الطاقات البديلة، جعلها تسترد المبادرة التي فقدتها في هذا القطاع منذ أواخر سنة 1973. إلى جانب حدوث عدد من التطورات السلبية على ساحة بلدان [illegible] من. فبلدان العالم الثالث

nitro PDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

تحسن إضاعة الفرص التي أتيحت لها لبناء مؤسسات راسخة قادرة على الدفاع عن مصالحها وتحقيق توازن متكافئ في العلاقات مع بلدان الشمال.

فأول فرصة ضاعت كانت فشل عقد المؤتمر الإفريقي الأسيوي الثاني في الجزائر في عام 1965 وإغراق فكرة التحرر الإقتصادي لبلدان الجنوب في خضم الصراع المذهبي الذي نشب بين الإتحاد السوفيتي والصين الشعبية. وهو الصراع الذي جر حركة التحرر الوطني العالمية إلى مواقع غير مواقعها، مما أنجر عنه فقد أنها لقدرة التأثير على مايجري على الساحة الدولية.

فعلى الصعيد السياسي فإنّ كتلة عدم الإنحياز بدأت تتفتت شيئا فشيئا منذ بداية السبعينات، لتصبح مجرد عنوان أجوف دون أي محتوى حقيقي. سأكتفي بالإشارة إلى وقائع لها دلالتها كمؤشرات لما كان ومأأصبح عليه هذا التكتل.

ففي أثناء إنعقاد المؤتمر الثاني لدول عدم الإنحياز بالقاهرة في ربيع سنة 1964، حضر رئيس وزراء الكونغو آنذاك، مويس تشومبي، للمشاركة في أشغاله ولكن وجد أبوابه مسدودة حيث بقي في الجو معلقا عدة ساعات في إنتضار الإذن بالمشاركة ولكن بدون جدوى حيث إضطر في النهاية للعودة من حيث أتى. وبعد أقل من عشر سنوات من هذه الحادثة وأثناء إنعقاد المؤتمر الرابع في الجزائر في خريف 1973، حيّت، بعض صحف البلد المضيف موبوتو، وهو من هو !. وقدمته بكونه إبن إفريقيا (البار). كما أظهر هذا المؤتمر شللا تاما أمام أحداث نشبت مباشرة عن نهاية أشغاله : كالإطاحة بالرئيس آلندي بالشيلي على يد بينوشي صنيعة وكالة الإستخبارات المركزية الأمريكية (سبتمبر 1973)، وإحتلال جزء من قبرص التي كانت عضوا نشطا في حركة عدم الإنحياز، من طرف القوات التركية العضو البارز في منظمة حلف شمال الأطلسي.

وغني عن التذكير يكون هذا التجمع كان غائبا في ساحة الصراعات التي اندلعت بين بلدان العالم الثالث بعد سنة 1973 فلم يسجل له أي دور يذكر.

أما على الصعيد الإقتصادي، فالتصريح الذي أصدرته الجمعية العامة للأمم المتحدة في دورتها الإستثنائية في أول ماي 1974 المتعلق بـ (برنامج العمل من أجل

إقامة نظام إقتصادي دولي جديد).والذي تمت المصادقة عليه بالإجماع. وكذلك الميثاق الذي صوتت عليه في الدورة العادية للهيئة الأممية في نفس السنة (12 ديسمبر 1974) (حقوق الدول وواجباتها الإقتصادية) لم يتعد حدود النوايا الحسنة ولم يدخل قط حيز التنفيذ[4].

في إطار السعي من أجل وضع توصيات الجمعية العامة موضع التنفيذ تبلورت فكرة الحوار بين الشمال والجنوب، لقد استقطب هذا الموضوع اهتمامات أدبيات السياسة الدولية لبعض الوقت فأنجزت أبحاث ودراسات متخصصة في الموضوع إلى جانب قيام بعض الهيئات مثل نادي روما، بدفع أحد من مؤسسيه البارزين المستشار السابق لألمانيا الإتحادية، ويلي برانت بإدراج موضوع الحوار بين الشمال والجنوب ضمن محاور انشغالاته الرئيسية. لقد هيئت هذه الأعمال العلمية الأرضية الملائمة لإنطلاق هذا الحوار على أسس صحيحة. غير أنه كان يقف في مواجهة هذه النوايا الحسنة أنانية الدول المصنعة التي عملت بطرق ذكية على امتصاص هذا الإنشغال شيئا فشيئا لتحول الكرة في النهاية إلى بلدان الجنوب : إنّ تحقيق التنمية لايستوجب إقامة علاقات متوازنة بين الشمال والجنوب، بدليل أنّ هناك بلدانا في شرق وجنوب شرقي آسيا حققت إطلاقتها الصناعية في ظل إقتصاد السوق (كوريا الجنوبية، تيوان، هونج كونج وسنغفورة). فانطلاقا من النماذج التي اعتبرت قسرا، نماذج عالمية بدون النظر إلى خصوصياتها والظروف المتميزة التي مرت بها هذه البلدان، اعتبرت الدول الرأسمالية الكبرى أنّ الحوار بين الشمال والجنوب ليس له مايبرره وأنّ على بلدان الجنوب أن تقوم بما يتحتم القيام به من (اصلاحات) لتحقيق تنميتها[5].

نفس المصير آل إليه الحوار العربي الأوروبي الذي اختفى هو الآخر من ساحة اهتمامات الدول الرأسمالية الكبرى بعد أن وجدت صيغة أخرى لإمتصاص بترو دولار دول الخليج سنة 1990.

ومن جهة أخرى، فإنّ إختراق الليبرالية لبعض بلدان الجنوب التي كانت من بين طلائع حركة التحرر الوطني بمحتواها الإقتصادي، في وقت مبكر، شكل عاملا

Créé avec nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

مثبطا في مسيرة حركة التحرر الإقتصادي. وبهذا الصدد يمكن أن تعتبر سياسة الإنفتاح الساداتية في مصر، بمثابة تجربة مخبرية أجرتها الإمبريالية العالمية على عينة محددة، وهي مصر، وتابعت تفاعلاتها وتشكلاتها متابعة دقيقة. وقد أدى نجاح التجربة في المخبر الساداتي إلى السعي إلى تعميمها في بلدان العالم الثالث الأخرى التي كانت تشكل ركائز حركة التحرر الوطني في المرحلة الأولى، ثم تعيد استخدام النموذج لإختراق المعسكر الإشتراكي والإتحاد السفيتي نفسه في المرحلة التالية.

في إطار تلمس معالم التحضير والتهيئة للإنقضاض علي المكتسبات الإجتماعية لحركة التحرر الوطني لايجوز إهمال الإشارة إلى الهجوم المضاد الذي شنته القوى المحافظة في المركز الرئيسي للرأسمالية العالمية الممثل في الولايات المتحدة الأمريكية على المنجزات الإجتماعية في البلدان الرأسمالية نفسها، ومناصبة العداء لكل سياسة اقتصادية تحمل مضمونا إجتماعيا متفهما حتى ولو كان محدودا. لقد أطلق بعض المحللين على السياسة الإقتصادية التي انتهجتها الإدارة الأمريكية في بداية الثمانينات اسم (الثورة الريقانية) والتي وجدت أقوى نصيرا لها في رئيسة حكومة انجلترا مرجريت تاتشر. كما وظفت الولايات المتحدة كل عناصر الضعف والتمزق الذي اجتاح بلدان الجنوب خلال العقد المنصرم واستخدامها لبعض منها في الحرب التي قررت شنها عليهم في بداية عام 1986[6].

تميزت الفترة الواقعة بين سنتي 1986 ـ 1990 بالسعي المتواصل من طرف الولايات المتحدة الأمريكية لتحقيق السيطرة الكاملة على الوضع الدولي وذلك بإتباع سياسة متشددة مع بلدان الجنوب حتى وإن أدى ذلك إلى استخدام القوة ضد بعض منها، من جهة، ومتابعة سياسة الوفاق والتعاون مع الإتحاد السوفيتي وبلدان الكتلة الإشتراكية، وتوجيه هذا الوفاق لخدمة أهدافها الإستراتيجية الكبرى الرامية إلى دمج المعسكر الإشتراكي في نظام عالمي أحادي الهيمنة تحت قيادتها، من جهة ثانية.

فبالنسبة لعلاقتها مع بلدان الجنوب، فبعد الإنهيار الكبير لأسعار البترول التي تردت إلى أن أصبحت تشكل خطرا على اقتصادات الدول الصناعية الكبرى

نفسها، فإن الشركات البترولية الكبرى وافقت على معالجة الوضع بالتعاون مع الدول المصدرة للبترول لتثبيت الأسعار عند سقف محدد. وتعتبر هذه الدول أنّ سعر البرميل يكون مقيدا لإقتصادياتها عندما يتراوح بين 18 و 20 دولارا. فعند هذا المستوى إستقرت أسعار البترول منذ أواخر سنة 1986 وحتى الآن. لقد حاولت منظمة الدول المصدرة للبترول تجاوز هذا السقف مرارا ولكن بدون جدوى، عدا أثناء أزمة الخليج عندما ألتهبت الأسعار مرة أخرى ولكن لبضعة أشهر فقط ثم عادت إلى المستوى التي كانت عليه قبل الأزمة.

لقد بينت حرب الأسعار هذه أن منظمة الدول المصدرة للبترول لم تعد هي المتحكمة في السوق البترولية وإنما تحولت المبادرة إلى أيدي كبار المستهلكين لهذه الطاقة. لم يحدث هذا التحول بين عشية وضحاها وإنما كان نتاج عمل عقلاني ناضج ودؤوب امتد على مدى عشر سنوات تحت إشراف وتوجيه الوكالة الدولية للطاقة التي أنشئت خصيصا لهذه الغاية [8].

كما سجلت خلال هذه الفترة أيضا تدخلات عسكرية مباشرة وغير مباشرة، للولايات المتحدة خارج حدودها. وهي التدخلات التي كانت قد أقلعت عنها عقب هزيمتها في الفيتنام عام 1974 لتعود إليها بشكل حذر في عام 1983 في لبنان وغرونادا (الجزيرة) لتصبح في عام 1986 تشكل أحد المبادئ المكونة للعقيدة العسكرية الأمريكية بعد أن تلمس البيت الأبيض المعالم الأولى لعمق التغيير الذي بدأ يرتسم في أفق الإتحاد السوفيتي[9]. لقد قامت الولايات المتحدة بشن عدوانها على الجماهيرية العربية الليبية في 16 أفريل 1986 عندما أنكرت على هذه البلاد حقها في سيادتها على مياهها الإقليمية والمتمثلة في خليج سرت.

لقد أفرز هذا العدوان مؤشرا خطيرا عن واقع التضامن بين بلدان الجنوب الذي أصبح جزءا من الماضي. فلم يصدر أي رد فعل ذي وزن مؤثر ضد العدوان، لاعلى المستوى العربي ولاالإفريقي ولادول عدم الإنحياز. وفي الواقع فإنّ الملاحظين المتيقظين، لم يكونوا يتوقعون أن يكون الموقف العربي على غير الذي عبر عن نفسه في مواجهة هذا العدوان ذلك أنّ المؤشرات الأولى لهذا التخاذل قد ظهرت قبل هذا

Créé avec nitro PDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

التاريخ أثناء الإجتياح الإسرائيلي للبنان في صيف 1982، وفي مواجهة مذبحة مخيمي صبرا وشتيلا التي دبرها حزب الكتائب اللبناني ضد اللاجئين الفلسطينيين تحت حماية القوات الإسرائيلية.

أما التدخل الأمريكي السافر في الشؤون الداخلية لنيكارغوا عن طريق الدعم المكشف الذي تقدمه واشنطن لمنظمة الكونترا ضد النظام الوطني الحاكم في هاته البلاد وكذلك تدخلها المباشر في الحرب الأهلية بالسلفادور ضد قوى التغيير والتحرر، فإن المجموعة الأممية تعاملت مع هاته الإنتهاكات لحقوق الشعوب وليثاق الأمم المتحدة كما تتعامل مع الحوادث التي تقع داخل السيادة الإقليمية لبلد من البلدان. كما لم يسجل أي تحرك مؤثر على مستوى الرأي العام في مختلف بلدان العالم. الذي أصبح يعاني نوعا من التخدير تحت تأثير عوامل مختلفة، فهو لم يهتز حتى عندما قامت الولايات المتحدة بغزو بلد مستقل (بناما) واحتجاز رئيسه ونقله ليحاكم أمام القضاء الأمريكي (1989).

لم يكن بإمكان الولايات المتحدة تحقيق هذه النتائج الهامة على الصعيدين الإقتصادي والسياسي، في عالم الجنوب دون حياد الإتحاد السوفيتي.

فمنذ صعود غورباتشوف إلى سدة الحكم، بدأت مؤشرات التغيير العميقة تلوح في الأفق السوفيتي[10]، ويمكن تلمس معالم التغيير هاته من خلال محورين بارزين أولهما داخلي والذي بلورته الإصلاحات التي قادها الزعيم السوفيتي الجديد تحت شعار البرسترويكا (البناء الجديد)[11]، وثانيهما خارجي الذي أقرته التوجهات الجديدة للسياسة الخارجية السوفيتية الساعية إلى الوفاق والتعاون مع الولايات المتحدة والذي انتهى مسارها بإعلان نهاية الحرب الباردة وقيام النظام العالمي الجديد.

إنّ الوضعية الإقتصادية للإتحاد السوفيتي لم تتحسن بالرغم من الجهود التي بذلت خلال المخططين الخماسيين : العاشر والحادي عشر (1976 ـ 1985)، وسبب ذلك يعود لعدد من العوامل بعضها هيكلية، والأخرى بسبب الأعباء المالية الباهضة

التي فرضت عل الإقتصاد السوفيتي للرد على برنامج التسلح الذي اعتمدته إدارة رونالد ريڤن والذي اشتهر إعلاميا باسم حرب النجوم، بالإضافة إلى النفقات العسكرية ناجمة عن التدخل العسكري في أفغنستان منذ سنة 1979، وعوامل أخرى خارجية الناجمة عن طبيعة العلاقات الخارجية للإتحاد السوفيتي التي تختلف جوهريا عن طبيعة العلاقات الخارجية الأمريكية.

ومع الفاصل الزمني الذي تتوفر عليه اليوم عن هاته الأحداث والتطورات السريعة التي تلاحقت على الساحة السوفيتية، منذ ذلك الوقت، فلا يمكننا إلا أن نلاحظ بكون الدور التاريخي للبرسترويكا لم يكن في حقيقته سوى كونه مجرد مرحلة عبور وفترة انتقال من مجتمع اشتراكي، ذو اقتصاد موجه إلى مجتمع ليبرالي يعيش في ظل قانون السوق، وهو ماتحقق فعلا منذ شهر جانفي 1992.

وعلى المستوى الخارجي فإنّ القيادة السوفيتية اعتبرت مسألة إعادة توجيه سياستها الخارجية نحو الوفاق والتعاون مع الولايات المتحدة ومع حلفائها مهمة أساسية لإنجاح مشاريعها الإصلاحية.

كانت المبادرة الأولى في هذا الإتجاه هو تقديم مقترحات جديدة حول تخفيض الأسلحة الإستراتيجية في إطار مفاوضات السالت الجارية في جنيف، والتي كانت تدور في حلقة مفرغة منذ سنوات طويلة. كانت هذه المقترحات جد جريئة، كما وصفها الملاحظون في حينها، لم يسبق للسوفييت أن قدموا مثلها من قبل (11)، وتنص هذه على تصفية وتدمير كل الأسلحة النووية على مدى خمسة عشر سنة أي حتى سنة ألفين، مقسمة على ثلاثة مراحل، كل مرحلة تصفي فيها نوع من الأسلحة بدءا بوقف جميع التجارب النووية وتفكيك الصواريخ المتوسطة المدى في القارة الأوروبية، مقابل قبول واشنطن بوقف برنامج حرب النجوم(12).

كما كان للقاء القمة الأول بين ڤورباتشوف ورونالد ريڤن بجنيف يومي 19 - و20ماي 1985 لقاءا واعدا ومشجعا بالنسبة لكلّ من الطرفين كما وصف في حينه.

ونستطيع أن نرصد نتائج اللقاءات والإتصالات التي توالت، منذ هذا اللقاء الأول، بين القطبين بالتسويات التي توالت خلال سنة 1988 للنزاعات الإقليمية

Créé avec nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

الحادة التي امتد بعض منها على مدى عقود من الزمن، وبالفعل ففي هذه السنة بدأت سياسة الوفاق والتعاون بين واشنطن وموسكو تعطي ثمارها.

ففي 14 أفريل 1988 تمّ التوقيع على أربع اتفاقات بين أطراف الصراع في أفغنستان ومن بينها اتفاقا يقضي بانسحاب القوات السوفيتية من هاته البلاد. كما سويت خلال هذه السنة مسألة مستقبل ناميبيا والحرب غير المعلنة بين أنڤولا وجنوب افريقيا. كما رسم إطار لحل معضلة كمبوتشيا المعقدة ومشاكل أمريكا الوسطى. ووضع حد للصراع الأثيوبي الصومالي في القرن الإفريقي، وتسوية النزاع بين الجماهيرية الليبية وتشاد. في نفس الوقت الذي تحركت فيه الأمم المتحدة لوضع حد للنزاع بين جبهة البوليزاريو والمغرب في الصحراء الغربية. كما أعلنت إيران عند نهاية شهر جويلية (1988) عن قبولها لقرار مجلس الأمن رقم 598 القاضي بوقف إطلاق النار بينها وبين العراق وتسوية النزاع سلميا بينهما. إلى جانب هذه التسويات، كانت هناك مفاوضات جارية لتصفية ماتبقى من النزاعات في مختلف مناطق العالم مما جعل بعض الملاحظين يطلقون على صيف سنة 1988 اسم صيف السلام (13).

والآن، وبعد مرور خمس سنوات على مسلسل السلام هذا بدأ يتضح أنه لم تكن هناك تسويات لهذه الصراعات وأنّ ماحدث في الحقيقة يمثل مسلسلا للإنسحاب السوفياتي من هذه النزاعات التي بقي أغلبها مستعرا حتى الآن.

ويمكن أن نجمل نتائج السياسة السوفيتية الداخلية منها والخارجية بكونها أدت في النهاية إلى تقويض النظام الدولي القديم القائم على أساس القطبية الثنائية ليحل محله نظام دولي جديد أحادي الهيمنة.

ثانيا - قيام النظام العالمي الجديد :

تعتبر أزمة الخليج الحدث الذي أوجد الظرف الملائم لإعلان نهاية الحرب الباردة بصفة رسمية وبروز الوضعية الدولية الجديدة تحت إسم (النظام العالمي الجديد). سنحاول رسم معالم هذا النظام كما بلورته الحياة الدولية خلال هذه السنوات الثلاثة

الأخيرة وقبل ذلك سنعمد للإجابة عن هذه الإشكالية : كيف كانت أزمة الخليج الثانية ضرورة حيوية لقيام هذا الوضع الدولي الجديد.

لن نضيف جديدا عندما نؤكد على الأهمية الإستراتيجية والجيوسياسية والإقتصادية لمنطقة الخليج. وهي العوامل التي كانت السبب في إندلاع الأزمة ثم تطويرها لتتحول إلى الحرب والتي ستؤدي إلى النتائج التي تمخضت عنها.

لقد أحدث سقوط شاه إيران إرتباكا شديدا للسياسة الأمريكية الشرق الأوسطية وخاصة في الخليج بسبب الخلل الخطير الذي أحدثه في ميزان القوى في المنطقة، عندما أصبحت من زاوية المصالح الأمريكية، منطقة مكشوفة وغير مأمونة، وسيصبح الخطر دائما إذا ماتمّ التقارب بين أكبر قوتين إقليميتين بها وهما : إيران والعراق. لقد تركزت جهود الدبلوماسية الأمريكية منذ سنة 1979 على منع هذا التقارب بأي شكل من الأشكال. ومن هنا كان موقفها من الحرب العراقية الإيرانية هو تغذية هذا الصراع والوصول به إلى تدمير بعضهما البعض. ليس هنا محل شرح دور القوى المحلية في تحقيق هذا الهدف الأمريكي وسعيها تمديد هذا الصراع المدمر على مدى ثماني سنوات.

غير أن هذا، ماهو إلا هدف مرحلي بالنسبة للسياسة الأمريكية، أملته ظروف الفراغ الذي أحدثه إختفاء نظام الشاه في إيران في إنتظار إعداد قوات أمريكية لتقوم بحماية منطقة الخليج هي بنفسها. وليس مجرد صدفة أن توالت تصريحات المسؤولين الأمريكيين عن الشروع في إعداد قوات التدخل السريع منذ سنة 1979. كما توالت منذ هذا التاريخ التهديدات التي كانت تصدر تباعا عن البيت الأبيض وعن المسؤولين البارزين في الإدارة الأمريكية ضد كل مامن شأنه أن يشكل خطرا مباشرا عن المصالح الأمريكية في المنطقة. لم تكتف الولايات المتحدة بالتصريحات بل عمدت إلى تكثيف تواجدها البحري في عرض مياه الخليج وفي المحيط الهندي. لقد وجد البنتاغون ذريعة لحشد قوات ضخمة في المنطقة في الطلب الذي قدمته الكويت لواشنطن لحماية سفنها وناقلاتها عبر مياه الخليج (1986).

Créé avec
nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

إن الحرص على إستمرار تدفق البترول وبأسعار بخسة وتأمين وصول هذه الطاقة الحيوية للإقتصاديات الغربية ليس سوى عامل واحد من العوامل العميقة التي تسببت في حرب الخليج الثانية. فهناك عوامل أخرى ساهمت بشكل حاسم في الدفع إلى إشعال نار الحرب.

إن العلاقات بين أقطاب مركز الرأسمالية العالمية بدأت تسجل إختلالا لغير صالح الولايات المتحدة بنمو وتعاظم دور المجموعة الأوروبية واليابان في الحياة الإقتصادية العالمية. كل الدراسات الاستطلاعية حول التطورات المحتملة لأقطاب المركز الثلاثة تؤكد تعاظم دور القطبين الأوروبي واليابان على حساب مكانة الولايات المتحدة، وهو ماجعل من مسألة استمرار هيمنة واشنطن على المركز وعلى العالم هي قضية وقت فقط[14]، وتؤكد الدراسات الإقتصادية من جهة أخرى أن الإقتصاد الأمريكي مصاب بالشلل لايستطيع أن يتجدد دون القيام باالإصلاحات العميقة التي من شأنها أن تعيد له الحيوية والقدرة على التعايش تنافسيا مع اقتصاديات قطبي المركز الآخرين. وليس هذا بأمر سهل [15]، فليس هناك مؤشرات ضاغطة تبني عن وجود شعور بضرورة الإصلاحات لاعلى الساحة الفكرية الأمريكية ولافي سلوكات رجال الأعمال ولالدى الطبقة السياسية الأمريكية. فأسهل طريق إذن للإحتفاظ بالهيمنة التي تمارسها على المركز والتي لم يعد لها مايبررها بعد سقوط المعسكر الإشتراكي وإنهيار الإتحاد السوفيتي هو جعل إقتصاديات دول المركز الأخرى في وضعية رهائن عن طريق السيطرة المباشرة على منابع الثروة النفطية التي تختزن منطقة الخليج ثلثي الإحتياطي العالمي المعروف. هذا التنسيق لدوافع حرب الخليج الثانية أصبح يقره الآن، الأمريكيون أنفسهم حتى المقربين منهم من دوائر البنتاغون وكتابة الدولة الأمريكية[16].

لن نستكمل استعراض الدوافع العميقة لحرب الخليج دون الإشارة إلى ذلك الجهد الضخم الذي لن نخشى المبالغة إذا وصفناه بالنموذج الذي بذله العراق من أجل البناء وعلى جميع الأصعدة. لم يسجل تاريخ العالم، لحد الآن، نموذجا ناجحا في التنمية وفي ظرف قصير كالذي حققه العراق [17]، فلم تتجاوز مرحلة الإنطلاقة

القوى المحلية منها والجهوية بما فيها القوى التي تشكل أطرافا في مركز الرأسمالية العالمية (مجموعة السبعة الكبار). كلّ شيء يسير وكأنّ الولايات المتحدة تملك تفويضا من كافة دول العالم يعطي لها هي وحدها، الحق في التوجيه وإدارة شؤون المعمورة دون شريك. إنّ مايثير الإنتباه حقا، هو الغياب الكامل للمجموعات الجهوية وللأمم المتحدة نفسها، كقوى مؤثرة على الساحة العالمية في نظام دولي يصبغ على نفسه صفة العالمية. فالمتتبع للنشاطات الباهتة التي تقوم بها هذه الهيئات سواء على المستوى الإقليمي مثل منظمة المؤتمر الإسلامي، ودول عدم الإنحياز وغيرها، يلاحظ أنها لاتتجرأ حتى على إتخاذ مواقف مبدئية في أية قضية من قضايا الساعة حتى وإن كانت ساخنة ومأساوية مثل قضية البوسنة والهرسك. وحتى المجموعة الأوروبية والأمم المتحدة نفسها (الجمعية العامة) مصابة بنفس الوجوم الذي عليه المنظمات الإقليمية الأخرى. كلّ شيء يجري وكأنّ العالم تحكمه ديكتاتورية متشددة لاتسمح ولاتستسيغ حتى حرية التعبير. فالولايات المتحدة هي وحدها القائمة و (الساهرة) على إدارة شؤون العالم، فهي في كلّ مكان وطرفا في كلّ شيء[21].

إنّ التناول الأمريكي للشؤون الدولية خلال الثلاث سنوات الأخيرة يعطي إنطباعا بكون إدارة واشنطن تصنف دول العالم إلى أربع مجموعات رئيسية أقلها درجة هي دول الرعية وتليها الدول المخزنية[22] أي دول الأداة ثم دول المشاركة بالتبعية وآخرها وهي الدول المستعصية وعددها لايتجاوز أصابع اليد الواحدة والتي تأتي في مقدمتها العراق والجماهيرية الليبية وكوبا وكوريا الشمالية. والعمل جار لإستكمال ترتيبها في الخانة الأولى إذا استطاعت ذلك.

لقد أكدت الأحداث منذ أزمة الخليج إنعدام وجود إرادة ذاتية مستقلة عن الإرادة الأمريكية للدول المشاركة بالتبعية وهي دول المجموعة الأوروبية الأربعة لكبرى (ألمانيا، فرنسا، إنجلترا وإيطاليا واليبان). ويبقى موضوع مسايرتها ودعمها للموقف الأمريكي هل كان عن إقتناع أو إنجرت إليه إنجرارا، موضوع جدل يستثني منه الموقف البريطاني. فتوزيع حصص المساهمة في إعمار الكويت بين أطراف التحالف الغربي يبين أنها خرجت بخفي حنين أو شيئا مثل ذلك.

الصناعية في هاته البلاد عقدين من الزمن جزء منها أنجز في خضم حرب ضروس مع إيران. لقد أكدت بعثة الأمم المتحدة التي زارت العراق غداة الحرب (في المنتصف الثاني من شهر مارس 1992) بكون العراق حقق تنمية شاملة في جميع الميادين بما فيها قطاع الخدمات جعلته يحتل، باستحقاق، مكانة من بين الدول الصناعية في العالم[18].

إنتهت حرب الخليج الأولى والعراق لم يدمر، كما كانت تأمل الولايات المتحدة، بل على العكس، خرج منتصرا وأقوى مما كان قبل إندلاع الحرب. لقد أصبح قوة إقليمية كبيرة من الصعب تجاهلها في أية حسابات تخص الخليج والمنطقة العربية بوجه عام [19]. وليس مقبولا الإعتقاد بكون العراق كان يهدد أمن أمريكا ومصالحها الحيوية في منطقة الخليج وإنما كان يشكل درعا قويا لحماية الأمة العربية مسخرا قدراته لخدمة حركة التحرر العربية وقضاياها وفي مقدمتها القضية الفلسطينية.

ليس هنا محل استعراض الملحمة البطولية التي خاضها شعب العراق ولافصول مأساة الضمير العربي، والتذكير بالفرصة التي أضاعها العرب مرة أخرى لإستعادة كرامتهم وتأكيد حريتهم وحماية مصالحهم الحيوية ولا الإستعادة إلى الأذهان الدور المخزي الذي قام به بعض منهم لتمكين المؤامرة الأمريكية ضد المصير العربي من النفاذ، وإنما يكفي أن نشير بكون العراق قد أدرك منذ الأيام الأولى من بدء الأزمة أبعاد المؤامرة وحاول التراجع، ولكن الأطراف العربية الضالعة أجهضت كلّ محاولة في هذا الإتجاه [20].

ثالثا ـ معالم النظام العالمي الجديد كما أبرزته وقائع الحياة الدولية منذ حرب الخليج

أ ـ على المستوى السياسي

1 ـ الهيمنة الأمريكية

أبرزت وقائع الحياة الدولية بع حرب الخليج الدور السياسي المهيمن للولايات المتحدة الأمريكية في الحياة السياسية الدولية وقد نجم عن ذلك تهميش كافة

nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

أما بالنسبة لروسيا التي ماتزال تعيش على وهم ماضي الإتحاد السوفياتي ولم تهضم بعد وضعها الجديد كدولة من الدرجة الثانية، فإنّ البيت الأبيض يعتقد أنّه بواسطة سلاح المليارات من الدولارات التي ستدفعها دول المشاركة بالتبعية وبعض دول المخزن سيتمكن من جرها لتأخذ مكانتها بين الدول صاحبة الإمتياز في النظام العالمي الجديد. عدد من المؤشرات الأولى في السياسة الروسية توحي بكون موسكو تسير حثيثا في طريق التدجين. لقد راهنت واشنطن على التسين وغذته مؤخرا بـ 43 مليار دولار لتدعم موقفه أمام خصومه والمناوئين لسياسته. إنّ الوضع في روسيا لايزال لم يستقر بعد ومع ذلك فلا يمكن التنقيص من قيمة الإختراقات التي حققها الغرب داخل النظام الروسي وفي مؤسساته وهياكله الإقتصادية، وكلّ الإحتمالات تبقى ممكنة عدا إمكانية العودة إلى النظام السابق. فكل الدلائل تشير على أنّه أصبح جزءا من الماضي. وتبقى الصين الشعبية المنهمكة حاليا في بناء نفسها على أسس جديدة مع تمسكها بعقيدتها الشيوعية لغزا مقلقا بالنسبة للولايات المتحدة. غير أنه لايبدو أنها تطمح لأن تلعب دورا عالميا على الأقل في المدى المنظور.

2 ـ الفوضى العالمية:

عندما بدأت مؤشرات الإنهيار تبدو في الأفق السوفياتي، بدأ الحديث عن إمكانية قيام نظام عالمي يدخل الإنسانية في عهد جديد سمته الرخاء والتكافل والديمقراطية. وتحت دفع هذا التفاؤل العام الذي كان سائدا قام بعض الكتاب بتقديم تصورات كمساهمة من طرفهم في تحقيق حلم الإنسانية القديم[23]. تذكرنا هذه الأدبيات بتلك التي صاحبت قيام عصبة الأمم عشية الحرب العالمية الأولى، وكذلك التي واكبت قيام منظمة الأمم المتحدة في عام 1945. وتضيف أدبيات النظام العالمي للتجربتين الأمميتين السابقتين، التأكيد على كون الإنسانية هي أمام خيارين لاثالث لهما : إما نظام عالمي في خدمة البشرية وإما فوضى عالمية عامة نعرف بدايتها ولكن لاندري ماذا ستكون نهايتها. ويبدو من خلال الخطوات الأولى للنظام العالمي الجيد أنه يتجه نحو الخيار الثاني.

Créé avec nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

إذا نظرنا إلى خريطة العالم اليوم، تبدو لنا وكأنّ المعمورة تهتز من أقصاها إلى أقصاها، فعالم الجنوب كله وجزء كبير من عالم الشمال هو في حالة غليان شديد، أكثر من ثلاثين صراعا دمويا تمزق أحشاشه. والأجزاء التي لم تدم بعد، هي في حالة اختمار وتقيح تتهيأ للتفقع في أي وقت. وتزيد صورة العالم كآبة عندما نلاحظ أنّ آلية الصراعات الجارية والتقيحات التي تعتمل هي ذات طبيعة داخلية أي تتجه نحو التعفن وتدمير الذات. كل شيء يبدو وكأنّ العالم مكتوم الأنفاس سائر في طريق الإختناق والتحلل.

إنّ انسداد الأفق وفقدان الأمل هو إحدى العوامل التي تفسر هذه الوضعية. كما أنها تمثل في نفس الوقت إحدى دعائم النظام العالمي الجديد. إلى جانب هذا فقيادة هذا النظام نفسها هي إحدى أسباب الأزمة المعقدة التي تتخبط فيها الإنسانية اليوم : هل الولايات المتحدة تتوفر على الشروط المعنوية والأخلاقية تؤهلها لقيادة العالم ؟ بالطبع[24] لا فدولة ذات سجل حافل في استغلال الشعوب وقهرها والتصدي بمختلف الأساليب والأشكال، بما فيه القتل والتدمير، لتطلعاتها المشروعة نحو العدالة والحرية والتقدم ليست مؤهلة لقيادة الإنسانية نحو الآفاق الموعودة.

إنّ التناقض القائم بين المبادئ التي يزعم بكونها تشكل القاعدة التي يرتكز عليها النظام العالمي الجديد : الشرعية الدولية، الديمقراطية وحقوق الإنسان وبين التزامات الولايات المتحدة الدولية وممارستها الفعلية جعلها تتبنى سلوكا مزدوجا في تعاملها مع المشاكل الدولية. لقد استصدرت ست قرارات من مجلس الأمن في أقل من ثلاثة أسابيع لإدانة العراق، في الوقت الذي تطلب الأمر مايزيد عن شهر من مداولات هذه الهيئة لإصدار قرار يدين إدانة مائعة العمل الإجرامي الذي قامت به إسرائيل ضد الفلسطينيين في ديارهم والذي لايزال معلق التنفيذ لحد هذه الساعة. ونفس السلوك اتبعته بخصوص البوسنة والهرسك، فهي تهدد بالتصريحات ولكنها لاتفعل شيئا. ولاتفيد الإجتهادات التي يقدمها الأمين العام الحالي للمنظمة الأممية في طمس حقيقة هذه الإزدواجية عنما يزعم بكون قرارات

مجلس الأمن هي على صنفين : قرارات ملزمة وهي التي طبقت ضد العراق وقرارات غير ملزمة وهي التي تخص اسرائيل وأطراف أخرى محظوظة مثلها.

إنّ الفوضى السائدة في عالم اليوم تشكل عنصرا أساسيا في بنية النظام العالمي الجديد : فإبقاء العالم في حالة لهث، مشدود الأنفاس يمثل هدفا استراتيجيا للإدارة الأمريكية للمحافظة على مكانتها المهيمنة على شؤون العالم[25].

ب ـ على المستوى الإقتصادي والإجتماعي :

رغم الإدعاء الشائع بكون عالم اليوم يمثل نهاية عصر الإيديولوجيات، وهو الإدعاء الذي لاتزال وسائل الإعلام في الغرب تردده الآن ـ وكذلك توابعها في بلدان الجنوب ـ بمناسبة أو غير مناسبة مما يؤكد أنّ هذا الشعار يشكل في الواقع عنصرا أساسيا في الخطاب الثقافي للنظام العالمي الجديد، ومع هذا فإنّ أول مانلاحظه عندما نحاول تلمس المضمون الإقتصادي والإجتماعي لهذا النظام، هو محتواه الإيديولوجي.

إنّ نظرة تحليلية للآليات الإقتصادية في البلدان المصنعة تعطي لنا مؤشرات أولى بكون الهياكل الإقتصادية لهاته البلدان بدأت تتجاوز مرحلة الإحتكارات التي جسدتها الشركات عبر القوميات والشركات المتعددة الجنسيات في فترة الحرب الباردة على الخصوص وأنها بدأت تنتقل إلى مرحلة أرقى من التجميع والتمركز وهي المرحلة التي بدأ وصفها باسم مرحلة (عولمة الإقتصاد).

ويلاحظ على هذا التطور تقلص دور عنصرين أساسيين في البنية الإنتاجية وهما قوة العمل ووسائل الإنتاج لحساب العنصر الثالث الممثل في رأس المال. والمعروف أنّ هذا الأخير نادرا ماكان يتوجه للإستثمار في القطاعات المنتجة إلا بحوافز مشجعة. فنزعته الطبيعية هو التوظيف في مجالات قليلة وسريعة المردودية. فالمضاربة توفر له هذه الشروط وبسهولة تامة بفضل التطورات الثقافية الهائلة التي أدخلت في ميدان الإتصالات وفي المعاملات المالية[26].

إنّ التوجه الغالب لحركة رؤوس الأموال منذ بداية الثمانينات هو نحو المضاربة في الأسواق العالمية الكبرى المتسمة [illegible] وقد أقلقت هذه الظاهرة البلدان

nitroPDF professional
téléchargez la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

الصناعية الكبرى نفسها وسببت لبعضها هزات نقدية عنيفة زعزعت اقتصادياتها زعزعة شديدة (مثل الذي حدث في بورصة نيويورك في عام 1988 أو في إيطاليا في شهر سبتمبر 1992). أما أثر هذا التوجه على بلدان العالم الثالث فقد انعكس سلبيا في ظاهرتين : أولهما ندرة رأس المال المعروض للإستثمارات المنتجة التي أصبحت لاتكاد توجد خارج التعاقد بين الحكومات أو عن طريق المؤسسات النقدية الدولية الكبرى مثل صندوق النقد الدولي والبنك العالمي. وثانيهما نمو حجم القروض التجارية في المعاملات المالية بين الشمال والجنوب في العشرية الأخيرة وخاصة منذ سنة 1986. هذا النوع من القروض تشبه في حقيقتها عمليات المضاربة. فهي قصيرة الأجل ذات سعر فائدة مرتفع وغالبا ماتكون مشروطة باستيراد السلع الإستهلاكية من البلد المقروض.

إنّ توقف البرامج التنموية في مجموع بلدان الجنوب عند منتصف الثمانينات ليس بمعزل عن هذه الظاهرة التي تميزت بها حركة رؤوس الأموال في العشرية الأخيرة، فليس هناك علاج لها. كما أنه ليست هناك قوة تستطيع أن تعيد للرأس المال رشده[27].

فعالم الجنوب وشرق أوروبا في حاجة ماسة للإستثمارات ولكن لايوجد مستثمرون والقروض المشروطة ـ إعادة هيكلة الإقتصاد وتحرير الأسعار وغيرها ـ التي يقدمها صندوق النقد الدولي أو البنك العالمي هي في خدمة الرأس المال المضاربي وليس لتنمية بلدان العالم المتخلفة.

أما المحتوى الإجتماعي للنظام العالمي الجديد، فمما يلاحظ هو أن هناك حرب ثأرية أعلنها هذا النظام ضد كل ماله رابطة أوعلاقة بالعدالة الإجتماعية ورفاه الإنسانية في مجموعها. فعلى المستوى العلمي يبدو وكأنها حرب أعلنها الشمال المتطور ضد الجنوب المتخلف، وفي داخل كل مجتمع في الشمال وفي الجنوب يوجد مايشبه حرب الأغنياء ضد الفقراء فداخل مجموعة الأغنياء أنفسهم هناك أقلية مستبدة بشؤون الباقي. فهو نظام أوليجاركي في خدمة الأقلية. لقد أدت هذه الوضعية إلى مفارقة عجيبة. فعالم اليوم أغنى من عالم الأمس، ولكن معظم

مجتمعاته ترزخ تحت نير البؤس والإحتياج. فبلدان الشمال نفسها لاتستثني من هاته الظاهرة. إنّ سدس سكان أغنى دولة في العالم (الولايات المتحدة الأمريكية) يعيشون تحت عتبة الفقر. وفرنسا التي زادت ثروتها خلال العشرية المنصرمة بنسبة 10 ٪ إرتفع عدد العاطلين عن العمل بنسبة 40 ٪ في نفس الفترة[28].

فالحرب التي شنتها المؤسسات المالية للنظام العالمي الجديد ضد المكتسبات الإجتماعية لحركة التحرر الوطني والحركة الإشتراكية هي أبلغ تعبير عن محتواه الإجتماعي. فمن زاوية المنظور التطوري لحركة التاريخ فإنّ هذا النظام يمثل ردة حقيقية، فهو أدنى مستوى من الزاوية الحضارية من النظام الدولي السابق.

ـ رابعا : دعائم النظام العالمي الجديد :

يرتكز النظام العالمي الجديد على ثلاثة دعائم أساسية إلى جانب عدد من الروافد توفر له الغطاء الإيديولوجي و (العلمي) لمساندته وترسيخ قواعده. وهذه الدعائم هي القوة العسكرية الأمريكية و (الشرعية) الدولية ومايتصل بها من تضامن الدول الرأسمالية بين بعضها إلى جانب تعبئة الرأس المال لتحقيق الأهداف الإقتصادية والإجتماعية للنظام العالمي الجديد.

1 ـ القوة العسكرية الأمريكية :

في فترة الحرب الباردة وتحت مظلة الرعب النووي، تمكنت الولايات المتحدة من بناء شبكة من التحالفات العسكرية لمحاصرة الإتحاد السوفيتي، غطت جميع مناطق المعمورة. فعلى اعتبار كونها القوة الوحيدة التي خرجت منتصرة من الحرب دون تدمير ومستفيدة منها في نفس الوقت، فقد أخذت على عاتقها مهمة الدفاع عن (العالم الحر) في مواجهة الخطر (الشيوعي)، غير أنّ ظهور حركة التحرر الوطني في الميدان خاصة منذ بداية الخمسينات أدت إلى شل شبكة التحالفات التي بنتها في معظم المناطق الساخنة في العالم آنذاك، في الشرق الأوسط وجنوب شرق آسيا. ولم يبق قائما سوى منظمة حلف شمال الأطلسي وهو ماأضطر الولايات المتحدة إلى التدخل في جنوب شرق آسيا (حرب الفيتنام)، وعن طريق إسرائيل في الشرق

Créé avec
nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

الأوسط في الصراعات المتواصلة ضد حركة التحرر العربية حتى أزمة الخليج (1990).

كان من المفروض أنّ الزعامة العسكرية الأمريكية ستتقهقر بعد إنهيار المعسكر الإشتراكي واختفاء حلف وارسو لأنّ مبرر وجودها لم يعد قائما. فالمنافسة في ظل النظام العالمي الجديد هي منافسة اقتصادية بين دول المركز الرأس مالي وليست عسكرية. لكن ماحدث هو العكس لقد بقيت منظمة حلف شمال الأطلسي، وازدادت تماسكا أكثر مما كانت عليه في الماضي بعودة فرنسا لإحتلال مقعدها في المنظمة من جديد. إلى جانب عودة الحديث عن إمكانية إحياء الأحلاف التي تلاشت في جنوب شرقي آسيا وفي الشرق الأوسط تحت تسميات جديدة كأنظمة عسكرية إقليمية تحت إشراف وتوجيه الولايات المتحدة الأمريكية.

إذا كانت واشنطن قد إستطاعت أن تقنع بسهولة حلفائها الغربيين بضرورة الإبقاء على منظمة حلف شمال الأطلسي، فإن مهمتها ستكون صعبة جدا في جنوب شرقي آسيا وفي الشرق الأوسط. وعيا منها بهذه الصعوبات وبردود الفعل المضادة التي قد يثيرها حرصها وتسرعها في إقامة الأنظمة العسكرية الإقليمية، فقد إرتأت التريث وعدم الإستعجال، في إنتضار التطورات المقبلة. وفي نفس الوقت فقد أوجدت بدائل عملية عن طريق إبرام معاهدات عسكرية ثنائية مع دول مجلس التعاون الخليجي ومع إسرائيل ومصر وكذلك مع بعض دول جنوب شرقي آسيا وكوريا الجنوبية.

تطرح مسألة إصرار واشنطن على الإبقاء على هيمنتها العسكرية بعد إختفاء ماكان يشكل في السابق مبررا لها، سؤالا ملحا وهو ضد من تتم هذه التعبئة، إنّ الحملة المسعورة التي شنها الإعلام الغربي ضد العراق أثناء أزمة الخليج وخلال الحرب، تبين أنّ هناك فكرة يراد غرسها في أذهان الرأي العام الغربي والتي مفادها أنّ هناك خطرا يكمن في الجنوب والذي حلّ محل (الخطر الشيوعي). وأنّه يجب على الغرب أن يبقى في حالة تعبئة دائمة للتصدي له[29].

إنّ موقف الرأي العام الغربي أثناء حرب الخليج يبين أنّه إحتضن الفكرة وإعتنقها بحماس شديد. وهو ماتؤكده إستطلاعات الرأي العام حول شعبية صانعي هاته الحرب العدوانية، بوش، ميجر ومتيران لدى مواطنيهم حين حققت أرقاما قياسية لم يسبق أن حققها أي واحد منهم من قبل.

إنّ وراء ترسيخ هذه الفكرة مصالح أمريكية، سياسية واستراتيجية ضخمة. ومن الصعب فصل الإمبريالية عن نزعتها العسكرية الغريزية.

فالولايات المتحدة، كما لاحظ أحد المحللين العرب البارزين تعيش (منذ عام 1941 على الإقتصاد الحربي فإذا ماإنهار هذا الإقتصاد تغرق البلاد في أزمة خطيرة لايمكن تجاوزها إلا إذا أعيد النظر في تركيبة النظام الإجتماعي)[30].

من الصعب التصور كون هذه الهيمنة العسكرية فرضتها الولايات المتحدة على حلفائها في الظروف الدولية الراهنة.

ذلك أنّ إختفاء الإتحاد السوفيتي وتلاشي حركة التحرر الوطني من قبل قد فتح أمام الدول الأوروبية بابًا واسعا لتحرك المستقبل بعيدا عن وصايا وشنطن. لكن هذا يفترض أن تكون لها مواقف متميزة في القضايا الدولية، خاصة منها الساخنة، عن مواقف البيت الأبيض. لم يلاحظ أي مؤشر في هذا الإتجاه منذ أزمة الخليج، رغم ظهور بعض البوادر المحتشمة لدى فرنسا لكن سرعان ماتمّ تطويقه وإمتصاصه. يرى بعض الملاحظين أنّ دول التحالف الغربي وجدت أنهّ من مصلحتها الإبقاء على هذه (المظلة الأمريكية) حتى وإن زال الرعب النووي. مادامت هذه الحماية لاتكلفها شيئا أو تكاد وعلى العكس فلو لم تكن موجودة لإضطرت إلى تكوين قوة خاصة بها للدفاع عن مصالحها في الجنوب على الخصوص، وهي عملية مكلفة ومجهدة في نفس الوقت[31]. فمن هذه الزاوية، أي حساب التكلفة، فإنه من الصعب التصور أن الدول الصناعية الكبرى ستقبل دفع الإتاوات مرة أخرى كما حدث أثناء حرب الخليج الثانية. فالتململ الذي حدث لدى بعض منها (اليابان وفرنسا) أثناء عدوان بوش الأخير ضد العراق في مستهل هذا العام (1993) يدعو الى التأمل طويلا حول مدى [illegible] أمام [illegible] كبيرة في حجم أزمة الخليج.

Créé avec nitro PDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

2 ـ الشرعية الدولية :

الدعامة الثانية للنظام العالمي الجديد يتمثل فيما تسميه واشنطن وحلفائها بـ : (الشرعية الدولية). إنه مما يثير الدهشة والإشمئزاز في نفس الوقت أن يتم الإحتماء بهذه الذريعة القانونية والأخلاقية من طرف دول لها سجل حافل بالإنتهاكات والإعتداءات على ميثاق منظمة الأمم المتحدة نفسها. فجلسات الجمعية العامة للهيئة الأممية منذ نشأتها حافلة بالشهادات والتنديدات ضد الإعتداءات والإنتهاكات التي إقترفتها ولاتزال بعض منها تقترفها حتى الآن ضد الشرعية الدولية التي نصبت نفسها اليوم حامية لها ومدافعة عنها.

إنّ إستخدام هذه الذريعة لايمكن أن يغطي الواقع المتردي الذي آلت إليه الأمم المتحدة اليوم. فالتوازن الثلاثي الذي كان يحكمها ـ والمتمثل في دول العالم الثالث والكتلة الإشتراكية والدول الغربية والذي كان إلى حد ما سببا في قصورها في أداء الرسالة التي أنشئت من أجلها [32] قد إختل بإختفاء طرف رئيسي على مستوى القرار فيها وهو مجلس الأمن. وبذلك وجدت الولايات المتحدة نفسها على سلطة أممية في خدمتها ورهن إشارتها. لواشنطن تجربة كبيرة في هذا الميدان فقد سبق لها أن حولت سلطة القرار من مجلس الأمن إلى الجمعية العامة أثناء الأزمة الكورية، وعندما فقدت السيطرة عليها بظهور كتلة عدم الإنحياز بها حولت مجلس الأمن إلى آداة لشل كلّ مبادرة، لاتتماشى مع سياستها ومع أهدافها تتخذها المجموعة الدولية. ومانلاحظه اليوم من تهميش لدور الجمعية العامة للمنظمة يشكل إستمرارا للنهج الذي سارت عليه الولايات المتحدة في علاقاتها مع هذه الهيئة منذ نشوب الحرب الباردة.

كان من المفروض أن تتصدى الهيئة الأممية لكلّ محاولة إستخدامها واستغلال مكانتها المعنوية والسياسية لتحقيق أغراض أنانية لمصلحة دولة أو مجموعة من الدول على حسابها. لكن هذا لم يحدث. فوجود أشخاص يعتبرون أنفسهم في خدمة الإدارة الأمريكية قبل أن يكونوا في خدمة الهيئة الأممية، على رأس المنظمة لعب دورا كبيرا في تسيير إحتوائها من طرف الولايات المتحدة ودفعها في هذا الإتجاه

الخطير. أين كانت الأمم المتحدة على عهد داق همر شولدو وأين أصبحت على عهد بيريز دي كويلار وخليفته ؟

شكلت أزمة الخليج منعطفا خطيرا في مسيرة المنظمة الدولية. فلأول مرة في تاريخها تتورط في عمل عدواني مسلح، ضد أحد أعضائها، أعد من خارجها دون أن يكون لها حق الإشراف عليه ومراقبته من خلال مؤسساتها المتخصصة. لقد عرتها الولايات المتحدة ونزعت عنها كلّ مصداقية إضفاء (الشرعية الدولية) على إعتداءاتها على حقوق الشعوب وعلى حريتها.

لايبدو أي مؤشر لحد الآن يبني عن وجدانية لتقويم هذا الإنحراف بل على العكس، فالتقرير المطول الذي أعده الأمين العام الحالي للمنظمة والذي نشر في الخريف الماضي (1992) بدعم هذا التوجه الذي إتخذته المنظمة منذ صيف 1990 أكثر مما يسعى إلى علاج الإنحراف الذي إنجرفت إليه. فالأمم المتحدة هي الآن أمام خيار حاسم : إما أن تستعيد دورها لتأدية الرسالة التي أنشئت من أجلها وإلا سيكون مصيرها الإضمحلال والتلاشي كسابقتها عصبة الأمم.

3 ـ تعبئة الرأس المال :

إنّ الحرب التي شنتها الولايات المتحدة على بلدان الجنوب منذ بداية عقد الثمانينات وخاصة منذ سنة 1986 هي حرب إقتصادية وسلاحها الأساسي هو الرأس المال.

لقد تبين بالفعل أنّه سلاح فتاك أشد تأثير من السلاح التقليدي. لقد تمكنت الرأسمالية العالمية، لحد الآن من كسب معارك حاسمة ضد المشروع التنموي لحركة التحرر الوطني وضد النظام الإشتراكي. ولا يزال هجومها مستمر تحت لواء الليبرالية البدائية التي شعارها (أتركه يفعل أتركه يمر) وهو الشعار الذي أعيد إحياؤه للتصدير لبلدان الجنوب وبلدان أوروبا الوسطى والشرقية لتدمير القاعدة الصناعية التي بنتها بعرق وتضحيات أجيال على مدى عشرات من السنين، مع العلم، أنّ البلدان الرأسمالية الكبرى نفسها لاتطبق هذا المبدأ إلا في الحدود الذي يخدم مصالحها وفرها

فحرية إنتقال الرأس المال ليست مكفولة إلا في إطار دائرة ضيقة جدا داخل محيط دول مركز الرأسمالية العالمية. وخارج هذه الدائرة، فهو تحت وصاية المؤسسات المالية الكبرى التي تتحكم في توجيهه ليس وفقا لمتطلبات قانون السوق وإنما حسب الأهداف التي حددت لدوره في المعركة.

فأين الليبرالية من كلّ هذا ؟ يضاف إلى هذا أنّ النزوح الطبيعي للرأس المال نحو المضاربة يعني نفوره من أسواق الجنوب إلا في حالة تصدير السلع الإستهلاكية أو تجارة المخدرات. وفي الحقيقة، فإنّ الغاية من تعبئة رأس المال ض بلدان الجنوب ليس من أجل تطوير هذه البلدان كما يدعى حاملي راية النظام العالمي الجديد ودعاته وإنما للعودة بها إلى الحالة التي كانت عليها أثناء العهد الإستعماري.

لقد إستخدم لتحقيق هذه الغاية أداتين رئيسيتين :

المديونية ووصفات النقد الدولي والبنك العالمي.

ـ **المديونية** : إنّ خطر المديونية على حاضر بلدان العالم الثالث وعلى مستقبلها لايناقش فيه أحد فهي تحتل حاليا مكانة الصدارة في العلاقات بين الشمال والجنوب، لقد إختفت من قاموس هذه العلاقات كلمات مثل (المساعدة من أجل التنمية) و (التعاون الفني) وغيرها من الألفاظ التي كانت تعكس إنشغالات بلدان الجنوب في الستينات والسبعينات، ليحل محلها كلمات مثل (خدمات الدين) و (إعادة الجدولة) و (شروط التسديد المفضلة) وغيرها من المصطلحات المبتدعة للتعبير عن الآليات المعقدة لسلاح المديونية.

إنّ هذا السلاح في الواقع، لم يستعمل لأول مرة. فمنذ منتصف القرن التاسع عشر إستخدمته الدول الإستعمارية بفعالية كبيرة في العمليات التي كانت تسميها بـ : (التغلغل السلمي) التي كانت تشكل مقدمات للإستعمار المباشر. لقد تبين لها أنه أقل تكلفة من الناحية البشرية والمالية من الغزو المباشر بدون مقدمات. فتجربة غزو الجزائر كانت عالية التكلفة في الأرواح والأموال مما جعل فرنسا، عندما بدأت تتهأ لاحتلال كل من تونس والمغرب، تتبنى سياسة التغلغل السلمي التي مكنتها

nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

من فرض رقابتها على الخزينة التونسية وبالتالي على الإقتصاد التونسي قبل أن تحتل البلاد عسكريا وتفرض حمايتها عليها[33]. نفس الوسيلة إستخدمتها في سعيها لاحتلال المملكة المغربية، حين فرضت رقابتها على مالية المملكة منذ عام 1904 على إثر القرض الذي منحته للحكومة المغربية[34]. كما أنّ إحتلال إنجلترا لمصر عام 1881 بدأ بالأزمة المالية التي احتدت في السنوات الأخيرة من حكم الخديوي إسماعيل وهي الأزمة التي أدت إلى وضع الخزينة المصرية تحت الرقابة المزدوجة الفرنسية والإنجليزية وقيام الدولتان بالتدخل المباشر في تعيين الموظفين السامين وحتى الوزراء في الحكومة المصرية، كخطوة أولى تلاها إحتلال البلاد بعد ذلك بفترة قصيرة. هذا التذكير كأمثلة للنتائج التي ترتبت على المديونية في القرن الماضي ليست في غير محلها. ذاك أنّ مؤشرات المخاطر التي تترصد بلدان الجنوب من جرائها مافتئت تتضاعف. فمنذ بداية السبعينات قام بعض المحللين في الشمال بدق ناقوس الخطر ولفت الإنتباه إلى الأضرار التي ستترتب آجلا عما كان يسمى في ذلك الوقت بـ : (المساعدات) التي تقدمها الدول الصناعية لبلدان العالم الثالث والتي تهدف في حقيقتها إلى أحكام روابط التبعية لها أكثر مما كانت تهدف إلى مساعدتها للخروج من دائرة التخلف[35].

فمنذ أواخر الستينات بدأ يطرأ على بنية الديون تغيير ليس في صالح المستفدين عندما بدأت تتقلص نسبة الديون العامة لحساب الديون التجارية أي الخاصة ومانحتوي عليها من شروط تجعلها غير قابلة للإستثمار في القطاعات المنتجة في معظم الحالات. ففي سنة 1968، على سبيل المثال، فالقروض التجارية التي قدرت قيمتها بحوالي أربع مليارات من الدولازات كانت تستحوذ على نسبة 41 ٪ من خدمات الدين العام الذي يبلغ 45 مليار دولار لنفس السنة[36]، هناك وجه آخر في هذه المديونية وهو كون المقترض وبعد مرور فترة من الوقت (عشر سنوات في المعدل) يبدأ في شراكها إلا إذا تحلى بإرادة صارمة لقبول تضحيات قاسية كما فعلت ماليزيا وكوريا الجنوبية ورومانيا وتايلاندا سنة 1989 أو توفرت لديه موارد ظرفية غير متوقعة كارتفاع أسعار البترول فجأة واستقرارها عند

Créé avec nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

مستوى السقف الجديد لمدة طويلة نسبيا، كما حدث في سنتي 1974 و 1979. إنّ أقساط التسديد وخدمات الدين تقتطع من صادرات البلد المدين وبالتالي من مداخليه من العملة الصعبة. وعندما تكون نسبة الإقتطاع أقل من خمس الصادرات تبقى المديونية محتملة، ولكن عندما تتجاوز هذا الحد تصبح خطرا حقيقيا على البلد المقترض لكونه سيجد نفسه مضطرا لوقف مشاريعه التنموية مما سيكون له إنعكاسا سلبيا سيؤثر لامحالة على الإستقرار والسلم الإجتماعي فيه.

إنّ الإنعكاسات السلبية للمديونية التي تمّ رصدها عند نهاية الستينات ازدادت استفحالا منذ ذلك الوقت، لقد ارتفع حجم المديونية من جهة وتعسرت شروطها من جهة ثانية. ففي 1967 كان حجم مديونية بلدان الجنوب 45 مليار دولار ليرتفع إلى 60 مليار دولار عام 1970 ليصبح 253 مليار في عام 1977 و 700 مليار دولار عام 1983. وليقفز إلى 190 مليار دولار عام 1989[37].

وإذا كانت خدمات الدين (تسديد الأقساط والفائدة) تشكل في المعدل عشر المديونية فإنّ مايقرب 120 مليار دولار تدفعها بلدان الجنوب سنويا لبنوك الشمال منذ سنة 1989 هذا على اقتراض استقرار حجم المديونية عند المستوى الذي وصلت إليه في هذه السنة وهو مايشكل نزيفا حقيقيا لها.

لقد شكلت خدمات الدين عبئا ثقيلا لايحتمل بالنسبة لبلدان أمريكا اللاتينية مما جعل بعضها يعلن عن احتمال وقف تسديد ديونها بسبب العجز.

وبالفعل فإنّ مديونية بلدان هذه المنطقة كانت تمثل نصف مديونية العالم الثالث عام 1983 (350 مليار دولار من 700 مليار مجموع مديونية الجنوب) وتأتي البرازيل والمكسيك في مقدمة البلدان المدينة بـ 90، 80 مليار على التوالي. بدأ الحديث في هذه الفترة (بداية الثمانينات) عن إمكانية البحث عن مخرج من هذا المأزق في إطار عمل جماعي على مستوي الجنوب. لكن بنوك الشمال تحركت بسرعة لإمتصاص هذا الخطر المحتمل قبل أن يتجسد. لقد ابتدعت عدة وصفات لهذه الغاية مثل آليات تأجيل الدفع وإعادة تمويل خدمات الدين وصيغ أخرى

مشابهة. وقد نجحت فعلا في تمييع الموضوع فلم يعد هناك حديث اليوم عن ضرورة بلورة موقف مشترك لبلدان الجنوب حول مشكلة المديونية. فالمؤسسات المالية الدولية تشترط تناول هذه المشكلة حالة بحالة وليس كموضوع تشترك فيه كلّ الأطراف المعنية، ومع هذا فلم يلاحظ أي تحسن في إتجاه تخفيف من العبئ للحالات الأولى التي تمت معالجتها بواسطة مسكنات صندوق النقد الدولي والبنك العالمي، بل على العكس فقد ازداد عبئها أكثر. وإذا أخذنا البلدان الأكثر استدانة في بداية الثمانينات وهي بلدان أمريكا اللاتينية كأمثلة فإننا نلاحظ أنّ المكسيك ارتفعت ديونه خلال ثلاث سنوات فقط 1985 ـ 1988) بـ 47 ٪ والبرازيل بـ 35 ٪ والأرجنتين بـ 55 ٪ وفنزويلا وهي بلد بترولي عضو في منظمة الدول المصدرة للبترول بـ 29 ٪ في نفس المدة[38].

كما أنّ الإجراءات التي اتخذت في إطار مايسمئ بمبادرة تورنتو عام 1988 لتخفيف عبئ خدمات الدين على الدول الإفريقية الأكثر فقرا ولاتوسيع هذه التسهيلات لتشمل الدول المتوسطة الدخل في إطار مخطط برادي عام 1989، لم تؤدي في واقع الأمر إلي تحسن في وضع الدول المدينة، فهي مجرد إجراءات استعجالية لمنعها من الإختناق[39].

ويبقى السؤال قائما : هل المديونية الحالية ستقود بلدان الجنوب إلى نفس النهاية التي قادت بعض منها في القرن الماضي ؟

2 ـ وصفات صندوق النقد الدولي والبنك العالمي :

إنّ مايلاحظ على الوصفات العلاجية التي تقدمها هاتين المؤسستين أنه لحد الآن لايوجد مثل واحد لبلد تقدم للعلاج في مستوصفيها واسترد صحته والبعض منها تردد ولايزال يتردد عليه منذ مايزيد عن عقد ونصف من الزمن. ومايقال عن نجاح بلدان رأسمالية الأطراف هي حالات خاصة لاتصلح كنماذج. فكل بلد تجرع وصفات المؤسستين إلا وازدادت حالته خطورة إلى درجة لاترجى منها عافيته، إذ يصبح في حالة مرض مزمن في حاجة إلى حقن دورية للبقاء على قيد الحياة. أليس

Créé avec nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

هذا هو الدور الذي أنيط بالمؤسستين ؟ وليس من قبيل الصدفة إذا لاحظنا أنّ كل الأنظمة الوطنية في العالم الثالث الملتزمة بمصلحة شعوبها كانت تستنكف عن التعامل مع هاتين المؤسستين حتى بشروط تفضيلية، تجنبا لمخاطرها واتقاءا لشرها.

ـ خامسا : روافد النظام العالمي الجديد :

يتوفر النظام العالمي الجديد على عدد من الروافد الهامة تسنده وتشد مسيرته ويأتي في مقدمتها الخطاب الإيديولوجي الذي يتبناه والتعبئة الإعلامية على المستوى العالمي، لنشر أطروحاته وترسيخها في أذهان الناس على أنها حقائق مطلقة، لاتقبل النقاش، وتوظيف مراكز البحث العلمي، خاصة في العلوم الإجتماعية لخدمة أهدافه.

فالخطاب الإيديولوجي، يرتكز على ثلاثة محاور رئيسية : الديمقراطية وحقوق الإنسان واقتصاد السوق. ومما يلفت الإنتباه هو غياب الرؤيا الإجتماعية في هذا الخطاب. وليس ذاك ناجما عن غفلة أو نسيان وإنما يعكس في الواقع حقيقته هو كونه لن يستطيع أن يعد البشرية بأي شيء عدا كونه يلتزم بخلق الظروف ومحيط عام يكون فيه (الحق للأقوى والبقاء للأصلح). فالديمقراطية في منظور النظام العالمي الجديد لها قواعدها وآلياتها الداخلية التي تحركها وتقود مسيرتها.

فالتعددية الشكلية هي مقياس الديمقراطية في هذا المنظور وليس التعددية الموضوعية التي تعكس بالفعل التوجهات العميقة داخل كلّ مجتمع. ومن هذا المحتوى التقزيمي لمفهوم الديمقراطية وجدت الإمبريالية في الماضي القريب والنظام العالمي الجديد الآن إنها لم تعد تشكل خطرا، بل على العكس فهي لم تعد مرادفة (للخطر الأحمر) كما كانت عليه في الستينات والسبعينات بل قد تتحول إلى أداة لتقويض أركان النظم المستعصية في علاقاتها معه (مثل رومانيا). فهناك خطر تزييف الديمقراطية عندما تتحول إلى أداة بين أيدي دول المركز الرأسمالية العالمية. ومع ذلك فبالرغم من قشورية الديمقراطية التعددية فإنه لم يتشبث بالمطالبة ولا حتى بالتوصية بها في دول الأطراف الرأسمالية ولا في دول المخزن (دول الأداة) أصدقائه

فهو يبرر غيابها لدى الأولى بدعوى أنها تنمو وتتطور ولدى الثانية بعدم توفر الشروط التي تسمح بقيام التعددية السياسية. إنّ الديمقراطية التي هي في نظرنا عقيدة إجتماعية قبل أن تكون هيكلة فوقية تعرضت في مسارها الطويل إلى تطور كيفي ثري المحتوى[40]. وهو التطور الذي يرشدنا إلى أنّ هناك خيارين في المسار الديمقراطي : خيار مأمون وآخر محفوف بمخاطر الإنتكاس والعودة إلى نقطة البداية أي الديكتاتورية. ويخشى أن يكون النظام العالمي الجديد يدفع بلدان العالم الثالث نحو هذا الخيار الأخير، على أنّ التخوف من هذا الإحتمال يجب أن لايدفع إلى قبول التعايش والإستسلام للأنظمة المعادية للديمقراطية وإنما يستدعي التأمل في كيفية تأصيل الديمقراطية التي هي ضرورة حضارية في العالم المعاصر وفي مجتمعاتنا. فالنقاش الدائر حول موضوع الديمقراطية في عالم الجنوب اليوم يمثل مؤشرا ايجابيا لبداية التأمل، وبرؤى مستقلة، حول هذه المسألة[41].

إنّ الدعوة لإحترام حقوق الإنسان تمثل عنصرا في الخطاب الإيديولوجي في النظام العالمي الجديد. ومن المفيد التذكير بكون الدعوة إلى آحترام وحماية هذه القيم الإنسانية ليست من مبتكراته وإنما هي جزء من مكاسب نضالات الإنسانية المعاصرة والتي بفضلها كرست في مواثيق أممية وفي دساتير الدول كما أنشئت منظمات وهيئات عبر العالم لحمايتها والدفاع عنها. إنّ مايخشى هو أن تتحول هذه القيمة الإنسانية إلى سلاح سياسي في يد حماة النظام العالمي الجديد، لاستخدامه ضد الرافضين لهيمنتهم. عدد من الشواهد تؤكد هذه النزعة. إنّ مايحدث اليوم في البوسنة والهرسك على مرأى ومسمع من حماة هذا النظام دون أن يحركوا ساكنا لأبلغ دليل على حقيقة إيمانهم بحقوق الإنسان.

إنّ الدعوة إلى تعميم الليبرالية لتشمل جميع مناطق العالم تحت إسم إقتصاد السوق والذي بدأ حاليا في تغيير إسمه ليصبح (عولمة الإقتصاد) تمثل الوجه الإقتصادي في ايديولوجية النظام العالمي الجديد، إنّ مايثير الإستغراب هو الكيفية التي طرح بها هذا الشعار مجرد من كلّ خلفية تاريخية وكأنّه مولود جديد لم يسبق للإنسانية أن عاشت في ظله[42]. والحقيقة تعكس هذا. فإقتصاد السوق بالمفهوم

Créé avec nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

الذي يتضمنه اليوم ظهر مع الليبرالية الصناعية عند أواخر القرن الثامن عشر وسار معها، بل كان الوجه الإقتصادي لها منذ ذلك الوقت. أنّ هذه المغالطة تهدف إلى طمس مسألة تقلق دعاة إقتصاد السوق ويريدون إسدال ستار النسيان عليها والمتمثلة في التكلفة الإجتماعية لليبرالية القرن التاسع عشر وبالتالي تغيب المبررات التاريخية لظهور الإشتراكية[43].

إنّ مطلب العدالة الإجتماعية هو مسعى الإنسانية المقهورة عبر العصور والذي اتخذ في القرنين التاسع عشر والعشرين اسم الإشتراكية يشكل رد فعل عن حالة البؤس الشديد التي كانت ترزح تحته المجتمعات الأوروبية في ظل الليبرالية الصناعية. ولم تتمكن هذه المجتمعات من اصلاح خلل النسيج الإجتماعي بها إلا غداة الحرب العالمية الثانية بفضل التشريعات الإجتماعية التي سنتها والتي يعود الفضل في تحقيقها إلى النضالات المريرة التي خاضتها الطبقة العاملة في هاته البلدان. فإقتصاد السوق ليس مولودا جديدا وإنما هو الرأسمالية نفسها في عنفوانها وبدايتها بتركتها الإجتماعية المأساوية[44].

إنّ محاولة التركيز على إفلاس التجربة الإشتراكية وحركة التحرر الوطني في مساعيهما للإرتقاء بالإنسانية إلى مستوى أعلى، واعتبار ذاك مبررا وذريعة للدعوة إلى تعميم إقتصاد السوق لايمثل جوابا ملائما لإحتياجات المجتمعات المعاصرة. لقد فشلت الفيزيوقراطية ونجحت الليبرالية وكلا المذهبين ظهرا في نفس الوقت، لماذا ؟ لأنّ الفيزيوقراطية كانت ردا متخلفا لاحتياجات مجتمعات أوروبا الغربية في المنتصف الثاني من القرن الثامن عشر والليبرالية كانت هي الجواب الملائم في ذلك الوقت. إنّ إقتصاد السوق لايحمل مشروعا للمستقبل ولايمكن موضوعيا أن يتحمل مثل هذا المشروع. فماهي الآفاق التي يفتحها أمام الإنسانية؟ وإلى أي مستقبل يقودها ؟ ليس له جواب على هذين السؤالين ولا على أسئلة أخرى مشابهة لها.

إن فرض إقتصاد السوق على بلدان الجنوب يعني شلها ووقف تطورها. فأي بلد من بلدان السبعة الكبار اليوم حقق إنطلاقته الصناعية في ظل إقتصاد السوق

كي يبشر به اليوم ؟ ففيما عدا انجلترا ـ وكندا التي حققت إنطلاقاتها الصناعية في ظل الإقتصاد الإنجليزي ـ التي توفرت على شروط جد ملائمة، فهي البلد الوحيد الذي أنجز إنطلاقاته الصناعية في ظلّ حرية السوق.

أما ماعداها من البلدان فقد حققت إنطلاقاتها الصناعية في ظل الحماية الجمركية ومراقبة الأسعار ودعم الإنتاج المحلي. فطوال القرن التاسع عشر كانت الحرب الجمركية على أشدها بين البلدان الأوروبية. وعندما استطاعت إنجلترا إقناعها بمزايا إقتصاد السوق وسياسة الباب المفتوح ووقعت إتفاقا بينها في هذا الإتجاه في بداية الستينات سرعان ما أصبح مجرد حبر على ورق. فكل دولة استردت حريتها في ضبط علاقاتها الإقتصادية الخارجية في الإتجاه الذي يخدم مصالحها.

يعتمد دعاة إقتصاد السوق طرح هذا الشعار بكيفية عامة مبهمة لأسباب مقصودة ـ أي دون التمييز بين الشقين الرئيسيين المكونين له، وهما : شقه الداخلي وعلاقاته بالند المماثل خارج حدوده السياسية. فليبرالية القرن التاسع عشر وحتى بداية التسعينات من هذا القرن كانت تميز بين الشقين، وفي ظل هذا التمييز تصنعت بلدان غرب أوروبا والولايات المتحدة واليابان.

هل بلدان العالم الثالث تتوفر على ظروف وتهيئة أفضل مما توفرت لبلدان غرب أوروبا في القرن الماضي لتحطم هذه القاعدة ؟ إنّ الواقع يؤكد عكس هذا. إنّ مايخطط له في الحقيقة هو أن يبقى دائما على الهامش وليلتصق فيه (45).

2 ـ التعبئة الإعلامية :

يحتل الإعلام في عالم اليوم مكانة بارزة في توجيه الرأي العام والتأثير عليه. وبدخول التلفزة إلى الميدان وما واكب ذلك من تطور هائل في ميدان الإتصالات جعلته يحتل مكان الصدارة وعن بعد بين وسائل الإعلام الأخرى، منذ بداية الثمانينات بدأت هذه الأداة تمارس هيمنة حقيقية على هذا القطاع على المستوى العالمي في نفس الوقت الذي فقدت فيه الحكومات أو تكاد كلّ سلطة مباشرة عليها لتصبح خاضعة وبالدرجة الأولى لقانون السوق.

Créé avec
nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

في قطاع الإعلام والتبليغ، فإنّ هذا القانون تحكمه عدد من الضوابط وفي مقدمتها الإشهار الذي يشكل المصدر الرئيسي إن لم يكن الوحيد للمؤسسة الإعلامية وللتلفزة بالذات وهو مرتبط في نفس الوقت بدرجة إقبال الجمهور وحرصها على أن يكون هذا الإقبال واسعا وفي إزدياد مستمر فإنّ البرمجة تسعى بكل مافي وسعها لتحقيق هذه الغاية دون مراعاة كبيرة لمقاييس الذوق والنوعية على مستوى البرامج ولا الصدق والنزاهة في العرض والتعليق على الأحداث العالمية. فإرضاء الجمهور الواسع هو الشغل الشاغل بالنسبة للمؤسسة التي استثمرت في هذا القطاع.

وهذا مايفسر إنزلاق التلفزة نحو البرامج المسطحة القليلة التكلفة والشديدة الجذب للجمهور الواسع دون مراعاة لأي اعتبار. ومع نهاية عقد الثمانينات أصبحت التلفزة (تصنع الحدث) وتبثه على أنّه الحقيقة كما شوهدت في الميدان. فالأحداث التي جرت في رومانيا عند نهاية عام 1989 أبرز مثل على هذا التشويه(46). وأثناء أزمة حرب الخليج سوف تتوسع هذه الممارسة لتصبح جزءا من مخطط العمليات العسكرية التي نفذها البنتاغون في حربه ضد العراق(47). ولم يبدو لحد الآن أي مؤشر في إتجاه تصحيح هذه الوضعية.

لقد كشفت أزمة الخليج كثيرا من الحقائق الزائفة : ففي ميدان الإعلام والتبليغ تعرت إدعاءات الليبرالية وزعمها بكونها الحامية لحرية التعبير وحق المواطن في الإعلام الغربي بكامله من طرف البنتاغون في حربه الإعلامية والنفسية ضد العراق وضد العرب. ليس لها تفسيرا واحدا، بل هناك عدة عوامل تظافرت لتسهيل هذه التعبئة. فالتميز الحضاري ليس أقلها شأنا.

ونظرا لهذه المكانة الخطيرة التي يحتلها الإعلام ليس فقط في توجيه الرأي العام وإنما في صنعه أيضا، فليس من المعقول أن نتصور بقائه خارج دائرة التخطيط والتوجيه للنظام العالمي الجديد. ونستطيع أن نزعم بكون معركة الإمبريالية من أجل السيطرة على الإعلام والتبليغ كانت قد بدأت منذ وقت طويل فقد قام بعض الكتاب منذ بداية هذا القرن بلفت الإنتباه إلى الأهمية التي توليها الإمبريالية في

مرحلة بزوغها لقطاع الإعلام[48]. فالنظام العالمي الجديد لم يبتدع شيئا على هذا النهج الذي هيئته له الأمبريالية.

3 ـ توظيف الثقافة والبحث العلمي :

عدد من النتائج تحققت فعلا لصالح الإمبريالية والنظام العالمي الجديد، وفي مقدمتها إحلال ثقافة التسلية محل ثقافة العقل، أي تستطيع مدارك الإنسان والنزول بها نحو البلادة والركود العقلي.

تلعب الثقافة عادة دور متنفس للإنسان خاصة في الأزمات. ففي الظروف الصعبة ظهرت أعمال أدبية أصبحت خالدة. ومايلاحظ في عالم اليوم هو الفراغ الثقافي الذي يخترقه وانحصار دور الثقافة الوطنية لحساب ثقافة النموذج في مظهرها الأخير أي ثقافة التسلية. وهي كما هو معروف ثقافة استهلاكية وليست مبدعة. غير أنه لن تتم لها السيطرة المطلقة مالم يتم محاصرة الثقافات الوطنية وتهميش دورها لأنها تشكل العائق الموضوعي في طريق ثقافة النموذج الجديد. فليس صدفة إذا لاحظنا اهتزازات الثقافات الوطنية في مختلف مناطق العالم، بفعل ضغوط ثقافة النموذج من الخارج ومحاصرة الثقافات الأولية (الإتنوأنتروبولوجية) (علم الاعراق والسلالات) من الداخل. وقد أعطى لنا هذا الصراع نتائجه الأولى المتمثلة في إنتاج ثقافة تغييب الوعي على الساحة الفكرية.

يعاني البحث العلمي بدوره، خاصة في العلوم الإجتماعية، من ضغوط الوضعية الدولية السائدة. ذلك أنّ نمو المجتمعات المعاصرة قد ردت إلى هذا التطور الملاحظ في كون الإنتاج الفكري أصبح يمر عبر قنوات تشكلها الجامعات والهيئات العلمية والثقافية ومراكز البحث. ويشكل الإنتاج الفكري التلقائي الذي ينجز خارج هذه القنوات نسبة ضئيلة من مجموع الإنتاج الفكري العام، بسبب إرتفاع التكلفة وما تتطلبه الإنتاج الفكري المعاصر من بنية تحتية وثائقية لايمكن أن تتوفر إلا عن طريق مؤسسات وهيئات مختصة. وبدخول نظام المعلوماتية في البحث العلمي، خاصة في العلوم الدقيقة والعلوم التطبيقية أصبح من الصعب إن لم يكن مستحيلا إنجاز عمل علمي خارج هذه القنوات.

Créé avec nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

هذه المؤسسات التي تشكل البيئة الرئيسية للإنتاج الفكري تضع مخططات للإنجاز حسب الطلب وحسب الموارد المالية التي تتوفر لها. فكان من الطبيعي إذن أن تتأثر المردودية الفكرية بالأزمة العامة التي يعاني منها عالم اليوم كما أنّ محاور إهتماماتها تخضع هي الأخرى لعنصر الطلب الذي يستهلك إنتاجا معينا يخدم إحتياجاته. فليس منتظرا في ظل هذه الظروف أن تظهر الإهتمامات بقطاعات أخرى قد يؤدي الإشتغال بها إلى الأضرار بمصالح قطاعات الطلب نفسها التي تكاد تكون محصورة في تلك المستفيدة من التوجهات السياسية والإقتصادية والإجتماعية للنظام العالمي الجديد. هذا الجانب قد يكون ربما أحد العوامل التي تفسر إنهيار الإهتمام بالدراسات التاريخية والجغرافية والإقتصادية الكلية وتحول الدراسات الإجتماعية عن الوجهة التي سارت عليها خلال العقود الثلاثة التي سبقت الثمانينات، لتسير في إتجاه آخر.

وقد زاد هذا الإختلال حدة باختفاء مؤسسات الإنتاج الفكري في البلدان الإشتراكية سابقا، وضعف مساهمات بلدان العالم الثالث الذي إنعكس عليها هي الأخرى الوضع الأزموي الذي عليه بلدان الجنوب. إنّ تقلص الإنتاج الفكري على المستوى العالمي وانحصار اهتماماته في مجالات هادفة يوفر شروطا مثالية لسيادة طروحات النظام العالمي الجديد.

ـ سادسا : نظام عالمي جديد أم سيطرة استعمارية جديدة ؟

قراءة نقدية في التسمية والمحتوى

إذا تأملنا بنية النظام العالمي بالشكل الذي هي عليه اليوم سوف نتبين للوهلة الأولى ذلك التناقض القائم بين التسمية (النظام العالمي) ومحتواها الحقيقي كما جسدته وقائع الحياة الدولية منذ حرب الخليج.

إنّ تسميته بنظام عالمي جديد تبدو لنا في غير محلها فهو لم ينبثق عن إرادة أممية كنتاج لوفاق عالمي شاركت فيه جميع الأطراف، وإنما هو حصيلة للإختلال الذي حدث في النظام الدولي السابق الذي أفرزته فترة الحرب الباردة لصالح طرف في

المعادلة الدولية. فالإعلان عن نهاية الحرب الباردة من طرف زعيمي المعسكرين في سبتمبر 1990 لايعني أنّ الوئام العالمي قد تحقق. ومع ذلك فقد أتيحت لأول مرة في التاريخ فرصة للبشرية لكي تشيد نظاما عالميا بمعنى الكلمة معتمدة على الترسانة الهائلة من النصوص التي أعدتها الأمم المتحدة والمنظمات المتخصصة التابعة لها، وكذلك تلك التي أعدتها المنظمات الجهوية والقطاعية، فهي تشكل قاعدة صلبة تتميز بالواقعية والقابلية للتطبيق وصالحة لكي تشكل القاعدة للنظام المنشود.

غير أن نشوة الإنتصار الذي تحقق ضد الأنظمة الإشتراكية البيروقراطية وغريزة حب السيطرة والتجبر دفع الولايات المتحدة إلى توظيف هذه الفرصة في عمل عدواني باسم (الشرعية الدولية) لخدمة أهدافها الأنانية التسلطية. فحرب الخليج تمثل خيبة الأمل الأولى في الوضع الدولي الجديد وعليها إنزلق ليصبح نظاما دوليا جديدا أحادي الهيمنة. أنّ الغرب من خلال إعلامه ومحلليه لايزال يتمسك بتسمية الوضع الدولي الجديد بالنظام العالمي ولكن هذا لايغير من واقع الأمر شيئا.

فتعامله مع الشؤون الدولية منذ قيامه ومعالجته للمشاكل المطروحة على الساحة العالمية اليوم تؤكد كونه نظاما دوليا متسلطا يعمل من أجل تحقيق مصالح آنية أو آجلة لمجموعة من الدول التي تقف على رأسه. فالقوى الفاعلة والمؤثرة في قراراته هي أطراف دولية وليست أممية. فتغييب الجمعية العامة للأمم المتحدة وإهمال دورها تماما منذ أزمة الخليج يؤكد هذه الحقيقة كما أنّ الإتجاه الذي سيتخذ، على مايبدو، عملية مايسمى باصلاح هياكل المنظمة تسير في نفس الخط. وتهدف هذه كما أبرزها تقرير الأمين العام الذي نشر في الخريف الماضي (1992) إلى تكوين نوع من حكومة عالمية يكون الأعضاء الدائمون في مجلس الأمن، مع كلّ من ألمانيا واليابان، أعضائها البارزون وتعطي لها صلاحيات تنفيذية واسعة خاصة فيما يتعلق بحفظ الأمن وإقرار السلام وحماية حقوق الإنسان إلى درجة تتعدى سيادة الدول. وقد أصدر مجلس الأمن أول قرار في هذا الإتجاه تحت تسمية مضللة (حق التدخل الإنساني) الذي استهدف من خلاله النيل من سيادة العراق ووحدة أراضية.

Créé avec nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

لقد بينت الإنتخابات الرئاسية التي جرت في الولايات المتحدة في شهر نوفمبر (1992) وكذلك الإنتخابات التشريعية الفرنسية الأخيرة (أواخر مارس 1993) أنّ الناخب الأمريكي والفرنسي استرشدا في اقتراعهما باعتبارات تمس صميم حياتهما اليومية ومصالحهما الخاصة فلم يحفل الناخب الأمريكي أن كان بوش قد أنهى الحرب الباردة لمصلحة الولايات المتحدة ولالكونه خلص الأمريكيين من (عقدة الفيتنام) ولا الفرنسي بكونه يقترع يمينا أو يسارا.

إنّ الدول الكبرى لإعادة فرض سيطرتها على العالم مع انفراد الولايات المتحدة في هذه المرحلة، بالهيمنة والتي ستتحول إلى مكانة متميزة بين أقرانها على المدى المتوسط. فهو في حقيقة أمره نظاما استعماريا جديدا مغايرا في الشكل فقط للنظام الإستعماري القديم ولكنه يسعى إلى تحقيق نفس الأهداف أي استغلال الشعوب بالسيطرة عليها وفي مقدمتها شعوب بلدان الجنوب.

ـ سابعا : مؤشرات مقللة للتطورات المحتملة لهذا النظام :

1 ـ هناك سؤال يطرح نفسه عند التطرق لموضوع معالجة النظام الدولي الجديد للمشاكل الدولية المطروحة وهو لماذا كانت الشعوب العربية والإسلامية هي الضحايا الأولى التي استهدفها هذا النظام. أنّ الموقع الجيوسياسي للوطن العربي ومنطقة الخليج على وجه الخصوص وحرص الولايات المتحدة على السيطرة على ثروات المنطقة، لاتكفي في رأينا لتفسير الذي حدث. ذلك أن ظاهرة التحفز والإستعداد للإنقضاض على المنطقة العربية وعلى سكانها لم تكن قاصرة على رجال الدولة والطبقة السياسية في الغرب، وإنما تجاوزت هذه الدائرة بكثير لتشمل قطاعات واسعة في المجتمعات الغربية.

لقد أظهرت هذه استعدادا لقبول التضحية حتى وإن كانت على حساب المبادئ التي أمنت بها وتعتبرها جزء من مقومات حياتها. قبلت التحذير بواسطة إعلام تعرف أنه موجه وغير نزيه. وقبلت أن تكون في موقع التابع المنقاد مادام السلاح المشهر يقتل (الآخر)، دون ترد. رضيت بأن تزهق الأرواح البريئة وتدمر منشآت

صحية وتعليمية وتتلف أقوات الناس قبلت استمرار تجويع شعب وموت أطفال رضع بسبب الحضر المفروض على قوتهم، فلم تحرك ساكنا.

قد يقال أنّ هذا يحدث في بلاد بعيدة والإعلام معتم ولايثير الرأي العام بحقيقة مايجرى. إنّ مايحدث في البوسنة أليس بجوارهم وعلى مرمى البصر منهم؟ إنّ الجرائم التي تقترف ضد المسلمين في هاته البلاد لايمكن وصفها، ومع ذلك فلم تحرك ساكنا، إلا لأنهم مسلمون ؟ سؤال مقلق ومخيف في نفس الوقت لأنه يجعلنا نتساءل هل نحن على عتبة العصور الوسطى.

إنّ الذين بادروا بتوجيه النظام الدولي الجديد ضد العرب وضد المسلمين يتحملون مسؤوليات تاريخية أمام الإنسانية وأمام التاريخ. إنّ مايزيد عن مائتين وخمسين مليون عربي لن تقرر مصيرهم معركة واحدة، ولاذبح مآت الآلاف من مسلمي البوسنة يحسم مصير المليار منهم.

2 ـ عدد من التحركات تشير إلى أنّ النظام الدولي القائم بدأ يأخذ منعطفا جديدا في تفاعله مع المشاكل الدولية في الفترة الأخيرة (منذ سنة تقريبا) وإذا تأكد هذا فهو يذكرنا بممارسات الدول الكبرى أثناء فترة المد الإستعماري في الثلث الأخير من القرن الماضي. وهي السلوكات التي أمدتنا بعدد من الألفاظ والتسميات الجديدة من بينها كلمة (منطقة النفوذ) والتي بإسطتها تمّ تقسيم العالم بين الدول الإستعمارية وفي مقدمته القارة الإفريقية (مؤتمر برلين 1884 ـ 1885) على الخريطة أولا قبل أن يتحقق هذا النفوذ في الميدان.

منذ أزمة الخليج كانت الولايات المتحدة تتخذ مبادرات انفرادية ثم تسعى بعد ذلك للحصول على دعم ومساندة الدول الحليفة، والتي يبدو أنها كانت تحصل عليها بدون صعوبة ولكن منذ مستهل السنة الماضية وحول أزمة البوسنة بالذات يبدو أنّ حرية المبادرة لواشنطن أصبحت محدودة.

أيعود هذا إلى كون التحركات السابقة للولايات المتحدة كانت تحدث داخل منطقة نفوذها المباشر (في الخليج وفي العراق وفي القرن الإفريقي). أم أنّ هناك

nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

توازن جديد بدأ يتبلور داخل الأوليجاركية الدولية، يحكمه (منطق النفوذ) الذي يمثل حجر الزاوية في العلاقات الإستعمارية في الماضي القريب ؟

إنّ الطريقة التي تمت بها تقسيم تشيكوسلوفاكيا بالرغم من إرادة شعوبها[49] وتفكيك جمهورية يوغسلافيا رغم أن المتتبعين لشؤون أوروبا الشرقية كانوا مجمعين على أنّ ذلك قد يؤدي إلى اهتزاز الوضع في منطقة البلقان بكاملها والتي قد يكون لها إنعكاسات مضرة على البناء الأوروبي نفسه. ومع ذلك فلم تتردد ألمانيا ومن ورائها المجموعة الأوروبية في تفكيك هذا الكيان. فالذي يحدث هناك الآن يذكرنا بالصراع الجرماني السلافي في هذه المنطقة في مستهل هذا القرن والنتيجة التي انتهى إليها (إندلاع الحرب العالمية الأولى). أن عجز الولايات المتحدة، كما يبدو من تصريحات البيت الأبيض، عن القيام بأي عمل جاد لوقف المجازر والإنتهاكات التي تقترف يوميا ضد مسلمي البوسنة والهرسك، والتغاضي بل وإدارة الظهر للصراعات التي تحتدم وتزداد اتساعا في القوقاز، هي مؤشرات قوية تنبي عن بداية هذا التوجه نحو تقسيم العالم إلى (مناطق النفوذ) في النظام الدولي الجديد. وهل أصبح الوسط وشرق أوروبا منطقة نفوذ المجموعة الأوروبية وعلى رأسها ألمانيا ؟ إذ تأكد هذا فمن السهل علينا أن نتعرف على مناطق النفوذ التابعة للأعضاء الأوليجاكية الدولية الأخرين. إذ يكفي إلقاء نظرة على خريطة العالم غداة الحرب العالمية الثانية لنتبين معالمها. وإذا صحت هذه الإحتمالات فنهاية النفق الذي فيه العالم اليوم لاتزال بعيدة.

ـ ثامنا : هل يمكن للتاريخ أن يرتد إلى الوراء ؟

إنّ الوضع الذي أفرزه النظام العالمي الجديد منذ قيامه حتى الآن، والخيار الذي يبدو أنه يسعى إلى تحقيقه، يطرح سؤالا ملحا : هل يمكن لحركة التاريخ أن ترتد إلى الوراء ؟ إنّ الإجابة المباشرة بالسلب أو بالريجاب، عن هذا السؤال، تبدو لنا مجازفة لقبولها ظاهريا للإحتمالين. ومع ذلك فإننا إذا نظرنا إلى تاريخ البشرية من الزاوية التراكمية فإنّ العودة إلى القهقري تبدو لنا غير ممكنة ضمنيا على الأقل، وليس حركيا، فالدراسات التاريخية أثبتت أنّ تاريخ البشرية في تطور نوعي

مستمر مهما كان الشكل الذي اتخذته الوقائع في مظهرها الخارجي. فالعصور الوسطى الأوروبية هي التي هيأت الحضارة الغربية للإنتقال إلى عصر جديد. هذا لايعني أنّ الإنتقال كان سهلا وأنّ الساحة كانت خالية من العوائق والمثبطات التي تشكل قوة الدفع إلى الوراء.

وإذا نظرنا في عالمنا اليوم، فإننا نلاحظ أنّ ثقل النظام العالمي الجديد وآثاره السلبية سيقع على العالم الثالث وخاصة المجالين الإفريقي والأسيوي. فالمجموعة الأوروبية أعدت آليات لإدماج أوروبا الوسطى والشرقية على مراحل. والولايات المتحدة تسعى في نفس الإتجاه : إقامة سوق مشتركة تضم دول أمريكا الشمالية والوسطى في المرحلة الأولى والتي ستتسع بدون شك لضم دول أمريكا الجنوبية في المرحلة التالية. واليبان من جهتها تقيم علاقات إقتصادية متميزة مع دول شرق وجنوب شرقي آسيا. ويبقى خارج هذه الدوائر الثلاثة العالم الإفريقي الأسيوي بمدلوله السياسي، كما عبّر عنه مؤتمر باندونغ، فواقعه الحالي يرشحه لذلك.

إنّ أول عوامل الضعف الكامنة في بنية ماأصطلح على تسميته بالعالم الثالث هو كون بلدانه تشترك في صفة واحدة فيما بينها وهي التخلف ولكنها تختلف عن بعضها البعض في صفات أخرى إلى درجة التناقض. وأول هذا التناقض هو في مستويات الدخل الوطني للفرد بين بلدانه، والذي يتراوح في حده الأدنى بين 120 دولار في أثيوبيا (1986) و 14680 دولارا حده الأقصى، في الإمارات العربية المتحدة لنفس السنة[50].

قسم البنك العالمي دول العالم الثالث حسب الدخل الوطني الخام إلى ثلاثة مراتب : بلدان ذات الدخل الضعيف والتي يتراوح دخل الفرد بها بين 120 إلى 350 دولار ومتوسط دخل الفرد لدى هذه المجموعة هو 270 دولار. ودول ذات الدخل المتوسط التي تنقسم إلى شريحتين : الأولى متوسط دخل الفرد 750 دولار، والثانية 1990 دولار. والصنف الثالث وهي الدول المصدرة للبترول ذات الدخل المرتفع ومتوسط دخل الفرد لدى هذه المجموعة هو 6740 دولارا وحده الأقصى 14680 دولا[51].

Créé avec nitroPDF professional
téléchargez la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

إنّ التفاوت في الدخل الفردي الخام ومايعبر عنه من اختلاف في المصالح بين مجتمعات ودول هذه البلدان ليس العقبة الوحيدة التي تقف في طريق التعاون والتضامن فيما بينها. ذلك أنّ هذا التفاوت في الدخل نجده أيضا قائما داخل كل مجتمع من مجتمعات الجنوب. وبالفعل فإنّ مايزيد عن ثلث سكانه يعيشون تحت عتبة الفقر (حوالي سبعمائة مليون نسمة). ففي الوقت الذي لايزيد فيه التفاوت بين 20 ٪ الأكثر ثراءا وخمس السكان الأكثر فقرا في البلدان المتطورة عن ست مرات، يصل هذا التفاوت إلى سبع مرات في جنوب شرق آسيا وتسع عشرة مرة في أمريكا اللاتنية. ففي حالة كل من البرازيل والبيرو يبلغ هذا التميز 26 و 32 مرة على التوالي[52].

هذا التفاوت في الدخل الفردي الخام بين بلدان العالم الثالث والإختلال الشديد في توزيع هذا الدخل في داخل كل مجتمع من مجتمعاته يشكلان شرخا خطيرا في النسيج الإجتماعي لعالم الجنوب. يضاف إلى هذه المعوقات، إنتشار الأمية بشكل خطير تزيد عن نسبة 50 ٪ في معظم بلدان العالم الثالث. كما أنّ توزيع القوى العاملة عن القطاعات الإقتصادية الثلاثة تعبر بوضوح عن حالة لاختلال الشديد في إقتصاديات عالم الجنوب حيث أنّ القطاع الصناعي لايستوعب سوى حوالي 15٪ من مجموعها.

ومن هنا فإنه سيكون من قبيل الترف الحديث عن البطالة في بلدان العالم الثالث. ففي إقتصاد مفكك يفتقر إلى مؤشرات حسابية وإقتصادية ذات مصداقية يكون من الصعب معاينة الحالة ولو تقريبية. غير أنه بالإمكان تصور ثقل الظاهرة وآثارها السلبية بمقارنة نسبة الزيادة الديمغرافية بمعدلات نمو هذه البلدان. فتوقع المشاريع التنموية في معظم بلدان الجنوب يضاعف من ثقل المشكلة الديمغرافية ويزيد أوضاع هذه البلدان تعقيدا بالرغم من كون مؤشرات الحركة السكانية بدأت تتجه نحو الإستقرار منذ بداية التسعينات عند معدل 2.5 ٪[53].

رغم الأهمية النسبية التي تحتلها مبادلات الجنوب في التجارة العالمية (22.5٪) لكن بنيتها تجسد الإختلال في العلاقات الإقتصادية جنوب شمال في أجلى صوره[54]

ويضاف إلى هذه المصاعب، ثقل المديونية التي اشتدت وطأتها في السنوات الأخيرة لتتجاوز ألف وثلاثمائة مليار دولار عند نهاية سنة 1992.

لن تستكمل الصورة عن ملامح عالم الجنوب اليوم، مالم نشر إلى ذلك الفراغ الخطير الذي يعيشه على مستوى حركة الأفكار، بانعدام توفر النموذج والمثل التي تدفعه إلى السعي للتغلب على مصاعبه ورسم معالم أفق رحب لمجتمعاته. ففي الماضي القريب كان له هدف وكانت له غاية جسدتها فكرة التضامن الإفريقي الأسيوي. وهي العقيدة التي شدت أزر شعوب العالم الثالث في نضالها للتخلص من سيطرة الإستعمار المباشر، غير أنّ هذا المكسب أصبح اليوم مهددا أمام المشروع الإمبريالي المتطور الذي يستهدفه. فعودة الإستعمار تبدو كأنها حتمية بالنظر إلى كلّ المؤشرات الجادة الصادرة عن مركز النظام العالمي الجديد.

لن تكون هذه السيطرة على الشكل الذي ظهرت فيه في الربع الأخير من القرن الماضي : احتلال عسكري وإدارة مباشرة لشؤون المستعمرة وإنما ستتخذ شكلا متطورا غير محسوس ولامرئي بشكل مباشر مع عدوانية أشد ضراوة من الإستعمار القديم. فالهياكل القاعدية لقيام السيطرة الجديدة قد تمّ زرعها في عدد كبير من بلدان الجنوب، وقليلا هي الأنظمة التي تحاول الوقوف في وجه هذا الزحف التسلطي الجديد. فالفراغ السياسي السائد على ساحة القارات الثلاثة وحالة الذبذبة التي عليها الأنتاجنسيا الملتزمة .ة ضايا شعوبها أمام التطورات السريعة المتلاحقة للأحداث على الساحة العالمية، وحالة التخدير الشبه العامة التي عليها الفكر الإنساني العالمي، كلّ هذه العوامل تشكل مناخا ملائما لنجاح المشروع التسلطي للنظام العالمي الجديد والذي لن يكون في اعتقادنا سوى نجاحا مؤقتا.

ذلك أنه بالرغم من هذه الظروف الصعبة، فإن بلدن الجنوب اليوم يختلف وضعها عن الذي كانت عليه قبل قرن مضى.

فأول وجه الإختلاف يتمثل في الوضع الديمغرافي الذي كانت عليه بالأمس والذي هي عليه اليوم. فمن بين العوامل التي أسهمت في حسم الصراع لصالح

Créé avec
nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

الدول الإستعمارية ضد شعوب المستعمرات هي ثقلها الديمغرافي. لقد خسرت فرنسا، على سبيل المثال، في معاركها ضد المقاومة الجزائرية في سنة واحدة فقط وهي سنة 1841 ستين ألف جندي بين قتيل وجريح ومريض لم يعد صالحا للخدمة العسكرية، وهل كان بإمكانها أن تصمد وتستمر في إخضاع مناطق البلاد بتكلفة مثل هاته، لو كان عدد سكانها مثل عدد سكان الجزائر في ذلك الوقت أي بين ثلاثة وأربعة ملايين نسمة ؟ من الصعب تأكيد هذا الإحتمال.

فالعامل الديمغرافي الذي كان بالأمس لصالح الدول الإستعمارية لم يعد كذلك اليوم فسكان بلدان الجنوب يشكلون أربعة أخماس سكان المعمورة. ومهما قيل عن سلاح المخدرات لإبطال مفعوله والذي أثبت نجاعته على مايبدو في بلدان أمريكا اللاتنية وغيرها من مناطق أخرى من العالم، لكنه سلاح ذو حدين فتأثيره يسري على الضحية كما على من يستخدمه، وبالتالي فلن تكون نجاعته سوى ظرفية وذات نتائج غير دائمة.

كما أنّ بلدان العالم الثالث تتوفر اليوم على طلائع مستنيرة تستطيع أن تلعب دورا بارزا من أجل النهوض بشعوبها وترقيتها. فحالة التهميش التي تعاني منها في مجتمعاتها والإغراءات التي تترصدها في الخارج هي معوقات مرحلية. فما دامت المدارس والجامعات قائمة فالإنتاج المعرفي والعلمي والتكنولوجي سيستمر ويتطور وسيأتي الوقت الذي توظف فيه هذه الطاقات لصالح مجتمعاتها بحكم قانون الحياة، رغم الإرادات السياسية المتحكمة. فإمكانية النهضة متوفرة اليوم سواء على المستوى البشري أو الإقتصادي أو العلمي وأنّ ماينقصه هو الإرادة السياسية وروح التضامن بين أجزائه.

ومن المفيد بهذا الصدد أن نعيد إلى ذاكرتنا الظروف التي ولدت فيها الفكرة الأفروأسيوية ثم اتسعت لتشمل إفريقيا وأمريكا اللاتنية. وإذا ألقينا نظرة سريعة على واقع هذه الركائز اليوم فإننا سنلاحظ بكونها قد انتشرت وتلاشت وليس هناك في الأفق ماينبئ عن إمكانية بعثها من جديد. فالصراعات الجنوبية ومؤامرات الإمبريالية في الماضي القريب والنظام العالمي الجديد اليوم كل هذه العوامل لعبت

دورا في تمزيق أوصال التضامن الفعال والجاد بين هذه البلدان. فالصراعات الإفريقية هي على أشدها والهند التي حملت يوما لواء التضامن بين شعوب الجنوب تحولت اليوم إلى بلد يتداوى بأعشاب صندوق النقد الدولي[55] ويحمل لواء الفتنة بين مواطنيه أنفسهم كما أنّ أندونيسيا من جهتها فقدت كل صلة بالفكرة الإفريقية الأسيوية وبمؤتمر باندونغ.

فالركيزة العربية رغم ماألم بها من صراعات وتمزقات وماتلقته من ضربات تبقى الركيزة الوحيدة التي تتوفر على شروط موضوعية لبلورة تضامن شعوب الجنوب ضد الأخطار التي تهددها. ذلك أنّ النظام الدولي الجديد هو توازن مؤقت مختل في إنتظار التعديل.

Créé avec nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

الهوامش

: 1) - M.T. KLARE : La nouvelle doctrine d'intervention americaine Les conflits de faible intensite. In. Le monde Dipl. Mars, 1986.
2) - D.LECLERC : Esquisse d'un compromis entre L.O.P.E.P et les campagnies petrolières. M.Dipl. Juillet 1986.
3) - Le monde (quotidien), 29-30 Sept 1985 et 31 Dec 1986.
4) - E.JOUVE : Les Nations-Unis, de la decolonisation aux droits économiques. In. M.Dipl. Mai 1985.
5) - M.Dipl. Mai 1985.
6) - D.LECLERC, Id. Juillet 1985.
7 ـ المصدر السابق.
8 ـ حول هذه الوكالة ودورها في سياسة الغرب الطاقوية أنظر : علي خليفة الكواري، إستراتيجية وكالة الطاقة الدولية ... المستقبل العربي 9 / 1989 ص ص، 115 ـ 126.
9) - Le Monde (quotidien) 29-30 Sept 1985.
10) - Plans grandioses d'Edification et politique de paix. In. La vie 4. PP 3 et suiv.tinternationale (Moscou), 1986, N
11) - Le Monde (quotidien) 29-30 Sept 1985.
12) - Sovietov, Le Programme Sovietique de liquidation totale de 4, 1986.tl'Arme nucléaire. In. La vie Internationale n
13 ـ لمزيد من التفاصيل، أنظر الملف الخاص حول هذه التسويات الذي أعدته مجلة السياسة الدولية (المصرية) عدد : 95، جانفي 1989.
14) - Doumergues. Comment inverser la spirale du declin americain ? In. M.Dipl. Oct 1992.
15) - M.F/ Toinet, Comment les U.S.A ont perdu les moyens de leur hegemonie. In M.Dipl. Juin 1992.
16) - A.H. Cordesman, labsurdite de lescalade proportionnée. In. Waschington post. 18-01-93 reproduit par le journal (Algérie) le 20-01-93.
17 ـ لأخذ فكرة عن المدة الزمنية التي غطتها الإنطلاقة الصناعية في عدد من الدول الصناعية في العالم أنظر :
Rostow, Les Etapes de la croissance économique. Paris, 1970. PP 61-95.
18 ـ تقرير بعثة الأمم المتحدة حول الحاجات الإنسانية في العراق المنشور في المستقبل العربي 6 / 1991 ص ص 120 ـ 130.

19 ـ حول الإستراتيجية الأمريكية للتعامل مع القوى الإقليمية راجع :
M.KLARE, Un banc d'Essai des stratégies américaines, In. Manière Devoir, n 11, Mars 1991.

20 ـ الكتاب الأبيض : الأردن وأزمة الخليج عمان 1991.

21 ـ للمزيد من التأمل حول أسس الهيمنة الأمريكية ومقوماتها أنظر : سمير أمين، الهيمنة الأمريكية إلى أين ؟ في المستقبل العربي عدد 4، سنة 1973، ص ص، 4 ـ 22.

22 ـ مصطلح مقتبس من مؤسسات المغرب العربي قبل العهد الإستعماري حيث كانت بعض القبائل التي تسمى بقبائل المخزن، مقابل بعض الإمتيازات، تقوم بدور يشبه دور الشرطة الريفية في الوقت الحاضر.

23 ـ أنظر على سبيل المثال S.Bernard ... كيف ينتقل العالم من دنيا الأمس إلى دنيا جديدة، في لوموند ديبلوماتيك، الطبعة العربية، فبراير ـ مارس 1990.

24 ـ معن بشور، نظام عالمي جديد أم فوضى عالمية منظمة. مجلة المنابر (اللبنانية) عدد : 60 ، نسيان/ أيار 1991، ص ص 4 ـ 10.

25 ـ بعض الكتابات الأمريكية تعتبر أن الفوضى العالمية السائدة هي أمر واقع وتنصح حكومتها بالعمل على إيجاد صيغة ملائمة للتعامل مع هذه الوضعية وليس نتجاوزها.

26) - D.GERVAIS, Les marches financiers ou l'irresponsabilité au pouvoir. In. M.Dipl. Janvier 1993.

27 ـ نفس المصدر.

28 ـ من مليون وثمانمائة ألف عاطل عام 1981 إلى ثلاثة ملايين ومائة ألف في الربع الأول من هذه السنة (1993) أنظر :
C. Julien, Ces Elites qui regnent sur des masses de chomeurs, In.M.Dipl. Avril 1993.

29 ـ عدد من المحللين الأوروبيين ألفتو الإنتباه إلى خطورة توجيه علاقات شمال ـ جنوب وجهة صراعية تصادمية. أنظر على سبيل المثال مقال موريس برتراند، مخاطر نشأة جماعة أمنية للشمال موجهة ضد الجنوب. في : لوموند ديبلوماتيك النسخة العربية، فبراير ـ مارس 1990.

30 ـ سمير أمين، بعد حرب الخليج الهيمنة الأمريكية إلى أين ؟ في المستقبل العربي عدد : 4، 1993.

31 ـ حول المصاعب التي تتخبط فيها الولايات المتحدة الأمريكية، راجع على سبيل الإسترشاد.
BIRNBAUM. N. Ou va l'Amerique ? In. M.Dipl. Oct 1992.

32 ـ بالرغم من هذا القصور فرنّ المنظمة الأممية ساهمت مع ذلك في دفع مسيرة الرنسانية إلى الأمام، لقد تبلورت في رحابها المبادئ والرسس التي تشكل مرجعا لعلاقات عادلة ومتكافئة بين أعضاء المجموعة الدولية وبين الزفراد وبعضهم البعض وكذا بين هؤلاء وأنظمة الحكم في بلادهم.

33 ـ حول المديونية التونسية خلال القرن التاسع عشر أنظر :

Créé avec nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

J.Ganiage, Les origines du protectorat français en Tunisie, Paris 1959.

لمزيد من التفاصيل حول الديونية المغربية أنظر :
P.Guillen, L'Empreint marocain de 1904. Thèse dactylographie. déposée a la Bib. de la Sorbonne 1967.

وحول المديونية المصرية أنظر : خلاصة المسألة في :
J.GANIAGE, L'Expansion coloniale de la France 1871-1914 Paris 1963.

34) - Mende T. De l'aide a la recolonisation. 2 Ed. Paris 1975.

35 ـ المصدر السابق.

36 ـ حول تطور مديونية لبلدان العالم الثالث من نهاية الستينات حتى نهاية الثمانينات أنظر :
Jallée. P. Le paillage du tiers-Monde. Paris 1973. P 131 et suiv. Mende Id; P 45 et suiv. Le Monde, Bilan économique et social années 1977. 1983.

37) - Le Monde, Bilan ... Année 1988.

38) - Le monde, Bilan ... Année 1989.

39 ـ محتوى الديمقراطية بمفهوم الفكر السياسي في المنتصف الأول من القرن 19 غير الذي أصبح عليه في المنتصف الثاني منه، كما أنّ مفهوم الديمقراطية في الفكر الإشتراكي غير الذي ضمنته لها الليبرالية، وتعتقد أنّ النقاش حول الديمقراطية في بلدان العالم الثالث سيرتكز بعد هدوء عاصفة الليبرالية حول أشكال العلاقات بين الديمقراطية الإجتماعية والمؤسساتية.

40 ـ ازداد الإهتمام بالمسألة الديمقراطية في الساحة العربية خاصة منذ منتصف الثمانينات. أنظر حصيلة هذا النقاش في آخر محطاته في الجابري، المسألة الديمقراطية والأوضاع الراهنة في الوطن العربي. المستقبل العربي 3 / 1992 ص ص 4 ـ 16. وفهمي هويدي، الإسلام والديمقراطية. نفسه 12 / ص ص 4 ـ 7.

41 ـ حول التطور التاريخي لليبرالية منذ القرن السادس عشر حتى الثورة الفرنسية. أنظر : هـ.لاسكي، نشأة التحررية الأوروبية. القاهرة د.ت. ومنذ القرن التاسع عشر. أنظر :
Burdeau. Le liberalisme. Paris 1983

42 ـ لأخذ فكرة عن ظروف ميلاد الفكر الإجتماعي منفصلا عن الفكر السياسي راجع :
K. Schilling. Histoire des idées sociales. Paris 1962.

43 ـ سجل بعض الأدباء الأوروبيين صورا ناطقة عن البؤس في تلك الفترة مثل الشاعر والروائي الفرنسي فيكتور هيجو في قصته الرائعة (البؤساء).

44 ـ إنّ البيت الأبيض منذ بداية عهد ريغن جعل من مسألة تشتيت العالم الثالث وتدمير مقوماته من بين الأهداف ذات الأولوية بالنسبة للولايات المتحدة. حول هذا الموضوع راجع الملف الذي أعده تحت عنوان: Une bête a abattre, Le tiers-Mondisme. Mars 1984.

45) - M.Dipl. La télévision loins Néerophyle. Mars 1990.
46) - J.gniacio, R La télévision loins du front, In. manière de voir 11. PP 29-30.In
47 ـ هوبسون، الإمبريالية القاهرة. د.ت (1962).
48 ـ أنظر على سبيل المثال كيف حولت الجغرافيا من ميدانها الطبيعي إلى أغراض أخرى في Lacoste, La géographie ca sert d'abord à faire la guerre Paris 1976.
49) - K.BARTAR, La Destruction de la Tchecoslovaquie M.Dipl, Janvier, 1993.
50 ـ حوار الرئيس ميتران مع أحد أقطاب المعارضة الديغولية، فيليب سوقان، الذي بثته التلفزة الفرنسية (القناة الثانية) عند إفتتاح حملة الإستفتاء حول معاهدة ماستريخه في المنتصف الأول من شهر سبتمبر 1992.
51)- ZANTMAN A. Le tiers-monde. Les stratégies de dévloppement à l'epreuve des faits. Paris 1990 p. 15.
52 ـ أرقام سنة 1986، نفس المصدر.
53) - Norbert Lechner, L'enjeu de l'Etat démocratique. In Revue 3 Juin, Nov 1992. P 10.INAQD. L'Algérie. N
54) - ZANTMAN id P 73.
55 ـ تقديرات سنة 1985.
56) - M.Chossudovsky, 870 millions d'indiens sous la coupe du FMI In. M. Dipl. Avril 1992.

Créé avec nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

التصنيع وأثره على المجال الريفي في الجزائر
نموذج : ولاية باتنة

سويهر نواري

1 ـ الحالة العامة :

الصناعة هي إحدى الأنشطة الإقتصادية الهامة التي تلعب دورا عظيما في تطور المجتمعات، ظلت طوال مرحلة الإحتلال الفرنسي للجزائر وغداة الإستقلال تمثل نشاطا هامشيا أو منعدما في جميع قطاعاته لغلبة الطابع الزراعي الموجه على بنيان الإقتصاد الجزائري، مما استوجب ـ نتيجة هذا الوضع ـ إعادة النظر كلية في هذا البنيان الهش الذي لايتوفر على نشاط الصناعة وإن توفر على شيء منه فإنه يكون خاضعا لمراقبة الرأس المال الأجنبي وهو أمر يتناقض والإختيارات التي حددها التوجه الوطني العام في مؤتمر طرابلس والذي استمر به العمل من بعد ذلك عقدين كاملين، وقد كان الهدف في البداية يتمثل في زيادة الإستثمارات عما كانت عليه في السابق[1] وذلك من أجل تحقيق ماعرف في ذلك الوقت بالثورة الصناعية، التي اعلن عن تطبيقها رسميا بعد تأميم المؤسسات الأجنبية التي كانت تقوم باستغلال الموارد الطبيعية للبلاد، وبعد التحسن النسبي لتأهل الموارد البشرية استهدفت الصناعة تحقيق مايلي :

ـ التحكم في استغلال الموارد الطبيعية بعد تأميمها.

ـ ترقية وتأهيل العمال تقنيا واجتماعيا باستحداث شبكة من المؤسسات العلمية والتقنية التي تساير التوجه الجديد للوطن.

ـ تكوين شبكة من الصناعة المتكاملة لتوفير الإنتاج الضروري للإستهلاك بدل الإستيراد.

- محاولة التحكم في التكنولوجيا الحديثة.

- تغيير نظام المبادلات الذي كان سائدا بالمساهمة في تصدير المواد المصنعة أو نصف المصنعة.

وحتى تتحقق هذه الأهداف كان لابد من انتهاج منظومة إقتصادية مخططة والتي أتاحت الفرصة لقطاع الصناعة باستثمار بلغ 60٪ من المقدار المخصص للتنمية، أي على حساب قطاعات الري والفلاحة والمنشآت القاعدية والقطاعات الإجتماعية حتى تنطلق الصناعة إنطلاقة قوية، وقد سمح هذا التوجه للتخطيط أن يأخذ التصنيع بُعده الكامل بفضل المخططين الرباعيين اللذين اتسعت أثناء تطبيقهما شبكة التصنيع، وتوطنت في مختلف جهات القطر أنماطا من الصناعات الثقيلة والمتوسطة والخفيفة وكان من كلّ ذلك أن استفادت ولاية باتنة بعدد من المشاريع الصناعية التي تدخل في إطار المخططات التنموية، خاصة وأنّ هذه الولاية كانت قد صنفت غداة الإستقلال كإحدى الأقاليم الأكثر حرمانا في الجزائر، إما لطبيعتها القاسية، أو للتدمير الكبير الذي تعرضت له قبل وأثناء الثورة التحريرية.

هذا الحال يسمح لها بالإستفادة من برنامج خاص للتنمية الجهوية سنة 1968، وبفضله أصبحت لولايتنا مكانة خاصة في ميدان الصناعة، تعززت بجملة من المشاريع معظمها كانت ذات نزعة مركزية سواء من حيث النمط أو من حيث اختيار الموقع، حيث كانت تخضع للمخطط الوطني الذي لم يراع كثيرا من المقومات الأساسية للصناعة مما كان سببا في بعض المشكلات التي ينجر عنها تراجع بعض الأنشطة الإقتصادية الهامة في تلك المنطقة.

وحتى نبين أثر التصنيع على المجال الريفي بولاية باتنة كنموذج من أقاليم التوطن الصناعي في الجزائر، نرى من المستحسن بحث هذه الظاهرة من خلال تقسيمها إلى صناعة حديثة وصناعة تقليدية مبرزين في ذلك عوائق، وإمكانات تنمية كلّ منهما وكذا الإنعكاسات السلبية والإيجابية لهذا النشاط على المجال الريفي.

Créé avec nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

إذ لايمكن أن نستثني في بلادنا صناعة من الصناعات لاتعترضها عائقة من العوائق، أو لاتتوفر على إمكانات أو مقومات مشجعة على الإنشاء، ومهما يكن من أمر فإنّ الإعتقاد الراسخ لدى الجميع أنه أمام الإرادة الصلبة التي يجب أن يتحلى بها كلّ جزائري تندحر كلّ العوائق، والحقيقة أنّ الذي كان يجب أن تكرس له كلّ المجهودات هو الدراسات المتكاملة الجادة والمسبقة للمشاريع التنموية والتي على أساس نتائجها يتوطن في كل إقليم ما يناسبه من المشاريع، هذا الأمر لم يكن يحظى بكل الإهتمام في كل مناطق القطر مما يؤكد الإرتجال الذي كان يطغى على كثير من مشاريع التنمية فتكون له إنعكاسات على مختلف القطاعات ولاسيما في عالم الريف.

وبعد عقدين كاملين من المحاولات الرامية إلى إحداث تحولات إيجابية على المجال الجغرافي عموما كانت النتيجة أن تبينت بعض المثالب في المنظومة الإقتصادية ككل والقطاع الصناعي خصوصا، فأخذ التراجع عن تلك الإختيارات يأخذ طريقه نحو توجه جديد لدخول نظام الإقتصاد الحر بدأ من عشرية الثمانين، إلا أن ذلك كان يتم على استحياء، ذون مجاهرة صريحة للناس عن النوايا الجديدة حتى أنّ الخطاب السائد كان يؤكد على أنّ مايحدث هو مراجعة، ولعله بسبب ذلك التردد طالت هذه المرحلة، وبدأت الإستثمارات التي كانت تخصص للصناعة بمختلف فروعها تتضاءل، ولم يعد هناك لزوم للتفكير في ذلك على اعتبار أنّ اختلالا كبيرا في التوازن بين القطاعات الإقتصادية المختلفة كان قد حصل خلال مرحلة الإقتصاد المخطط وترتب عنه تهميش بعض القطاعات الهامة وخاصة الفلاحة مما يستوجب إعادة الإعتبار لهذا القطاع، هذا الطرح تقبّله الناس قَبولاً حسنا، لما لمسوه من تردّ كبير في قطاع الفلاحة، اعتقادا منهم أنّ الأوضاع ستتغير بالفعل إلى أحسن حال، ولما لم يحدث إلا مازاد في تدهور القطاع الفلاحي من خلال إعادة هيكلته وتوزيع أهم أراضيه بغير حق على من لاعلاقة له بالأرض، تأكد للجميع أنّ ماحدث كان يندرج ضمن خطة متكاملة الحلقات لزعزعة أركان الإقتصاد الوطني ككل ويستبعد أن يكون ذلك قد تمّ عن جهل أو رغبة في تحقيق ماهو أفضل.

يتضح من كل ماسبق أن عجلة الصناعة التي كانت تدور في إتجاه طبيعي أضحت تدور في إتجاه معكوس، فتقلصت كلّ المشاريع الصناعية الهامة وقل الإهتمام بالصناعة الثقيلة التي اعتبرت سبب كل الرزايا التي ألمت بالبلاد، وتلك كانت طروحات تغنّى بها كثير ممن ساد الحكم عقدا كاملا حتى آل حال البلاد إلى ماهي عليه اليوم.

وحتى نتبين جليا حال هذا القطاع وتأثيره المجالي سنبحثه كما يلي :

2 ـ الصناعة الحديثة

يندرج ضمن هذا النمط كل أنواع الصناعة الثقيلة والمتوسطة والصغيرة، وهي في ولايتنا تتوزع جغرافيا حسب النوع كما يلي :

Créé avec nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

جدول (133): التوزيع الجغرافي للمصانع حسب النوع وقدرة الإنتاج في ولاية باتنة(1)[2].

مكان المصنع	إسم المصنع	نوع الصناعة	قدرة الإنتاج
باتنة	مدبغة الجلود	تحويل جلود الماعز	2 مليون م2 /السنة
باتنة	وحدة الخياطة	بدلات العمل ومآزر	100000قطعة/السنة
باتنة	مركب النسيج	إنتاج خيوط ونسيج	20 مليون م طولي/ س
باتنة	مركب الدقيق والعجائن	مختلف أنواع الدقيق الراقي	600000 قنطار/ السنة
باتنة	وحدة قارورات الغاز	صناعة القارورات	أكثر من 1مليون قارورة/ السنة
باتنة	سوناطراك	تعبئة قارورات الغاز	3.5مليون قارورة/س
باتنة	وحدة المواد الحمراء	قرميد وآجر	20ألف طن/السنة
باتنة	و.المواد الحمراء/بقيس ديس	قرميد وآجر	100000طن/السنة
بريكة	وحدة الخياطة	بدلات العمل	600ألف قطعة/السنة
بريكة	مركب الخيوط والتلوين	إنتاج الخيوط الراقية	غير محدد
أريس	مطحنة	مختلف الحبوب	غير محدد
أريس	وحدة الملابس	صدريات	غير محدد
أريس	النجارة العامة	صناعة الأثاث	غير محدد
أريس	وحدة الخردوات	صناعة الخردوات	غير محدد
عين التوتة	الحجر العملاق	مختلف الحجارة والحصى	1مليون طن سنويا
عين التوتة	مصنع الإسمنت	الإسمنت	غير محدد
نقاوس	وحدة تحويل الفواكه	عصير ومعجون الفواكه	مختلفة غير محدد
نقاوس	مدبغة نقاوس	صناعة الجلود	2 مليون م2 /السنة
نقاوس	مصنع الجلود	صناعة أحذية اديداس	أكثر من 2 مليون و/س
منعة	وحدة تحويل الفواكه	العصير والمعجون	يختلف حسب النوع
عين جاسر	وحدة الأغطية	إنتاج الأغطية	غير محدد
كاسرو (قرب باتنة)	وحدة المياه المعدنية	ماء باتنة	غير محدد
سريانة	وحدة مواد البناء	مواد البناء	غير محدد
القصبات	وحدة سوناطراك مبيد	مبيد الحشرات	غير محدد
ايشمول	وحدة الأسرة	لوازم السرير	غير محدد

(1) ولاية باتنة: مديرية الصناعة: مختلف التقارير السنوية

(2) الخاصة بالصناعة في الولاية

أهم ملاحظة يمكن استخلاصها من الجدول أعلاه أنّ ولايتنا تغطيها شبكة هامة من المصانع المختلفة الإنتاج والمتكاملة أحيانا وذلك مانلاحظه بالنسبة لجزء هام منها، كما هو الحال بالنسبة لقارورات الغاز ومصنع تعبئتها، ،كذلك مصنع الدباغة ومصنع الأحذية بنقاوس ومصنع الخيوط ومصنع الغزل والنسيج بباتنة، وهذه المصانع تكمل بعضها في ذات المكان، وهناك مصانع أخرى يكون تكاملها جهويا كما بالنسبة لمصانع العجائن الحلوة في مروانة ومطاحن باتنة وأريس، ومصنع الإسمنت بعين التوتة ومصانع المواد الحمراء في باتنة وسريانة.

هذا التكامل المحلي أو الجهوي لايطرح مشكلات تظاهي مشكلات اختيار مواقع بعض الصناعات، وعلى سبيل المثال فإن مطحنة الحبوب بأريس كان من المفروض تبعا لمادتها الأولية التي هي القمح أن تكون في مروانة أو في إحدى مناطق السهول العليا، ومدبغة الجلود بباتنة كان يستحسن أن تدعم بها مدبغة نقاوس، وهكذا ...

هذا بالنسبة لشبكة الصناعة ذات الطابع الوطني أما شبكة الصناعة ذات الطابع الولائي فيمكن تحديد مميزاتها من خلال هذا الجدول.

جدول (134) : التوزيع الجغرافي للشركات المحلية الولائية [3].

إسم الشركة	نوع الصناعة ومكانها	نوع الصناعة
شركة المنتوجات التقليدية / باتنة	باتنة، أريس، مروانة، بريكة	حلي، نجارة، خزف، زرابي.
شركة مواد البناء باتنة	مروانة، بريكة، المعذر، أريس، شمرة، واد طاقة، تاكسلانت	الآجر، تحصيص الحجارة، بلاط، جبس.
شركة الصناعات المختلفة / باتنة	سقانة، عين التوتة، بريكة، مروانة / منعة / أريس/ القصبات	نجارة، ميكانيك، صناعة الأقفال، الحلويات، ملابس جاهزة، مبيد.

(1) مديرية التصنيع لولاية باتنة

Créé avec nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

هذه الشركات الولائية الكبرى تتفرع عنها ستة عشر وحدة إنتاجية، تتوزع على مختلف جهات الولاية خاصة في مقرات الدوائر القديمة، وهي من خلال أنواع المنتوجات التي تصنعها تسعى إلى الإستجابة لمختلف إحتياجات الولاية وخاصة للأنواع الأكثر رواجا كمواد البناء، وأهميتها لاتكمن في هذا المجال فحسب بل فيما تمتصه من يد عاملة محلية يزيد عددها عن 1500 عامل دائم ولكنها ككل المؤسسات تعاني من بعض المشكلات التي تؤثر على الإنتاج ولاسيما بالنسبة للبعض منها.

2 . 1 . الإنتاج من خلال التوقع والإنجاز :

نحاول في بادئ الأمر بحث هذه النقطة من خلال معاينتنا لبعض وحدات الإنتاج التابعة للشركات الوطنية نظرا لطول خبرتها مقارنة بشركات الولاية، وحيث أنّ عدد وحدات الإنتاج الصناعية التابعة لهذه الشركات على مستوى الولاية وصل الآن إلى حوالي 25 وحدة إنتاجية فإننا سنكتفي بالتعرض للبعض منها فقط والتي يحددها الجدول التالي :

جدول (135):إنتاج بعض المؤسسات الصناعية بولاية باتنة 1990 [4]

إسم الشركة	الإنتاج النظري/ سنة	الإنتاج الفعلي/ سنة
وحدة مدبغة باتنة	5695000 قدم مربع	5882140 قدم مربع
و.القرميد والآجر، فيس ديس	70000 طن	72079 طنا
و.القرميد والآجر باتنة	18000 طن	20000 طنا
المحجر العملاق عين التوتة	600000 م3	350000 م3
مركب الغزل والنسيج باتنة	الغزل 4576 طنا النسيج 18743367م ط	4761 طنا 19953469 م طولي
قارورات الغاز باتنة	800000 قارورة.غ	743747 قارورة.غ
و.المياه المعدنية باتنة	25000000 قنية	20000000 ق.ماء
و.الخياطة باتنة	135369 قطعة	135369 قطعة
و.الخياطة بريكة	361054 قطعة	361054 قطعة

(1) المصدر

W. de Batna: D.R.A.T. fiche wilaya. situation et diagnostic P.P. 21 - 22 dec 1990

يتضح مما ورد في الجدول أعلاه أنّ الإنتاج الفعلي كثيرا مافاق الإنتاج النظري، إلا في بعض الحالات كما بالنسبة للمحجر العملاق بعين التوتة، أو وحدة المياه المعدنية بباتنة، أو بعض الوحدات الإنتاجية الأخرى التي لم نعرضها في هذا الجدول، ويعود السبب في تفوق الإنتاج الفعلي على النظري في معظم المؤسسات إلى إرادة رفع التحدي وإعطاء الولاية مكانة متميزة على المستوى الوطني، ولكن مع ذلك تظل العقبات قائمة والمعوقات كثيرة، وذلك مالاحظناه من خلال المعاينات الميدانية لبعض المؤسسات سواء ذات الوصاية الوطنية أو الولائية، ومن ذلك ماسجلناه عن وحدة الشركة الوطنية لمواد البناء بعين التوتة التي تعاني تذبذبا في الإنتاج قد ينخفض في بعض الأحيان إلى 30٪ عما هو متوقع، والسبب الرئيسي يعود إلى : الإنقطاعات المتكررة للتيار الكهربائي. أو نقص قطع الغيار، أو تقادم وسائل الإنجاز، أو مشاكل اليد العاملة.

أما المعوقات التي لاحظناها بالنسبة لوحدة المصبرات والعصير بنقاوس فتتمثل في الآتي :

- مشكلة التموين بالماء.
- تذبذب إنتاج المشمش من سنة لأخرى والذي على أساسه أنشئ هذا المصنع.
- التشغيل الآلي لأجهزة المصنع تتعرض للتوقفات بين وقت وآخر.
- عدم التحكم التام في تكنولوجية هذه الصناعة.
- نقص التأطير التقني والإداري.
- صعوبات التموين سواء بسبب نقص وسائل النقل أو بسبب التأخر في وصول المواد المستوردة التي تخدم هذه الصناعة.
- عدم كفاية وسائل التخزين.
- عدم استقرار الإطار الموهل لأسباب مختلفة وخاصة السكن.

Créé avec
nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

- حدة مشكلة التغيب.

هذه المشكلات جملة وتفصيلا وقفنا عليها لدى معظم الشركات التي لها وحدات إنتاج بولايتنا.

2 . 2 ـ إنعكاسات التصنيع على عالم الريف :

تسود النظرة التشاؤمية أغلب الدراسات التي تعالج موضوع إنعكاس ظاهرات التحضر على المجال الريفي، وذلك لغلبة إبراز السلبيات، وإهمال الإيجابيات.

إلا أنّ ضرورة الوقوف على مواطن الداء بالنسبة لمثل هذه الموضوعات، تقتضي عدّ مناقب الظاهرة، كما تقتضي عدّ مثالبها، وهذا ماسأحاول إبرازه في الآتي :

2 . 2 . 1 ـ الإنعكاسات الإيجابية على عالم الريف :

أ ـ إكتساب التكنولوجيا وتطوير المنطقة :

لاشك أنّ الصناعة وهي ذلك النشاط الذي يقوم بمعالجة وتحويل المواد التي تمّ جمعها إلى منتجات وسلع جديدة، هي بسبب ذلك تعتبر من الأنشطة العالية التكاليف لدقة الوسائل والأجهزة التي تقوم بهذا النشاط، وليست كل البلدان تمتلك هذه الوسائل والأجهزة، التي مافتئ استعمالها يزداد تعقيدا ويظل حكرا على مجتمعات محدودة في العالم، تأبى تحويلها لغيرها وهي محقة في ذلك، لأن التكنولوجيا المتطورة كالحرية تؤخذ ولاتعطى، وكيفما كان الحال فإنّ تحويل التكنولوجيا بصفة إرادية مازال موضوع جدل تلوكه ألسنة الخطباء والسياسيين في المحافل الدولية المختلفة دون جدوى، وأنّ ماحدث بالنسبة للتسهيلات المحدودة التي منحت لبعض البلدان فيما مضى للحصول على بعض التكنولوجيا، أثبت الحاضر أنّ هذه البلدان تتعرض لمحاصرة كبيرة.

والجزائر كواحدة من هذه البلدان استفادت، خاصة في عشرية السبعينات من آلية صناعية حديثة لايستهان بعدتها وعددها في المجالات الصناعية الدقيقة والمختلفة، الإستخراجية والتحويلية والتركيبية، الثقيلة والمتوسطة والخفيفة.

إنّ ولايتنا لم تكن لتشذ عن باقي المناطق المحرومة في القطر التي لم يكن بها غداة الإستقلال مصنع واحد، ولكنها اليوم تضم تسعا وخمسين وحدة صناعية إنتاجية، منها 25 وحدة تابعة لشركات وطنية، أما الأربع والثلاثين الباقية فتابعة للولاية وتنتشر في كلّ أنحاء الولاية، وتساعد على اكتساب المهارة وتحفز على اكتساب التكنولوجيا، وتغطي الإحتياجات المحلية والوطنية وتستغل الموارد الطبيعية وتشغل اليد العاملة.

ب ـ تشغيل اليد العاملة :

تمتص الصناعة جزءا هاما من اليد العاملة على مستوى الولاية موزعة على مختلف الوحدات الإنتاجية الصناعية المنتشرة في الولاية والتي نجدها كما يلي :

جدول (136) : توزيع اليد العاملة على الوحدات الصناعية حسب الريف والحضر بولاية باتنة 1990

الدائرة الجغرافية	عدد المصانع	عدد العمال	ع.العمال من مركز التجمع	ع.العمال من الريف	٪ لعمال الريف في الصناعة
باتنة	17	5855	4442	1413	24.1
مروانة	3	379	176	203	53.6
سريانة	2	542	106	436	80.5
ثنية العابد	5	515	126	389	75.5
نقاوس	4	526	312	214	40.7
بريكة	8	1978	1455	523	26.4
أريس	9	444	190	254	57.2
رأس العيون	2	111	020	091	82
تازولت	2	163	61	102	62.2
المعذر	4	801	161	640	80
عين التوتة	3	1040	612	428	41.2
المجموع	59	12354	7661	7661	38

(1) الباحث على مستوى المصانع [illegible] في الولاية ولير 1992

Créé avec nitro PDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

عدا مدن باتنة وبريكة وعين التوتة وأريس فإن التجمعات العمرانية الأخرى في الولاية كلها تجمعات نصف حضرية أو قروية، ولذلك فهي تنتمي حسب أنشطتها إلى عالم الريف، وذلك مايلاحظ من سواد ظاهرة التريّف بها في السلوكات والأعمال، أما ظاهرة التحضر فتنحصر بصفة خاصة في تشغيل عدد معتبر من اليد العاملة كما لاحظنا من خلال معطيات الجدول أعلاه، والتي وصلت إلى حوالي 12354 عاملا موزعين على الوحدات الصناعية التابعة للبلديات أو الولاية أو للشركات الوطنية، إضافة إلى حوالي 3436 عاملا في الورشات أو المصانع الصغيرة التابعة للقطاع الخاص، ليصل بذلك مجموع العاملين في القطاع الصناعي بجميع أنماطه إلى حوالي 15790 عاملا.

أما عن توزيع العمال في القطاع الصناعي العام حسب الريف والحضر فإن نسبة 38٪ من هؤلاء العمال يقيمون في الريف، في حين تتقاسم التجمعات العمرانية الحضرية والقروية معا نسبة 62٪ الباقية.

وهذا يؤكد أنّ ريف ولايتنا يمد القطاع الصناعي بنسبة عالية من اليد العاملة، ومعناه أنّ الصناعة بقدر ماهي عامل تنمية وتطور وتغطية إحتياجات السكان فهي أيضا قطاع إستقطاب لتشغيل عدد هائل من سكان الريف الذين لم يجدوا عملا حيث يقيمون، أو قد يكون تفضيلهم للعمل في الصناعة بسبب عدم توفر عوامل الإنتاج المغرية على العمل في هذا القطاع، وعدم تحفيز وتشجيع المزارعين بما يعوضهم إغراءات العمل في القطاع الصناعي.

إنها جملة أسباب فرضت حتميتها وسمحت بتسرب عدد لايستهان به من العمال المقيمين في الريف نحو المدينة وذلك في ظل غياب البديل الأمثل.

جـ ـ إستغلال الموارد المحلية :

لو تتبعنا ماورد في جداول التوزيع الجغرافي للمصانع بولايتنا لوجدنا أنّ معظم الصناعات التي أقيمت بالولاية، روعي فيها جانب توفر مقومات الصناعة والتي منها توفر الموارد الطبيعية وكذلك الموارد البشرية في المكان المراد إنشاء

الصناعة به، حيث أنّ جل الموارد الأساسية متوفرة وتبقى بعض المكملات التي يستعان بها عن طريق الإستيراد، عدا بعض المركبات، كمركب صناعة قارورات الغاز الذي لاتتوفر مادته الأساسية بالولاية ومركبي النسيج بباتنة وبريكة، ووحدة مبيد الحشرات ببلدية القصبات دائرة رأس العيون، وكذا وحدة صناعة الخردوات بأريس، وجزء من إحتياجات مدبغة الجلود ومصنع الأحذية "أديداس" بنقاوس، ووحدة الأغطية بعين جاسر، أما مادون هذه الوحدات والمركبات فإنّ أكثر من 95٪ من مادتها الأساسية محلية أو وطنية.

وعلى سبيل المثال فإنه بالنسبة للمادة الأساسية لقارورات الغاز تعتبر جزائرية 100٪ عدا مادة الزنك المستعملة في الصباغة والتغليف فإنها تستورد من الخارج.

د ـ تغطية الإحتياجات المحلية والوطنية :

بالنسبة لتغطية الإحتياجات المحلية والوطنية نشير إلى أنّ الشبكة الهامة للوحدات الصناعية المختلفة الأنماط التي أصبحت ولاية باتنة تتميز بها، فإنه من خلال كميات الإنتاج الذي تشارك به كلّ وحدة إنتاجية في الصناعة يتأكد أنّ الكمال لم يتحقق بعد من كل شيء ولكنه يستجيب وجزء هام من طلب السوق المحلية بل ويتعداه إلى السوق الوطنية وأحيانا إلى السوق الأجنبية ولاسيما في ظل التحرر الإقتصادي للسوق، حيث أكد لنا الوقوف في عين المكان على نتائج إيجابية تتعلق بشبكة العلاقات التي تربط السوق الوطنية بولايتنا خاصة بالنسبة لمنتوجات مركبي النسيج والخيوط بباتنة وبريكة وهذه الأخيرة تتمتع بسمعة جيدة لجودة خيوطها التي تحتل المرتبة الأولى على المستوى الوطني، أما مركب باتنة فقد أصبح يلعب دورا فعالا في الصفقات التي تعقد مع بعض الدول في الخارج كالإتحاد السوفياتي وتركيا، لتزويدهما بمنتوجنا من النسيج، كذلك الحال بالنسبة لقارورات الغاز التي يطمح إلى تحقيق الفائض منها لتوجيهه نحو السوق الخارجية، ونفس الشيء بالنسبة لمعظم الوحدات الإنتاجية الأخرى حيث تمثل لبنة قوية في صرح الصناعة الجزائرية ككل.

Créé avec nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

هـ ـ توطن الصناعة ذات العلاقة بالزراعة :

في إطار إستغلال الموارد المحلية كمقوم من مقومات الصناعة تأسست في ولايتنا أعداد معتبرة من منشآت صناعية لتحويل الإنتاج المتوفر بالمناطق المختلفة من الولاية إلى سلع تفي بحاجة السوق المحلية والوطنية. وخاصة مايرتبط منها بالإنتاج الزراعي.

ومن هذه المنشآت الصناعية، ماأقيم في نقاوس لتحويل ثمار المشمش إلى معاجين ومصبرات وعصير خليط من الفواكه، إعتمادا كليا على الموارد المحلية والوطنية ونادرا على بعض المواد المستوردة المتمثلة في بعض المركبات المركزة، وخاصة فيتامين ج. وقد أثبت هذا المصنع جدارته، وتجاوزت شهرته الآفاق فقد انتج أجود أنواع المشروبات على مستوى الوطن وأجود أنواع المعاجين التي تسوق إلى خارج الحدود حيث هناك عقود تبادل بين الجزائر ممثلة بمصنع نقاوس والسويد، علما بأن كمية الإنتاج التي يوفرها هذا المصنع لاتفي بالحاجة الوطنية خاصة من عصير المشروبات البالغ متوسطه حوالي 300 ألف هكتولتر سنويا بمعدل استعمال ضعيف لقدرات المصنع وصل إلى 20٪ فقط، لاسيما وأنّ عصير هذا المصنع يصنف ضمن أفضل المشروبات على المستوى الوطني، أما عصير المشمش المركز والمعلّب فتقدر كمية إنتاجه بحوالي 12800 طنا في السنة، بنسبة لاتزيد عن 16٪ من إستعمال قدرات المصنع، في حين تصل طاقة معجون المشمش إلى حوالي 608 طنا / في السنة.

إنّ مصنع نقاوس لتحويل ثمار المشمش والفواكه، رغم كل المعوقات التي أشرنا إليها فيما سبق، يقوم بالعمل الذي أنيط به كاملا ونجاح تجربته في منطقة زراعية تجود بمختلف الثمار، شجع على إنشاء مصنع مثيل له في منعة بدائرة ثنية العابد، والتي تتوفر على إمكانات زراعية مشابهة، ولكن بكفاءة أقل من كفاءة مصنع نقاوس، ومع ذلك فإنّ هذا المصنع الجديد يضيف إلى الصناعة الزراعية لبنة جديدة تحمي الإنتاج الزراعي لهذه الجهة والجهات المجاورة لها من التلف والضياع ويشجع على الإهتمام بالزراعة أكثر من ذي قبل، وإن كان هذا المصنع يعاني تقريبا من نفس المعوقات التي يعاني منها مصنع نقاوس.

ـ إضافة إلى ذلك هناك مصنع الحلوى (القاطو) بمروانة والذي يشغل حوالي 52 عاملا ويعتمد في مادته الأولية على القمح الرفيع الذي تجود به بسخاء سهول بلزمة الخصيبة متى توفرت الأمطار، ونظرا للشعور السائد لدى العاملين بهذا المصنع الأول في مدينة مروانة بضرورة رفع التحدي، فإن مصنع مروانة للحلوى ينتج أجود الأنواع وبسبب ذلك توسعت شبكة التعاملات التجارية لتشمل كل أرجاء الوطن حيث تصدر كميات معتبرة من إنتاجه إلى تلمسان عبر متعاملين خواص وعموميين وإلى معظم مدن الشرق الجزائري عبر نفس القنوات.

هذا الحال شجع عمال مصنع مروانة على تجاوز الكفاءة النظرية لإنتاج المصنع بزيادة مردوده إلى أقصى حد ممكن، وبالتفكير الجاد في توسيعه طالما أنّ المادة الأولية متوفرة 100٪.

ـ كما أنّ هناك وحدة شركة الدقيق والعجائن بباتنة وأخرى بأريس حيث تقوم كلّ منهما بطحن مايزيد عن 2000 قنطار يوميا من القمح الصلب واللين الذي تنتجه السهول الشمالية للولاية.

ـ كذلك وحدة المياه المعدنية بباتنة والتي أصبحت تغطي كل إحتياجات الولاية والولايات المجاورة، وحتى جزء هام من الوطن.

ـ كما أنّ هناك مصنع الخيوط ببريكة الذي تمثل المادة الأولية بالنسبة إليه المعوق الرئيسي، ولكن التجارب التي سبقت إنشائه حول النجاح الباهر لزراعة أجود أنواع القطن[6] بجنوب بريكة شجعت على إنشاء هذا المصنع في هذه المنطقة ليكون حافزا للمزارعين على توطين هذه الزراعة بهذه البلاد، ولو تلقى ملاكو الأراضي التشجيعات المادية اللازمة والإرشادات الفلاحية الصحيحة، لما طرحت في مصنع بريكة مشكلة نقص المادة الأولية أبدا، وهو مايحز كثيرا في نفوس العاملين بهذا المصنع والعارفين لإمكانات منطقتهم في تغطية ذلك العجز بما يفيض عن الحاجة المحلية، ولولا التقاعس لما ماتت معظم تجاربنا في المهد، إنّ مصنع بريكة الرائد على مستوى الوطن بإنتاجه الجيد يعاني من بعض المعوقات أهمها :

Créé avec nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

ـ تذبذب وصول المادة الأولية رغم إمكانية إنتاجها محليا.

ـ نقص قطع الغيار.

ـ نقص في تقنيات تسيير المصنع لاتتجاوز 85٪.

ـ التغيب المستمر في معظم فصول السنة.

ـ تعقيدات السوق.

إلا أنّ إستقلالية السوق ماتزال تخضع لترتيبات وإجراءات بيروقراطية طويلة لم تسمح للمصنع، بتسيير أموره بنفسه كاملا مما يعقد مشكلة التسويق ويجعلها أقل مرونة.

2 . 2 . 2 ـ الإنعكاسات السلبية للصناعة على الريف

أ ـ منافسة الفلاحة في الماء :

في منطقة كولايتنا تعاني العوز الشديد في الموارد المائية ـ كما أشرنا لذلك في القسم الطبيعي من هذا البحث ـ نجد أنّ لتوطين الصناعة في مثل هذه المناطق أثر بالغ على الزراعة، حيث تنافسها في نصيبها من الماء منافسة منكرة غالبا ماتؤدي إلى تدهور أو تراجع الزراعات المتوطنة في تلك المناطق.

وإذا كنا نستطيع القول أنّ الولاية عرفت قفزة معتبرة في مجال الصناعة، فإنها في مجال التحكم في الموارد المائية ماتزال في مرحلة متخلفة جدا، مما يمكن معه القول أن توطين الصناعة في المنطقة وهي على هذا الحال سيمثل منافسا خطيرا للفلاحة خاصة إذا علمنا أنّ الولاية ماتزال تعاني مما يمكن إختصاره في الآتي :

ـ إنعدام الأعمال المبرمجة في مجال السدود الكبرى.

ـ قلة الإنجازات المتعلقة بتهيئة الري الفلاحي.

ـ قلة أو إنعدام الدراسات الهيدروجيولوجية التي تحدد بالضبط إحتياطي الولاية من الماء ومواقع طبقاته وسمكها.

- غياب المتابعة للمشاريع الهزيلة المبرمجة.

- إنعدام أو غياب هياكل التسيير والصيانة لعدة المنشآت الأساسية القائمة والخاصة بالتنقيب عن المياه.

ولهذا يجب في ظل الظروف الحالية ونظرا للضغوط التي يشكلها تسيير الصناعة بكميات هائلة من المياه يراعي مستقبلا مايلي :

- عدم إنشاء الصناعات التي تستهلك كميات كبيرة من المياه.

- إتمام أو إنجاز المشاريع التي توفر كفاية تامة من المياه لمختلف الإستعمالات.

- التعجيل بإنشاء السدود المختلفة السعات إعتمادا على الأحواض الكثيرة لتجميع المياه المتوفرة في الولاية خاصة في نواحي أريس ورأس العيون وعين التوتة.

- إجراء مسوحات هيدروجيولوجية مكثفة على مستوى الولاية لتسهيل مهمة البحث والتنقيب عن المياه الجوفية وخاصة في بعض المناطق الحساسة كباتنة، بريكة، مروانة.

وإنه بدون ذلك لايمكن أن نحد من منافسة الصناعة للفلاحة على هذا المورد الحساس الذي هو الماء.

ب - المنافسة على اليد العاملة :

سبق الذكر في نقطة الإنعكاسات الإيجابية للصناعة على عالم الريف التي تتمثل في تشغيل العدد الهام من اليد العاملة التي تسربت إلى هذا القطاع لأسباب عديدة كنا قد أوضحناها.

هذا التسرب بالنسبة للصناعة يمثل مكسبا وبالنسبة للعمال يمثل منهلا للرزق، لم يعوضهم أياه ريفهم الذي فيه يحيون، ولكن لاننس أن معظم الجهات التي لفضت أبناءها إنما بسبب ظروفها الطبيعية القاسية وحيث لاماء ولاشجر، فكان لظهور

Créé avec nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

الصناعة في نقاط متعددة من الولاية قوة استقطاب ليد عاملة فلاحية كثيرة، بل لنزوح ريفي شديد بدأ من الأيام الأولى للإستقلال وحتى الآن.

وقد أعطت نتائج المسح الميداني في إحدى أرياف بلديات الولاية أرقاما مذهلة فمن 20 لقبا عائليا أكدت الأرقام أنّ 7 : 10 أسر من كل لقب قد هجرت الريف وانشطته، ويعود ذلك أساسا إلى الفقر المدقع الذي تعاني منه أرياف هذه البلديات وخاصة إذا كانت من البلديات السهبية التي تراجعت وتقهقرت فيها الأنشطة الزراعية تقهقرا شديدا.

جـ - المنافسة على رأس المال :

نقصد برأس المال، الأرض والإستثمارات الصناعية التي أنشئت بالولاية.

وبالنسبة للأرض، نشير إلى أن كل المشاريع الصناعية أختيرت لها المناطق التي تتوفر على كميات من الماء تفي ببعض حاجة الزراعة، ولذلك فإنّ قيام أي نشاط زراعي فيها غالبا مايكون قرب مصادر المياه وإذا علمنا أنّ خاصية التموضع الصناعي ببلادنا ككل يكون دائما أفقيا، فإن هذا معناه إستهلاك جزء هام من المجال الذي يمكن أن يحتوي الزراعة، فالصناعة تتطلب مجالا فسيحا، وتتطلب منشآت لواحق كالحضائر والمساحات الخضراء والمطاعم والنوادي والطرقات، وهي ضرورات هذا النمط من النشاط حيث يصعب الإستغناء عنها، والمشكلة في ولايتنا ليست هي الأرض في حد ذاتها وذلك لأن ولايتنا تتربع على مساحة معتبرة من الأراضي الزراعية الهامة وغير الهامة، ولكن في نوع الأراضي التي تحوز عليها الصناعة والتي يستحسن مستقبلا أن تكون من الأراضي تحت الهامشية [7] وهذا الخطأ تكرر في معظم المناطق المختارة لتوطين الصناعة بالجزائر، فقد لاحظنا ذلك جليا في كلّ السهول الشمالية القريبة من المدن الكبرى، التي أخذ زحف الحديد والإسمنت يكتسحها دون أي ضوابط تضع حدا لذلك الزحف المتسارع.

هذا بالنسبة للأرض، أما بالنسبة للإستثمارات التي تخصص لمختلف القطاعات بالولاية فإنّ للصناعة منها نصيب معتبر، فإذا أخذنا على سبيل المثال

الفترة من 79 ـ 1983 فإننا نجد أنّ الغلاف المالي المخصص لكل الإستثمارات بالولاية يقارب 700 مليار سم وأنّ ماخصص منها للصناعة يقارب 90 مليار سم، في حين تتقاسم كلّ القطاعات الأخرى على أهميتها ماتبقى من ذلك المبلغ[8].

3 الصناعة التقليدية :

الصناعة التقليدية هي ذلك النشاط الذي ورثه الخلف عن السلف لصناعة مستلزماتهم اليومية أو أدوات الزينة أو الحلي أو غير ذلك مما يدخل في هذا المضمار، إستعانة بالأدوات البسيطة لتحويل الموارد المحلية المختلفة أو المستوردة ولكن في حدود ضيقة، واستخدام منتوجها فيما يستجيب وطلب الناس، علما بأن منتوج الصناعة التقليدية غالبا مايكون من أجل :

ـ الحفاظ على إستمرار التراث، حيث تمثل معظم المصنوعات التقليدية ذلك الإرث الحضاري الذي تناقلته الأجيال عبر مآت السنين وحفظته ذاكرة المجتمع من الإندثار حتى وصل إلينا في الصور التي نعرفها اليوم.

ـ ترشيد إستغلال الموارد المحلية فيما يعود بالفائدة على المجتمع.

ـ تغطية جانب من إحتياجات المجتمع من هذه المادة خاصة إذا كان المنتوج التقليدي يمثل المستلزمات الواسعة الإستعمال. كالأثاث والأواني والملابس.

ـ تشغيل يد عاملة جديدة ولاسيما في عالم الريف.

ـ تحقيق مداخيل إضافية في الجهات التي توطنت فيها هذه الصناعة.

ولهذه الأسباب يمكن القول أنّ الصناعة التقليدية تلعب دورا هاما كنشاط حرفي تقليدي يستطيع أن يستعين بالتكنولوجيا المتطورة لرفع الإنتاج، ولكن دون أن يفقد مميزاته في الأشكال والألوان والنقوش، مما يستوجب تشجيعه وتنميته.

والصناعة التقليدية في ولايتنا لم تأخذ مكانتها كقطاع إنتاجي يمكن أن يساهم في النشاط التجاري إلا إبتداء من سنة 1968 في إطار البرنامج التنموي الخاص الذي عرفت بفضله الولاية تحسنا ملحوظا في هذا القطاع، حيث أنشئت بها

Créé avec nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

عدة وحدات إنتاجية لتوطين هذا النشاط والتحكم فيه وتطويره، وخاصة بالنسبة لإنتاج الزرابي ومختلف الأفرشة والأغطية الصوفية والحلي والأواني الفخارية والخزف للإستعمالات المنزلية والتزيين وغير ذلك.

وقد نتج عن هذا النوع من النشاط تشغيل عدد معتبر من اليد العاملة التي أصبحت فيما بعد تملك خبرة جيدة يمكن إستثمارها بالتوسع في النشاط وإنشاء مراكز أو وحدات إنتاج تتوزع عبر الولاية ومنها نجد :

ـ مركز باتنة المتعدد الإختصاصات، ذو كفاءة تشغيل تصل إلى 120 عاملا كحد أدنى.

ـ وحدة إنتاج الزرابي الصوفية الراقية ببريكة والتي تشغل 150 عاملا.

ـ وحدة مروانة لنسج الزرابي والأغطية الصوفية وتشغل 135 عاملا.

ـ وحدات غوفي وأريس لصناعة الأثاث التقليدي.

هذا بالنسبة للوحدات الإنتاجية للصناعة التقليدية التابعة للقطاع العام، أما بالنسبة للقطاع الخاص فإنّ النشاط في كلّ أرياف الولاية لايعدو كونه نشاط مكمل لأنشطة الريف الأخرى، قل أن تتخصص فيه عائلات أو جهات معينة من باب الإسترزاق كما هو الحال بالنسبة لبعض جهات الوطن، ومعناه أنّ هذا النشاط لايساهم في ولايتنا بصفة مباشرة في التجارة كنشاط متميز، وهذا على خلاف مايحدث في الحواضر كما في باتنة وبريكة، وأشباه الحواضر كما في أريس والقرى المنتمية إليها، ومروانة ونقاوس وعين التوتة وتوابعها من القرى حيث نجد الصناعة التقليدية لدى الخواص كنشاط تجاري تنحصر بصفة خاصة في صناعة الحلي بالدرجة الأولى تليها الأواني وبعض الأثاث التقليدي، ومعظم المستلزمات التي يحتاج إليها سكان الأرياف للإستعانة بها في مختلف أنشطتهم وقد دلت المسوحات الميدانية التي تمت في مختلف جهات الولاية أنّ معظم سكان الأرياف يساهمون في نشاط الصناعة التقليدية الحرفية المتعددة الأصول والأنواع وذلك سواء بالنسبة للنساء أو للرجال.

3 . 1 ـ أنواع الصناعات التقليدية الحرفية ومواردها :

أ ـ الصناعة التقليدية حرفة مشتركة بين الرجال والنساء

تتعدد الصناعات التقليدية في ولاية باتنة، أو في أي جهة أخرى حسب مواردها المحلية إذ نادرا مايعتمد صناع هذه الصناعة على موارد مستوردة، عدا بعض الحلي أو عقاقير التجميل التي لاتتوفر مادتها الأولية في الإقليم فتستورد وتجرى عليها عمليات التحويل والصياغة من أهل الحرفة والصناعة لتصبح على الأشكال التي يكون عليها الطلب.

وإنّ للنساء في هذا المجال حرفتهن وللرجال حرفتهم، والكل يكمل بعضه، كما أنّ هذا النشاط يكمل أنشطة أخرى، فنجد أنّ تخصص النساء يذهب إلى فنون الحياكة التقليدية المتنوعة وفنون الأواني الفخارية للزينة والإستعمالات المنزلية بشكل عام.

أما تخصص الرجال في هذه الحرف فيذهب إلى فنون أكثر عددا وتنوعا، إذ يجمعون بين كلّ الصناعات التي تتفرع عن أصول الحلفاء والخطب والأصواف والمعادن المختلفة، وباستثناء بعض المصنوعات التي توجه أساسا للسوق، فإنّ جلها يصنف ضمن مستلزمات الإستعمال الذاتي، وقد ظلّ قليل هم أولئك الذين يحترفون للإرتزاق من هذه الأنشطة، ولكن مع تغير حياة المجتمع وزيادة حاجة الناس لكل شيء وغلبة الحس التجاري على الكثير من السكان والتحول التدريجي للمجتمع من منتج يعتمد على نفسه في كلّ شيء إلى مستهلك لايلينه عن الإستزادة من الطلب شيء إضافة إلى التجذرات الجديدة للمادية المتوحشة التي إكتسحت المجتمع كالسيل العرم فهدت كثيرا من علاقات التعاون التي كانت تمثل إحدى الشيم النبيلة للمجتمع، كذلك تزايد عدد السكان وتنوع الأنشطة الإقتصادية الإنتاجية وأنشطة الخدمات التي أصبحت في معظمها تقتضي نوعا من التخصص مما يفسح المجال أمام الكثير لإختيار مايناسب أذواقهم من الأنشطة التي يجدون في نفوسهم لها ميلا.

Créé avec
nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

وهكذا في ظل هذه التحولات الإجتماعية والإقتصادية أخذ نشاط الحرف الصناعية التقليدية يحظى بمكانة مرموقة لها رواج في السوق بعد أن قضى ردحا من الزمان كقطاع مهمش أصبح الكثير من النساء والرجال يعملون فيه على أنه نشاط هواية واحتراف وتشغيل ونشاط إرتزاق في قطاعه الخاص كما في قطاعه العام.

ب ـ المنتوجات التقليدية الأكثر رواجا :

إنّ المنتوجات الصناعية التقليدية الأكثر بدائية هي التي يتم تصنيعها في الأرياف أو في القرى الصغيرة التي لاتحتاج مواردها إلى تحويلات معقدة، كما يحدث بالنسبة للصناعات التي تتوطن في الحواضر وأشباهها.

فقد تصاغ المصنوعات المرغوب فيها من المادة الأولية مباشرة بعد الحصول عليها. فنجد من المصنوعات التي مادتها الحلفاء مثلا : الحصائر ،القفف والبرادع وأوعية الحبوب.

ومن الصلصال مثلا نجد : صناعات الفخار والخزف للزينة والإستعمال.

ومن الخشب : كل الأثاث ومعظم الأواني المنزلية وأدوات الحرث ولوازم الحياكة وصناعة الفحم.

ومن الأصواف : نجد البرانس والقشاشيب والحنابل والتلاليس والزرابي والأفرشة.

ومن الجلود : نجد الأحذية والحافظات والأحزمة وسروج الخيل.

ومن المعادن : نجد مايصنع من الحديد كالمستلزمات الفلاحية للتهيئة والحرث والحصاد وما تصنع من المعادن الثمينة كالحلي ومتفرعاتها.

وإن لكل نوع مما سبق ذكره طريقة إعداد وإنجاز متميز، بدأ من الحصول على المادة الأولية إلى أن تضحي صالحة للإستعمال.

فإذا أخذنا على سبيل المثال فن الحياكة لكونها الصناعة الأكثر رواجا في كل جهات الولاية، من أجل إعداد البرانس والقشاشيب والحنابل والزرابي فنجد أنها الصناعة التي تقوم على عواتق النساء، وتنجز بعد عمليات دقيقة ومعقدة وشاقة، وتمر بمراحل كثيرة، فالمرأة تكون لها مسؤولية منزلية، وتعد برنوسا من الصوف لزوجها أو أحد أبنائها قد تستغرق في ذلك عاما أو بعض العام.

ونفس الشيء بالنسبة لإعداد الزرابي حيث تتمتع النساء اللائي يحترفن مهنتها بمهارة فائقة وبراعة نادرة لإخراجها في أجمل صورة، وإذن فإنّ حرفة الحياكة بقدر ماهي صناعة متقنة فهي أيضا فن وجمال وموهبة حباها الله لقلة من النساء، وعموما فإنّ معظم الصناعات الحرفية التقليدية تخضع لهذا المقوم، إلا أنّ الإهتمام بهذه الحرفة، وإنشاء مراكز متخصصة لها في بعض جهات الولاية كما في أريس أو نواحيها. وباتنة وبريكة ومروانة، تبقى عملية محدودة طالما أن المقومات الطبيعية والبشرية لتوطين هذه الصناعة، تتوفر في كلّ جهات الولاية دون تمييز وعليه فإنّ توسيع شبكة هذه المراكز والمشاغل التي تحفظ التراث الحضاري للبلاد وتزود السوق الوطنية بمنتوجات أصيلة يجب أن تحظى بالإنشغالات ذات الأولوية للجماعات المحلية لكي يتحقق التأثير الإيجابي على التنمية المحلية والإقليمية.

3 . 2 ـ أثر الصناعة التقليدية على المجال الريفي :

إذا كنا قد أشرنا بالنسبة للصناعة الحديثة أنه بتوطينها في الإقليم تترتب إنعكاسات، أحيانا سلبية وأخرى إيجابية على عالم الريف وكنا قد عددناها وشرحنا أثرها منفصلة فإنه بالنسبة للصناعة التقليدية لم نعدد إلا الأثر الإيجابي، والذي يمكن أن يشمل الآتي :

أ ـ أثر الصناعة التقليدية في التنمية المحلية :

كل عمل يقوم به الإنسان في محيط ما يريد به إضافة شيء جديد للبنيان الإقتصادي القائم في ذلك المحيط هو عمل تنموي وأنّ التنمية هي نمو متكامل، والمجتمعات التي تتميز برشاد تخطيطها وحصافة رأيها في مختلف شؤونها

Créé avec nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

التنموية تحاول دوما أن تحول دون بروز إختلالات في بنيانها الإقتصادي مما قد يؤدي إلى عدم التوازن وإلى الفوارق الجهوية كما في بلادنا، حيث تدعم أنشطة وتهمش أخرى فيحدث إختلال في التوازن القطاعي فتتأثر التنمية المتكاملة بذلك الإخلال.

و إذا كنا مقتنعين بأن الصناعة التقليدية هي نشاط إقتصادي حيوي مثله مثل كل الأنشطة الأخرى، وعرفنا أن ولاية باتنة أنجزت حوالي 59 مشروعا تنمويا صناعيا وطنيا وإقليميا، فماذا تمثل أمام هذا العدد ثلاث أو أربع مشاريع للصناعة التقليدية؟

ب- استغلال الموارد الطبيعية المحلية :

ليست الصناعة التقليدية كالصناعة الحديثة، من حيث الإعتماد على الموارد الطبيعية كمقوم أساسي لتوطين هذا النشاط، فالصناعة الحديثة تتميز بضخامة مشاريعها وتنوع مقوماتها وضرورة إنشائها في مكان ما دون الآخر، مما قد لا يسمح بإقامتها دائما حيث الموارد الأساسية وهو الأمر الذي نلاحظه مثلا في ولايتنا بالنسبة لبعض مصانعها أما بالنسبة للصناعة التقليدية فتتوطن تقريبا بنسبة 100% حيث المادة الأولية، ولذلك فإن تكلفتها تكون أقل ومداخيلها أعلى.

إن جزءا هاما من الموارد الأولية التي تدخل في الصناعة التقليدية يحصل عليها الحرفيون بثمن بخس أو معقول، مقارنة بأثمان موارد الصناعة الحديثة وعليه فإن هذا الحال يشجع على الإهتمام بهذا النشاط.

جـ- تشغيل يد عاملة جديدة:

لو تم القياس على ما تستوعبه مراكز باتنة، بريكة، مروانة أريس للصناعة التقليدية؛ من يد عاملة، لتأكد لنا أن أي نشاط أصيل يظهر في المجال، يساهم بقسط معلوم في توفير مناصب شغل جديدة، وحيث أن أزمة البطالة مافتئت تتفاقم وأن حلولها أصبحت ضربا من الخيال أمام التراجع الكبير عن مواصلة مخططات التنمية الشاملة التي كانت تستقطب أعدادا معتبرة من العاملين، لذلك فإنه

بالإضافة إلى قطاع الفلاحة الذي يجب أن يحظى بعناية فائقة لامتصاص أكبر عدد ممكن من الذين لا يشتغلون يجب أن يلقى قطاع الصناعة التقليدية دعما ماديا وسندا معنويا حتى يلعب دوره كاملا في التنمية المحلية، واستثمار الموارد البشرية استثمارا يتلاءم ووفرتها في الإقليم الذي تنتمي إليه.

د- الحفاظ على الإرث الحضاري للإقليم:

لا شك أن معظم الصناعات التقليدية هي مرآة حية لماض عتيد يمثل صفحات خالدة من تاريخ أمة وحضارة مجتمع مما يجعل الإهتمام بها لا يجب أن يقل عن الإهتمام بمختلف المنجزات الحضارية الأخرى كالعمارة والتراث الفكري المتنوع، حيث تندرج كل هذه الأعمال ضمن ثقافة الأمة التي لولا قوتها مااستطاعت أن تصمد عبر كل الأجيال التي مرت بها.

إن الصناعة التقليدية نشاط يهدف إلى إنجاز أدوات مختلف الإستعمالات، وبقدر تجذر هذا النشاط في عمق الماضي فإنه أيضا قادر على أن يستفيد من الآلة العصرية التي تعطيه دفعا قويا في الكم والكيف فيساهم في التنمية المتكاملة، وبذلك يحفظ الماضي ويدعم الحاضر.

إن الإهتمام بنشاط الصناعة التقليدية بناء على هذا الدور البناء يقتضي البحث عن الأوساط الملائمة، وإحداث نوع من التوازن بين أوساط الحواضر وأوساط الأرياف في الحقوق والواجبات، وفي كل ما يرتبط بالتنمية نرى أن أنسب الأوساط لإنعاش هذا النمط من الأنشطة التنموية هي الأوساط الريفية.

هـ- تغطية الإحتياجات المحلية :

إن تغير حال المجتمعات والتوجه الدائم نحو التخصص في الحرف والأعمال الثقافية والفكر هي سلوكات جديدة على المجتمع الريفي الذي لم تكن مطالبه المعيشية تتجاوز الضروريات ولكن مع التحولات الكبرى التي حدثت في البلاد خلال عقود ثلاثة خلت وكذا حركات الهجرة والتنقل، وظهور أنشطة جديدة في المدن، كل ذلك أتاح الفرصة للناس أن يتعلموا أشياء جديدةويتخصصوا فيها

nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

فينتجون ما يروج في السوق والأمر بالنسبة للمصنوعات التقليدية لا يختلف عن أي منتوجات أخرى فهي أدوات أو وسائل يستعين بها الإنسان ويغطي بها احتياجاته؛ وهي من خلال تنوعها وتعدد استعمالاتها لابد أن يستجيب إنتاجها وحاجات الناس.

وقد لاحظنا في ولايتنا -لندرة مؤسسات هذا النشاط- نقصا كبيرا في المعروضات التقليدية المختلفة والتي يمكن قياسها من خلال الأسعار المرتفعة التي لا تتماشى والقدرات الشرائية لكل الناس، وخاصة بالنسبة للمنتوجات من أصول الأخشاب والأصواف والجلود والمعادن المختلفة.

إن تنمية قطاع الصناعة التقليدية يساهم مساهمة إيجابية في التوازن القطاعي والتنمية المحلية المتكاملة بفضل رفع الإنتاج الذي يسمح باستقرار الأسعار أو انخفاضها لتكون في متناول الأغلبية الساحقة من سكان الأوساط الريفية والقروية الذين هم أكثر فقرا وحرمانا، كما في ولايتنا حيث عائدات الأنشطة الأخرى في هذه الأوساط هزيلة نظرا للظروف الطبيعية الأكثر قساوة وكذا محدودية استغلال الإمكانات القليلة المتوفرة.

الخلاصة:

- إن أهم ما يمكن قوله عن التصنيع:

كنشاط يمكن أن يتوطن في المدينة كما في الريف ويخدم كل الأقاليم دون إستثناء، فإننا نرى لتحقيق ذلك مايلي :

- إجراء دراسة معمقة لجرد الموارد الطبيعية وتوجيهها لما يخدم التنمية المحلية عموما بالتحكم فيها واستغلالها إستغلالا رشيدا.

- ترقية وتأهيل العمال تقنيا واجتماعيا باستحداث شبكة من المؤسسات العلمية والتقنية التي تساير التوجه الجديد للبلاد في مجال الصناعة بجميع أنواعها.

- تكوين شبكة من الصناعة المتكاملة محليا وإقليميا لتوفير الإنتاج الضروري.

- محاولة التحكم في التكنولوجيا الحديثة.

- إنتهاج منظومة إقتصادية مخططة ومتكاملة تعطي الفرصة لكل من القطاع العام والخاص بإبراز المهارات المكتسبة، والتسابق نحو المنافسة النبيلة لتحقيق ماهو أفضل.

- تدعيم المنشآت الصناعية القائمة والسهر على زيادتها في مجال الإنتاج، ورفع الإنتاج إلى أقصى حد ممكن.

- دعم إستقرار الإطار المؤهل في مختلف المصانع ببعض الحوافز والتي منها السكن.

- دعم المنشآت الصناعية التي تخدم الأنشطة الريفية.

- الحد من الصناعات ذات الإنعكاسات السلبية على الريف وأنشطته كالمنافسة على الماء، واليد العاملة، والأرض، والحفاظ على إستمرار التراث بتشجيع إنتشار الصناعة التقليدية.

هذه الرؤى والتوصيات هي بعض من كل، مما لو طبق أو تحقق فإنه سيحدث تغييرا عميقا على المستوى الولائي عموما وعلى عالم الريف خصوصا وهو كل أملي والله من وراء القصد.

Créé avec nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

أهم المراجع باللغة العربية :

1= ستهم حافظ : التحولات في الريف الجزائري منذ الإستقلال د.م.ج. الجزائر 1981

2- سويهر نواري: جغرافية بلدية نقاوس د.د.م. معهد الجغرافيا - الجزائر 1975

3- سويهر نواري: زراعة الخضر والفواكه في متسجة الشرقية دكتوراه د3، 1982. جامعة هـ.ب.ع.ت. الجزائر

4- سويهر نواري: تنمية القطاع الصناعي في الجزائر - المجلة العربية للعلوم المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ص 56 - 62. ع. 24 ديسمبر 1994

5- عمر محي الدين: التخطيط الإقتصادي - دار النهظة العربية 1975

6- علي الخليفة الكواري: دور المشروعات العامة في التنمية الإقتصادية دار النهظة العربية بيروت 1980.

7- رئاسة الجمهورية: المخططات التنموية الثلاثس، الرباعي I، II الخماسي I ، II.

8- ولاية باتنة: مديرية التخطيط والتهيئة الإقليمية.

9- ولاية باتنة: مديرية الصناعة.

10- ولاية باتنة: مديرية المرافق والمنشآت القاعدية.

أهم المراجع باللغة الأجنبية

1 - Ait Kaci : L'habitat rural dans les hautes plaines constantinoises 3è cycle Paris 74

2 - Arif. S. E et Zga. K : Industrie agro-alimentaire le cas Algérien O. P. U. ALGER 1986

3 - Benachenhou. A : Planification et développement en ALGERIE. SNED. ALGER 1980.

4 - Benissad M. E : La reforme économique en Algérie O. P. U. ALGER 1991

5 - Benissad M. E : L'économie de développement de l'ALGERIE. 1962-1978. O. P. U ALGER 1979

6 - Bouzid. A : Industrie mécanique et relation sociale dans le projet Algérien. O. P. U 1990

7 - Bugnicourt, J : Les disparités régionales et aménagement du territoire en Afrique / collin / Paris 1971

8 - Labasse. J : L'organisation de l'espace. Harrman Paris 71

9 - Larabi. H : Opinion sur l'économie Algérienne SNED. Alger 1973

10 - Martens I. C : Le model Algérien de développement 1962-1977 SNED. Alger 1973

11 - Ourabah. M : Les transformation économiques de l'Algérie. O. P. U Alger 1981

12 - Tehami. A : Le programme Algérien des industries locales O. P. U. Alger 1979.

Créé avec nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

الخرافة القبائلية والسياسة القبائلية في الفكر الإستعماري في الجزائر.

إقتباس وترجمة
أحمد رضوان شرف الدين

النص الذي يلي يوجز الفصل العاشر من الجزء الأول لكتاب ش.ر. آجرون: الجزائريون المسلمون وفرنسا (1871 - 1919) الذي صدر عن مطابع فرنسا الجامعية، بباريس (1968).

أما اختياره من بين ما كتب في هذا الشأن، فيعود إلى غناء توثيقه وصفاء عرضه -مجرد العرض- لأهم طورين في حياة الخرافة القبائلية«Le myte kabyle»: إختمار عناصر تشكلها في خيال العسكريين الفرنسيين حين كان واقعهم هو الحرب على سكان جرجرة، ثم صيرورتها قسما عضويا رئيسيا في الإيديولوجيا الإستعمارية في الجزائر.

عند الإنتقال إلى الجزء المتعلق بالسياسة القبائلية، سيلاحظ القارىء أنني تعمدت تركيز الإهتمام بما آلت إليه الخرافة في الميدان على أيدي أشهر مقاوليها حينذاك، ألا وهو كاميل صباتيي.

وما عدا العناوين الفرعية وجمل الربط الضرورية للحفاظ على وحدة الموضوع، وبالتالي وضوحه (وهي الجمل غير المؤطرة بإشارات الإقتباس) ثم تجنب إضافة أي شيء للنص الأصلي.

"تم بناء [الخرافة] بين 1840 و1857، ثم تدعيمها عن قصد بين 1860 و1870، لاغراض سياسية وجدالية، وان عظم شأنها على نطاق اوسع من 1871 إلى 1891" (ص 267)

1 - صياغة الخرافة :

"بالنسبة للفرنسيين، كانت كلمة كابيل (Kabyles) تعنى في البداية الجنود المحليين الذين يقاتلون سيرا على الأقدام (مقابل الخيالة «العرب»)، ثم أطلقت على سكان الجبال بصفة عامة، ومن بينهم أهل «كابيليا المستقلة أو كابيليا بحصر المعنى (Kabylie)».

ولم يطل الأمر حتى أصبح اللفظ يخص المنطقة المذكورة دون سواها، مقسمة بدورها، إلى كابيليا كبرى بجرجرة» وكابيليا صغرى (وكانت التسمية الأخيرة المطاطة للغاية عنوانا مشتركا للقطاع الجبلي البربري اللسان للصومام والڤرڤور وكذا البلاد العربية اللسان لساحل شمال قسنطينة وناحية البابور)". (ص 268 هامش3).

أثناء مرحلة الغزو الأولى، الممتدة حتى 1847، سادت صورة القبائلي «المتوحش المفترس» لكن ذلك لم يمنع إنطلاق الخيال في نسج صور جديدة، فهذا الجنرال دوما (Daumas) يكتب بقلمه الرسمي عن وجود «عرقين منفصلين، العرق العربي والعرق القبائلي»، واحد بدوي والآخر حضري. وهذا طوكفيل (A. Tocqueville) يكتب عام 1837 : «إذا كانت بلاد القبائل مغلقة في وجهنا، فإن روح القبائل مفتوحة لنا» وهذا لإنه سبق أن إكتشفوا الفائدة المادية التى يمكنهم جنيها من مجاورتنا." أما الدكتور بود يشون، فإنه توصل في 1845 إلى "تحديد سياسة بربرية فظيعة أساسها الإستغلال المنهجي للضغائن القائمة بين العرب والقبائل وإنصهار [الأوربيين] مع القبائل والقضاء على العرب." (ص 269)

في 1848، صدر رأى النقيب كاريت (Le Capitaine E. Carette) جازما : «بعد بضع سنوات، ستصير كابيليا المعين الأكثر ذكاء لمشاريعنا والشريك الأكثر فائدة لإعمالنا». هكذا عثرت المثل العليا الادماجية العتيقة على «همجي طيب» وفق مقاسها". (ص 269)

وعلى الأثر، اندفع سيل من «الدراسات» يحفر الوعي، دون ملل، وبعيدة لإطروحة قابلية فرنسة، القبائل. فالبارون اوكابيتان (Le Baron Aucapitaine)، على سبيل المثال، كان يصيح في 1857، ومن جديد في 1859 : «دستورهم جمهوري، حكومتهم ديمقراطية، قراهم حمراء السقف تشبه قرانا الفرنسية، يحملون صليبا موشما...ويوم عطلتهم الأحد !».

Créé avec nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

ولم يتردد البارون المذكور وأن تقمص شخصية العرافة، متنبئا : «بعد مئة عام، سيكون القبائل فرنسيين!» (ص 270)

2 - المستوطنون يستملكون الخرافة :

"هذه الأحلام الوردية لضباط محبين للأهالي، السابقة في مجملها للإستسلام الكامل لكابيليا الكبرى تحولت بين أيدي رجل سياسي جزائري، الدكتور فارنيي (Dr. Warnier)، إلى سلاح ضد العسكريين". وأضحت محاباة القبائل، بفعل ذات الشخصية، قطعة من الأيديولوجيا الإستعمارية الجزائرية". (270)

معلوم أن فارنيي عارض سياسة نابليون الثالث المعروفة، ب «المملكة العربية» محملا إياها مسؤلية جميع إخفاقات المستوطنين ومعتبرا موقف الأمبرطور «شيئا لا معنى له في بلاد يشكل فيها العنصر البربري الأنديجين الحقيقي». «لوطالب نابليون الثالث بالحقوق المشروعة للقومية البربرية، عوضا عن دعوة المستوطنين إلى إحترام القومية العربية - وهو إحترام يكاد ينافي الحضارة - لكان الجميع مؤيدا [؟] لموحياته الكريمة. ذلك انه بقدر صعوبة التقدم في النظام العربي، حتى لا نقول إستحالته، بقدر سهولته عن طريق تلقيم التقاليد البربرية بالحضارة الفرنسية» (ص 270)

لم يكن كلام فارنيي موجها للبربر أو للقبائل الذين "كانوا حينئذ يجزمون أن أصلهم عربي، ما عدا ثلاث من قبائلهم التى قد تكون فارسية الأصل." (ص 271)

كان الكلام موجها إلى «فرنسا الكاثوليكية» لكي تعرف أن البربر «هولاء المسيحيون القدامى» هم أصحاب البلاد الأوائل بل «ان بربر جرجرة يظهرون إستعدادا كاملا للعودة الشاملة إلى المسيحية». "ان فشل التنصير أوضح بدقة واقع الحال : فالقبائل كانوا، في الغالب، يحترمون «المرابطين المسيحيين»، كونهم فرنسيين ورجال دين»، لكنهم يثورون فور تحدث هؤلاء عن «إحتيال محمد». أما فارنيي فلم يبال وراح يشرح للمحافظين الفرنسيين أن البربر يمتازون بحب الملكية والحس البلدي"، الأمر الذين يتعارض مع «شيوعية العرب الهدامة». (ص 271) "موجها حديثه بعد ذلك، إلى الجمهوريين الفرنسيين، رأي فارنيي أن يبين لهم «العادات الديمقراطية الراسخة لدى البربر، وسط الرذائل الإقطاعية التي تسمم المجتمع العربي». ان «مؤسساتهم، المنبثقة عن الشرع الروماني كما هو حال مؤسساتنا، أقرب إلى مبادىء 89 من مؤسسات العرب الإستبدادية»".

"أما آخر براهين فارنيي فهو أن القبائل هم العدد والعرب القلة، وعليه يتعين قلب «السياسة العربية».

وبما أن الأرقام كانت تصرخ بعكس قوله بما لا يقاوم، أعلن فارنيي، من منطلق إدراك حدسي سليم أن بعض الأنديجين «المعربين» ليسوا سوى بربرا سابقين، وراح يقدم أرقاما تدعي العلمية، أضحت زمنا طويلا، هي الحجة بعينها. فبالإعتماد على تقييمات سابقة لكل من كاريت وهانوطو، أكد أن بالجزائر 1.200.000 بربريا ناطقا العربية، 1.000.000 بربريا ناطقا البربرية و 500.000 عربيا." (ص 271)

"إن الإحصاء التفصيلي للكتابات والخطب التي جاءت صدى مرددا الحملة فارنيي المعادية للعرب، إحصاء مثير للضجر، إلا أنه يتوجب الإشارة إلى أن الإجماع كان قد أصبح حاصلا لصالح القبائل: عرائض الكولون إلى مجلس الشيوخ، شهاداتهم أمام لجنة تحقيق 1868، تصريحات ممثليهم، مقررات المجالس العامة، كلها تتبنى المواقف المعلن عنها في مؤلفات العسكريين المحبين للأنديجين". (ص272)

"ثورة 1871 الكبرى لم تهدم الخرافة القبائلية العميقة الجذور حينذاك. ألم يتنبأ كل من أوكابيتان وفارنيي وبيبسكو أن كابيليا المستسلمة قلبا وقالبا لفرنسا، لن تحرك ساكنا ولن تنجر إلى فورات العرب؟ والحال أن القبائل هم الذين انتفضوا، القرويون الحضر أكثر من العرب. هذا ما كان يجب تأمله.

لكن العكس هو الذي جرى، إذ عاشت الخرافة البربرية أوسع إنتشارها بين 1871 و 1891". (ص 272)

3- كاميل صباتيي : منظر في الميدان

اشتهر كاميل صباتيي(Camille Sabatier) بوصفه كبير منشطي السياسة القبائلية، كما سيأتي و"لكن تأثيره كمنظر لم يكن دون ذلك . ولا شك أن شخصية المؤلف هي التي تفسر الرواج المعتبر لكتب تبلغ من الضعف المذهبي والعجز العلمي مبلغا مذهلا"، كتب لاتعدوا كونها أكداسا من التفاهات من قبيل "البربر من أصل سلتي وتفوق القبائل على غيرهم من البربرو دستورهم لاتشوبه شائبة. «أن ليكورق [المشرع] المغمور الذي الى املى القوانين القبائلية لم يكن من عائلة محمد وموسى وإنما كان من عائلة، مونتسكيو وكوندورسي. وهذا العمل يحمل بصمة عرقنا أكثر مما تحمله جمجمة الجبليين القبائل »! وبالطبع «لا دين للقبائل، واذ يجاهرون بالإسلام(..) فإنهم يعادون أصلا كل نقوذ ديني. وقوانينهم أشد أشكال إنكارهم لمبادىء الإسلام»" (ص 275)، هذا دون أن ننسى أن صباتيي هو القائل : «إن الإيبيريين بربر جاءوا من بربرستان (بين كابول وهراة) »!! (ص 275 هامش 3)

صباتي هذا هو قاضي فرنسا السابق بمدينة تيزي وزو، الذي عاد إلى المنطقة في زي حاكمها المدني بين 1881 و1885 وقد تفتقت قريحته تنظيرا مبتذلا صاخبا.

"كان صباتيي يستهدف، في آن واحد، إبقاء خصوصية [القبائل] وتهيئة فرنستهم، بل «صهرهم ضمن الإسكان الفرنسي». وسيجد هذا البرنامج (...) طريقه إلى الميدان، رغم تناقضاته البينة. ألم يكن يعنى، في خلاصته، العودة إلى سياسة العسكريين الأهلية قصد وضعها في خدمة سياسة المدنيين الإدماجية : الحكم غير المباشر وصهر الأثنيات.

إبقاء الخصوصية القبائلية يتمثل أولا، حسب أقوال صباتيي، في «إعادة العمل بالدستور القبائلي القديم والتمثيل العادل لصفوفهم » وكذا «العودة إلى النظام الإنتخابي».

لكن الإدارة العليا لم توافق على إقتراحه الخطير. (ص 286 - 287) وبعد أن "صرح بضرورة حماية التقاليد القبائلية ونادى «بإحترام القوانين، بما فيها تلك العديمة الأخلاق» (...) راح يحاول إصلاح بعضا منها ذات الأهمية البالغة، فقد حصل في عام 1882، على قانون من قرية آيت الحسن لدى بني إيراثن ينص على أن «الفتاة لن تباع من قبل والديها » وإنما «سوف تبيع نفسها بنفسها بحرية»، وأن الزواج لن يتم قبل بلوغ الزوجة عامها الثالث عشر. وبناء على مداولات مماثلة لقرى من بني فراوسن وبني خليل «ألغى حق الأب بيع إبنته» وحدد سن الزواج بأربع عشرة سنة، كما تقرر تجريد الزوج من حقوقه الزوجية في حال هجره زوجته مدة تزيد عن العامين. وقد وصل عدد القرى المنضمة إلى هذه القوانين الثورية إلى سبع عشرة قرية في فترة خمسة أشهر ثم تعطل السير فجأة. وان ارجع صباتيي بأمانة إلى غضب الأهالي، فإنه أوعزه أيضا -دون حسن نية- إلى نشاط القساوسة البروتستانت الأنقليز الرامي إلى فتح مدارس ومصحات وإلى سلسلة من العقوبات" سلطتها إدارة الضرائب على السكان بمقتضى قانون الأنديجينا. (ص 287)

Créé avec nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

إن هذا العمل الرامي علنا إلى "ترقية المرأة القبائلية" كان يقصد تحقيق مرمى غير علني مفاده، بتعبير صباتيي ذاته: «المرأة هي سبيل غزو روح الشعب ابتداءا من 1882، حكم بمنع وشم أوجه الفتيات القبائليات لأنه «يثير تقزز الأوربيين» كما فتح مدارس لليتيمات منهن.

وتسهيلا «للزيجات بين أبناء المستوطنين ونخبة البنات القبائليات» طلب صباتيي [من الحاكم العام] إستصدار مرسوم يسمح للقبائل بفرنسة أسمائهم وكذا الألقاب الأسرية المفروضة عليهم بمقتضى قانون مارس 1882". إلا أن الحاكم العام "تخلى في النهاية عن المشروع، نظرا لما قد تثيره من سخط القبائل". فهذه السياسة الهادفة حسب تعبيره « الخواصر الخصبة لبنات القبائل مهمة إدامة عرقنا »، أثارت باعتراف صباتيي ذاته «هياجا هائلا للأحكام المسبقة العنصرية الحاقدة». (ص 288 - 289)

وبذلك فشلت المصالحة التاريخية بين المستوطنين والقبائل.

كل هذا لم يثن صباتيي عن "المثابرة حتى أوائل 1885 في سياسته الإدماجية الخبيثة البنية، ففضلا عما ذكر، فيما يخص برنامج نشر اللائكية والتعليم. فقد عمل في الميدان، بالإتفاق مع زميله رونو ونائب الوالي بونيفال على خوض معركة حقيقية ضد رواسب نفوذ المرابطين بتحريم الزيارات (جمع الصدقات الدينية) وغلق المدارس القرآنية (معلنا أن عام 1882 كفيل بزهو المنتصرين: «عدم وجود مدارس إسلامية في البلدية مختلطة») أما الزوايا (فلم يبق منها عام 1884 سوى واحدة، لا غير، يرتادها ستة تلاميذ). وأما قام بمعركته هذه بنية تسهيل مهمة المدرسة اللائكية الفرنسية، لكن حميته الإصلاحية هذه لم تيسر شعبية مدرسة الفرنسيين.

"كما استغل صباتيي سلطته لتشجيع القبائل على التجنس، فنجح في الحصول على 30 تجنيسا مدة أربع سنوات، بين عمال قبائل تم توظيفهم لدى مستوطني متيجة. وهو الأمر الذي لا يمكن إعتباره نجاحا باهرا. ورغم هذا، فإنه راح، في أواخر 1884، يزهو بما حققه من نصر تحت عنوان مدهش : إنعتاق التادرت: «إن إفلاس الإقطاعية الأهلية التي كانت ترهق ديمقراطيينا القبائل وتثير

nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

إشمئزازهم منح الإدارة المدنية على نحو مفاجىء شعبية ومصداقية سمحتا اصدار عدة إصلاحات : إرتياد المدارس الفرنسية، تحويل القوانين، إمكانية إيواء يتيمات، إثبات حزب فرنسي لا يتأخر عن التجنس». "(ص 289)

كاميل صباتيي، النائب البرلماني ذو الحظوة " لم ينس قبائله، عندما اقترح في قانون قدمه في 12 جويلية 1889 - واعتبره بمثابة مشروع شامل لدستور جزائري يتضمن إحداث الإستقلال المالي الذاتي - أفصح عن إرادته تنظيم مجلس إستعماري بمدينة الجزائر، يشمل مجلسين إستشاريين أهليين، واحد عربي والآخر قبائلي. ولئن رفضت اللجنة البرلمانية إدراج مشروعه حينذاك، فإن صباتيي ثأر لنفسه على نحو مدو عام 1898 حين نجح في فرض منظومته تحت إسم المندوبيات المالية".. (ص 292) كان حينذاك قد رقى مستشارا سياسيا رئيسيا لحاكم عام الجزائر.

وخلاصة القول أنه: بعد 1891، أخذت الخرافة القبائلية تتوارى حتى أضحت «البربروفيليا» (محاباة البربر) ترتب بين «أمراض الفكر السياسي الفرنسي». في وقت تبدد فيه الحلم الإدماجي التقليدي.

أما السياسة القبائلية، فلم تمت بل بقيت تستلهم الخرافة وتتجاوزها فيما تطرحه من مشاريع.

القسم الثاني

ب - نصوص ووثائق أرشيفية وقوائم بيبليوغرافية

Créé avec
nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

بلاد البربر في عصر الأنوار

تأليف : آن تومسون

تقديم وعرض :أ. د. أبو القاسم سعد الله

حظيت بلاد المغرب العربي بدراسات كثيرة من جانب الأوروبيين، قبل الإحتلال وأثناءه، وكانت هذه الدراسات تتعلق في معظمها بالعلاقات الحربية والتجارية والسياسية، بالإضافة إلى الإنطباعات مثل كتب السواح والجواسيس ولكن الكتب المتعلقة بالجانب الحضاري والثقافي ظلت معدومة تقريبا، ولاسيما نظرة الأوروبيين لشعب ومجتمع منطقة المغرب العربي في مرحلة البحث والإستكشاف ومرحلة التنوير التي كانت خلال القرن الثامن عشر.

ومن أحدث الكتب في هذا المجال الكتاب الذي ألفته آن تومسون بعنوان (بلاد البربر في منظور المثقفين الأوروبيين ـ عصر الأنوار ـ)[1]. وهي تعترف بأنّ كتابها يسير مع كتاب آخر ألفته دونيس إبرهيمي بعنوان (الرحالة الفرنسيون في القرن الثامن عشر في بلاد البربر)، والجزائر خاصة. ولكن كتاب تومسون يتناول مختلف الكتابات الأوروبية عن بلاد المغرب وليس مقصورا على الرحالة الفرنسيين ولا على الجزائر وحدها. فنحن مع تومسون نجد مؤلفين من مختلف الجنسيات الأوروبية تقريبا ـ من روسيا إلى أمريكا، ومن بريطانيا إلى إيطاليا، بالإضافة إلى الفرنسيين والألمان. وتعترف تومسون أيضا أنّ كتاب لوكاس Lucas وفاتن Vatin : (الجزائر عند الأنثروبولوجيين) قد دفعها إلى موضوعها الجديد.

1. Ann Thomson ; Barbary and enlightenment, European attitudes Toward the Maghreb, Leiden, Brill, 1987, 173 P.

واعترفت الكاتبة أنها عملت في المكتبة الوطنية ـ الجزائر، وأنها مدينة لشخص إسمه (كريم) دون تفاصيل أخرى.

Créé avec nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

وقبل أن نقدّم آراء المؤلفة في كتابها (بلاد البربر ...) نقول أنها قسمت الكتاب بعد مقدمة ومدخل طويل إلى ثلاثة أقسام : الأول تناولت فيه ماأسمته بالتصورات المسبقة عن بلاد البربر وأهلها عند الأوروبيين، وفيه تعريفات ومصطلحات سنعود إلى بعضها. والقسم الثاني أسمته تصنيفات، وهي تعني نظرة الكتاب (المثقفين) الأوروبيين إلى المكان والناس (أو السلالة Race) والمجتمع ونظام الحكم في بلاد البربر. أما القسم الثالث فقد عالجت فيه الآراء التي «بشرت» باحتلال أوروبا للمنطقة، ودعت إلى أنّ ذلك سيخدم الحضارة الأوروبية والإنسانية. وقد تضمن الكتاب أيضا خاتمة بنتائج البحث، وبالإضافة التعاليق الغنية والمصادر والفهارس.

فكيف إتصلت المؤلفة بموضوعها ؟ إنها تعترف أنها كانت تجهل بلاد المغرب العربي، وإنها كانت فقط تدرس مسائل التاريخ الطبيعي للإنسان وأفكار القرن الثامن عشر والتغيير المادي الذي طرأ على العقل البشري، فإذا بها تقاد إلى الإهتمام بظهور علم الأنثروبولوجيا ـ الإنسان. وتصادف ذلك مع إنتقالها هي إلى مدينة الجزائر دون أن نعلم المهمة التي حملتها إلى هناك، هل هي مجرد البحث، أو التعليم، أو شيء آخر. وأخذت تكتشف بلاد المغرب العربي من خلال كتابات المثقفين الأوروبيين في القرن الثامن عشر. وقد استغربت الغياب الكامل لهذه المنطقة في مختلف الكتابات عن الأنثروبولوجيا وعن إكتشاف أوروبا للعالم، وضربت على ذلك مثلا بكتاب (ميشيل دوشيه) الذي سماه (الأنثروبولوجيا والتاريخ في عصر الأنوار) فهو لم يتعرض فيه للمغرب العربي، واكتفى بذكر إفريقية جنوب الصحراء. وزاد إهتمامها بالموضوع أنّ كتاب (الجزائر عند الأنثروبولوجيين) قد أعطى الإنطباع بأنّ لاشيء كان معلوما عن الجزائر وغيرها من بلدان المغرب العربي قبل 1830، فقد بدأ المؤلفان كتابهما بالعبارة التالية : "منذ البداية كان المجهول هو كل شيء".

لكن تومسون رأت أنّ هذا القول فيه تناقض مع ماهو معروف من كتب ألفت قديما ـ أي قبل 1830 ـ بل أنّ بعضها قد أعيد طبعه، كما تدل على ذلك قائمة

Créé avec
nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

الكتب المطبوعة التي نشرها بليفير. واستغربت المؤلفة أنّ ماأصبح تفكيرا فرنسيا وأوروبيا حول أهل المغرب العربي بعد 1830 كان غائبا في كتابات القرن الثامن عشر، ولاسيما مايتعلق بنظرية العرق أو السلالة. وعندما رجعت إلى كتابات القرن 18 لتتأكد وجدت أنّ بلاد البربر كانت تمثل مسألة خاصة عند المفكرين المتنورين لأنها لم تتناسب عندهم مع أي تصنيف من التصنيفات التي وضعوها للعالم. وقد إنتهى ذلك سنة 1830. فالمؤلفة إذن تحاول في كتابها شرح الطريقة التي رأت بها أوروبا المتنورة بلاد البربر وكيف تحولت هذه التصورات perception وتصاعدت لكي تصل إلى شعارات (كليشيات) الإستعماريين، وهي الشعارات التي ماتزال لم تختف.

وقد حددت تومسون مجال دراستها على النحو التالي : أنها لاتضع تاريخا لبلاد المغرب في القرن 18، ولاتدرس العلاقات بين هذه البلاد وأوروبا لأن ذلك مدروس فعلا من قبل آخرين. وإنما هي تريد أن تضع دراسة تتحرى فيها الطريقة التي تصور بها مفكرو عصر التنوير بلاد المغرب إلى الإحتلال الفرنسي للجزائر. فهي إذا شئت دراسة لوجهة النظر الغربية عن بلاد البربر في فترة خاصة. ووجهة النظر هذه لاتشمل هنا سياسة الحكومات أو تتناول كتب الرحالة الذين زاروا بلاد البربر، ولكن كيف تصور المفكرون الأوروبيون شمال إفريقية في عصر الأنوار، والإطار الذي فسروا فيه ماكان معروفا منه، ثم الإهتمام بما كان مقروءا ومكتوبا من النخبة المتعلمة عن هذه المنطقة من العالم.

واعتبرت تومسون دراستها هذه جديدة لأنه لاأحد تناول شمال إفريقية في نظر المفكرين الأوروبيين في المرحلة المذكورة قبلها. وقد لاحظت أنّ شمال إفريقية (بلاد البربر ـ بلاد المغرب ...) لم يكن في نظر أوروبا "المتمدنة" في القرن 18 منطقة متوحشة ولا أرضا مجهولة قابلة للإستكشاف. ومن جهة أخرى لم يكن شمال أفريقية في نظر أوروبا منطقة للحضارات القديمة مثل الهند والصين حيث يتعلم مفكرو أوروبا من الفلاسفة القدماء لهذه الحضارات. بل أنّ أوروبا كانت لها صلة بمنطقة شمال افريقية منذ القديم، وهي تشكل في نظرها جزءا من حضارة البحر

الأبيض، حيث نشأت قرطاج، وظهر القديس أوغسطين، وفرضت روما عليها تبعيتها. وشمال إفريقيا مسكون بأناس، رغم أنهم أعداء لأوروبا أحيانا، كانوا معروفين، ولهم ماض لامع، وهم الذين احتلوا إسبانيا (الأندلس) ورغم تدهور أوضاعهم، فقد كانت لهم بحرية وتجارة وحضارة مدن. إن سكان شمال إفريقية لم يكونوا نماذج للبحث في السلالات (الأثنية) والسوسيولوجية والفلسفة عند الأوروبيين، كما فعلوا مع أهل أمريكا الشمالية. إنهم (سكان شمال إفريقية) لم يكونوا أمثلة لشعوب متوحشة، بل لهم مع أوروبا علاقات ومعاهدات وكان مفكرو أوروبا يزورونهم ويحلون بمدنهم. وكان شمال إفريقية جزء من العالم المعروف للأوروبيين، ومن ثمة كان من الصعب إيجاد تصنيف أو مكان لبلاد المغرب عند المفكرين الأوروبيين خلال القرن 18.

لكن ماهي المعلومات المتوفرة عنه عندئذ ؟ يزعم الفرنسيون أنّ كلّ شيء كان مجهولا عن الدولة التي هزموها (دولة الجزائر) وعن شمال إفريقية عموما. وهم لم يروها فقط بلادا معادية، بل هي في نظرهم بربارية، وأهلها هم "وحوش إفريقية"، إنها بلاد غير مكتشفة، وهي تحتاج إلى إكتشاف وفتح (إحتلال). ونظر الفرنسيون إلى أهل شمال إفريقية على أنهم أشياء للفضول الأنثروبولوجي، وأنهم وحوش في حاجة إلى تمديد. وأصبح المؤلفون الفرنسيون يتحدثون عن الجزائر على أنها بلاد عذراء، وأصبح ماكان معلوما عندهم وعند الأوروبيين الآخرين من علاقات ومن أوضاع عامة هناك، أصبح بدائيا وعالما إفريقيا مخيفا يسكنه برابرة متوحشون. وكان الفرنسيون يقارنون أنفسهم بالرومان. ألم يحطم هؤلاء قرطاج وحضارتها عن قصد وعمد، فهل هناك تشابه بين الماضي والحاضر ؟ وكيف حدث ذلك ؟ وكيف تتحول المعرفة والشعور بالذات في عالم الواقع إلى جهل وتبسيط للأمور ؟ ذلك هو موضوع المؤلفة آن تومسون.

فهل هناك كتابات تثبت ذلك أو تستحق الدراسة ؟ إن المؤلفة تقول : إنّ المرء إذا قرأ ماكتب عن شمال إفريقية، قبل 1830 فهناك سبب واضح للتثبيط. إنّ بعضهم تحدث عن الكتب المهملة في الرفوف والتي يعلوها الغبار بل إنّ أعمال

Créé avec nitroPDF professional
téléchargez la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

مؤلف مثل بيسونيل وديفونتين لم تطبع إلا سنة 1838. ولكن الشخص الذي رد على حمدان خوجة سنة 1834 قال إنّ الفرنسيين كانوا لايجهلون ماكان يجري في الجزائر (بعد أن إتهمهم حمدان خوجة بأنهم كانوا لايعرفون دواخل البلاد). وقد أشار ذلك الشخص إلى أن كتابات بواري وكذلك ديفونتين كانت معروفة للفرنسيين قبل طباعتها سنة 1838، وقال إنّ هؤلاء كانوا قد سافروا من الجزائر إلى وهران، وإنهم كانوا يعرفون قسنطينة عن طريق القالة، ويعرفون معسكر وتلمسان عن طريق التجارة مع وهران. فإذا ما اعتمد الباحث هذا القول، فإنّ الجزائر كانت معلومة في أدبيات القرن 18. وإنّ هذه الكتابات كانت مقروءة، وهناك شواهد أخرى على ذلك.

وقسمت المؤلفة أنواع المعرفة حول بلاد المغرب بين المؤلفين والقراء. ذلك أنّ بعض القراء الأوروبيين كانوا مهتمين ببلاد المغرب باعتبارها جزء من المشرق أو باعتبارها صورة مرعبة في كتابات رجال الدين. وقد زارها بعض المؤلفين منهم، وبعضهم إكتفى بالقراءة عنها من المطبوعات، كما فعل الماركير "الفيلسوف" دارجان d'Argens الذي أضاف بعض الرسائل حول بلاد البربر إلى كتابه الذي عنوانه (رسائل يهودية، سنة 1736)، قائلا إنها رسائل أرسلت إليه من قبل رحالة من اليهود كانوا في مختلف أنحاء أوروبا والبحر الأبيض، وهي رسائل خيالية. وكان دارجان من أهل (بروفانس)، ولعله كان قد توقف في أحد موانئ بلاد البربر في طريقه إلى إسطانبول حيث بقي حوالي خمسة أشهر. وتدل كتاباته الخيالية على أنّ هناك سوقا رائجة من القراء المهتمين بمنطقة المغرب العربي. كما تدل كتابات (مذكرات) رينال Raynal التي نشرت سنة 1826 ـ بعد وفاته ـ على أنّ هناك أدبيات معروفة عن بلاد المغرب قبل 1830.

وهناك أدبيات كتبها أصحابها عن بلاد المغرب دون أن يزوروها مثل (المور) من تأليف فولتير، ثم (تدهور وسقوط الدولة الرومانية) لجيبون Gibbon. وهذان العملان مهمان عن المنطقة. وجاءت المؤلفة أيضا على ذكر عدد من المصادر التي كانت معروفة ومتداولة عن بلاد المغرب، مثل رحلة الدكتور شو، وكتاب لاكوندمين، ودي طاسي، ودارفيو، ورينذر، ونوح، وبنانتي، وشيلر، ... إلى جانب كتابات الأسرى والقناصل، وهي كثيرة وكلها كانت قبل الإحتلال.

وقد شرحت المؤلفة بعض المعاني التي كانت مستعملة قبل الإحتلال وكيف تطور استعمالها بعده. ومثال ذلك كلمة "مستوحش" التي كانت في القرن الثامن عشر وعند المفكرين لاتعني أنّ الشخص الموصوف أدنى من الآخرين في الدرجة، ولكنها كانت تعني إنسانا في عهد الطفولة أو المرحلة الأولى من التطور. ولكن الإستعمال اللاحق لها، سيما في الكتابات الفرنسية بعد الإحتلال، جعل كلمة "متوحش" تدل على الضعة والإنحطاط في الدرجة الإنسانية، ومن ثمة غير متمدن كالفرنسيين.

ومن جهة أخرى فإن الحديث عن أوروربا المتنورة هكذا بالتعليم لايدل على أنها كانت أيضا في درجة واحدة من التمدن والنظرة للأشياء، بل هناك درجات واختلاف في النظرة. فرغم انتشار فكرة التنوير فإنه لم يكن لأوروبا رابطة في المستوى الإجتماعي والسياسي والفكري. ومع ذلك وجد مااصطلح عليه بجمهورية أهل الأدب أو النخبة، حيث كان الناس يتراسلون ويتزاورون ويتبادلون المعلومات والأفكار.

ثم إنّ بلاد المغرب كانت كيانا ونوعا من الوحدة، ولذلك فضلت المؤلفة الحديث عنها بطريقة التعميم أيضا. ولكنها في دراستها ركزت على الجزائر ثم تونس. أما المغرب الأقصى فقد كان في نظرها ونظر الأوروبيين في القرن 18، منغلقا على الخارج أكثر من جيرانه. ولم تنبه المؤلفة نفس التنبيه بخصوص ليبيا. وستكون الجزائر أكثر أهمية في بحثها.

وما اهتمامات مفكري التنوير إذن ؟ ومن هم أبرز الذين يعنينا أمرهم هنا ؟ تقول المؤلفة تومسون : إنّ عصر التنوير ليس عصر العقل ولكنه عصر الفضول وملاحظة الإنسان والطبيعة والتجربة. والإهتمام الأول لهم هو الإنسان باعتباره جزءا من عالم الحيوان. ولذلك كان هذا العصر قد شهد بداية الأنثروبولوجيا تحت عنوان (التاريخ الطبيعي للإنسانية). إنطلاقا من أنّ أصل الإنسان واحد، حسب تعاليم مختلف الشرائع، وبذلك تكون الإختلافات بين الناس مردها فقط إلى المظاهر للمراحل المتعاقبة على تطور الإنسان. وهنا يأتي الإحساس بالتاريخ والزمن. كما

nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

أن من مميزات عصر التنوير جمع المعارف والملاحظات حول الإنسانية وإنتاجها، ويستتبع ذلك عدة تصنيفات للبشرية نفسها، تبعا لأصناف الحيوانات والنباتات، ومن بينها التصنيف العرقي الذي قاد إلى النظريات العرقية ـ العنصرية، خلال القرن 19. وإذا كان التنوير قد عاش النسبية الثقافية حول بلاد المغرب، فإن الفرنسيين قد ادعوا أنهم كانوا يجهلون تاريخ الجزائر مما نتج عنه تبسيط الشعارات كما ذكرنا.

وقد ظهرت مجموعة من الآراء حول الأصول والأعراق. فحذر (دارفيو) من الأحكام المسبقة حول العربي، وهو يعني العربي في سورية، لأنه لم يقل نفس الشيء عن العربي في شمال إفريقية. وكان دارفيو يعلم أنّ الأوروبيين كانوا يحكمون أحكاما مسبقة عن العربي وكونهم غير مهذبين وغير منصفين إلخ. وقال أنّ أحكامهم في ذلك تشبه أحكام الرومان على غيرهم بالبربرية والوحشية. كما فعل دي طاسي نفس الشيء بالنسبة للجزائريين، أي التحذير من الأحكام المسبقة عنهم أيضا. واعتبر (جول بارلو) الأمريكي أن أعمال الداي حسين كانت مشرفة. وقال توماس كامبل الاسكتلاندي أن الفرنسيين كانوا يهدمون المساجد في الجزائر ويحفرون عن عظام الموتى. وتساءل عن الفرنسي الذي يأتي إلى انجلترا ويحفر فيها عن عظام الأجداد ثم يأخذ منها حمولة سفينة لتستعمل في مصانع السكر بفرنسا. وهذا دي طوكفيل كان يعتبر الجزائريين أدنى ثقافة من الفرنسيين، رغم أنه عاتب حكومته عن بعض التصرفات في الجزائر. أما هين فقد اعتبر في كتابه (المجتمع الكولونيالي لدولة الجزائر) الصادر سنة 1832 أنّ هذا المجتمع لايمكن إصلاحه، ولابد من إبعاده تماما من الأرض.

وترى المؤلفة أن هناك فرقا بين آراء عصر التنوير وآراء بداية القرن 19، أي بعد احتلال الجزائر، فيما يتعلق ببلاد المغرب. لقد انتهى الأمر بأن أصبحت أوروبا هي المركز، وظهر كره الآخرين (غير الأوروبيين)، وأصبح البحث عن المعرفة لذاتها ثانويا بالنسبة للإحتلال والتوسع على حساب الآخرين. وتساءلت : لماذا وقع نسيان المعرفة السابقة عن شمال إفريقية، ولماذا رجعت الأحكام المسبقة التي حذّر منها

البعض في عصر التنوير ؟ لقد عالجت المؤلفة ذلك في موضوع رئيسي هو الجغرافية أو المكان، والتاريخ الطبيعي والتطور الإجتماعي واللغة.

إن بلاد المغرب اعتبرت جزءا من الشرق ومن إفريقية ومن الدولة العثمانية والعالم الإسلامي. وكانت في نظر المتنورين منغلقة على نفسها ويسودها الغموض، ولذلك لابد من انفتاحها على التجارة. واعتبرها بعضهم جزءا من الحضارة الرومانية أو هي إمتداد لها. ونظر إليها آخرون على أنها جزء من حضارة البحر الأبيض، ومن ثمة فهي مركزية، وإلى درجة ما، فهي أوروبية أكثر مما هي هامشية. وهذا التصور جاء من كون المنطقة كانت جزءا من الحضارة الرومانية وجزءا من المسيحية. وهؤلاء يتجاهلون علاقاتها مع الإسلام. ومن الذين ركزوا على ذلك الدكتور شو، ويفهم من ذلك أنّ الحضارة الرومانية إنما حطّمها العرب. وقد أخذ الفرنسيون بعد الإحتلال بهذا الرأي. وقد ادعوا أنّ الأرض لهم عن جدارة باعتبارهم ورثة الرومان. وأنّ الحكام المسلمين دخلاء على الأرض. وطالما شبّه الفرنسيون أنفسهم بالرومان. أما سكان بلاد المغرب فقد اعتبرهم الفرنسيون دخلاء أيضا، ومن ثمة ليس لهم حقوق، ولايستهلون الأرض التي عندهم، ولذلك وجب العمل على انتزاعها منهم.

وهناك متنورون آخرون، مثل دارجان، ركزوا على الصفة الإفريقية لبلاد المغرب، وأبعدوها عن أوروبا التي إتجهت شمالا. فقد اعتبر دارجان حكام بلاد المغرب إفريقيين وكذلك دولها. ونظر دي طاسي إلى كون الجزائر واقعة جغرافيا في إفريقية. وأما عند بوارى فالجزائر إفريقية برمالها المحرقة وبشرة أهلها الداكنة في نظره، وقال إنها بلاد لاترحب بالأجنبي وإنها وحشية. وهاجم بنانتي الجزائر بوحشية واعتبرها الجزء المرعب من إفريقية. وهناك إشارات في كتابات أخرى إلى كون الجزائر في إفريقية، ومن ثمة وحشية حكامها، مما أصبح علامة على البغض والكراهية والوحشية. ولكن كامبل، رغم أنه اعتبر الجزائر إفريقية، فإنه أعجب بالأرض ونباتها وأنهارها، إلخ. وقد جاء في تعريف بلاد البربر في (الإسكلوبيديا) أنها تدل على عبور المور (السكان) إلى مدينة تمبكتو للتجارة في الذهب والعبيد، أي هناك وجهة الجنوب ومجاهل إفريقية.

Créé avec nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

ولكن بعض المتنورين اعتبروا بلاد البربر جزءا من الدولة العثمانية أيضا. وقد وصفوا الجزائر بكونها جمهورية تحكم نفسها بنفسها. غير أنّ فانتوردي بارادي قال إنها تابعة للسيادة العثمانية. واعتبرها آخرون جزءا من العالم الإسلامي وأن نمط حكمها يمثل الإستبداد الشرقي المعروف. وأضاف بارادي نفسه أن استبدادية الحكم فيها يدل على كونها بلادا من الشرق، وأن مجتمعها راكد وغير متطور.

وإذن فإن نظرة مفكري التنوير إلى بلاد المغرب تعتبر نظرة متناقضة وتخضع لأحكام مسبقة، ولا نعرف من خلالها الملامح الحقيقية للمنطقة. فهي أوربية بالآثار التاريخية (الرومانية ؟)، ولكن ذلك لايبرر إلى نهاية القرن 18 إحتلال أوربا لها. ثم أنّ الحنين الأوربي إلى بلاد البربر المسيحية لم يختف، رغم القول بأن بعض المفكرين كانوا علمانيين. وقد ظهر التفكير المسيحي في دعوة الأب (رينال) لإحتلال المنطقة.

وهذا التفكير والإهتمام بدأ بالحملة الفرنسية سنة 1830. فهذا الفيلسوف (هيغل) كتب كتابات معاصرة للحملة وعبر فيها عن كون إفريقية أوربية، وذلك عندما وصف ساحل شمال إفريقية، واعتبر الحملة ناجحة من أجل أوروبا، وإنّ شمال إفريقية كان دائما جزءا من أوروبا. وأصبح بذلك حكام المنطقة المسلمين غرباء وعابرين. وابتعد الخوف عن قلب أوروبا بعد الحملة الفرنسية. ورأى المسيحيون عودة التاريخ هناك حيث كان قد توقف بعض الوقت في نظرهم.

ليس بوسعنا إستعراض جميع تفاصيل الكتاب أمام القارئ، ولكن حسبنا التنبيه على ما نظن أنه أساسي لفهم ماكان الرأي العام الأوروبي والمفكرون الأوروبيون يتناولونه ويعتقدونه عن بلاد المغرب وأهلها. وسوف لن نستعرض كل قسم على حدة، ولاسيما ماأسمته المؤلفة بالمكان أو الموقع، والعرق أو السلالة، ثم المجتمع ونظام الحكم. فقد لاحظت المؤلفة وهي راصدة فقط لوجهة النظر الأوروبية عندئذ، إنّ عبارة بلاد البربر Barbary كانت في القرن الثامن عشر تشير فقط إلى الجزء الشمالي من هذه البلاد، أي الساحل بما فيه من مدن. أما الداخل كالتل والهضاب ثم الصحراء وماوراءها فغير معروف عند الأوروبيين ولم يكونوا يعنونه

عندما يتحدثون عن بلاد البربر. وقد ذكرنا أنّ ذلك ينطبق على الايالات العثمانية (الجزائر، تونس، ليبيا) ولا سيما الجزائر، وإنّ المغرب الأقصى (مراكش) كانت منغلقة في وجه التجارة والتأثر بأوربا. وكانت الايالات المذكورة شبه مستقلة إذ لها تبعية إسمية فقط للسلطان. وكان للأوربيين تجارة وحرمة ومعاهدات مع هذه الايالات، ثم كان الحضور الفرنسي جهة القالة، والإحتلال الإسباني لوهران. وإذن فإنّ الضفاف الشمالية للبحر الأبيض لم تكن تجهل حالة الضفاف الجنوبية منه، حسب تعبير المؤلفة، وليس هناك غموض ولا وحشية في نظر الأوربيين عنها. وكان شمال إفريقية في الضمير الأوربي جزءا من الدولة العثمانية، ولذلك كانت العلاقات مع الايالات مشكلة من نوع خاص.

ثم إنّ تاريخ شمال إفريقية عندئذ قد خضع لتفاسير القناصل الأجانب وبعض كتابات الأسرى وغيرهم. وهي تفاسير متعارضة أحيانا. وتقول المؤلفة إنّ هذه نقطة مهمة لأنّ المؤلفين ماهم في الحقيقة سوى نتائج الرأي العام الأوربي. فهي تفاسير تخضع لأحكام مسبقة عن بلاد المغرب حتى قبل الإستعمار. وليس دائما صحيحا أنّ الكتابات الكثيرة عن موضوع ما تدل على الفهم العميق له. فالجزائر في العهد الإستعماري مثلا كانت موضوعا لكتابات كثيرة ولكنها لاتبرهن على فهم حقيقي لها. وقد عرفنا أنّ هناك إختلافا في الكتابات عنها في القرن الثامن عشر ثم بعد 1830 بالنسبة للفرنسيين.

ورغم أنّ مسألة القرصنة كانت مسألة ساخنة عندئذ تشبه الحرب الباردة في عهدنا، فإنّ المؤلفة فضلت تأجيلها إلى القسم الثاني من كتابها. واكتفت في القسم الأول منه بالتصورات المسبقة للأوربيين عن بلاد المغرب، أو ماتسميه بمسألة الموقع الجغرافي أو المكان. ذلك أنّ إسم (بلاد البربر) كان يثير علاقات العداء بين المنطقة والأوربيين، ولاسيما في النص الفرنسي Barbarie . ذلك أنّ معنى اللفظة الإنكليزية Barbary لا يشير إلى العلاقة بينها وبين البربرية بمعنى التوحش كما تفعل الصيغة الفرنسية. وجاءت المؤلفة بالتعريف الذي أورده هيربيلو في كتاب (المكتبة الشرقية) حيث أورد تعريف مرمول وغيره من المؤلفين. فقد ذكروا أنّ بار

Crée avec nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

BAR هو إسم لإبن ملك مصري، وأنّ كلمة (بر) تعني الصحراء أو الخلاء أما المؤرخ ڤيبون Gibbon فقد ذكر في كتابه السابق (تدهور ...) المعنى غير السار لكامة (باربري)، رغم أنه رجع إلى المعارف الإشتقاقية منذ عهد الإغريق والرومان الذين استعملوا كلمة باربري بمعنى الأجانب، أي من خارج الدولة التي امتد نفوذها إلى شمال إفريقية. وقد ختم ڤيبون بأنّ المعنى في الحقيقة مستمد من كلمة (المور) وأنّ الكلمة الجارية (بربر) قد استعيرت من الكلمة اللاتينية الإقليمية من قبل الفاتحين المسلمين، ثم استقرت كتعبير محلي على امتداد الساحل الشمال الإفريقي. وهذا يعني أنّ الكلمة حافظت على معناها الأصلي أي الباربرية أو الوحشية.

وجدت بعد ذلك رد فعل مضاد في شكل محاولات، ولكن بدون جدوى، إذ قال بعضهم إنّ المعنى لاعلاقة له بدرجة الحضارة عند السكان وهذا الموقف وقفه دي طاسي عندما تحدث عن الجزائر بالخصوص، فقد استبعد أن يكون يعني بلاد البربر مشتق من التوحش، وقال دي طاسي إنّ كثيرا من أهل العالم، بما فيهم الأوربيون، متوحشون، بينما سكان شمال إفريقية إنسانيون، ولهم قوانين ونظم. وأورد المعنى الذي جاء به مرمول عن الخلاء والصحراء، والمعنى الذي استعمله الرومان بمعنى الأجانب أو الأغراب عن الدولة. وإلى 1776 استعمل الرحالة الروسي كوكوفتسوف كلاما مشابها لكلام دي طاسي، وأضاف أنّ الأوربيين أبقوا على الإستعمال الروماني لشعوب شمال إفريقية بينما هي شعوب لها أصولها وعاداتها، وأكد من جهته أيضا أنّ في أوربا بعض الشعوب تعتبر أكثر وحشية من أهل شمال إفريقية.

وبعد كلمة البربر وماشتق منها، أوردت المؤلفة كلمة (الترك) ومالابسها من معاني في أذهان الأوربيين خلال القرن الثامن عشر. فقد كانت كلمة الترك تثير في الذهنية الأوربية ردود فعل مسبقة أيضا، وهي ردود فعل عدائية بالطبع. فرغم أنّ أهل شمال إفريقية غير أتراك في هذه الذهنية، فإنّ تبعيتهم للسلطان، وكون الحكام والمليشيات والرياس أتراكا ومن الشرق، جعل الكلمة تطلق عليهم أيضا ومعناها يسري عليهم. وفي الذهنية الأوربية (أو ماأسمته المؤلفة أحيانا بالضمير الأوربي) أنّ الأتراك أعداء المسيح(عليه السلام) وأنهم يشخصون الغلظة والوحشية، وكانوا

عندما يتحدثون عن بلاد البربر. وقد ذكرنا أنّ ذلك ينطبق على الايالات العثمانية (الجزائر، تونس، ليبيا) ولا سيما الجزائر، وإنّ المغرب الأقصى (مراكش) كانت منغلقة في وجه التجارة والتأثر بأوربا. وكانت الايالات المذكورة شبه مستقلة إذ لها تبعية إسمية فقط للسلطان. وكان للأوربيين تجارة وحرمة ومعاهدات مع هذه الايالات، ثم كان الحضور الفرنسي جهة القالة، والإحتلال الإسباني لوهران. وإذن فإنّ الضفاف الشمالية للبحر الأبيض لم تكن تجهل حالة الضفاف الجنوبية منه، حسب تعبير المؤلفة، وليس هناك غموض ولا وحشية في نظر الأوربيين عنها. وكان شمال إفريقية في الضمير الأوربي جزءا من الدولة العثمانية، ولذلك كانت العلاقات مع الايالات مشكلة من نوع خاص.

ثم إنّ تاريخ شمال إفريقية عندئذ قد خضع لتفاسير القناصل الأجانب وبعض كتابات الأسرى وغيرهم. وهي تفاسير متعارضة أحيانا. وتقول المؤلفة إنّ هذه نقطة مهمة لأنّ المؤلفين ماهم في الحقيقة سوى نتائج الرأي العام الأوربي. فهي تفاسير تخضع لأحكام مسبقة عن بلاد المغرب حتى قبل الإستعمار. وليس دائما صحيحا أنّ الكتابات الكثيرة عن موضوع ما تدل على الفهم العميق له. فالجزائر في العهد الإستعماري مثلا كانت موضوعا لكتابات كثيرة ولكنها لاتبرهن على فهم حقيقي لها. وقد عرفنا أنّ هناك إختلافا في الكتابات عنها في القرن الثامن عشر ثم بعد 1830 بالنسبة للفرنسيين.

ورغم أنّ مسألة القرصنة كانت مسألة ساخنة عندئذ تشبه الحرب الباردة في عهدنا، فإنّ المؤلفة فضلت تأجيلها إلى القسم الثاني من كتابها. واكتفت في القسم الأول منه بالتصورات المسبقة للأوربيين عن بلاد المغرب، أو ماتسميه بمسألة الموقع الجغرافي أو المكان. ذلك أنّ إسم (بلاد البربر) كان يثير علاقات العداء بين المنطقة والأوربيين، ولاسيما في النص الفرنسي Barbarie . ذلك أنّ معنى اللفظة الإنكليزية Barbary لا يشير إلى العلاقة بينها وبين البربرية بمعنى التوحش كما تفعل الصيغة الفرنسية. وجاءت المؤلفة بالتعريف الذي أورده هيربيلو في كتاب (المكتبة الشرقية) حيث أورد تعريف مرمول وغيره من المؤلفين. فقد ذكروا أنّ بار

Crée avec nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

BAR هو إسم لإبن ملك مصري، وأنّ كلمة (بر) تعني الصحراء أو الخلاء أما المؤرخ ڤيبون Gibbon فقد ذكر في كتابه السابق (تدهور ...) المعنى غير السار لكامة (باربري)، رغم أنه رجع إلى المعارف الإشتقاقية منذ عهد الإغريق والرومان الذين استعملوا كلمة باربري بمعنى الأجانب، أي من خارج الدولة التي امتد نفوذها إلى شمال إفريقية. وقد ختم ڤيبون بأنّ المعنى في الحقيقة مستمد من كلمة (المور) وأنّ الكلمة الجارية (بربر) قد استعيرت من الكلمة اللاتينية الإقليمية من قبل الفاتحين المسلمين، ثم استقرت كتعبير محلي على امتداد الساحل الشمال الإفريقي. وهذا يعني أنّ الكلمة حافظت على معناها الأصلي أي الباربرية أو الوحشية.

وجدت بعد ذلك رد فعل مضاد في شكل محاولات، ولكن بدون جدوى، إذ قال بعضهم إنّ المعنى لاعلاقة له بدرجة الحضارة عند السكان وهذا الموقف وقفه دي طاسي عندما تحدث عن الجزائر بالخصوص، فقد استبعد أن يكون يعني بلاد البربر مشتق من التوحش، وقال دي طاسي إنّ كثيرا من أهل العالم، بما فيهم الأوربيون، متوحشون، بينما سكان شمال إفريقية إنسانيون، ولهم قوانين ونظم. وأورد المعنى الذي جاء به مرمول عن الخلاء والصحراء، والمعنى الذي استعمله الرومان بمعنى الأجانب أو الأغراب عن الدولة. وإلى 1776 استعمل الرحالة الروسي كوكوفتسوف كلاما مشابها لكلام دي طاسي، وأضاف أنّ الأوربيين أبقوا على الإستعمال الروماني لشعوب شمال إفريقية بينما هي شعوب لها أصولها وعاداتها، وأكد من جهته أيضا أنّ في أوربا بعض الشعوب تعتبر أكثر وحشية من أهل شمال إفريقية.

وبعد كلمة البربر وماشتق منها، أوردت المؤلفة كلمة (الترك) ومالابسها من معاني في أذهان الأوربيين خلال القرن الثامن عشر. فقد كانت كلمة الترك تثير في الذهنية الأوربية ردود فعل مسبقة أيضا، وهي ردود فعل عدائية بالطبع. فرغم أنّ أهل شمال إفريقية غير أتراك في هذه الذهنية، فإنّ تبعيتهم للسلطان، وكون الحكام والمليشيات والرياس أتراكا ومن الشرق، جعل الكلمة تطلق عليهم أيضا ومعناها يسري عليهم. وفي الذهنية الأوربية (أو ماأسمته المؤلفة أحيانا بالضمير الأوربي) أنّ الأتراك أعداء المسيح(عليه السلام) وأنهم يشخصون الغلظة والوحشية، وكانوا

مثارا للرعب والخوف والنهب. فالتركي والوحشية عند دارفيو سواء. وقد شاركه في ذلك غيره من المؤلفين أيضا. وهم متعصبون تعصبا أعمى. ويستلزم ذلك أنّ الأتراك مسلمون أو محمديون. وذلك الموقف الأوربي عند المؤلفة يعكس العداء التقليدي المسيحي للإسلام.

وهذا الموقف من الإسلام له دخل أيضا في الحكم على بلاد البربر. فالأوربي مهما كان جاهلا كان يعرف أنّ شمال إفريقية منطقة إسلامية قبل أن تكون جزءا من الدولة العثمانية. ولذلك شاعت الكتابات أيضا عن إحتلال العرب والمسلمين لإسبانيا (الأندلس) وعن وحشية المسلمين في إحتلال (فتح) شمال إفريقية نفسه. وذلك يدخل في تاريخ الإسلام والمسيحية في المنطقة. ولكن المؤلفة تقول بأنّ الصورة الشعبية للإسلام ليست هي الصورة التي كانت عند مفكري القرن 18 في أوروبا أو المختصين، ولكن ذلك لايمنع من إظهار الصورة العامة عن الإسلام في أوروبا. وقد كانت أسوأ صورة عن شمال إفريقية وأهله هي تلك التي يقدمها الرهبان. ومن هذه الصور أنّ المسلمين هناك قدريون وجبرية، ويؤمنون بالمكتوب والقدر، وهم لايفرون من الزلازل ولا من الطواعين، ولايدافعون عن أنفسهم ضد الأمراض، وتذهب الصورة أيضا إلى أنّ أتباع الإسلام جهلة، وذلك مأألح عليه الدكتور شو في كتاباته، ويفهم من كلامه أنّ الجهل راجع إلى الإسلام نفسه. وقد قال دارجان أيضا بذلك. كما أنّ الصورة العامة عنده (درجان) تذهب إلى الربط بين الإسلام وهدم الحضارة والفنون والمدن. ولكن فولتير خالفه في ذلك، إذ اعتبر أنّ العلم والفن قد ازدهر على يد العرب. بينما سار ريبندر على رأي دارجان أيضا. وذهب بعض الكتاب مثل بواري، إلى أنّ الخرافة والجهل تسودان عند العرب. وهو لم يربط ذلك بالإسلام، ولكنه لم ينكر الأسباب. وقال الأميرال بوفورمون أنّ جميع الذين استعملوا القرآن الكريم لهم حكومات مكروهة ومنحطة. وقد أوردت المؤلفة آراء عديدة لكتاب آخرين عن الكراهية للإسلام والعرب والقرآن الكريم.

ولكن بعض علماء التنوير قد امتدحوا الإسلام لالذاته ولكن لمهاجمة الكنيسة من خلاله. وقد أوردت المؤلفة عدة أمثلة على ذلك. فهذا فولتير رأى في التسامح

Créé avec
nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

الإسلامي وسيلة للتنديد بتعصب رجال الدين المسيحي، سيما الكاثوليكية. وقد استعمل البطل (درويش) في كتابه (كنديد) لمهاجمة الكنيسة، وكان البطل مسلما أو تركيا يعيش في ضاحية باسطانبول. وهاجم دارجان كلّ الأديان بما في ذلك الإسلام والمسيحية، وكان هدفه مهاجمة الكاثوليكية أيضا، حسب قول المؤلفة. أما ڤيبون فقد أشاد بالإسلام ورفض الفكرة القائلة بأن المسلمين قد هدموا مكتبة الإسكندرية، وهو الزعم الذي أيده حتى فولتير. وقال ڤيبون أنّ المور (أهل شمال إفريقية ـ المسلمون) ساهموا في حضارة شمال إفريقية الداخلية، وهو في ذلك يقف ضد الرأي الآخر الذي يقول أنهم نشروا الجهل والتشريد.

وتدعونا المؤلفة إلى فهم أغراض المتنورين من مهاجمة الإسلام. فهم يفعلون ذلك في الواقع لمهاجمة التعصب عند الكاثوليك، وهي تذكر أنّ دارفيو قد تحدث عن تونس بأنها بلد الحرية حيث يستطيع المرء أن يصلي متى شاء ويصوم كما شاء، وأن يشرب الخمر ... دون أن يؤذيه أحد. وهذا لوروا يكتب عن الجزائر بأنّ حكامها متسامحون مع كل الأديان بدون حدود. وقد أكد هذا الرأي كتاب آخرون، مثل ديفونتين وكوكوفتسوف، وحتى فالبير قال بذلك أيضا، رغم أنه كان يكره كلّ شيء جزائري حسب تعبير المؤلفة. ومن جهته أكد ويليام شيلر مسألة التسامح هذه في الجزائر، وهي مسألة هامة وأساسية عند المتنورين في ذلك الوقت. غير أنّ التعريف الذي أوردته (الإنسكلوبيديا) للتسامح جاء فيه أنّ المسلمين قد نشروا الدين بالسيف وهذا يدل على شعور المتنورين ضد العالم الإسلامي.

وكانت معاملة الأسرى مثار آراء مختلفة بين الكتاب. قال دارفيو بسوء المعاملة، وكذلك قال ريبندر، ولعل ذلك راجع إلى التأثر بآراء الرهبان. أما لاكوندمين فقد رأى أنّ الأسرى لم يكونوا يعاملون معاملة سيئة، رغم أنّه لم يكن يحمل أي عاطفة ودّ نحو الجزائر وسكانها، وأكّد كل من بيسونيل وديفونتين عن حرية العقيدة عند الأسرى. وكذب كل من دي طاسي وبارادي الدعاية المسيحية التي تقول أنّ الأسرى كانوا يجبرون على تغيير دينهم. كما أكد ذلك شيلر وبنانتي الذي كان أسيرا سابقا في الجزائر. كما أنّ بارادي قال بذلك رغم أنه كان مستشرقا

متعصبا وله روح صليبية وهو الذي قال بأن من يعلّم فنون الحرب للأتراك يعتبر عدوا للإنسانية، وهو مما يتماشى مع الفكرة القائلة بأنّ الأتراك متعصبون ومتوحشون.

ومنذ أوائل القرن التاسع عشر عادت إلى الظهور الفكرة القائلة بأنّ الإسلام والجهل مانعان للتقدم. وظهر ذلك في هجوم الأب رينال صاحب كتاب (تاريخ الهندين). فقد قال أنّ المسلمين من بين الشعوب التي لاتعطي إلا قليلا من الحرية. وهي فكرة بارزة في ذهنية المتنورين. وهاجم آخرون الإسلام لأنّه يعارض التقدم الحقيقي. ووقف بنانتي ضد الدين المحمدي لأنه دين التعصب في نظره، كما أنّ نوح خالف شيلر عن التسامح وهاجم معارضة التقدم في الدين الإسلامي، واعتبر هذا الدين معلما للإستبداد واللاتسامح.

وغداة إحتلال الجزائر اختفت فكرة معاملة سكان (بلاد البربر) كأنداد وأصبح ينظر إلى دين المسلمين هناك على أنّه دين التعصب واللاتسامح. كما إنتهت المعرفة السابقة للإسلام، وتدعمت الشعارات المسيحية المتعصبة عنه، وشاع بدلها الجهل العام به ورفض التفاهم مع أهله. وبرزت من جديد الأحكام المسبقة. ولم يظهر من يتساءل عن ذلك إلا النادر.

أما بالنسبة للسكان فقد صنفوا من بين الجنس الأبيض، وظلت هذه الفكرة شائعة منذ قال ليون الإفريقي أنّ المنطقة يقطنها أشراف بيض. وذهب ريبندر إلى أنّ سكان بلاد البربر من الجنس الأبيض. ونوه ڤيبون بالعرب، لكنه أظهر الإمتعاض من (المور). أما الدكتور شو فقد اعتبر كلّ العرب متوحشين ولهم استعداد للسرقة والقتل. وأما بارادي فقد اعتبر كل من هو شرقي إنسانا غير جيد. و (هين) الذي نشر كتابه سنة 1832 تحت عنوان (إلى الأمة عن الجزائر) والذي كان عضوا في الجمعية الإستعمارية لدولة الجزائر (كذا)، قال إنه من السخرية أن نعمل على تمدين سكان الجزائر، لأنهم غير قابلين للإصلاح، ويجب إبعادهم عن الأرض التي سيجعلها الفرنسيون مستعمرة. إنّ السكان يبتسمون ساخرين ولكنهم يحتقرون الفرنسيين متمدنين تمزيقهم إربا إربا. وهم متوحشون غلاظ ومنحطون، وقال هين :

nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

"إنّ كلّ عربي قد ولد سفاكا بالماهية والحرفة"، وقال إنهم يتلذذون بإنزال العذاب بالآخرين -السادية؟- واستدل على ذلك بقتلهم لفتاة على يد أهل القبائل، وهي الحادثة التي جعلته يضع صورتها على غلاف كتابه. وعلقت المؤلفة على ذلك، بأن رأي هين قد يكون شاذا أو متطرفا، ولكنه رأي موجود في مختلف الكتابات الإستعمارية حول الأهالي، وقالت إنه أمام ذلك يصبح من الصعب تصنيف سكان شمال إفريقية من القوقازيين الممتازين.

والإستعمالات التي شاعت عن السكان -بعد طرح مثل الأتراك واليهود والمسيحيين- هي: المور والعرب والبدو والبربر والقبائل. وأشار بعضهم مثل ريبندر إلى الزنوج أيضا. وقال وولف أن الأب دان أول من أدرك الفرق بين العرب والبربر (أو المور). واعتبر نوح كل أصناف السكان المذكورين غير أهالي. وذهب (كنار) الذي نشر رحلة كوكوفتسوف إلى أن كلمة البدو أو العرب كانت شائعة في أدبيات القرن 18، بينما كانت كلمة (المور) تعني سكان المدن. ونخلص من ذلك إلى أنه ليس هناك اتفاق أو حتى تقارب في استعمال الكلمات ومدلولاتها.

فهذا بيسونيل قد وصف سكان الأوراس وزواوة بأنهم عرب، ولكنهم يختلفون عن بقية العرب في البلاد. وقد استعمل كلمة القبائل للعرب الساكنين في الجبال الواقعة بين الجزائر والقل، ولم يستعمل كلمة البربر. أما الدكتور شو فقد ميز بين البدو، وهم الذين يعيشون في الخيام بالسهول، والقبائل الذين يعيشون في منازل بالجبال. وهو يعتبر هؤلاء هم الإفريقيون القدماء. وقيل إنهم فروا إلى الجبال من المعتدين، وقد انحدر منهم العرب المعاصرون. وذكر شو أيضا أن هناك فرقا بين السكان البدو في السهول والقبائل في الجبال من حيث اللغة إذ قال أنها تختلف عن العربية والعبرية في نظره. وعنده أن سكان الأوراس يختلفون عن القبائل أيضا. واعتبر أولئك منحدرين من الوندال وأن شعورهم شقراء، وهو الأمر الذي أكده أيضا قيبون وشيلر وبروس. أما دي طاسي فقد قال بأن السكان كانوا يسمون البربر، وهم في وقته المور والعرب فقط. وتبعا لذلك كان الكتاب يطلقون كلمة العرب على كل السكان، وأحيانا يطلقون عليهم كلمة المور. وهو مااستعمله شيلر الذي أطلق المور

على كل السكان، وهي الكلمة التي تشمل السكان القدماء والعرب ومهاجري الأندلس. وميز شيلر المور من العرب (البدو) الذين يعيشون في الخيام بالسهول، كما ذكرنا، وكانو يربون الماشية، وقال إنهم يشبهون عرب آسيا، وأضاف إليهم البساكرة والميزابية الذين اعتبرهم من السكان القدماء، واعتبر لغتهم مثل لغة بلاد البربر.

وقد اهتم شيلر أيضا بالقبائل أوالبربر الجبليين واعتبرهم منحدرين من النوميديين. وقد كرر رأي شو الذي اعتبرهم من نسل الوندال ومن المتكلمين بالشاوية (كذا) واختلطوا بالأهالي، وذكر شيلر أيضا أن الطوارق يتكلمون الشاوية وهم بربر. ويظهر أن تعريف شيلر للسكان كان بحسب اللغة، والشاوية عنده هي البربرية(؟). والحديث عن القبائل بدأ قبل 1830، إذ تحدث بعضهم عن عيونهم الزرقاء وشعرهم الأشقر وكونهم من الوندال. وبعد أن كان الحديث عن الإختلاف في اللغة بين السكان أصبح الحديث عن الخلاف في البشرة. وأكد دوماس Dumas وفبار Fabar في كتابهما (القبائل الكبرى) سنة 1847، نظرية الأصول الوندالية وبياض البشرة للقبائل، وطرحت بعد ذلك مسألة العرب والقبائل (وقد أحالت المؤلفة بعد ذلك على كتابات شارل روبير آجرون حول هذه المسألة وسياسة فرنسا البربرية).

وفي الخلاصة ذكرت المؤلفة بعض النقاط البارزة لموضوعها وهو نظرة المفكرين في عصر التنوير من بلاد البربر. وهذه النقاط هي: أن هذه البلاد كانت قبل 1830 لها خاصياتها وهي بلاد ليست أوروبية ولا شرقية ولا إفريقية. وان كثيرا من التاريخ معروف عنها وتوجد حولها كتابات كثيرة، وهي ليست بلادا متوحشة ولامتحضرة. وأنها لم تقدم جديدا للمتنورين الذين كانوا يبحثون عن المجهول والتجارب الإنسانية، غير أن نظام الحكم السائد في بلاد البربر كان إستبداديا.

ومنذ 1830 (تاريخ احتلال الجزائر) أصبحت كلمة إفريقية هي العبارة المستعملة، وتحول المعلوم عن المنطقة مجهولا، والمعلوم عنها أصبح غير مهم. وجاء تصنيف جديد لسكان الجزائر خاصة، فأصبحوا عربا وقبائل، واعتبرهم الفرنسيون مختلفين ومتعارضين بقوة. وتذكر المؤلفة أن بداية التحول في النظرة إلى بلاد

Créé avec
nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

المغرب قد بدأ في الواقع مع مدار القرن 19 وليس مع الإحتلال. وذلك التحول في نظرها هو الذي أعدّ الذهنية والأرضية للإحتلال، فقد بدأت الحملة ضد القراصنة في كتابات شيلر وبنانتي.

وبعد النظرية القوقازية للشعوب الممتازة حلت فكرة الحط من قيمة أهل بلاد المغرب في الحضارة وفي العرق (السلالة). وقد طرأ ذلك على العقلية الأوربية من نظرية وحدة الطبيعة البشرية عند المتنورين إلى نظرية الفروق بين الشعوب وكون غير الأوربيين هم شعوب دنيا لصغر أمخاخهم. وحدث رد فعل ضد الوحشي النبيل. وبدلا من ذلك حل الإعتقاد في تفوق الحضارة الأوربية، مما أدى إلى أن الإستعمار سيكون في صالح الشعوب الأخرى.

ومن جهتنا نقول أن كتاب (بلاد البربر في عصر الأنوار) يقدم الجديد في عدة مجالات، منها رصد آراء كتاب ومفكري القرن الثامن عشر في أوربا عن سكان هذه البلاد وموقعها ومجتمعها وحكوماتها. ومنها التحولات التي طرأت على استعمالات معينة، والمراحل التي مرت بها سواء بالنسبة للإسلام والمسيحية، والشرق والغرب، ووحدة طبيعة البشر، واختلافهم العرقي. ومنها الكيفية التي وظفت بها هذه الإستعمالات في عهد الإحتلال الفرنسي لكي تتلاءم مع استعمالات أخرى مثل عدم قابلية الإصلاح والتعلم لدى الشعوب الأدنى، ومثل الرسالة الحضارية لأوربا -فرنسا، و مهمة الرجل الأبيض لدى الشعوب الملونة. ولكن السؤال الذي لم تجب عليه المؤلفة هو : هل اختلفت هذه النظريات اليوم كثيرا عما كانت عليه بالأمس ؟ ألا ترى أن المصطلحات القديمة لم تتغير كثيرا اليوم، فهي موجودة في عبارات مثل : الأغنياء والفقراء، والديمقراطيين والإستبدادين، والمسلمين والمتحررين

نظرة جديدة في دور عزام بولاية طرابلس

مصطفى علي هويدي

نعتمد في كتابتنا لهذا البحث عن ذكريات عزام التي نشرها في مجلة المصور المصرية سن 1950 م وهي ثماني عشرة حلقة بدء بالعدد 1325 الصادر بالقاهرة يوم الثالث من شهر مارس وانتهاء بالعدد 1343 الصادر يوم 7 يولية من نفس السنة، وقد جاء في العدد الأول تقديم للذكريات قالت فيه المجلة مايلي:

«بهذا المقال يبتدأ عزام باشا الأمين العام لجامعة الدول العربية[1] ذكرياته...»

وكان ينبغي أن نقول مذكراته، لولا أنه لم يدوّن وقائعها في أوقات وقوعها، ولاحاول أن يكتبها بنفسه أو أن يتفرّغ لكتابتها وإنما أملى بعضها على بعض معاونيه في فترات مختلفة، وأملى بقيتها على الأستاذ لطفي رضوان مندوب المجلة[2].

وكما قال بغني: ـ رحمه الله ـ «علينا أن نسلك هذا العمل في إطار الذكريات خاصة بعد أن تبيّن لنا أن الذكريات تعني إستحضار مانسيه الإنسان[3] ومن هنا يمكن اعتبار أن هذا النوع من الأعمال التي لاتسجّل في حينها، ولايحاول أصحابها أن يحرّرها بأنفسهم في أوقات لاحقة في مرتبة أدنى من مرتبة المذكرات.

وهي في واقعها ـ الذكريات ـ لاتخرج عن عمل آخر قام به[4] جميل العارف الذي جمع تلك الحلقات من الذكريات ونشرها تحت عنوان «صفحات من المذكرات السرية لأول أمين عام للجامعة العربية عبد الرحمن عزام» (الجزء الأول)، وقد ذكر العارف في مقدمة الكتاب: «أن عزام لم يكتبها بخط يده ولكنه رواها لي بنفسه من عشرات الجلسات في بيته»[5].

Créé avec nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

لعب عبد الرحمن عزام دورا خطيرا في هذه المرحلة، وعايش في ولاية طرابلس الغرب ميلاد الجمهورية الطرابلسية، وشارك في أهم أحداث البلاد، وحضر اجتماعات انشاء وتكوين الجمهورية، بل وتولى منصب المستشار القانوني لها وشارك في بعض جلسات مفاوضاتها التي دارت مع السلطات الإيطالية في طرابلس، وقد أكد البعض أنّ الجمهورية الطرابلسية كانت من بنات أفكاره، كما ادعى هو شخصيا ذلك بقوله الصريح «... كانت أول مرة تطرح فيها فكرة إنشاء حكومة عربية لمواصلة الجهاد عندما بادرت بالقول في اجتماع الزعماء الطرابلسيين بمصراته - أكتوبر 1918 - : ماذا يمكن أن نفعل في حالة إنهزام الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى ؟ وقال لي الشيخ عبد النبي مارأيك أنت ؟ فقلت ليس أمامنا إلا أن نقيم حكومة عربية يشترك فيها أعيان البلاد ... تستمر في جهادها وتطالب بحريتها واستقلالها ...»[6] فمن هو عزام ؟ ولماذ جاء إلى ولاية طرابلس الغرب؟ ومن كلفه بذلك ؟ وماذا فعل هناك ؟ وكيف كانت علاقته بزعماء وأعيان البلاد ؟

وللإجابة عن هذه الأسئلة لابد من إلقاء الضوء على شخصية عزام.

من حديث ذكرياته بمجلة المصور المصرية يقول عزام أنه سافر سنة 1912م لدراسة الطب في لندن، وأنّ صديق والده (مستر انتوني) الإنجليزي قد ساعده في ذلك[7]، ويضيف عزام لقد اتهموني بمحاولة اغتيال الخديوي عباس[8]، وفي صفحة أخرى من مذكراته يقول أنّه رشح الملك فؤاد لعرش ألبانيا، ويؤكد عزام على عزمه على تحرير مصر من الأنجليز وأعوانهم - البيت العلوي -[9] وهو بالطبع يقصد من وراء ذلك إزاحة الملك فؤاد.

وفي فقرة أخرى يقول عزام «رحبت بفكرة خطرت ببالي تتمثل في الإلتحاق بالجيش العثماني في سوريا للقتال تحت قيادة جمال باشا ضد الأنجليز، وكان هذا هو هدفي الأساسي الذي هربت من مصر لتحقيقه، ولم يكن خروجي للحرب ضد الإيطاليين إلا محاولة عارضة...»[10].

Créé avec nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

ويعترف عزام بسفره إلى برلين واستكهولم لحضور مؤتمر يعقده الإشتراكيون هناك للدفاع عن قضية طرابلس الغرب ...[11].

وفي أحد الصفحات من مذكراته يقول «أخذ السنوسي - ادريس - الذهب والأسلحة، وتركنا نموت من الجوع ...»[12]، وبعدها يقول «عطفت على السنوسي - ادريس - فتحرج موقفي»[13].

وفي مكان آخر من مذكراته يقول عزام «... إنّ مجاهدي طرابلس الغرب قد أصبحوا أقوياء وقادرين على ضرب الإيطاليين والإنتصار عليهم ...[14]. وبعد ذلك بصفحات قليلة يضيف «إنّ دخولنا مدينة طرابلس فاتحين أمر مستحيل ...»[15]، وفي مكان آخر يقول عزام إثر سماعه نبأ وفاة صديقه د. سيد دسوقي «... وحينما عرفت الخبر شعرت برغبة شديدة في العودة إلى طرابلس للإنتقام له ... إنها فعلة عصابة من الأشقياء، وقد ظهر أن هذا الإعتداء كان مدبرا من رمضان السويحلي[16]، وفي صفحة أخرى يقول عزام «... كان رمضان السويحلي يقف دائما لجميع محاولاتي بالمرصاد لتصوره أنني سأنتقم منه يوما للمذبحة التي دبرها وذهب ضحيتها صديقي المرحوم د.دسوقي ...»[17].

هذا هو دور عزام في ولاية طرابلس الغرب بمتناقضاته وسلبياته، وقد أشارت إليه أصابع يد الإتهام في أكثر من موضع، يقول بغني :

«... إننا نبحث عن وجه للتقدمية في أفكاره، فلم نعثر عليه إذ بعد فترة قصيرة من عمر الجمهورية الطرابلسية أصبح الرجل يطالب خلال فترة المفاوضات مع الحكومة الإيطالية منذ بداية سنة 1919م بتشكيل إمارة يرأسها أمير مسلم، وإن لم يكن الرجل مشبوها فإنما قدم البلاد لغرض في نفسه، أو في نفوس الآخرين الذين كانوا وراءه، فما هو التقدم الذي تحرزه البلاد بتحويلها عن النظام الجمهوري إلى نظام أميري كان عزام وراء المطالبة به خلال تلك المفاوضات، ... ويضيف بغني قائلا : «إننا لانجد في مقالاته التي حررها على صفحات جريدة (اللواء الطرابلسي) مايفصح عن أية دعوة من هذا النوع إلى الجمهورية أو مايشبه ذلك»[18].

ومن الملاحظ عن عزام أنه يحاول إبراز دوره في جميع الأطوار والمواقف على حساب بقية القيادات الوطنية، فينسب إلى نفسه أنه هو الذي أقنع السويحلي بفكرة الجمهورية، وهو الذي كتب وقرأ بياناتها، وقسمها أيضا، وهو الذي قام بتوديع الأمير عثمان فؤاد عند مغادرته ورافقه إلى الحدود التونيسية، وهو الذي عرض عرش طرابلس على الأمير عثمان ... وهو وهو وهو ... إلخ[19].

وهناك شكوك تحف علاقة عزام بالإنجليز ويبدو أنها غير عادية، وإن كانت في طور الخفاء وغير ظاهرة، فقد كان الرجل أحد العناصر الفاعلة والمنشطة للسياسة الإنجليزية بالمنطقة، ويشير عزام نفسه إلى ذلك فيقول : «... أثناء مفاوضات ادريس مع الإيطاليين والأنجليز في الزويتينة سنحت لي الفرصة لزيارة الزويتينة، وهناك كنت أقضي ساعات طويلة في السير على شاطئ البحر مع أعضاء البعثة الأنجليزية ...»[20].

والغريب من الأمر كيف كان عزام صديقا لإدريس السنوسي، ومستشارا له وهو الذي عمل على طرد قوات المجاهدين الذين كانوا مع نوري باشا قرب الحدود المصرية في برقة عن طريق قائده المخلص له «عمر المختار»، وكان عزام أحدهم إضافة إلى عدد من ضباط الجيش العثماني؟ ولم نفهم كيف جمع عزام بين صداقة نوري باشا وادريس السنوسي، وهما نقيضان لدرجة أن الأول أخذ يعمل في الخفاء للثورة ضد الثاني وابعاد المجاهدين عنه، كما عمد إلى تشجيع خصومه ضده مثل أحمد الشريه، ورمضان السويحلي، وأخيرا فقد أعلن نوري باشا والأتراك عموما الثورة ضد إدريس السنوسي في فزان حيث تمّت الإطاحة بالنفوذ السنوسي هناك؟[21].

ويبرز عزام في وثائق ذكرياته التي نشرها في مجلة المصور المصرية سنة 1950م بالقاهرة بعض الجوانب التي تمثل حقيقة شخصيته وان كان ورود بعض الأشياء قد جاء صدفة أو غفلة فهي تلقي المزيد من الضوء على شخصية الرجل الحقيقية، فيذكر أنه كانت له مشكلة شخصية في مدينة استانبول وأخذت وقته وشغلت باله رغم أنه كان مكلفا حسب قوله بمهمة في طرابلس الغرب، لقد كانت تلك

nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

المشكلة تتمثل في إعجابه بفتاة تركية جميلة أراد خطبتها والزواج منها وهي فتاة من أعرق البيوت التركية ... ويضيف عزام لقد ترتب على ذلك ضرورة تواجده هناك في تركيا لإتمام تلك المهمة الشخصية .. رغم تكليفه الرسمي بالمهمة العامة في طرابلس، يقول عزام في ذلك : «...كان اعتقادي أن رحلتي إلى طرابلس لن تطول هذه المرة ... وأنني سأستطيع بعد عودتي أن أتزوج الفتاة ...»[22].

وفي موضع آخر لاندري لماذا تعمد عزام القول بأن سليمان الباروني ترك مكانه في طرابلس وجاء إلى الأمير عثمان فؤاد في مصراته ليصحبه إلى مدينة الأستانة، في حين أن الباروني قدم من مدينة غريان وليس من طرابلس، ثم أن الباروني وعزام كانا صحبة الأمير عثمان في الطريق من مصراته إلى مرفأ الرومية، وبينما واصل الأمير عثمان عزام سيرهما نحو الموقع بغية السفر والرحيل إلى تركيا، عاد الباروني من منتصف الطريق معتذرا للأمير بخطورة الوضع وأحوال البلاد ...مما يؤكد أن الباروني لم يكن في نيته مغادرة الوطن ...[23].

ومع أهمية حضور عزام لأحداث ميلاد الجمهورية الطرابلسية حيث أنه كان أحد شهودها ومعاصريها، إلا أنه تطرق إلى ذكر العديد من الأحداث أو التفصيلات بصورة غير سليمة ولم تكن على درجة من الدقة والصحة بل لقد جاء بعضها مخالفا للواقع ...، ومن الأمثلة على ذلك تحديده لعدد أعضاء مجلس الشورى في الجمهورية الطرابلسية بثلاثين عضوا[24] بينما كان عدد أولئك الأعضاء أربعة وعشرون عضوا.

وكان من بين الأخطاء ماذكره في قوله «... تلاشي آثار الفتن تدريجيا عندما جئنا لأول مرة إلى طرابلس ...»[25].

والغريب في الأمر أنّ تصاعد الفتن الحولية في إقليم طرابلس تزامن مع وصول عزام إلى هناك، ففتنه مصراته والسنوسية، وفتنة ترهونة ومسلاتة وفتنة الجبل الغربي الأولى والثانية، وفتنة مصراته وورفلة ... وغيرها كلها كانت في وجود عزام بطرابلس الغرب*

وقد عمد عزام من مذكراته إلى إخفاء العلاقة التي تربطه بالإنجليز إلى حد تجاهل تلك العلاقة والعمل على عدم الإشارة إليها، رغم أنّ أدوارا كهذه لا يمكن إخفاؤها أو تجاهلها، إذ تبدو واضحة من خلال الممارسات الفعلية، وتسرب جزئياتها من خلال تلك المذكرات نفسها[26].

ويؤكد البعض أنّ عزاما كان يعمل لصالح الإنجليز في إقليم طرابلس الغرب، كما عمل لصالحهم في برقة، حيث ساهم في إقناع إدريس السنوسي بمفاوضات الزويتينة التي كان مستشارا له فيها، ويذكرون أنه كان يعمل في طرابلس نيابة عنه بمعرفة الإنجليز ...[27].

إنّ غموضا كبيرا مازال يحف سيرة العزام في ولاية طرابلس الغرب، وربما تكشف عنها بالتفصيل دراسة خاصة توضح الدور الغامض الذي لعبه هناك، كما يجب معرفة دور ابن أخته المدعو «محمد سالم» الذي كان يعيش متنقلا بين روما وجزيرة العرب خلال هذه الفترة (1916 ـ 1920) وكانت له علاقات واتصالات جد هامة مع الإيطاليين خصوصا، وصلت إلى حد مقابلته لرئيس مجلس الوزراء الإيطالي، كما استخدمته روما لاستئناف علاقاتها المباشرة مع زعيم مصراته «رمضان السويحلي» الذي يعتبر العدو اللدود للإيطاليين في ولاية طرابلس الغرب، وبدون شك فإنّ للعزام دورا في كل ذلك، بل أنه كان من ورائه ...[28].

كما كان من بين الأخطاء التي وردت في ذكريات عزام القول بأنّ الباروني عندما عين واليا وقائدا لولاية طرابلس الغرب، اتخذ مركزا له في فندق بن غشير بمصراته[29]، وهذه مضاربة تنم على أنّ الذي يجمع المنطقتين في منطقة واحدة، لم تكن له دراية بجغرافية البلاد وأحوالها...

أما ماجاء بخصوص قول عزام «... لم أقابل أحمد الشريف 26 سنة، حتى كان عام 1948م عندما عثرت عليه وهو يعيش في حالة سيئة ...»[30].

ولعل في هذا القول نوع من الغفلة والتغفل، أو ما ينم عن ضعف الذاكرة، أو عدم مراجعة نص الطبع ...، وفي كل الأحوال فإنّ ذلك لن يغفر لكاتب الذكريات أو

nitroPDF professional
téléchargez la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

صاحبها خطأه الفظيع، فالسيد أحمد الشريف لم يعش إلى حد هذه الفترة (1948) فقد توفى الرجل في تمام الساعة الثامنة من يوم الجمعة 13 ذي القعدة سنة 1351 هـ، الموافق للعاشر من شهر مارس سنة 1933م بالمدينة المنورة ودفن في الدكة بالبقيع رحمة الله عليه[31].

أما الفترة الأخيرة والهامة من بقاء عزام في الولاية فإنه لم يترك في ذكرياته أي أثر لها أو أي شيء مهم عن أحداث البلاد وماجرى فيها اعتبارا من سنة 1919م وإلى أن سافر إلى مصر رفقة إدريس السنوسي يوم 21 ديسمبر سنة 1922م، رغم أنه كان شاهدا على أحداث تلك الفترة بل ومشاركا أساسيا فيها.

وعلى أية حال وباختصار يجب أن نقول كلمة أخيرة في حق الرجل بغض النظر عن ميوله الأجنبية وعلاقاته البريطانية الإيطالية وانتماءاته السياسية ... فإنّ عزاما قد أعطى ولاية طرابلس جهده ووقته وامكانياته وعاش مع مجاهدي طرابلس مجاهدا، عرفته الخيل والليل وساحات الوغي، وقد كان أخا لجميع الطرابلسيين ... الذين تأثر بحبهم حتى أصهر فيهم مرتين وأصبحت لأولاده فيهم خؤوله[32].

الهوامش

1 ـ درس عزام في مصر فأظهر تفوقا دراسيا مما أتاح له فرصة دراسة الطب بلندن 1912م وهناك تكونت واكتملت شخصيته السياسية إذ سرعان ماوجد من أحداث الحرب العالمية الأولى 1914م تصاعدا وتنامبا لآماله وأهدافه فرجع إلى مصر التي تسلل منها إلى برقة حيث شارك في حملة أحمد الشريف ضد الإنجليز بمصر وعندما فشلت الحملة إنتقل إلى اجدابية وتعرّف على ادريس السنوسي الذي تجول معه لفترة قصيرة ثم انتقل إلى إقليم طرابلس، ورجع إلى مصر سنة 1922م ولكنه لم يسجن أو يقدم للتحقيق، لاشتراكه في مهاجمة الإنجليز رفقة مجاهدي ليبيا، ولا لمشاركته في مقاومة الإيطاليين في طرابلس وهم بطبيعة الحال حلفاء للإنجليز آنذاك ... ولكننا نرى عبد الرحمن عزام تقلد أكبر الوظائف إثر عودته لمصر مثل عقوبته في مجلس النواب المصري سنة 1924م، ثم عين وزيرا مفوضا لمصر في العراق وإيران وتركيا وترلى وزارة الأوقاف سنة 1939م ووزارة الشؤون الإجتماعية 1940م، ثم تولى منصب أمين عام جامعة الدول العربية سنة 1945م.

2 ـ ذكريات عزام، مجلة المصور، حلقة ا عدد 1325، القاهرة 3 مارس 1950م ص 30.

3 ـ جبران مسعود ، الرائد، بيروت : دار العلم للملايين (1967) ص 696.

ـ مجدي وهبة، كامل المهندس، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، بيروت : مكتبة لبنان (1979) ص 97.

4 ـ عمرو سعيد بغني، قراءة جديدة في ذكريات عزام، مجلة الشهيد، عدد 5 (1984) ص 278.

5 ـ جميل العارف، صفحات من المذكرات السرية لأول أمين عام للجامعة العربية عبد الرحمن عزام، جـ ا، القاهرة : المكتب الحضري الحديث (1977) ص 12.

6 ـ العارف، مرجع سابق، ص 199.

ـ شكري، السنوسية دين ودولة، القاهرة : دار الفكر العربي (1948) ص 235.

7 ـ ذكريات عزام، مجلة المصور، العدد 1325، الحلقة 13، القاهرة 3 مارس 1950، ص 30.

8 ـ العارف، مرجع سابق، ص 55.

9 ـ نفسه، ص 65.

10 ـ نفسه، ص 159.

11 ـ نفسه، ص 161.

12 ـ نفسه، ص 121.

13 ـ نفسه، ص 183.

14 ـ نفسه، ص 150.

15 ـ نفسه، ص 180.

16 ـ ذكريات عزام، مجلة الحصور، العدد 1338، القاهرة، 2 يونية 1950، ص 31.

17 ـ العارف، مرجع سابق، ص 188.

الباروني، صفحات خالدة، ج 2، بيروت (د.ن) (1968)، ص 308.

18 ـ يبدو أن عزاما قد استأثرت بخياله فكرة الإدارة والملك التي نسي محاربته لها في مصر حسب قوله ـ إذ أخذ يتقلب بين الدعوة للجمهورية والملكية فقد دعى إلى تنصيب الأمير عثمان فؤاد ملكا على ولاية طرابلس، وعندما فشلت الفكرة نتيجة لرفض الأمير لها، عاد

nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

عزام مرة أخرى إلى فكرة الجمهورية، وتذكرنا فكرة الإمارة والملكية بمحاولة تتويج سابقة كان عزام قد اقترحها إذ رشح الملك فؤاد لعرش ألبانيا ...

ـ عمر بغني، الجمهورية الطرابلسية، مجلة الشهيد، عدد 2، أكتوبر 1981، مركز دراسة جهاد الليبيين ص 40.

19 ـ العارف، مرجع سابق، ص 65 ـ 201 ـ 207 ـ 221 ـ 209.

20 ـ نفسه، ص 132 ـ 133.

21 ـ مصطفى علي هويدي، الحركة الوطنية في شرق ليبيا خلال فترة الحرب العالمية الأولى، طرابلس : مركز دراسة جهاد الليبيين (1988) ص 116.

- RAFFAELE. RAPEX, L'AFFERMAZIONE DELLA SOVRANITA ITALIANA IN TRIPOLITANIA, TIENTSIN CHIHLI PRESS, 1937, P. 54.

22 – العارف، مرجع سابق، ص 170.

ـ ذكريات عزام، مجلة المصور، العدد 1338، القاهرة 2 يونيه 1950م، ص 62.

23 ـ عمر سعيد بغني، قراءة جديدة في ذكريات عزام، مجلة الشهيد، عدد 5 ـ أكتوبر 1984م، طرابلس : مركز دراسة جهاد الليبيين، ص 294.

24 ـ ذكريات عزام، مجلة المصور، عدد 1341، القاهرة 23 يونية 1950، ص 59.

ـ العارف، مرجع سابق، ص 213.

25 ـ نفسه، ص 184

* ـ أنظر نص الوثيقة المرفقة والتي كتبت بخط عزام وتتحدث عن تصاعد الفتنة المحلية.

26 ـ عمرو سعيد بغني، محررات عزام في صحيفة اللواء الطرابلسي، مجلة الوثائق والمخطوطات، العدد 5، 1990م، مركز دراسة جهاد الليبيين، ص 295.

27 ـ محمد رجائي ريان، الجمهورية الطرابلسية، المجلة التاريخية المغربية، عدد 69 ـ 70، مايو 1993، ص 101.

- ENRICO DE LEONE, LA COLONIZZAZIONE DELL'AFRICA DEL NORD, PADUA CEDAM, 1960, P. 480.

- LISA. S. ANDERSON, THE TRIPOLI REPUBLIC 1918 - 1922, PAPER SUBMITTED TO THE CONFERENCE ON THE ECONOMIC AND SOCIAL DEVELOPMENT OF LIBYA, JOINTLY CONVENED BY THE CENTER OF MIDDLE EAST STUDIES, SCHOOL OF ORIENTAL AND AFRICAIN STUDIES, LONDON, AND THE SOCIETY FOR. LIBY AN STUDIES, LONDON (13 - 15 JULY, 1981) P.10.

28 ـ الباروني، صفحات خالدة من الجهاد، جـ 7، مرجع سابق، ص 355.

- GABELLI, op.cit, p. 135.

29 ـ نفسه، ص 188.

30 ـ نفسه، ص 195.

31 ـ مصطفى علي هويدي، رحيل أحمد الشريف إلى تركيا، مجلة الشهيد، العدد التاسع، أكتوبر 1988م، طرابلس : مركز دراسة جهاد الليبيين، ص 132.

32 ـ الطاهر أحمد الزاوي، جهاد الأبطال في طرابلس الغرب، ط 3، بيروت : دار الفتح (1973) ص 12.

طرابلس الغرب يوم الأحد صباحا

صاحب السعادة الرئيس العامل لحزب الإصلاح الوطني أحمد بك المريض حفظه الله

تحية وسلاما وبعد،

فقد اجتمعنا اليوم بأخينا أحمد بك الفاطو وتحدثنا فيما يخص الأحوال الحاضرة وظهر لنا أن هناك سوء تفاهم وسوء تأويل لكثير من المسائل وليس بعيدا أن يكون هناك فتنة كبيرة أيضا للإيقاع بالأعيان وضرر الوطن، أما نحن فنكذب لك كل ماقيل من الإشاعات الواهية ونتأسف لتصديق بعض الناس لها. ولايخطر ببالك أن الناس ضاع رشدها وتعلقت بالأوهام بل الجميع يريدون الإتفاق في الرأي أما حكاية الإجتماع بترهونه فأظن الشيخ أحمد الفاطو بك ذكر لك تفاصيلها والصغير بك مشى راضيا. ولم يحدث بعد ذلك شيء مطلقا وكل ماطلب رمضان بك هو أن تجتمع الأعيان ويدبروا في شأن العساكر لأنه يخشى تشتتها ووقوع بعض حوادث سيئة إذا تركها ومشى. وذكر للمختار بك أن يخبر الجماعة بذلك وأن ينتظر السرعة لأنه لايمكنه الإقامة ومقصده العودة إلى مصراته. وإنني أؤكّد لكِ أنه ليس هناك مقصد آخر وأنّه في نظر العموم ورمضان بك بمجرد سماع وصول الكولنيل إلى أورفله تأكدوا أن المسألة إنحلت ولم يعد يخطر ببال رمضان المشي لها مع أنه حتى في السابق كان لايخشى بغير رضاء العموم فلهذا نرجو أن تقلع من أذهان الناس جميع الأوهام ونحن الذين اعتقدنا فيك الرزانة والإعتدال وحسبنا عليك مدار الأمور ومنك خير الوطن والبلاد وكنا نعتقد في فطنتك أن لاتعرضها لخطر ما، بما نعهده فيك من المتانة ننتظر قبل حكمنا النهائي على حكمتك وتبصرك أن لاتخيب أملنا فيك. ونرى أن الإشاعات الكاذبة والمفسدة وعوامل السوء تكثر فلذلك نشير باجتماع معك ورمضان بك لتجري الأمور على محور الإتفاق في الرأي وتسكن العامة. أما نحن فنؤكد لك أنّ هذا هو الوقت الذي نختبر فيه الرجال العقلاء فالمرجو أن تشير إذا وافقت على الإجتماع بالمكان المناسب وإلا فتكتب بما يطمن الخواطر ويوحد الرأي وإياك وشياطين الإنس ووساوس الوهم ونرجو سرعة الرد ولو بالتلفون لأن الأحوال سيئة من الإشاعات ورمضان بك يسافر

Créé avec
nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

إلى مصراته في ظرف يومين أو ثلاثة، وتقبل سلام الجميع واحترامهم للصغير بك والعموم.

عبد الرحمان عزام.

القسم الثالث

تقديم الأطروحات الجامعية

Créé avec
nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

تلمسان في العهد الزياني
(دراسة سياسية عمرانية إجتماعية ثقافية) *

عبد العزيز فيلالي

لاشك أن مدينة تلمسان كان لها تأثير سياسي وحضاري واسع النطاق خلال العهد الزياني، فهي الفترة التي تطورت فيها سياسيا، واتسعت عمرانيا ونمت اقتصاديا، وازدهرت فكريا، ولاسيما حينما تغلبت على فترات الضعف الذي أصابها من جراء حملات وهيمنة الجارتين الشرقية والغربية.

فقد اكتسب المجتمع التلمساني في العهد الزياني، ثقافة واسعة ورقيا حضاريا بحيث أعطى أهمية كبيرة للحياة الإجتماعية ومظاهرها واهتم بالحركة الفكرية والثقافية، ونشر المعرفة وتعميقها، بواسطة المؤسسات العلمية والتربوية والرحلة في طلب العلم.

فتغذت هذه الحركة برافدين هامين، رافد الأندلس ورافد المشرق فتضاعف التحصيل وكثر الإقتباس والإنتاج، وتوسعت التيارات الفكرية وتعمّقت وكثرت المجادلات والمناظرات بين علماء تلمسان وغيرهم. وتطورت العلوم العقلية والنقلية. وبرز فيها كثير من العلماء التلمسانيين، تعدت سمعتهم بلاد المغرب.

وعلى الرغم من حيوية الموضوع وأهميته، والأدوار البارزة التي لعبتها مدينة تلمسان في الميادين المختلفة خلال فترة زمنية زادت عن ثلاثة قرون، فإنه لم يحظ بعناية الباحثين، ودراسته دراسة عمودية مستقلة، كما حظيت به عواصم المغرب الإسلامي (تونس، فاس، غرناطة) باستثناء بعض المقالات والرسائل الجامعية، التي تركزت في عمومها على التاريخ السياسي للدولة الزيانية، بمجالها الجغرافي في

(*) ـ رسالة دكتوراه في التاريخ الإسلامي نوقشت بمعهد التاريخ في28 فيفري 1996 ونالت درجة مشرف جدا من طرف لجنة مؤلفة من الأساتذة : أ.د ابراهيم فخار رئيسا ، أ.د موسى لقبال مقررا وعضوية أ.د ناصر الدين سعيدوني، أ.د عبد الله حمادي.

Créé avec
nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

المغرب الأوسط، بينما تلمسان لم تنل حقها من الدراسة والبحث الأكاديمي المعمق، ولهذا يمكن إعتبار موضوع هذه الأطروحة محاولة جديدة في هذا المضمار ومهما يكن من أمر، فلا أتحدث عن صعوبة المهمة، وإنما التعرض إلى مشكلة تواجه كل باحث، يريد إقتحام أغوار التاريخ الحضاري للمغرب الإسلامي في العصر الوسيط. وهذه المشكلة تتمثل في الفراغ الملحوظ في المصادر المونوغرافيا، التي تهتم بتاريخ بني زيان ومدنهم، وخاصة عندما يحاول الحفر في البنى الاجتماعية، وفي النسيج العمراني والحركة الفكرية والثقافية ومؤسساتها، وتزداد الصعوبة تفاقما، كلما تصدى لمعالجة الجوانب الحضارية للمدن المغربية عامة ومدينة تلمسان على وجه الخصوص لأنها لم ترد في الكتب التاريخية التقليدية إلا بكيفية محتشمة.

ولعل تفسير هذه الظاهرة، يعود إلى سببين رئيسيين :

يتمثل السبب الأول : في أن مؤرخي هذه الفترة تميزوا بنظرتهم إلى أن الفرد هو صانع التاريخ ولهذا جاءت كتاباتهم سجلا حافلا، بأعمال السلاطين والأمراء وسيرهم وبطولاتهم وتضمنت وصفا دقيقا لشخصياتهم وجزئياتهم، بينما لم يخصصوا إلا صفحات قليلة لوصف المدن وسكانها.

ويكمن السبب الثاني : في ضياع معظم المصنفات المونوغرافيا لتاريخ مدينة تلمسان والمدن المغربية الأخرى باستثناء القليل منها حملت عناوين ومعلومات متناثرة وغير منسجمة. ولهذا توجهنا إلى مصادر أخرى، غير تاريخية، لاتقل عنها أهمية، عرفت بالمصادر الدفينة، المتمثلة في كتب الجغرافيا والرحلات والموسوعات وكتب النوازل وأحكام السوق (الحسبة) وغيرها من كتب التراث الفقهي التي عالج فيها أصحابها مواضيع شرعية متنوعة تفاوتت حظوظها من حيث القيمة التاريخية والعلمية وماتضمنت من معلومات اجتماعية وثقافية وعمرانية واقتصادية تلقي الضوء على أكثر من جانب من حياة المجتمع المديني، فضلا عن المجاميع وكتب التصوف ومصنفات الأدب وكتب الطبقات والمناقب والأنساب والمراسلات والمعاهدات والظهائر التي برع في تدوينها المغاربة في العصر الوسيط.

إن مؤلفي هذا النوع من المصنفات لم يكونوا مؤرخي بلاط ومن ثمة يمكن الإطمئنان إلى معلوماتهم ورواياتهم التي تكون في الغالب أكثر توثيقية

nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

ومصداقية مع أخذ الحيطة والحذر من بعضها مثل كتب المناقب والتصوف، لما تتسم به أحيانا من مبالغات وأساطير أو ماتتدخل فيه بعض المواقف والإعتبارات.

والظاهر أنه إلى عهد قريب، كانت هذه المدونات الفقهية، مهملة أو منسية لأن الدارسين في حقل التاريخ والحضارة، يعتبرونها مصادر جافة، بعيدة كل البعد عن التاريخ ويظنون أنها تعكس بنية اجتماعية بطيئة التطور إلى أن تفطن الباحثون في الأخير، لما تحمل في طياتها من بعد تاريخي وحضاري هام يمكن أن ترقى إلى الوثيقة التاريخية، إذ وفر لها الباحث أدوات منهجية يطوع بها النص الفقهي ليصبح نصا تاريخيا.

والحقيقة أنني ترددت كثيرا في بداية الطريق وخشيت من مغبة ركوب صعاب هذا الموضوع وخوض غماره لطول فترته الزمنية وتشعبه وقلة مصادره كادت أن تصرفني المادة الخبرية عن استيفاء جوانب البحث وأبعاده ومراحله وعلى الرغم من هذا التردّد فقد عزمت على البحث والتنقيب عن المجتمع التلمساني ومدينته، في المصادر المختلفة التي تمكنت من الإطلاع عليها في المكتبات العامة والخاصة في كل من الجزائر وتونس والمغرب الأقصى ومصر وفرنسا.

وقد أسعفني الحظ عندما عثرت على مخطوط قيم بعاصمة المملكة المغربية لأبي عبد الله محمد بن مرزوق التلمساني الشهير بالخطيب يحتوي على معلومات دقيقة ونادرة تتعلق بالمجال السياسي والعمراني والاجتماعي والثقافي للمجتمع التلمساني خلال القرنين السابع والثامن الهجريين، الموافق للثالث والرابع عشر الميلاديين. عند ذلك ظفرت ببغيتي ووجدت فيها طلبتي، لما تحتويه من مادة تاريخية غزيرة ومعلومات في غاية الأهمية مكنتني من إضافات جديدة في مجالات مختلفة من تاريخ تلمسان وتصحيح كثير من القضايا والتواريخ التي وردت مضطربة في بعض المصادر المعاصرة له وفي المراجع الحديثة التي اعتنت بالدولة الزيانية، لايتسع المجال لذكرها فهي محل عناية في نص الرسالة.

وقد حاولت أن أتبع المنهج التاريخي، من حيث الإعتماد على المصادر الأصلية وعلى التوثيق والتركيز على المظاهر الحضارية واستقراء النصوص مستخدما مقومات البحث العلمي في صياغة البحث بالتحليل والإستنباط والنقد والمقارنة حتى لايكون مجرد صياغة لفظية لما تردد في المدونات والحوليات القديمة ـ قدر

استطاعتي طبعا . تنفيذا للخطة التي رسمتها للتعريف بالمظاهر السياسية والعمرانية والاجتماعية والثقافية للمجتمع التلمساني خلال العهد الزياني، لعلي أسد بهذه الدراسة فجوة، كانت قائمة في تاريخ هذه المدينة العريقة وتقديم خدمة متواضعة لتراثنا المغربي الإسلامي المجيد.

وقد توزعت مواد الدراسة ومحاورها على أربعة أبواب يحتوي كل باب على ثلاثة فصول ومقدمة وخاتمة وملاحق ورسوم وصور وفهارس مختلفة، يتضمن الباب الأول القضايا السياسية الكبرى التي حدثت بمدينة تلمسان بدءا بتأسيس الدولة فقد أعتمد أبو يحي يغمراسن، في تأسيس دولته على قبيلة بني عبد الواد، وعلى بعض القبائل البربرية والعربية.

ولم يوظف في قيامها حركة دينية مذهبية إصلاحية، كما فعل كل من عبد الله بن ياسين المرابطي والمهدي بن تومرت الموحدي. ولعل فترات الهدنة مع بني مرين التي تطلع إليها يغمراسن وأوصى بها أولاده كانت نتيجة تجارب حربية ومعطيات استخبارية دقيقة عن قوة العدو، وأن علاقاتهم بالجارة الشرقية والجارة الغربية، غلب عليها طابع التوتر والعداء في جميع مراحلها مما حتم على بني زيان والمجتمع التلمساني حياة الصمود والتصدي والمقاومة المستمرة، وحالات الإستنفار في كثير من الأوقات، واستخدام ما يمكن استخدامه للمقاومة بما في ذلك، تجنيد الجواري واهدائهن لأمراء بني مرين، وإدماجهن في شبكة الإستخبارات والتجسس لحسابهم الخاص، وهي ظاهرة انفرد بها بنو زيان للحفاظ على كيانهم واستقلالهم.

وتمكن بنو زيان خلال القرن الثامن الهجري، الرابع عشر الميلادي، من المحافظة على حدودهم، بفضل هذه الوسائل، وانتقلوا من مرحلة الدفاع إلى مرحلة الهجوم، وأصبحوا يهددون بني حفص في عقر دارهم، وخاصة في عهد كل من أبي حمو الأول، وأبي تاشفين الأول وأبي حمو موسى الثاني، الذين أخرجوا أهل تلمسان من طور البداوة إلى طور الحضارة.

كما شهدت مدينة تلمسان، محنا كثيرة وصعابا جمة، بحيث تكرر سقوطها مرات عديدة في يد بني مرين وبني حفص، فقد كانوا لايخرجون من حرب إلا ويدخلون في أخرى، وهو العامل الذي اكسب سكان المدينة تحمل الشدائد ومقاومتها لفترة طويلة. ومنذ مطلع القرن التاسع الهجري، دخلت تلمسان في دوامة من العنف

Créé avec nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

المسلح والدسائس السياسية المتنوعة، بسبب الطامعين في العرش من بني زيان، فكانوا يتسابقون إلى بلاط الجارتين، ويتنافسون على رضا سلاطينهما، فانجر أهل تلمسان إلى حرب أهلية، بين مؤيد لهذا السلطان ومعارض لذاك، حتى ضعف بنو زيان وسرى الوهن من دولتهم فهيمن عليهم الأقوياء.

ولما سقطت غرناطة في يد الإسبان، صارت شواطئ المغرب الأوسط عرضة لتهديداتهم وهجوماتهم المتكررة، فتحكموا في رقاب بني زيان، إلى أن ظهرت قوة رابعة في المنطقة، استنجد بها أهل تلمسان كغيرهم من أهل المغرب الأوسط وهي القوة العثمانية التركية الفتية، فاستولت على مدينة تلمسان، وأطاحت بالعرش الزياني ووضعت حدا لأطماح السعديين والإسبان والمغامرين من بني زيان، وأنهت بذلك رسم الدولة الزيانية، التي دامت أكثر من ثلاثمائة سنة.

ويتعلق الباب الثاني بالمظاهر العمرانية، فقد تميزت أهمية مدينة تلمسان بملامحها الطبوغرافية، التي ضمنت لها حصانة طبيعية قوية، ولهذا نزح إليها السكان من كل مكان، وعمروها عبر حقب متتالية، حتى صارت مركزا حضاريا كبيرا في منطقة ريفية، فهذه الخاصية جعلتها عرضة لأطماع بني مرين وبني حفص، وبعض أقطار ماوراء البحر.

حملت تلمسان ثلاثة أسماء هي : «أكادير» و «بوماريا» و «تلمسان» وأن النطق الصحيح «لأغادير» أو «أقادير» أو «أجادير» اليفرنية هو بالكاف، لأن حرف القاف كان سائرا على لسان أهل تلمسان وشيوخها من بوادي زناتة.

مرت مدينة تلمسان الإسلامية، بمراحل عديدة، منذ أن فتحها أبو المهاجر دينار ثم عقبة بن نافع، واستقر بها طارق بن زياد في نهاية القرن الأول الهجري.

ثم صارت مقرا أساسيا للخوارج والادارسة ومغراوة والمرابطين الذين أضافوا لها مدينة «تاكرارت» واتخذها الموحدون مقرا إقليميا هاما لهم في المغرب الأوسط.

اهتم بنو زيان بتطوير عمران المدينة والتوسع فيه، لأنه يعد رمزا من رموز الدولة وازدهارها، وتطوّر مجتمعها ورقيه حضاريا، فبنوا القصور المختلفة والمنازل العديدة، حتى بلغ عدد دورها أكثر من ستة عشر ألف دار، وشيدت بها الحصون والأبراج، والأسوار العالية، لأن بناء سور المدينة يعد ضرورة حيوية ووسيلة لحفظ

المال والعرض والنفس، حتى الفقهاء حثوا على إنشاء الأسوار وجعلوها في عداد «البناء الواجب» تميزت بمتانتها وكثرتها، كما إحتوت المدينة على الشوارع والسكك المنظمة والأحياء الكبيرة والدروب الملتوية والأبواب الواسعة الكبيرة خارجية وأخرى داخلية، وعلى القصبة المخصصة للرهائن، والمرافق الاجتماعية العامة كالأسواق والقيصاريات والمستشفيات والفنادق، وشبكة الطرق والمياه ووسائل الصرف، والحمامات التي كانت تحمل أسماء أصحابها، مما يدل على عدم قدرة العامة من الناس، تضمين منازلهم حمامات خاصة.

وتعرفنا على أنواع المنازل وطوابقها ودهاليزها ومواد بنائها، ووقفنا على طرق بنائها وهندستها وفنها، واليد العاملة والمهندسين من أهل تلمسان ومن الأسرى النصارى ومن الأندلس الذين سخّروا لبناء صرح هذه النهضة العمرانية، وهي مظاهر تفنن ماذهب إليه بعض المستشرقين من أن البناء في المدن الإسلامية، يتميّز بعدم تماسك بنيانه.

إنّ المدينة الإسلامية في العصر الوسيط، تخضع تكويناتها المعمارية وتخطيطاتها للفكر المعماري الإسلامي، والتقنيات المستمدة من تعاليمه، وهو الشيء الذي يدحض ماروّجته بعض الدراسات الإستشراقية من عشوائية العمران الإسلامي.

وقد شيّدت بالمدينة نحو ست مدارس وستين مسجدا والعديد من الزوايا والكتاتيب والصهريج الكبير والملاعب والمتنزهات والمقابر والقناطر والخنادق والإستراحات في أرباض المدينة وأحوازها، ويعالج الباب الثالث معالم الحياة الإجتماعية ومظاهرها، فقد وصل عدد سكان مدينة تلمسان مابين القرنين السابع والثامن الهجريين، نحو خمسة وعشرين ألف عائلة من مختلف الأصول العرقية، والقبائل والطوائف التي سكنت مدينة تلمسان في العهد الزياني، إلا أنّ غالبية السكان كانوا من البربر والعرب، وتوافد على تلمسان العديد من الجاليات وخاصة منها الجالية الأندلسية، التي استثمرت مواهبها العلمية والسياسية والعسكرية والاقتصادية والفنية، في تطوير المدينة وفي تسيير دواليب الدولة ومؤسساتها وقد إستطاعت البيئة التلمسانية، أن تقلّل من الفوارق الأصلية والثقافية والاجتماعية بين السكان، وأن تصهرهم جميعا في عاداتها وتقاليدها المميزة. ووضحنا أشهر الأسر النبيهة مما يتيح رسم خريطة تقريبية لتوزيع السكان داخل المدينة.

Créé avec nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

خضع المجتمع التلمساني للتقسيم الفئوي في العهد الزياني أفرزته ظروف المعيشة، والبيئة وسلوك الفرد وطموحاته واجتهاده في الحياة، وفرضتها الأوضاع الاجتماعية والثقافية والاقتصادية في المجتمع الحضري، فإذا كانت الفئة الفقيرة تتسم بالبساطة فإن الفئة الخاصة تتميّز بالتأنق في المأكل والمشرب والملبس والمسكن، وتتفنّن في ضروبه وأصنافه، وأعطى بذلك للمجتمع التلمساني تقاليده وعاداته وأعراضه وأخلاقه، ولم يبخل على نفسه بالتسلية في أوقات الفراغ والراحة، بالخروج إلى الحدائق والغابات والشلالات، والتمتع بمجالس الطرب والغناء الزناتي والموشحات في الحفلات العامة والخاصة، والإقبال على الملاهي ومجالس الخمر، الشيء الذي نتج عنه بعض العادات الشاذة والآفات الاجتماعية المقلقة في بعض الأوساط.

وبالغ التلمسانيون في الإحتفال بالأعياد الدينية والمواسم، وختم القرآن وإحياء ليلة المولد الشريف، وحضور المواكب الرسمية والزواج، الذي كان يتم بين العروسين في سن مبكرة في غالب الأحيان، وظاهرة تعدد الزوجات كانت شائعة في تلمسان، ومنهم من عزف على الزواج، لكثرة نفقاته، وبسبب طلب العلم والدراسة، والتفرغ لها، أو زهدا وخشية من عدم معاشرة الزوجة بالمعروف وكان التنافس شديدا على المرأة العالمة النبيهة الذكية، وذات المنبت الطيّب، في حين فضل العوام المرأة الجميلة البدينة الشقراء. وكان عدد النساء أكثر من عدد الرجال بسبب الحروب المستمرة التي خاضها السكان، مخلفة عددا كبيرا من الأرامل، كما أن تجارة الجواري أسفرت عن إكتظاظ الأسواق بهنّ، فعز الأزواج، وكثرت الأرامل والعوانس وعلى الرغم من قيود العادات الاجتماعية والسلطة المطلقة لرب البيت، فإن ذلك لم يقلّل من الدور الهام الذي كانت تطلع به المرأة، إلى جانب الرجل في الحياة العامة، فعلاوة على تدبير شؤون البيت وتربية الأطفال، كانت تنشط في مجالات مختلفة: الغزل، الخياطة، الحياكة، التمريض والخروج إلى السوق وتساهم في النشاط السياسي والحربي والإستخبارات العسكرية والجباية وفي الحركة الثقافية وبرزت منهن زاهدات متصوفات ومثقفات لامعات في مدينة تلمسان. وصارت جزءا من كيانه وسلوكاته، تتسم بالطابع الإسلامي وتعاليمه، ومتقيدة بمبادئ المذهب وآرائه.

ويختص الباب الرابع بالناحية الفكرية والعلمية بمدينة تلمسان، فقد شهدت حركة دؤوبة ونموا مطردا، لأن الحياة السياسية القلقة، التي عاشتها حاضرة بني

زيان، في بعض الفترات من تاريخها، لم تؤثر بشكل مباشر على الحياة العقلية السائدة في المدينة، أو تعرقل نموها، ويعود ذلك إلى بعض العوامل المستمدة من البيئة التلمسانية ومن واقعها المادي والبشري.

فقد تميز الزيانيون بعنايتهم بالثقافة والعلم ورعايتهم للآداب والفنون وتقديرهم لأصحابها، وتشجيعهم على الدرس والتأليف، واحتضانهم لصفوة العلماء والأدباء والفقهاء والوافدين، من حواضر المغرب الإسلامي، وتوفير المناخ المناسب للبحث، والتحصيل والإبداع، وأغدق السلاطين والأمراء عليهم المنح والعطايا السخية وقربوهم إلى البلاط وأدمجوهم في مجالسهم وكان للرحلة العلمية دورها البارز في تكوين العلماء وتوسيع معارفهم، وتوطيد الروابط الثقافية وتواصلها بين الأوطان والأجيال.

ويعد التعليم حجر الزاوية في دفع الحركة العلمية والفكرية وتوسيع رقعتها وتعميقها وترقية المجتمع حضاريا، وقد لعبت المدارس دورا هاما في هذه الحركة وحافظت على حيوية التعليم السني المالكي. ولم يقتصر التحبيس على الدولة فقط بل ساهم فيه الأفراد، وأهميته تكمن في الإنفاق على الطلاب والأساتذة والمدارس والمساجد والزوايا والكتاتيب، وبفضله استمرت وظائف هذه المؤسسات في الإطلاع برسالتها.

تغذت الحركة الفكرية في تلمسان برافدين هامين رافد الأندلس ورافد المشرق، فتعمق التحصيل وتنوع الإقتباس ودخلت حلقات الدرس ومجالس العلم بالحضرة التلمسانية مختلف المؤلفات المشرقية والأندلسية والمغربية، فتوسعت التيارات الفكرية المتعددة كتيار الإجتهاد في إطار المذهب والسلف، وتيار التصوف، وبرز المذهب الأشعري في المعتقدات والمذهب المالكي في الفقهيات، وازدهرت حركة الجدل والمنظارات الشفوية والمكتوبة بين فقهاء تلمسان وغيرهم من فقهاء الأندلس والمغرب ومصر، تناولت الفقه المالكي والتفسير والتصوف والكلام واللغة والمنطق وبعض المسائل الفكرية الأخرى.

وقد وجدت هذه التيارات صدى لها في عقول الفئات المثقفة وفي وجدانهم فاهتموا بالتصوف لتحقيق كمال الإنسان الأخلاقي ومعرفة الحقيقة وسعادة الروح واعتنوا بدراسة القرآن وتفسيره، وبالحديث عناية كبيرة، وتوسعوا في دراسة اللغة

Créé avec nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

العربية وعلم البيان، ولم يهملوا العلوم العقلية والطبيعية فكانت هي الأخرى لها مكانتها بين علماء تلمسان، ولا سيما تلك التي تكمل العلوم النقلية وتخدمها، كالعلوم العددية من فرائض وحساب وجبر وهندسة ومنطق وطب وفلك، فكان لعلماء الحضرة نصيب معتبر في دراستها والتأليف فيها. فأثروا بذلك الساحة الفكرية والثقافية، ودفعوا بهذه العلوم نحو الإزدهار، ونبغ فيها العديد من التلمسانيين، تميزوا بعمق التفكير وغزارة التحصيل، ساهموا في الحركة الفكرية والنهضة العلمية، في حواضر المغرب والأندلس والمشرق.

المسكوكات المغربية على عهد الموحدين والحفصيين والمرينيين (ق 6 ـ 8 هـ / 12 ـ 14 م)*

د. صالح بن قربة

لقد تركز بحثي على المسكوكات الإسلامية المغربية الأندلسية على عهد الموحدين والنصريين والهوديين والحفصيين والمرينيين خلال الفترة الممتدة من القرن السادس إلى القرن الثامن الهجري، الثاني عشر الرابع عشر للميلاد، تناولتها كمظهر من مظاهر السيادة، وكوسيلة إعلامية ودعائية فعالة، متتبعا تطوّر المسكوكات المغربية منذ ظهورها أيام الموحدين على عهد عبد المؤمن بن علي، واضع قواعدها وأسسها كنظام نقدي جديد لأول مرة في تاريخ بلاد المغرب الإسلامي وحضارته، إلى أواخر العهد المريني وينبغي التنبيه في هذا الصدد، إلى أن المسكوكات المغربية في إطارها الزمني والمكاني اللذين سبقت الإشارة إليهما قبل قليل، لم تنتظم بعد في مؤلف جامع، كما هو الحال بالنسبة للمسكوكات الإسلامية المشرقية، التي حظيت باهتمام الباحثين والمتخصصين، فألفت عنها السجلات والموسوعات المعلمية الجامعة، بينما ظلت المسكوكات المغربية طي النسيان حبيسة المتاحف والمجموعات الخاصة، رغم أهميتها التاريخية والحضارية.

والملاحظ على أعمال هؤلاء العلماء من مستشرقين ومستغربين المتعلقة بالمسكوكات لاتتعدى كونها دراسات متفرقة تتسم بالوصف والتعميم، دون التعمق

(*) رسالة دكتوراه دولة في الآثار الإسلامية، نوقشت بمعهد الاثار جامعة الجزائر بتاريخ 14 / 03 / 1996 ونالت درجة مشرف جدا مع توصية بطبعها من طرف لجنة مؤلفة من الأساتذة : مولاي بلحميسي مقررا عبد الحميد حاجيات رئيسا، رأفت محمد النبراوي، ساحي أحمد حسن، ابراهيم فخار.

Créé avec nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

والتحليل المقارن وربطها بمسائل التاريخ، فضلا عما تخلل دراسة هؤلاء من أخطاء في القراءة الشيء الذي ترتب عنه إعطاء تأويلات وتفسيرات خاطئة.

وحتى تلك المؤلفات والدراسات التي حضيت بها، فهي قليلة جدا، ولاتعدو كونها مقالات ودراسات عامة، لاتستوفي الموضوع حقه من البحث ولانجد فيها دراسة متكاملة عن مسكوكات دولة ما أو فترة زمنية محدّدة، وهي إلى جانب ذلك متفرقة هنا وهناك، تتميّز بالمنهج الوصفي التعميمي، وتفتقر إلى النظرة الفلسفية التحليلية لعبارات وشعارات السكة، في الوقت الذي كانت هذه الأخيرة بمثابة وسائل إعلام واتصال بين الحاكم ورعيته، هذا فضلا عن خلوها من البيانات والجداول المتعلقة بالتحليل الأبجدي لكتاباتها وعناصر الزخرفة مع شيوع الأخطاء في القراءة والتأويل.

لهذاه الأسباب وغيرها وقع اختياري على بحث موضوع : (المسكوكات المغربية على عهد الموحدين والحفصيين والمرينيين، لما قد تساهم به هذه الدراسة من إضافات علمية جديدة في تاريخ وحضارة المغرب الإسلامي ـ لنيل درجة دكتوراه الدولة في الآثار الإسلامية المغربية ـ فرع علم المسكوكات ـ

ومن الدوافع التي حفّزتني على القيام بهذه الدراسة الأثرية خلو المكتبة العربية من مؤلف جامع لهذا العلم مع وفرة المادة وتنوعها حيث بلغت أكثر من ثلاثة عشرة ألف قطعة نقدية موزعة بين المتاحف الوطنية والمغربية، ولم أقف عندها فحسب، بل تجاوزتها إلى ماهو محفوظ بالمتاحف العالمية والعربية، حيث سافرت إلى كل من فرنسا وانجلترا وتركيا والمغرب وتونس من أجل استكمال النقص الموجود في مجموعتنا، أما النقود التي لم أستطع الوصول إليها، فقد اعتمدت في دراستها على صورها المنشورة في الكتالوجات الخاصة، وأتساءل الآن، في بداية بحثي، أي فائدة تعود علينا من دراسة المسكوكات الموحدية والحفصية والمرينية في هذه المرحلة الزمنية بالذات ؟

واقتصر في الجواب على أمر واحد له مغزاه ودلالته الحضارية، وذلك أنه لم تظهر حتى يومنا هذا، دراسة علمية شاملة فيما نعلم، تهتم ببحث المسكوكات

Créé avec
nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

المغربية، منذ ظهور الموحدين وحتى نهاية حكم الدولة الحفصية والزيانية والمرينية والنصرية ! ونجد أنفسنا من هذه الزاوية مقصرين جدا في إهمال هذا الأثر العلمي الحضاري الهام الذي يعتبر جزءا بارزا من تراث حضارة المغرب الإسلامي، وتظهر فائدته أنه يمثل مصدرا أصيلا بين المصادر الأثرية والتاريخية وربما فاقها جميعا، فالنقود بما تحمله من أسماء وألقاب وصيغ وعبارات وآيات وتواريخ، يصعب الطعن في أصالتها، فهي وثائق صحيحة رسمية جديرة بأن يعتمد عليها، لأنها تصدر تحت إشراف الدولة وبأمر الخليفة أو السلطان وهو عكس الروايات التاريخية التي قد تكون عرضة للتغيير والتحريف، والإضافة والحذف، فقد تحرف عندما يأخذ أحد النساخ بنقلها دون أن يعيرها الإهتمام اللازم، نقرأ مثلا في كتاب (روضة النسرين لابن الأحمر ص 20 من لقب السلطان أبي يوسف يعقوب المريني، كان : (يكني أبا يوسف ... لقبه القائم بأمر الله، المنصور به، وتلقب في أول أمره المؤيد بالله).

ولكننا بالرجوع إلى نقوده التي تعد وثائق رسمية معاصرة وجدنا في نقوشها ماينص على أنه تلقب بـ (أمير المسلمين ـ القائم بإعلاء دين الحق عبد الله يعقوب بن عبد الحق).

فلو كانت الألقاب التي ذكرها المؤرخ وغيره صحيحة لما كان السلطان المريني في حل من اثباتها على سكته التي تعتبر شارة من شارات الحكم وسيادة الدولة.

ومما يدحض ويفند هذه الرواية من أساسها عدم واقعيتها إذ أن لقب (القائم بأمر الله) هو من الألقاب الدينية التي أطلقت على مهدي الموحدين بن تومرت. إذن فمن غير المعقول أن يختار مؤسس الدولة المرينية نفس الألقاب التي استعملها الموحدون لاسيما وأن ثورة المرينيين التي قادها هذا السلطان تهدف أولا إلى القضاء على حكم الموحدين وإزالة مبادئ زعيمهم الروحي.

وفي هذا المثال السابق لدليل على الفوائد التي تؤديها المسكوكات في تحقيق المصادر التاريخية وإذا كانت الكتابات المنقوشة على المسكوكات تفيد في تحقيق المعلومات التي نستخلصها من دراسة المصادر التاريخية والزدبية فهي كثيرًا ماتقوم

مقامها، فستكون المستند الوحيد الذي يمكن الإعتماد عليه في تمحيص قضية معينة من قضايا التاريخ الإسلامي بالمغرب.

وأنّ أبسط فائدة يمكن أن نذكرها لكتابات المسكوكات هي أنها تبيّن لنا بالضبط والدقة تاريخ التحفة التي نقشت عليها والمكان الذي صنعت فيه.

ويتبيّن مما تقدم، أنّ المسكوكات المغربية الأندلسية، تعد من بين المواضيع الأثرية المتميزة في حضارة بلاد المغرب الإسلامي فهي تساعد على استجلاء ماأهمله المؤرخون سهوا أو عمدا وتكشف النقاب عن جوانب مختلفة من تاريخ الدول ونظمها السياسية والإقتصادية واتجاهاتها الدينية والفنية والتي مازلنا نجهل عنها الكثير، هذا علاوة على ماتسلطه من أضواء كاشفة على دراسة تاريخ الخط العربي وتطوّره الفني، ومعرفة أنواعه وطرزه وأساليبه ومدارسه إضافة إلى مانستخلصه من حقائق هامة حول تطوّر الأسلوب الفني لعناصر الزخرفة وتباين مفهوم الملك عند حكام هذه الدول التي تعاقبت على حكم بلاد المغرب في العصر الإسلامي.

أما من حيث الصعوبات فإني لم أكن أقدّر في بداية تعاملي مع هذا البحث العوائق والمثبطات التي واجهتني فقد اقتحمت مجاهله مندفعا تحدوني الرغبتان والآنفتان لكن ما إن سرت أبحث في مصادر مادته حتى تعاونت عليّ الصعاب وتكاثرت وخلقت كدرا في نفسي محاولة كسر الطريق الذي خضته، وإرغامي على الإستسلام ومن ثمة الأحجام.

لقد عانيت وأنا في بداية هذا العمل من قلة المصادر والمراجع المتخصصة لكنني رغم هذه المثبطات ـ واصلت بعون الله وهدايته بحثي فطويت كثيرا من صعوباته بفضل العزيمة والكدّ والبحث الدائمين.

كما واجهتني أثناء قيامي بالبحث صعوبة تحديد الإطارين المكاني والزماني للدول التي قمت بدراسة نقودها في المغرب والأندلس، فهي كثيرة جدا فهناك الهوديون والنصريون والموحدون والحفصيون والمرينيون، كما أن الفترة الزمنية التي

حددتها للبحث كانت طويلة نسبيا (524 ـ 796 هـ) أي قرابة ثلاثة قرون فكان لابد لي من دراسة جميع النقود التي وصلتنا من هذه الدول والتي بلغ عددها أكثر من إثني عشر ألف قطعة نقدية موزعة بين المتاحف الوطنية والمغاربية، ولم أقف عندها فحسب بل تجاوزتها إلى ماهو محفوظ خارج الوطن، متنقلا بين المتاحف العالمية كاللفر بباريس والمتحف البريطاني بلندن ومتحف اسطانبول بتركيا ومتحف الآثار بالرباط بالمملكة المغربية ومتحف العملة وباردو بتونس، والمكتبات متحملا عناء السفر الطويل تارة والقريب تارة أخرى.

ومن بين الصعوبات التي واجهتني كذلك خلال إنجازي لهذا العمل العلمي ماقوبلت به من طرف بعض المسؤولين والموظفين في الوكالة الوطنية للآثار وبعض المتاحف، حيث منعت من دراسة وتصوير بعض المجموعات النقدية الموجودة بها.

علاوة على الجهد الكبير الذي بذلته في إنجاز هذه الرسالة، فقد كلفتني أعباء مادية ثقيلة.

أما ما يخص جانب الإشكالية في الرسالة، فلقد انطلقت في الموضوع مع ظهور الموحدين في المغرب الإسلامي والأندلس على حد سواء في مستهل القرن السادس الهجري، النبي عشر الميلادي وما ارتبط بهم من إنقلاب جذري في المفاهيم والأفكار، وكان ذلك ثمرة لجهود زعيمهم الروحي محمد بن تومرت وحركته الإصلاحية التي شملت ميادين مختلفة من حياة المجتمع المغربي. وتجلت آثارها في النواحي السياسية والإقاصادية والمذهبية والثقافية ولكنها تجلت بوضوح في نظام السكة بنوعيها الفضي والذهبي.

وغني عن البيان، أن الموحدين عندما تعلقوا بفكرة التوحيد والدعوة إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إنما كانوا يهدفون من ورائها إلى تحقيق نظام سياسي جديد موحد يكفل لهم البقاء والإستمرار، فظهرت السكة بشكلها وتصميمها الهندسي الجديد كبديل عن المسكوكات التي ساد التعامل بها أيام المرابطين والحماديين والزيريين، مخالفة لها شكلا وموضوعا وإذا كانت السكة عموما

Créé avec
nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

ترتبط بالإتجاهات السياسية والإقتصادية والمذهبية التي تواكب ظهور دولة من الدول في أي زمان ومكان، فإن الحقائق الثلاثة السابقة، تنطبق تمام الإنطباق على دولة الموحدين، التي تمثل طفرة تاريخية لم يسبق لها في تاريخ المغرب الإسلامي.

ومن هنا تبرز إشكالية بحث المسكوكات الموحدية على أساس أنها طراز جديد فريد في عالم المسكوكات الإسلامية عامة.

فإذا كانت النصوص الكتابية التي حملتها المسكوكات الموحدية لها علاقة بالعقيدة فهي تمثل أشياء جديدة وتتخذ في نفس الوقت بعض النماذج الخطية التي قد تجد صعوبة في قراءتها وفهمها، ومن ذلك مثلا استبدال الخط الكوفي بالنسخي فجأة.

والمشكل الآخر الذي تثيره دراسة المسكوكات المغربية في هذه الحقبة التاريخية، خلوها من تاريخ الضرب وفي أحيان كثيرة من مكان الضرب أيضا. فالصعوبة إذن تكمن في تحديد الزمان والمكان التي ظهرت فيه ؟ وحتى عندما يسجلون مكان الضرب، فيصعب الإهتداء إليه لأول وهلة، فقد يسجل أسفل كتابة مركز الوجه والظهر بحروف دقيقة جدا.

ومن بين الإشكاليات التي تطرحها دراسة هذه المسكوكات مانقش عليها من عبارات ونصوص التي غالبا نيتند إليها في تصنيفها وتقرير الفترة التي وجدت فيها. فهناك آلاف القطع مجردة من أسماء أصحابها، كما أن هناك نقودا تحمل إسمين أو ثلاثة لأولياء العهد وهم بطبيعة الحال يختلفون في الترتيب الزمني بحيث يتعذّر علينا معرفة مَنْ مِنْ هؤلاء الثلاثة كان يتولى الأمر، وهذه الظاهرة أدت إلى وقوع بعض الباحثين الأجانب والعرب في تأويلات خاطئة.

ورغم صعوبة هذا المشكل، فقد اهتدينا إلى معرفة صاحب النقد من دراسة اسمه وكنيته وألقابه، ذلك أن صاحب النقد الحقيقي يعرف من كنيته ولقبه مع عبارة (ابن أمير المؤمنين) التي تعتبر القرينة المعتمدة في ترتيب الأمير ضمن سلسلة حكام الدولة، ومن ثم تحديد الفترة الزمنية التي حكم فيها ذلك الشخص !

Créé avec nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

وكانت هذه الظاهرة التي طبعن نقود الموحدين مثار نقاش بين علماء النميّات، الذين يرون صعوبة وضع ثبت مرتب ترتيبا بأسماء الخلفاء والحكام ذلك لأن عدد الأسماء قد يصل إلى ثمانية أو عشرة أشخاص على النقد الواحد.

ويمكن الرد على هذا الزعم بأن الخليفة أو الأمير، لابد وأن يتخذ لنفسه لقبا يميّزه عن غيره ولم يحدث إطلاقا وهذا في ضوء التاريخ السياسي للموحدين، أن اتخذ أحد منهم لقبا واحدا متشابها مع أسلافه، عدا اللقب الخليفي (أمير المؤمنين).

ومن بين الإشكاليات التي تعترض الباحث في المسكوكات الموحدية مسألة تاريخ النقود الفضية ومن هو أول من سك النقود في تاريخ الخلافة الموحدية.

أما عن المنهج الذي اتبعته في هذا البحث فيقوم على محورين رئيسيين :

1 ـ محور نظري يأخذ في الإعتبار الجانب التاريخي والمنهج التحليلي المقارن لموضوعات السكة وربطها بمسائل التاريخ والآثار إنطلاقا من القطعة النقدية التي تعد مصدرا أصيلا لدراسة الأسماء والألقاب وتطور المفاهيم والإتجاهات السياسية والذهبية، وتحديد طرز الخط المستعمل وطريقة الصناعة، وعدد القطع المدروسة وأماكن حفظها والتركيز على الجداول والبيانات الخاصة بالأبجدية والعناصر الزخرفية.

2 ـ محور تطبيقي ميداني مخبري يأخذ في الإعتبار دراسة النقوذ في أماكن حفظها من ناحية الشكل والمقاسات والأوزان والتحليل الكيميائي لمعرفة نقاوة الذهب في القطعة النقدية وتسجيل كل مايتعلق بالناحية الفنية وتفكيك كتاباتها.

أما مضمون الرسالة فقد قسمته إلى خمسة أقسام ومقدمة، احتوت المقدمة على دوافع اختيار الموضوع والصعوبات التي واجهها الباحث.

يشمل القسم الأول (دراسة المسكوكات الفضية الموحدية) وتوزعت مواد الدراسة فيه على مدخل خمسة فصول، مهدت له بمدخل، تحدثت فيه عن ظهور

الموحدين وأصلهم ومناقشة ظهور السكة الفضية وأصناف الدراهم، والكنز الفضي المكتشف بتلمسان ومجموعة الجزائر والأرشيف الوطني ثم تطرقت إلى الخصائص العامة للدراهم المربعة ثم دراهم الأمراء المستقلين بالأندلس.

أما الفصل الأول من القسم الأول، فتناولت فيه، المسكوكات الفضية الموحدية المبكرة، أوضحت فيه مسألة تربيع الدراهم، ثم الدراهم المؤمنية التي تتألف من ثلاثة أنواع، فالدراهم المربعة وختمته بدليل النقود المصورة باللوحات.

بينما الفصل الثني، فقد خصصته لدراسة سكة المغرب الأقصى مبينا فيه طرز الدراهم حسب أماكن ضربها وإلغاء رسوم المهدي وتدوير الدراهم مع التركيز على دراهم الخليفة المأمون.

ويختص الفصل الثالث، بدراسة سكة المغربيين الأوسط والأدنى وقد ضمنته دراسة شاملة لمراكز سك النقود في هاتين المنطقتين، ووقفت طويلا عند نقود مدينتي الجزائر وقسنطينة.

أما الفصل الرابع، فتناولت فيه دراسة سكة الأندلس في عهد الموحدين مع ذكر الخصائص والمميزات الفنية التي انفردت بها.

فقد احتوى الفصل الخامس، على دراسة مفصلة لمسكوكات الثوار الفضية في الأندلس في عصر الموحدين، وقدمت له بتمهيد تاريخي تحدثت فيه عن زسباب ودوافع هذه الثورات، وأعقبته بدراسة دراهم بني هود المستديرة والمربعة، ودراهم بني نصر ملوك غرناطة وختمت هذا الفصل بدليل المسكوكات المدروسة.

القسم الثاني (المسكوكات الذهبية الموحدية) فيحتوي على مدخل وسبعة فصول، فالمدخل دراسة تمهيدية حول السكة وخصائصها وما أثارته دراستها من إشكاليات بين الباحثين والمهتمين وعلماء النميّات.

الفصل الأول من القسم الثاني، خصصته لدراسة السكة الذهبية المؤمنية وناقشت فيه الدينار ونصف الدينار ودور السكة والظاهرة الخطية والزخرفية ثم مسألة التاريخ، وانهيته بدراسة تحليلية للكنى والألقاب.

Créé avec
nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

أما الفصل الثاني، فشمل دراسة دنانير أبي عبد الله محمد بن عبد الله محمد بن عبد المؤمن، وتحدثت فيه عن إشكالية الدراسة للأخطاء التي وقع فيها علماء النميات، هذا فضلا عن خصائص نقود هذا الأمير ثم دليل الدراسة التحليلية وجدول يبين مقاسات وأوزان نقوده.

والفصل الثالث، أفردته للسكة الذهبية اليعقوبية وضحت فيه تنميط دنانيره وتزوير النقود ثم دراسة الكنى والألقاب مع دليل الدراسة التحليلية.

بينما تضمن الفصل الرابع دراسة تحليلية مفصلة للسكة الذهبية على عهد أبي يوسف يعقوب المنصور وأبي عبد الله محمد الناصر. وختمته بدليل الدراسة التحليلية للنقود المصوّرة.

أما الفصل الخامس، فناقشت فيه طيعة السكة أيام يوسف الثاني وإدريس المأمون ويحي بن محمد الناصر، إحتوى الفصل السادس على دراسة السكة الذهبية على عهد الواحد الرشيد وعلي بن إدريس المأمون المعتضد بالله.

وأخيرا خصّصت الفصل السابع للسكة الذهبية على عهد أبي حفص عمر المرتضى لأمر الله وأبي دبوس إدريس الواثق بالله.

القسم الثالث : (المسكوكات الذهبية الحفصية) ويتألف من ثلاثة فصول :

الفصل الأول يهتم بدراسة مفصلة لدنانير أبو زكريا يحي مؤسس الدولة الحفصية، واحتوى على تمهيد تاريخي تعرضت فيه لأصل الحفصيين وظهورهم على مسرح التاريخ، واتبعته بمناقشة دنانير المرحلة الأولى والثانية وفصلت الكلام عن الظاهرة الخطية والزخرفية، وتعدد مدن الضرب، وعلاقة السكة بالتاريخ.

الفصل الثاني من القسم الثالث، خصصته أيضا لدراسة دنانير أبي عبد الله محمد المستنصر بالله ومهدت له بتقديم تاريخي، ثم تناولت دراسة تنميطية لأنواع دنانيره رابطا كل ذلك بالتاريخ ولم أغفل أهمية أجزاء الدنانير، والنقود النحاسية ومدن الضرب والكنى والألقاب.

وكان الفصل الثالث دراسة تحليلية عن تطوّر المسكوكات الحفصية خلال القرنين السابع والثامن الهجريين، وتعرضت لمناقشة دنانير كل من السلاطين : أبي إسحاق ابراهيم بن أبي زكريا وأبي حفص عمر المستنصر بالله وأبي زكريا المنتخب لإحياء دين الله وأبي عبد الله محمد الثاني وأبي يحي أبي بكر المتوكل على الله وأخيرا أبو إسحاق ابراهيم المستنصر بالله.

أما القسم الرابع فضم (المسكوكات الذهبية المرينية) موزعة على خمسة فصول.

الفصل الأول (دراسة عامة حول المسكوكات المرينية) واستهلته بلمحة تاريخية عن أصل المرينيين وظهورهم كحركة ثورية ضد الموحدين، وتأسيس دولتهم بالإضافة إلى التعريف بسكتهم وأهمية دراستها، مع الإشارة إلى اهتمام الباحثين العرب بها، وأخيرا مسألة ظهور السكة الذهبية وتطوّر موضوعاتها.

الفصل الثاني من القسم الرابع فكان دراسة مفصلة للمسكوكات الذهبية المرينية على أبي عنان فارس المتوكل على الله، واشتملت هذه الدراسة على النقاط التالية : تمهيد تاريخي، الدراسة العامة التي تعني بأنواع الدنانير المضروبة في عهده، وإشكالية دراستها، ثم نقود الصلة فمدن الضرب والظاهرة الخطية والزخرفية وختمته بدليل الدراسة التحليلية لنقوده المصوّرة.

أما الفصل الثالث فيفرد بدراسة السكة على عهد أبي العباس أحمد وعبد الرحمن أبي يفلوسن.

بينما الفصل الرابع فقد تناولت فيه المسكوكات المجهولة والتي نسبت لغير أصحابها وحاولت إعادة تصنيفها ونسبتها إلى أصحابها طبقا للمعطيات التاريخية والأثرية كما ناقشت آراء المستشرقين بهذا الخصوص محاولا الردّ عليها وتفنيدها بالأدلة التاريخية.

بينما انفرد الفصل الخامس، بالدراسة الوصفية لمدن الضرب المغربية والأندلسية منذعها الموحدين مستمدا الحديث عنها من المصادر التاريخية والبلدانية وما ورد

nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

بخصوصها في السكة والآثار وتوضيحا للتوزيع الجغرافي لهذه المدن ألحقت بهذا الفصل خارطتين وأحصيت حوالي ثلاثا وثلاثين دارا للضرب.

وأخيرا يختص القسم الخامس من هذا البحث بالدراسة الفنية التحليلية للخطوط والعناصر الزخرفية على المسكوكات الموحدية.

وتطلبت مواد الدراسة فيه ستة فصول، تناولت في الفصل الأول (نشأة الخط العربي وتطوّره) وفيه ناقشت نظريات العربي في نشأة خطهم والنقوش العربية المبكرة ثم انتشار الكتابة العربية وأنواعها في صدر الإسلام وتطوّر الخط العربي إلى فرعين كبيرين ثم أنهيته بأنواع الخط العربي والمغربي.

الفصل الثالث من القسم الخامس، فهو دراسة تطبيقية عن تطوّر الخطين الكوفي والنسخي وأساليبهما على المسكوكات الفضية الموحدية والهودية والنصرية، وسلطت الأضواء فيه على أهمية الكتابة المغربية، وأسلوب الخط الكوفي كما يتراءئ لنا من كتابات النقود الفضية وانهيت الفصل بدراسة مقارنة بين الخطين موضحا ذلك بالجداول.

الفصل الرابع، عالجت فيه ظاهرة الخط النسخ وتطوّره على المسكوكات الذهبية الموحدية ـ الحفصية ـ المرينية، على حين تناولت في الفصل الخامس جمالية الخط العربي على المسكوكات المغربية (الموحدية ـ النصرية والحفصية والمرينية) وتوزعت مواد الدراسة فيه على مقاييس ومعايير الخط، طبيعة الخط العربي وقابليته للتمطيط والتشكيل، ثم الموازنة بين الخط واللفظ.

الفصل السادس فق خصصته للدراسة التحليلية للعناصر الزخرفية الهندسية والنباتية والفلكية وتطور استعمالها على المسكوكات الموحدية، وقد أنهيت البحث بخاتمة (نتائج البحث) أوضحت فيها ماتوصلت إليه من نتائج هي عبارة عن حقائق مستخلصة من السكة نفسها.

وتتمة لهذه الدراسة فقد ألحقت بها ثبتا بالمصطلحات المستعملة من واقع السكة، مع جداول توضح تطوّر استعمال الآيات القرآنية والعبارات الدينية أعقبتها

بثبت المصادر والمراجع العربية والأجنبية ثم الفهارس العامة والخاصة بالأعلام والقبائل والشعوب والفنون والأمكنة تليها مبارة فهرس الأشكال واللوحات ثم ملحق الأشكال واللوحات والجداول الواردة في هذه الرسالة.

لعلي أكون بهذه الدراسة قد وفقت في توضيح الدور الهام الذي لعبته المسكوكات المغربية في حضارة بلاد المغرب، وأهميتها كوثائق مادية تساعد على تحقيق التاريخ وتصحح أو تنفي ماورد في المصادر التاريخية.

فقد استطعت من دراستي للمسكوكات المغربية استخلاص نتائج وحقائق تاريخية صححت الكثير من الأخطاء التي وقع فيها المؤرخون سهوا أو عمدا كما كشفت لأول مرة عن ذكر اسم مدينتي الجزائر وقسنطينة على المسكوكات المغربية منذ الفتح الإسلامي وحتى مجيئ العثمانيين، ومن نتائج البحث نذكر مايلي :

1 ـ إن قوة الدولة الموحدية ونظمها تتجلى في مسكوكاتها التي برهنت على الوحدة السياسية والإقتصادية والمذهبية والثقافية، فقد اتخذت السياسة الموحدية من هذه الوثائق وسائل لنشر حركة التعريب بين رعياها، وتركت آثارها واضحة جلية بعد زوالها في جميع المجالات وتبنتها الدول التي أعقبتها كنظام نقدي لم تغير من شكلها أو عبارتها إلا القليل.

2 ـ كشفت عن ظهور لقب أمير المؤمنين عند بني مرين لأول مرة في عهد أبي الربيع سليمان.

3 ـ وضعت هذه الدراسة حداً للجدل القائم بين الباحثين فيما يخص اسم أبي عنان وألقابه.

4 ـ صححت الكثير من الأخطاء التي وقع فيها المستشرقون والمستغربون حول نسبة النقود لغير أصحابها وتفنيد النظريات التي ظلت زمنا طويلا تسيطر على الدراسات الحضارية كمنهج علمي.

5 ـ صححت مسألة الوجه والظهر في السكة الإسلامية عامة والمغربية على الخصوص.

Créé avec nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

علاقات الجزائر السياسية مع تونس في عهد الدايات

1082 - 1246 هـ / 1671 - 1830 م*

د. عمر بن خروف

لقد كان بودي أن أدرس مجموع العلاقات بين الجزائر وتونس، السياسية، والإقتصادية، والإجتماعية والثقافية، ولكن لما كان البحث بعمق في مجموع تلك العلاقات أمرا غير متيسر في رسالة واحدة، فقد اقتصرت على بحث نوع واحد منها في هذه الرسالة هو العلاقات السياسية، وفي فترة حكم الدايات في الجزائر فقط، على أمل البحث في العلاقات الأخرى، والفترات الأخرى، في أبحاث أخرى.

ويعود إختياري البدء بالبحث في العلاقات السياسية قبل غيرها، وفي فترة حكم الدايات في الجزائر بالذات إلى جملة من الدواعي :

ـ أولها : أن اهتمام الباحث بالتاريخ السياسي للجزائر وتونس والعلاقات السياسية بينهما طالبا ثم مدرسا كان أكثر من اهتمامه بأنواع التاريخ، والعلاقات الأخرى.

ـ ثانيها : أن الأبحاث في العلاقات السياسية بين البلدين قليلة باللغة العربية وحتى باللغات الأجنبية، والقليل الموجود منها لايشمل كل الفترة المراد بحثها، مما يجعل البحث فيها على مدى يزيد عن قرن ونصف مساهمة لاشك فيها ستسد نقصا قائما، ولو جزئيا في إنتظار البحث في بقية العلاقات، وبقية الفترات.

---

* أطروحة دكتوراه دولة في التاريخ الحديث، نوقشت بجامعة دمشق بتاريخ 5 / 2 / 1996 ومن طرف لجنة مؤلفة من أ.د. محمد خير فارس. أ.د. ليلى الصباغ. أ.د. محمود عامر أ.د. يوسف نعيسة. أ.د. نجاح محمد ونالت تقدير والإمتياز.

ـ ثالثها : أن الباحث، وجد خلال دراسته السابقة لاختيار الموضوع أن علاقات سياسية قوية، ونشيطة كانت دوما قائمة بين الجزائر وتونس وخاصة في عهد دايات الجزائر، ومعاصريهم من بايات تونس حيث كانت تشهد تقلبات تكاد تكون من داي إلى آخر، ومن باي إلى آخر، فاستهواه البحث في العلاقات بين البلدين في عهدهم للكشف عن تلك التقلبات، والوقوف على أسبابها ونتائجها.

ـ رابعها : أن الباحث وجد أيضا أن العلاقات السياسية بين الجزائر وتونس لم تكن في الواقع ذات طابع محلي، وإنما علاقات متشابكة مع العلاقات الدولية، والقوى المجاورة، وغير المجاورة للبلدين، مما قوي الرغبة لديه في البحث فيها، للوقوف على تشابك تلك العلاقات، مع العلاقات الدولية، وعلى تأثير العوامل الخارجية فضلا عن الداخلية فيها.

وفي ضوء دراستي للعلاقات السياسية بين الجزائر وتونس في عهد الدايات رأيت تقسيم الموضوع إلى مقدمة، وتمهيد، وثمانية أبواب في صميم الموضوع، وخاتمة، وملاحق، وفهارس.

فأما المقدمة فقد خصصتها لبيان أهمية الموضوع المراد بحثه وطرافته، ومخطط تناوله، والصعوبات التي اعترضتني في معالجته، وقد اشفعتها بعرض مفصل لأهم الوثائق والمصادر، والمراجع التي اعتمدت عليها في دراسة الموضوع.

وأما التمهيد فعرضت فيه أهم العناصر التي كانت تؤثر في العلاقات بين البلدين قبل سنة 1671، والتي ظلت تؤثر فيها أيضا بعد ذلك مثل قضية الحدود، وموقف القوى المحلية، القبلية والدينية، والقوى الخارجية الحليفة والمعادية، وغير ذلك.

وأما الأبواب الثمانية التي تشكل متن الرسالة، فإن كل باب يمثل طورا من الأطوار التي عرفتها العلاقات السياسية من سلام أو حرب أو تبعية، أوتحرر منها، أوتحالف، أو تنازع...

وقد حرصت على أن يشتمل كل باب على لمحة مختصرة عن الحياة السياسية في البلدين في الفترة التي يتناولها كل باب. والقصد من وراء ذلك هو التعرف

Créé avec nitro PDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

على القابضين على السلطة في الجزائر، وتونس، وعلى الإطار المحلي، والدولي الذي كانوا يتحركون ويتخذون فيه قراراتهم المؤثرة على العلاقات بين البلدين في الحقبة التي يتناولها كل باب ونظرا لكثرة الفصول في الرسالة (41)، وقصر الوقت الممنوح لتلخيصها فأكتفي بإعطاء مجمل عن محتوى كل باب مع ذكر عدد فصوله.

فالباب الأول المؤلف من ستة فصول، تناول بالبحث العلاقات بين البلدين في الفترة 1671 ـ 1695، التي تميزت بالتدخلات الجزائرية العديدة في تونس لأغراض مختلفة، كان أولها في سنة 1680 للتوفيق بين الأخوين محمد وعلي ابن مراد الثاني، والمصالحة بينهما وإعادة الإستقرار فيها. أما ثانيهما فكان في سنة 1684 لمساعدة الأخوين محمد، وعلي ضد الداي شلبي. وكان رابعها في سنة 1694 لتنصيب ابن شكر، بايا على تونس بدل الباي محمد المرادي.

والذي يستخلص من دراسة تفاصيل العلاقات في هذه الحقبة هو :

1 ـ أن الجزائر دشنت عهدا جديدا من التعامل مع جارتها تونس وهو عهد التدخل المباشر في شؤونها العليا، بعد أن توقفت عن ذلك قرنا كاملا أي منذ أن أصبحت تونس باشوية عثمانية في سنة 1574.

2 ـ أن النتائج التي كانت تحققها تلك التدخلات كانت ظرفية سريعة الزوال، مما كان يستدعي التدخل من جديد.

3 ـ أن التدخلات الجزائرية في تونس، قد ساهمت في عدم الإستقرار فيها بعد أن صارت تستهدف نصرة هذا أو ذاك من المراديين، وغيرهم لا إصلاح ذات البين بينهم.

أما الباب الثاني المؤلف أيضا من ستة فصول فدرس أسباب التقلب الذي عرفته العلاقات في الفترة 1695 ـ 1705 من حالة السلام في عهد الداي أحمد (1695 ـ 1697)، ومعاصريه : الباي محمد، والباي رمضان، إلى حالة العداء والحرب في أغلب سنوات الدايين حسن ومصطفى ومعاصريهما الباي مراد الثالث، والباي ابراهيم الشريف والباي حسين بن علي. كما درست تفاصيل الحملات المتبادلة، ونتائجها ومن أهمها :

1 ـ سقوط الأسرة المرادية من الحكم، وزوالها نهائيا من المسرح السياسي في تونس بمقتل الباي مراد الثالث في 1702 على يد ابراهيم الشريف. ووقوع هذا الأخير في قبضة الجزائريين في حملتهم عليه في سنة 1705.، وبروز نجم الباي الحسين بن علي مؤسس الأسرة الحسينية في تونس في تلك السنة.

2 ـ سقوط الداي حسين شاوش من الحكم في الجزائر في سنة 1700 ومقتل الداي مصطفى بعد عودته مدحورا من تونس في 1705.

3 ـ تعب البلدين من حالة الحرب مما جعلهما يميلان إلى السلم في الفترة الموالية، وهو موضوع بحث الباب الثالث.

فالباب الثالث هو الذي درس العلاقات بين البلدين في الفترة 1706 ـ 1732، التي مال فيها دايات الجزائر، وباي تونس إلى السلم، وحسن الجوار، رغم القضايا التي كانت تطرأ، والتي كان يمكن أن تدفع بالعلاقات نحو الحرب من جديد لو لم تعالج برزانة من الجانبين، مثل قضية الأسرى الجنويين وقضية ايواء الجزائر للمناوئين للباي الحسين بن علي، وفي مقدمتهم علي باشا، ابن أخيه وغير ذلك من القضايا التي وقع التطرق إليها في فصول هذا الباب الخمسة ويستخلص منها :

1 ـ أن دايات الجزائر في الفترة موضوع البحث في هذا الباب كان لهم مايشغلهم في الجزائر كالعمل على تحرير وهران، وعلى مواجهة الثورات الداخلية، والكوارث الطبيعية، فمالوا إلى السلام، وحسن الجوار مع جارهم الباي حسين بن علي الذي وجد هو الآخر في السلام مع الجزائر ضرورة لتحسين الأوضاع الإقتصادية، والإجتماعية التي تردت في تونس نتيجة السياسة الداخلية المتعسفة التي اتبعها من تقدمه كابراهيم الشريف، ومراد الثالث، تلك السياسة التي أساءت إلى البلاد، والعباد كثيرا، فمال هو الآخر إلى السلم مع جيرانه، وإلى عدم تصعيد الخلافات معهم بحيث يؤول الأمر إلى حرب بينه، وبينهم.

2 ـ أنّ العلاقات بين حكام البلدين لم ترق إلى التعاون للتغلب على الصعوبات التي واجهتهم، كالأزمة المالية في الجزائر، والنزاع بين الباي حسين، وابن

Créé avec
nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

أخيه علي باشا، وغير ذلك.

3 ـ أنّ قيام السلام بين البلدين، واستمراره مدة تزيد عن ربع قرن، سمح لحكام البلدين بتحقيق بعض المنجزات فيهما، من أهمها : تحرير الجزائريين لوهران في سنة 1708 من الإحتلال الإسباني، وتحقيق الباي حسين انتعاشا اقتصاديا ملحوظا في تونس.

وأما الباب الرابع المؤلف من خمسة فصول أيضا فتناول بالبحث العلاقات في الفترة 1732 ـ 1748. وهي الفترة التي تميزت عن سابقتيها باستئناف الجزائر لتدخلاتها في تونس بعد توقف عن ذلك دام أكثر من ربع قرن، أولا ضد الباي حسين ابن علي، ثم ضد ابن أخيه علي باشا.

وقد درست فصول الباب الخمسة الأسباب التي جعلت الجزائر تتدخل من جديد في تونس، لتنحيه الباي حسين، وتنصيب علي باشا، ومن أهمها :

ـ عدم تعاون الباي حسين معها على استرداد وهران من الإسبان الذين تمكنوا من احتلالها من جديد في سنة 1732، واقدامه على وقف ماكان يدفعه من مال إلى الجزائر لقاء الابقاء على علي باشا في الإقامة الجبرية فيها.

كما بحثت فيما كان يعكر صفو العلاقات بين الجزائر، وعلي باشا ومن أهمها ميلها إلى العطف على ابناء الحسين بن علي الذين لجؤوا إلى الجزائر لطلب مساعدتها لاسترداد ملك والدهم من علي باشا، كلما نقمت أمرا من الأمور عليه.

واستعرضت الحملات التي حركتها الجزائر في اتجاه تونس ولاسيما حملة 1735 التي أطاحت بحكم الباي حسين في تلك السنة، وحملة 1746 التي باءت بالفشل في بلدة الكاف، التي كانت تستهدف الإطاحة بعلي باشا وتمكين أبناء الحسين من الحكم في تونس بدله

وأما الباب الخامس المؤلف من ستة فصول فتناول بالبحث العلاقات بين البلدين في الفترة 1728 ـ 1756 التي تميزت بالسلام طوال عهد الداي محمد بن

بكير 1748 ـ 1754 مع توفر الأسباب التي كان يمكن أن تؤدي إلى القطيعة والحرب، وهي واردة في الفصل الثالث، ويرجع ذلك إلى أن الداي محمد كان همه تحرير وهران قبل الإلتفات إلى تونس. وقد كان يقول لمن يكلمه من رجاله في إعادة الكرة عليها «اذهبوا إلى وهران التي لم تحسنوا الدفاع عنها ضد النصارى. إنّ كل ماأطلبه هو السلام بين البلدين» ولكن الأمر اختلف لما آل الحكم بعده إلى الداي علي بوصبع في نهاية 1754، فقد مالت العلاقات في عهده بسرعة إلى القطيعة والحرب لأسباب عديدة وردت في الفصل الرابع من الباب، وأهمها :

1 ـ عدم إستجابة الباي لطلب الجزائر إعادة القبيلة الجزائرية التي انتقلت إلى تونس فرارا من أداء الضريبة في عهد الداي محمد بن بكير، ورفضه أيضا تقديم تعويضات عن الخسائر التي لحقت خزينة الجزائر من جراء ذلك الإنتقال.

2 ـ رغبة الداي علي بوصبع في استبدال علي باشا الذي بات غير مطواع لإرادة الجزائر بقريبه محمد بن حسين بن علي، الذي كان على استعداد للقبول بكل شروط الجزائر في مقابل تمكينه من الملك في تونس.

ويبحث الفصل الخامس في تفاصيل الحملة الجزائرية التي توجهت في 1756 رفقة الأخوين محمد وعلي ابني الحسين بن علي. أما الفصل السادس فبحث في نتائج تلك الحملة ومن أهمها :

ـ النجاح في الدخول إلى الكاف ثم مدينة تونس، والقضاء على علي باشا وابنه، وتنصيب محمد بن الحسين بايا فيها، وتقييده بشروط من أهمها : دفع الضريبة (الهدية السنوية) للجزائر، ،هدم التحصينات التونسية في الحدود، ولاسيما في الكاف بوابة تونس، ودفع تكاليف الحملة الجزائرية وعودة الجزائريين من تونس بغنائم وفيرة.

وأما الباب السادس فتناول بالبحث العلاقات بين البلدين في الفترة 1756 ـ 1805، التي كانت فيها تونس تحت هيمنة الجزائر.

وقد تركز البحث في الفصول الستة الخاصة بالعلاقات في هذا الباب على مدى

Créé avec nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

التزام بايات تونس، وتقيدهم في تلك الفترة بالشروط المفروضة عليهم، وعلى مدى استجابتهم لرغبات دايات الجزائر، وإرادتهم. ومدى تحملهم لمعاملة هؤلاء لهم، وعلى القضايا التي كانت تطرأ من حين إلى آخر، وعلى الجهود المتسترة التي كان يقوم بها بايات تونس، ولاسيما حمودة باشا منهم استعدادا لإزاحة نفوذ الجزائر عنهم، والتحرر من كلّ تبعية أو التزام نحوها.

والذي يستخلص من دراسة العلاقات في هذه الفترة هو :

1 ـ تميزها بالسلام، وحسن الجوار طوال خمسين سنة، لأن البايات الحسينيين الثلاثة، محمد، وعلي، وحمودة، كانوا يتقيدون بالشروط التي فرضتها الجزائر على أولهم في سنة 1756، وأظهروا فوق ذلك تحملا كبيرا لما كان يطلب منهم مهما كان مذلا ومحرجا لهم، كبيع الحيوانات لفائدة حكام الجزائر في تونس، وأبدوا أيضا تحملا كبيرا لتدخلاتهم في شؤونهم الداخلية، والخارجية، ولتصرفات بعض الجزائريين في تونس، وبعض مبعوثيهم إليها، مهما كانت جائرة، وغير لائقة.

2 ـ أن العلاقات السلمية بين البلدين، سمحت لتونس بأن تحقق انتعاشا في مختلف جوانب الحياة ولاسيما الإقتصادية، مما مكنها من توفير موارد للأنفاق بسخاء على المجالات العلمية في عهد الباي علي، والعسكرية في عهد الباي حمودة باشا.

3 ـ أنّ هيمنة الجزائر على تونس مكنتها من الحصول على موارد متزايدة في شكل هدايا من زيت ومال، وشواشي، وتحف، وغير ذلك ومن فتح أسواق تونس في وجه الصادرات الجزائرية على نطاق واسع.

وأما الباب السابع المؤلف من خمسة فصول فهو الباب الذي خصص للبحث في العلاقات بين البلدين في الفترة 1805 ـ 1815 التي مالت فيها تونس إلى التحرر من نفوذ الجزائر عليها، مما تسبب في توتر العلاقات بينهما، وميلها إلى القطيعة والحرب في عهد الدايين أحمد باشا، وعلي باشا. ومعاصرهما الباي حمودة باشا.

وقد بحث في فصول هذا الباب عن الأسباب التي أدت إلى القطيعة والحرب فوجد أنّ من أهمها :

- توقف حمودة باشا عن آداء ماكان يؤديه للجزائر من ضريبة (هدية)، وخدمات مع بداية عهد الداي أحمد.

- إصرار هذا الأخير على وجوب استمراره في أداء ذلك للجزائر، والحصول على مااستحق منه، وتأخر أداؤه لها.

- ترحيب حمودة باشا بمصطفى المجليز، باي قسنطينة المخلوع، وإقدامه على توجيه حملة لإحتلال حاضرة بايلك الشرق الجزائري لإعادة تنصيبه بايا فيها، تابعا له، وغير ذلك من الأسباب. كما بحث في فصول هذا الباب في تفاصيل الوقائع البرية والبحرية التي وقعت بين قوات البلدين في الفترة : 1807 - 1813، وفي النتائج المترتبة عن النجاح والفشل لكل طرف فيها، وفي المبادرات التي كانت تتلو أو تتخلل تلك الوقائع لإحلال السلم بين البلدين. والذي يستخلص من دراسة العلاقات في الحقبة موضوع البحث في هذا الباب هو :

1 - أن العداء والحرب هما اللذان غلبا عليها.

2 - أن الجزائر فشلت في إجبار تونس على الإستمرار في الرضوخ لشروطها، لفشل قواتها البرية والبحرية في تحقيق نصر حاسم على نظيراتها التونسية في سراط، والكاف، وحلق الوادي. ونجم عن ذلك تحرر تونس من نفوذها.

3 - أن تشبث الجزائر، واصرارها على قبول باي تونس من جديد لشروط عام 1756، كان عقبة في طريق التوصل إلى السلام بين البلدين، رغم نداءات السلطان العثماني المتكررة بوجوب التفاهم، والكف عن النزاع.

أما الباب الثاني والأخير فبحث في العلاقات بين البلدين في عهد الدايات الثلاثة الأواخر وهم : الداي عمر، والداي علي خوجة، والداي حسين، ومعاصريهم: الباي عثمان، والباي محمود، وابنه الباي حسين وذلك في الفترة

Créé avec nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

1814 - 1830، التي مالت فيها الجزائر تحت ضغط أوضاعها الداخلية المتردية، والأخطار الخارجية التي استهدفتها إلى القبول بالأمر الواقع في تونس، بدون شروط، فأبرم السلام بينها وبين تونس في سنة 1817 في عهد الداي علي خوجة ثم في سنة 1821 في عهد الداي حسين. غير أن السلام الذي قام بين البلدين، كان سلاما قلقا لانعدام الثقة التامة بين حكامهما، ركاد ينتكس بسبب تحيز الباي حسين إلى الجانب الفرنسي في النزاع الجزائري-الفرنسي الذي نشب في سنة 1827، وأدى إلى احتلال فرنسا للجزائر في 5 / 7 / 1830، القضاء على حكم الدايات فيها.

وقد كان الباي حسين يأمل في أن تؤول إليه الجزائر كلها، أو بعض بياليكها على الأقل، بعد الإطاحة بحكم الداي حسين في الجزائر، ولكن أمله خاب، وسعيه لم يكن مشكورا من عامة التونسيين، ولامحل رضاهم.

وقد بحثت الأمور التي أشير إليها، وغيرها بتوسع في هذا الباب ضمن فصوله الستة التي تؤلفه، والتي يستخلص منها :

1 - أنّ ميل الجزائر إلى السلام مع تونس في هذه الحقبة أملته عليها كما ذكر ظروفها الداخلية الصعبة، والأخطار الخارجية التي كانت عرضة لها.

2 - أنّ الباي محمود، وولده الحسين، لم يثقا تماما في نوايا دايات الجزائر، ولذلك لم يتعاونا معهم في محنهم، بل ارتضوها لهم لإضعاف شوكتهم.

3 - أنّ عدم التعاون بين البلدين سهل سقوط الجزائر، تحت الإحتلال الفرنسي. وكان سقوطها مقدمة لسقوط تونس أيضا تحت نفوذ نفس المحتل، ولو بعد حين.

وأما خاتمة البحث فتضمنت أهم النتائج، والإستنتاجات التي توصل إليها الباحث، وقد أشير إلى بعضها لدى استعراض محتوى كل باب، وأضيف إلى ذلك مايلي :

1 - أنّ العلاقات بين الجزائر وتونس حين كانت تميل خاصة إلى العداء، والحرب، لم تكن تعبر دائما عن إرادة السكان في البلدين، وإنما تعبر على الخصوص عن إرادة القابضين على السلطة فيهما، لأن مصلحة السكان في البلدين كانت في السلم بينهما، لا في الصراع والحرب. وقد قدموا أكثر من دليل، في أكثر

من مناسبة على ذلك، نذكر منها على سبيل المثال :

* تخلي التونسيين عن الباي ابراهيم الشريف، الذي كان في نظرهم بايا ظالما في حربه ضد الجزائر، مما جرّ الهزيمة عليه، والوقوع في أسر الجزائريين.

* أنّ السكان في البلدين، ولاسيما في مناطقهما الحدودية، كانوا لايتقيدون بكل قرارات الحكام في البلدين، القاضية في بعض الفترات بمنع التجارة، والتنقل من بلد إلى آخر، وغير ذلك من القرارات، فكان التواصل بين الجزائريين والتونسيين مستمرا، لاينقطع في أوقات السلم، وفي أوقات الحرب، بحيث يمكن الحديث عن نوعين من العلاقات بين البلدين، علاقات بين السكان قديمة، ومتواصلة، وراسخة، وعلاقات بين الحكام، متقلبة ومتذبذبة تبعا لمصالحهم، وحتى نزواتهم الخاصة.

2 ـ أن العلاقات بين البلدين، وحكامهما لم ترق إلى التعاون الفعال، النزيه من الأطماع، والحسابات الخاصة، فكان لذلك نتائج من أهمها :

* معاناة الحكام في البلدين من صعوبات كثيرة، فالدايات في الجزائر، عانوا من الإحتلال الإسباني، حيث لم يتم التحرر منه نهائيا إلا في سنة 1792، وعانوا من هجومات الدول الأوروبية، وضغوطها عليهم، ومن الثورات الداخلية، التي كان بعضها يلقى الدعم، والتأييد من حكام تونس كثورة ابن الأحرش، وابن التيجاني وغيرهما. والبايات في تونس عانوا أيضا من حروبهم ضد فرنسا، والبندقية، ومن الثورات الداخلية وخاصة ثورات الجند الأتراك، ومن الإفتتان على السلطة بين أفراد الأسرة الحاكمة، ذلك الإفتتان الذي كان يفتح عليهم باب التدخل الخارجي، ولاسيما من جانب الجزائر.

3 ـ أنّ العلاقات بين الجزائر وتونس كانت تتأثر بأهداف القابضين على السلطة في البلدين، ولاسيما السياسية والأجنبية والإقتصادية التي كانت مختلفة، ومتعارضة.

وقد كانت أهم أهداف حكام الجزائر السياسية تتمثل في: توسيع نفوذ الجزائر ليشمل تونس وحتى طرابلس، وهو ماسعى إلى تحقيقه الداي شعبان في سنة 1694، والداي مصطفى في سنة 1705، والداي ابراهيم الكبير في سنة 1735،

Créé avec nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

والداي علي بوصبع في سنة 1756.

أما أهم أهدافهم الإقتصادية فكانت تتمثل على الخصوص في :

- الحصول على بعض مايلزم الجزائر من مال، وغير ذلك من تونس سواء في شكل تعويضات عن حملاتهم المدعمة لبعض الطامعين في السلطة، أو هدايا، أو ضريبة، أو غنائم، وكذا الحصول على تسهيلات، وامتيازات تجارية خاصة لأرباب الدولة في الجزائر، وممثليهم في تونس، ولعامة التجار الجزائريين.

وقد حصلت الجزائر بمناسبة حملاتها الناجحة على تونس على أموال، وغنائم كثيرة، وخاصة في حملات 1685، 1694، 1735، 1756.

وأما أهم أهدافهم الأمنية فكانت تتمثل على الخصوص في رغبتهم في المحافظة على الأمن والإستقرار في بايلك الشرق الجزائري، المجاور لتونس، من مؤامرات بايات تونس، وتدخلاتهم فيه بشكل مباشر أو غير مباشر. فمن أجل ذلك كانوا لايرون بعين الرضى تزايد قوة بايات تونس، بل يسعون إلى إخضاعهم لهم، أو إضعافهم على الأقل بحيث لايكون بإمكانهم التدخل في البايلك المجاور لهم، ولايتكرر ماقام به الباي مراد الثالث في سنة 1700، والباي حمودة باشا الحسيني في سنة 1807.

وأما أهداف حكام تونس فكانت تتمثل في :

* ـ الحفاظ على استقلال تونس عن الجزائر، وطرح نفوذ هذه الأخيرة عنها.

* ـ العمل على بناء قوتهم بحيث تكون متكافئة، أو متفوقة على قوة الجزائر لضمان امنهم من جهتها، ودحر تدخلاتها في شؤونهم.

* ـ تحقيق موارد إقتصادية كافية للإنفاق على بناء قوتهم، عن طريق تشجيع التجارة مع الدول الأجنبية أكثر من تشجيع الغزو ضدها، وضد جيرانها كما كان يفعل حكام الجزائر.

4 ـ أن العلاقات الجزائرية التونسية كانت تتأثر أيضا بالوسائل التي كان

يتبعها دايات الجزائر وبايات تونس لتحقيق أهدافهم المختلفة ومن أهمها :

- ايواء المناوئين للحكام في البلد المجاور، واستغلالهم في الضغط عليهم.
- استمالة القبائل ولاسيما الحدودية منها إليهم.
- إقامة تحالفات مع دول مجاورة وغير مجاورة.

5 - أن العلاقات بين الجزائر وتونس كانت تتأثر كذلك بالعلاقات التي يقيمها البلدان مع المغرب وطرابلس، فالعلاقات السلمية بين الجزائر والمغرب كان يفرغ الجزائر لمعالجة قضاياها مع تونس على النحو الذي تريده، والعلاقات المتوترة بين الجزائر والمغرب كان يؤثر أيضا على نوع العلاقة التي تضطر الجزائر إلى إقامتها مع تونس في هذه الحالة.

وكان التقارب الذي يحصل بين تونس، والمغرب، أو بينها وبين طرابلس، يوجه في الغالب العلاقات بين الجزائر وتونس نحو التوتر والصدام، والأمثلة على ذلك كثيرة ففي سنة 1694 حصل تحالف بين الجزائر، وطرابلس فكانت الحملة المشتركة على تونس. وفي سنة 1700 حصل تحالف تونسي طرابلسي مغربي فكانت حملة مراد الثالث على الشرق الجزائري.

وفي سنة 1805 حصل تقارب تونسي مغربي جديد، فكانت حملة تونس على الشرق الجزائري في سنة 1807، ومالت تونس إلى التحرر من نفوذ الجزائر عليها.

6 - إن العلاقات بين البلدين كانت تتأثر أيضا بما كان يجري في أوروبا، وفي الدولة العثمانية. فحين تنشغل دول أوروبا في حروبها القارية فيما بينها كانت الجزائر تتفرغ لمعالجة علاقاتها مع تونس على النحو الذي تريده، وغالبا مايحدث أن تميل نحو العداء والحرب أما حين تتفرغ الدول الأوروبية من حروبها، وتميل إلى التدخل في تونس والجزائر، فإن البلدين غالبا مايميلان إلى السلم كما حدث في عهد الدايات الثلاثة الأواخر على سبيل المثال، حيث اضطرت الجزائر إلى إبرام السلام مع تونس لتتفرغ لمجابهة الأخطار الأوروبية التي كانت تستهدفها.

وكان إنشغال الدولة العثمانية في حروبها في المشرق، وأوروبا سببا في أن

Créé avec
nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

تدخلاتها فيما كان يجري من علاقات بين الجزائر وتونس لاتكون بالحزم الكافي، وبالتالي لاتحقق نجاحات سهلة وسريعة، ودائمة المفعول.

وقد رأيت من المفيد أن اضيف إلى الرسالة بعد الخاتمة، ملاحق عديدة بعضها صور لأصول بعض الوثائق التي اعتمد عليها في متن الرسالة، وأخرى قوائم لحكام البلدين، ولأهم العملات المتداولة فيهما، وخريطتان تتضمنان أهم المواقع التي وردت في الرسالة، وفهارس بالمصادر والمراجع، ولمحتوى الرسالة.

ولابد لي قبل ختام هذا التقديم من ذكر مايلي :

- أنني حاولت أن تكون معالجتي لموضوع الرسالة موضوعية خالية من التحيز الذي تكاد لا تخلو منه المصادر التونسية، والجزائرية، ومن المبالغة والتهكم الذي كانت لاتخلو منه تقارير القناصل، والرحالة والتجار الأوروبيين عن الأحداث المتعلقة بأحد البلدين، أو بهما معا، وذلك بإخضاع رواياتها إلى النقد، والتحري، والمقارنة، كلما تيسر ذلك، والأخذ منها بتمعن، وترو، فإن جاءت معالجتي للموضوع موضوعية كما أردت فذلك مبلغ قصدي، وإلا فأنا على استعداد لإجراء كل تصويب أو تقويم من أجل بلوغ ذلك المرام.

- أن جمع المادة من مضانها تطلب البحث في وثائق المكتبة الوطنية، والأرشيف الوطني بالجزائر، والمصادر والمراجع المحفوظة بالمكتبات الجزائرية وخاصة في المكتبة الوطنية بالجزائر، ومكتبة الجامعة فيها.

كما تطلب جمع المادة البحث في وثائق أرشيف ماوراء البحر بآكس اون بروفانس وغرفة التجارة بمرسيليا، وكذا في وثائق أرشيف المكتبة الحسنية بالقصر الملكي بالرباط، والخزانة العامة في نفس المدينة، وفي وثائق أرشيف دار الباي بتونس، والمكتبة الوطنية فيها. وكنت أتمنى الإستفادة مباشرة من وثائق الأرشيف العثماني باستانبول وذهبت مرتين إلى هنالك لهذا الغرض، ولكن صعوبة الحصول على الترخيص بالبحث فيه جعلني أكتفي بما صور منه لفائدة أرشيف الجزائر وماهو منشور في بعض المراجع والمجلات.

Rapports de force dans l'urbanisme colonial algérois(1855 - 1935)

ou de la genèse de l'aménagement urbain à Alger (*)

Maouia SAIDOUNI

La présente thèse a pour ambition de fonder une nouvelle approche de l'aménagement urbain dans l'Alger colonial du Second Empire à l'entre-deux-guerres.

C'est une approche par les acteurs du contexte local (*génie, sphères officielles, francs tireurs de l'aménagement*) dont les rôles, les positions dans le processus de décision et les intérêts sont à première vue antagoniques, mais qu'une lecture attentive sur la longue durée et basée sur des documents souvent négligés, fait apparaître comme complémentaires, dans le cadre d'une problématique où la période choisie est considérée comme une évolution d'un urbanisme archaïque vers un urbanisme apparenté à l'expérience française de l'entre-deux-guerres.

Cette approche sélective, par le choix des acteurs et la problématique adoptée, ne prétend donc pas embrasser le fait urbanistique colonial algérois dans sa totalité. La thèse se présente donc comme une exhumation d'articulations méconnues, donnant cohérence à une histoire urbaine souvent décrite comme chaotique ; toutefois cette thèse tente d'échapper à un discours globalisant et appauvrissant en s'appuyant sur des faits jugés généralement minimes et que révèle l'étude de documents à l'apparence anodine (*documents d'archives militaires et municipaux notamment*).

Les intitulés des deux parties de la thèse (*la première intitulée "logiques de lutte : pérennite et prémices de mutation"; la seconde "les chemins tortueux de l'évolution des rapports"*) rendent compte du caractère conflictuel de la période choisie et de l'ambiguïté des

(*) - Thèse de doctorat sous la direction de Mr Stéphane Yérasimos soutenue le 27.01.94 à l'Institut français d'urbanisme et ayant obtenu la mention très honorable.
Le Jury était composé de MM. Merlin (Président), Cohen, Roncayolo, Monnier.

Créé avec nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

boulevard de front de mer donna lieu à des réactions intéressantes des acteurs locaux trahissant leurs craintes et leurs espoirs quant aux futures mutations.

C'est donc à travers le projet d'envergure incarné par le boulevard-fortification du front de mer que s'expriment aussi bien conflits que compromissions.

Autrement plus ambitieux que les sphères officielles, des faiseurs de plans aux profils professionnels divers, s'engageaient alors dans une entreprise en complète démesure avec les réalités locales ; leurs plans de nouvelle ville autant que leur démarche constituent une tentative de contournement des inerties incarnées par les sphères officielles.

Plus pragmatiques, d'autres faiseurs de plans, conscients des réalités économiques des années 1880, développent une approche où coexistent souci d'embellissement et l'hygiène à l'échelle du quartier et candidature intéressée à la concession.

La figure particulière de Eugène de Redon englobe les attributs des uns et des autres à quoi s'ajoutent des velléités de rattachement à la sphère officielle (*attraction-rejet vis-à-vis de l'institution municipale*).

C'est cette dernière qui fédère les nouvelles aspirations tout en étant enchaînée aux inerties résultant d'une longue histoire de compromission et d'incapacité à accéder au rang d'aménageur institutionnel de premier rang.

Génie et institution municipale étant les deux pierres angulaires de la problématique de la thèse, il a fallu puiser dans des corpus documentaires spécifiques et originaux ; c'est le cas des documents internes au Génie, des documents mixtes et des procès verbaux des conseils municipaux.

acteurs qui la fondent ; émanation d'intérêts particuliers, ceux-ci contribuaient malgré les inerties inhérentes à chacun d'entre eux, au mouvement historique général conduisant à un urbanisme où devait primer la rationalité ; ces contributions ne se présentent guère comme un engagement indiscutable, mais comme une attitude ambiguë, faite d'allers et retours entre des conceptions archaïques et des tendances novatrices. Les rôles respectifs du Génie, de la municipalité ou encore des plus ou moins ambitieux faiseurs de plans apparaissent ainsi sous un angle insoupçonné. Hésitations, manque de rigueur, opportunisme, incapacité à formuler un projet total pour la ville constituent - en dépit de la tendance générale indiquée ci-dessus - l'intérêt historique de la thèse, mais aussi les causes essentielles du dépassement et de la non adaptation des acteurs traditionnels de l'urbanisme colonial algérois, aux nouvelles données que d'autres forces allaient traduire par l'adoption de nouveaux thèmes et démarches. La lecture de la thèse est un glissement progressif, des plus rigides conceptions militaires de la ville jusqu'aux débuts d'affirmation d'un municipalisme local, avec une aire d'articulation où apparaissent les contradictions entre choix défensifs et aménagement urbain ; contradictions que traduit le mieux la notion particulière d'aménagement mixte dont le terrain de débats est la conférence mixte, lieu de compromis entre des intérêts divers en vue d'un intérêt général insaisissable et aux multiples définitions selon les acteurs.

La conférence mixte est aussi le lieu de perversion des conceptions militaires primitives telles que les imposèrent les nécessités des premières années de conquête. Le terrain de choix de la conférence mixte est constitué essentiellement par les petits aménagements dont l'impact sur l'image de la ville est peu évident (*rues considérées isolément, travaux divers de voirie* ...). Les conférences mixtes traduisent une mutation des positions des uns et des autres et notamment de l'institution militaire dont les agents n'avaient guère une attitude monolithique, se montrant parfois conciliants vis-à-vis des intérêts civils.

A côté de cette mutation inhérente aux acteurs et au processus de décision proprement dit, il nous était inévitable de traiter de facteurs exogènes ; d'une part les nouvelles infrastructures (*tramway, chemin de fer, télégraphe, port,* ...) qui introduisent incohérence et discontinuité dans le domaine militaire ; d'autre part des facteurs administratifs (*évolution des conférences mixtes*) et des facteurs politiques qu'incarne l'attitude de l'Empereur Napoléon III, dont la visite à Alger pour la pose de la première pierre du

nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

Le Constantinois entre les deux guerres (1919-1939) Etude socio-économique ou la métamorphose d'une grande région de l'Algérie*

Mostafa HADDAD

Pour mieux appréhender la compréhension de l'évolution qu'a connue la société indigène de l'entre-deux-guerres, il nous semble impératif de jeter un regard sur certaines données du passé lointain ainsi que sur celles encore proches de nous.

L'Algérie - comme le reste de l'Afrique du Nord - est situeé sur une zone qui a connu les plus vieilles civilisations méditerranéennes ; ses habitants ont donc contribué à des degrés divers, au développement de ces civilisations. Or, l'Histoire est injuste. Quand un Appulée écrit en latin, son oeuvre est considérée comme romaine ; un Moufdi Zakaria produit les "vers en flammes", c'est de la poésie arabe ; un Kateb Yacine, son Nedjma est littérature maghrébine d'expression française.

L'Histoire est un cheminement infini de faits sociaux et d'idées où les hommes en sont tantôt acteurs et tantôt objets, et parfois la subissent même. C'est le cas des habitants de l'espace nord-africain depuis la nuit des temps.

* Thèse de Doctorat ès lettres et sciences humaines (option histoire) présenté par M. Mostefa Haddad, sous la direction de M. Le Profisseur Jean Louis Miège, soutenue à l'Université de Provence (Aix-Marseille I) le 9 octobre 1995 avec mention très honorable.

Créé avec nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

dans quelques oasis du Sud-constantinois, telles l'oued Righ (*aux environs de la ville d'Ouargla*), Seriana et au M'zab, etc.

L'amorce d'un processus de changement de structures socio-économiques, voire psychologiques même est engendrée par l'effet de la colonisation. Ainsi les vieilles structures sociales traditionnelles et tribales se voient atteintes et ont été brisées par la rigueur de l'Administration tels le cantonnement, le code forestier, l'impôt, l'indigénat en somme.

Parallèlement, les vieux cadres de la chefferie indigène ont subi le contrecoup du choc disproportionné en technique militaire, en savoir scientifique et en organisation administrative. En effet, les autorités éliminent les opposants parmi la seigneurie tribale ou maraboutique. Un mécanisme de remplacement est mis en place en vue d'une nouvelle mission de service public : une vision européenne moderne triomphante face à un Orient décadant.

La mobilité des personnes pour le travail, le commerce, l'émigration, le service militaire sont des facteurs entraînant une émancipation du "joug" social archaïque et la découverte du monde extérieur. Les effets de ces facteurs sont palpables au cours et vers la fin de la Grande guerre. Les prémices d'un conflit européen ont amené les autorités à instaurer la conscription obligatoire en Algérie en 1912. L'Intelligentsia, issue de l'Ecole publique, par voie de la presse déclare accepter "l'impôt du sang" mais en contrepartie exige - ne sollicite plus, comme le firent auparavant des notabilités traditionnelles - un droit "d'entrer dans la Cité".

Les mandants européens de l'Algérie opposent une fin de non-recevoir à de telles éventualités, et le maintien du statu quo est une exigence constante et nécessaire car, affirment-ils, toute tentative de changement de l'ordre établi mènerait à "bousculer" des habitudes bien établies.

Cependant, en dépit des protestations émanant des européens et de chefs indigènes et "en récompense" de l'effort de guerre en hommes et en ressources économiques, par voie législative, la Métropole institue en 1919 deux réformes touchant la vie indigène,

Le Constantinois constituait une entité avec parfois un pouvoir central dont Cirta était le centre de gravité et de décisions durant des périodes plus ou moins longues, et ce depuis l'Antiquité classique. La période numide qui a vu le règne de deux monarques indigènes : Massinissa (*238-148 av. J.C.*) et Jugurtha (*vers 104-160 ap. J.C.*) dont le royaume est situé entre le territoire de Carthage (*Tunis*) et la Maurétanie, avait pour capitale Cirta. Par la suite, la ville prendra le nom de Constantine à la gloire de l'empereur romain Constantin.

L'emplacement de la cité est imprenable, un véritable nid d'aigle entouré d'un abîme profond qui lui offre des défenses naturelles ; elle se trouve au milieu de riches plaines à vocation céréalière s'étendant de Guelma (*à l'est*) à Sétif (*à l'ouest*), c'est le fameux grenier de Rome. Ici, l'Histoire est fortement présente. En effet, des villes berbéro-latines avec tous les édifices abritant des institutions de tous ordres sont encore debout : forums, bibliothèques, théâtres, thermes, etc. Les premiers persécutés de la Chrétienté, canonisés sont en grand nombre originaires de l'actuel Constantinois[1]. Des hommes d'église et des historiens célèbres le sont aussi : Saint-Augustin de Tagast (*Souk-Ahras*), Saint-Cyprien, Donat de Bagae, Appule, etc.

Au VIIème siècle, quand l'Afrique du Nord affronte les premières attaques des armées arabes, Dina (*El Kahina*), la Reine de l'Aurès, les repoussa jusqu'en Tripolitaine. L'espace Constantinois notamment dans sa partie sud est peuplé dans le sud par les Zénètes, Berbères s'exprimant en langue chaouie. Les Koutama (*Kabylie orientale*) de la bande littorale - selon le Professeur Marais - ont perdu l'usage de leur langue originelle depuis environ un siècle. Cependant les Sanhadja de la Kabylie bougiote conservent encore l'utilisation de Tha Mazight. Le déplacement cyclique des nomades dans les Hautes plaines a provoqué progressivement l'abandon de la langue berbère au profit de l'arabe dans de vastes étendues du Tell, mais elle persiste encore

1)- Pour nous Numides, Mauritaniens, Libyens (de l'Antiquité), Gétules, Maures, Amazighs, Mafhrébins sont synonymes de Berbères.

nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

(*Nord-constantinois*). etc., l'Administration française imitait l'éphémère autorité turque. L'organisation sociale traditionnelle indigène est doublée par la désignation d'une "chefferie indigène" qui se prévalait d'une descendance maraboutique(l) aux postes de cheikhat pour organiser ces ensembles ethnico-sociaux.

Or, les structures socio-économiques archaïques sur lesquelles sont assises les confréries (2) ne résistèrent pas longtemps au choc de "l'acculturation". Les institutions indigènes touchées seront atteintes progressivement une à une. Les confréries religieuses ne sont donc pas épargnées au cours de l'entre-deux-guerres.

Avec l'opposition du mouvement revendicatif indigène, l'Administration tente vainement de réhabiliter les touroukias car le courant culturaliste et islahiste représenté par l'AOMA (1931) lui dispute le terrain d'influence et arrive même à la discréditer aux yeux de l'opinion publique indigène. Le contact avec l'économie monétaire moderne et les fréquents rapports avec la Métropole ont introduit de nouveaux modes de pensée et de consommation dans la société indigène dans son ensemble.

Autre signe de transformation au sein de la société indigène, l'apparition de l'action concertée des ouvriers agricoles dans les latifundias de colons du Nord-constantinois. En effet, le prolétaire rural fataliste, apparemment soumis, apprend manifestement de nouvelles habitudes pour la défense de ses droits. En somme, il n'est plus docile comme à l'accoutumée. Ce phénomène était perceptible dès les débuts des années trente dans les fermes du littoral et dans les exploitations minières frontalières de l'Ouenza et du Kouif Les travailleurs indigènes exigent l'augmentation des salaires, la protection sociale et la réduction des horaires de travail. A la différence des grèves observées par les ouvriers liégeurs de la région de Djidjelli, encadrés par des syndicalistes européens, les actions revendicatives des premiers sont dûes à l'initiative d'ouvriers locaux.

Mais et en dépit de cette métamorphose sociale observée dans de multiples aspects de la vie indigène, les pesanteurs administratives, le peu de résultats palpables découlant des

l'une est d'ordre politique, la seconde de nature économico-sociale, en l'occurrence la réforme fiscale.

Les années vingt sont marquées par l'émergence d'une presse indigène d'expression française, car l'Ecole publique, en dépit de la mince frange de privilégiés qui en bénéficia, avait pu forger une opinion publique ; par le biais de son instruction, de sa culture générale efficace, de sa volonté de "faire mieux que ceux d'en face", parce qu'elle est frappée d'autracisme, l'Intelligentsia indigène de cette époque se caractérise par des écrits "percutants", polémiques reflétant une sensibilité à "fleur de peau".

Les activités, les idées des "évolués" - Appellation d'alors - sont diffusées dans des écrits de différentes natures. Les associations sous forme de cercles restreints, instituées durant les deux premières décennies du siècle, se métamorphoseront peu à peu au cours des années trente en partis politiques, ceci en dépit des affirmations des promoteurs des associations, dans leurs statuts, de leur apolitisme de façade. En effet, l'exemple le plus significatif est celui de la Fédération des Elus Musulmans du Département de Constantine (FEMDC), suivi par les islahistes religieux de l'AOMA. A la veille du second conflit mondial, ces deux associations ont évolué progressivement en de véritables partis politiques modernes, avec leurs propres organisations satellites de tout ordre.

Au vu des nouvelles données socio-économiques qui touchent l'ensemble des structures de la société indigène dans sa globalité, le processus de décadence amorcé par les confréries religieuses depuis la fin de la Grande guerre s'avère "fatal" ; il faut rappeler que vers le début de la conquête coloniale, pour pouvoir "tenir en main" les grandes fédérations tribales du Constantinois(1) telles les Inemmouchen (*Nemamcha*), les Aïth H'Keith (*H'Rakta*), les Aïth Ouled Sultan (*Sud-constantinois*) et les Béni Aouat

(1) Depuis la conquête arabe au VIIème siècle, les principales dynasties berbères d'Afrique du Nord pour l'assise de leur pouvoir, se déclarent presque toutes avoir des liens avec le Prophète : les Saâdiens, les Fatimides, les Al-Mouahades, etc.

Créé avec nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

sans réelle influence ni action revendicative notoire, notamment celle d'Oran dont le président est par ailleurs un naturalisé.

Parfois, le Dr. Bendjelloul intervenait dans les conflits opposant les contribuables indigènes à l'Administration, par exemple quand les agents du fisc opèrent des saisies de biens de fellahs redevables. Depuis l'avènement de la FEMDC, aux yeux des indigènes, des européens et de l'Administration, les élections du deuxième collège se déroulaient pour ou contre le Dr. Bendjelloul.

La majeure partie des travaux d'études d'histoire contemporaine de l'Algérie sont consacrés aux partis et aux tendances de gauche ou aux Oulémas. Pour les hommes influents, c'est toujours l'Emir Khaled, Messali Hadj, Benbadis, etc.

Après la seconde guerre et jusque durant la guerre d'Algérie, les prises de position politique du Dr. Bendjelloul sont jugées par les uns et les autres comme étant modérées, les promesses non tenues amenèrent l'émergence d'autres figures plus radicales sur la scène indigène. L'ironie de l'Histoire veut que cet homme né au siècle passé, se déplaçant entre Paris et Constantine sa ville natale, depuis les années vingt alors qu'il était député à l'Assemblée nationale française, joua un rôle de première importance dans l'Histoire des Algériens et celle de l'histoire coloniale. Il meurt en 1985, dans l'indifférence de ceux qui, grâce à lui, sont investis de pouvoir.

En analysant les différentes données socio-économiques de la société indigène durant l'intermède des années vingt et trente, nous sommes porté à penser que l'Histoire de l'Algérie à venir est ainsi scellée.

réformes de l'après Grande guerre exacerbent les attitudes de l'Intelligentsia indigène qui l'incite de plus en plus à abandonner les thèses de l'assimilation. Ainsi, on verra l'AOMA déclarer dans ses statuts (1931) se cantonner dans le domaine culturel et religieux et se transformer quelques années après sa création en parti d'opposition radicale. L'Association tente même de jeter l'anathème sur l'intelligentsia moderniste, n'est-ce pas déjà le conflit qui ravage l'Algérie aujourd'hui ? Le postulat religieux et culturel arrive à toucher une large frange de la société indigène. Des régions entières, comme les Aurès, qui avaient attendues vainement la conquête morale - après avoir subi la conquête militaire - "basculent" dans le camp des Oulémas et leur école traditionnelle à base d'enseignement confessionnel et monolingue.

La figure la plus marquante de l'Algérie des années trente - après l'exil de l'Emir Khaled - est bien celle du Dr. M.-S. Bendjelloul. Son action s'inscrit dans la droite ligne de l'évolution de la société indigène dans son ensemble durant la période de l'entre-deux-guerres. Bien que les composantes humaines de l'Etoile Nord-africaine (1926) et du Parti du Peuple Algérien (PPA) soient d'origine prolétarienne et nées dans le "laboratoire social métropolitain", de nombreux travaux universitaires leur sont consacrés.

Par contre, la Fédération des Elus Musulmans du Département de Constantine (FEMDC), de composante élitiste, est issue de la petite bourgeoisie citadine. Sa démarche ne se limitait pas exclusivement à des revendications d'ordre politique, mais amorce de nouvelles méthodes et se sert de moyens efficaces pour arriver à toucher les habitants des villes comme ceux des campagnes et les rallier à leur postulat. La presse, les associations culturelles sportives, les conférences publiques, les groupes de scouts, les syndicats, les fellahs, les anciens combattants sont créés ou organisés par la FEMDC. Son influence touchera par la suite l'ensemble du Constantinois, en dépit d'une rivalité parfois sourde que lui oppose l'AOMA.

Dans les deux autres départements d'Alger et d'Oran, ont été créées également des fé[illegible]ions similaires mais qui sont restées

Créé avec nitro PDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

القسم الرابع

دراسات وعروض باللغة الأجنبية

RESUME EN ANGLAIS

THE CONSTANTINOIS REGION BETWEEN THE WARS (1919-1939) SOCIO-ECONOMICAL STUDY OR TRANSFORMATION OF AN ALGERIAN AREA

In 24 years of archivistic and documentary researches, both in Algeria and France, the main idea we can notice, is, that, for this period we denote appearance of new social structures : intelligentia - emergence from public-school which will take in charge the native claims in Algeria.

This intelligentia particulary appeared in the Constantinois which had for socio-political frame, the "Fédération des Elus Musulmans du Département de Constantine" (FEMDC), social organisation founded in 1930 and be transformation a real political party under the impulsion of Dr. M. S. Bendjelloul, claiming political and social reforms ; it progressively overthrew the traditional indigenous leaderships, allied of the administration and supported by it in the elections of the "deuxième collège".

After the FEMDC, the Constantinois witnessed the birth of "Association des Oulémas Musulmans Algériens" (AOMA). Its establishement and influence will be grandly aided by the default of the public school. We have also studed the aspects of Algerian life on the whole and of the Constantinois in particular, such as, the Agriculture Workers Strikes in the East of Algeria, the religion brotherhoods, the Algerian war efforts in favour of France, the Judeo-muslim riots (1934), the state of the Indiginious supply companious (SIP), Fiscal reform (1919), etc.

Créé avec nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

Le projet BLUM-VIOLLETTE : Les Oulémas et la commission parlementaire d'enquête : (mars-avril 1937).

LAKOUAGHET Messaoud

Lors du grand débat politique qui a soulévé tant de tempêtes à propos du projet BLUM-VIOLLETTE, le Gouvernement français décide l'envoi d'une commission parlementaire d'enquête; cette commission est presidiée par LAGROSILLIERE, député de la Martinique (S. F. I. O); elle va séjourner en Algérie pendant les mois de mars et d'avril 1937, et sillonnera les trois départements et les territoires du Sud.

En effet, et tout au long de ce trimestre 1937, les points de vue des représentants des deux communautés étant contradictoires et inconciliables, il fallait entendre les protagonistes, et consigner les résultats de cette enquête dans un rapport, afin que le Gouvernement puisse statuer et édicter les mesures appropriées.

Donc, en apprenant la nouvelle de la venue de la Commission parlementaire d'enquête, le président du Comité exécutif du Congres Musulman, qui regroupe toutes les tendances(1) y compris les Oulémas, lance un appel pressant à la population musulmane; celle-ci est appelée à réserver un accueil des plus chaleureux à le délégation, tout en lui fournissant toute documentation et attirer son attention sur un problème des plus délicats à savoir : la religion; et "les envoyés de la République pourront ainsi se rendre compte par eux-mêmes de l'intensité des griefs élevés contre nous.

Ils, verront qu'il n'y a ni révoltes, ni agitateurs, ni anti-français ni stipendies de l'étranger; mais seulement des millions d'hommes qui peinent et souffrent et dont les coeurs longtemps meurtris s'ouvrent aujourd'hui à tous les espoirs"(2).

Cet appel est suivi d'une circulaire aux comités régionaux du Congrés Musulman. Dans cette circulaire, l'accent est mis sur le projet BLUM-VIOLLETTE, son importance, mais aussi ses insuffisances, car il est restrictif, et ne peut donner de résultats tangibles dans l'immédiat; aussi il consacre les privilèges d'une certaine caste. Cependant, la circulaire indique que "la citoyenneté

Créé avec nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

doit être un droit pour tous les enfants du peuple qui, par leur attachement à la nation protectrice, leur éducation et leur instruction sont à même de s'exprimer avec discernement et de traduire les véritables aspirations du peuple lors des consultations électorales"; de plus, le bénéfice doit être élargi et toucher beaucoup plus de catégories et parmi celles-ci, il faut intégrer : "les Anciens Combattants, les commerçants, les fonctionnaires et les titulaires du Certificat d'Etudes", puis dénonce le spectre du débordement de l'électorat européen par l'électorat musulman brandi par les adversaires du projet, ainsi que l'imminence d'un éventuel conflit de races dans le pays(3).

Cette réaction dans le sens d'éclairer la commission parlementaire d'enquête, et de lui apporter tous les éléments susceptibles de la convaincre du bien-fondé des revendications de la population musulmane fut reprise par El-Bassair, avec un ton plus vigoureux, car la temps des tergiversations est révolu maintenant, "surtout que la circonstance présente est celle après laquelle il n'existe qu'une alternative, vivre avec la France comme ses autres enfants qui sont heureux ou aller à la mort violente et se joindre même à ses ennemis les plus farouches"(4).

Cette affirmation de l'organe des Oulémas, dénote en fait, une inquiétude de leur part de voir se succéder des commission d'enquête sans résultats apparents, et leur souci d'attirer d'une manière vigoureuse l'attention des membres de la Commission, sur le danger de reculer l'échéance des revendications musulmanes; c'est uniquement dans ce sens qu'on interprétera ces lignes d'El-Bassair en joignant à la population musulmane de manifester son existence : "debout, population pour manifester ton existence et prouver que la vie est dans la justice et que tu meurs dans la voie de ceux qui réclament la liberté et la justice, comme les peuples en pleine vie qui ont compris la signification de leur existence et qui ne veulent pas être ignores et méconnus, ni subir l'injustice et l'iniquité, debout!"(5).

La Commission fut saluée aussi par un poème de Mohamed-El-AID, lui demandant d'être impartiale, d'être l'interprète auprès du Gouvernement de Paris, tout en soulignant que parmi les Musulmans Algériens "il y a des hommes fiers qui répugnaient à l'avilissement (6).

A la lumière de ces premières réactions, le ton a été mis sur les éléments qui pourraient éclairer les membres de la Commission, afin qu'ils plaident la cause des musulmans. Il faut les persuader,

nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

que rien ne s'oppose désormais à l'actroi des droits politiques, entendons la citoyenneté dans le "statut personnel", et faire apparaître une fois de plus, que les mesures d'autorité n'ont plus leur raison d'être, vu que la population tend à évoluer dans le cadre français, et par conséquent la levée des restrictions dans les différents domaines s'impose.

En effet, la Commission parlementaire, dès sa venue à Alger le 3 mars 1937, a entrepris d'écouter toutes les composantes de la population tant musulmanes qu'européennes, ainsi que toutes les tendances existantes; cette volonté de prêter attention à toutes les tendances de l'opinion (musulmane et européenne) algérienne anima la délégation tout au long de son itinéraire; Déjà, le 5 mars 1937, le Cheikh El - OKBI reçoit une lettre du Préfet d'Alger, l'invitant à se présenter le lendemain au président de la Commission parlementaire d'enquête(7). Cette invitation montre bien l'importance accordé à l'Association des Oulémas, comme l'un des éléments moteurs de la vie politique en Algérie, et que leurs points de vue, ainsi que leurs avis sont écoutés et partagés par une large frange de la population musulmane; c'est la raison pour laquelle, l'Association, en la personne de Tayeb-El-OKBI entend exprimer ses points de vue en son nom personnel, et tant que membre de l'Association des Oulémas. Au cours de cette entrevue, il exposa les revendications, et les classa en deux catégories :

- d'une part, les revendications contenues dans la Charte revendicative du Congrés Musulman du 7 juin 1936, Charte qui a rallié l'unamité de la population musulmane y compris les Oulémas,

- d'autre part, les revendications d'ordre particulier propres à l'Association des Oulémas.

Dans ce cadre particulier, El-OKBI fit part au Président de la Commission parlementaire des entraves que l'Administration algérienne ne cesse de dresser devant l'Association et ses membres;" la raison essentielle du malaise algérien est l'interdiction faite par l'Administration...., de sa façon de s'immiscer dans les affaires religieuses"(8) puis, justifiant le combat mené contre les tenants du maraboutisme, car disait-il les "indigènes se ruinent pour faire offrandes au Marabout" El-OKBI affirme qu'il a "voulu abolir ce qui á régné jusqu'ici avec l'aide de la Haute Administration et que j'appellerais "la maraboucratie"(9).

Mais en ce qui concerne le problème-clé, à savoir le statut personnel, et à la question de savoir quelle serait la réaction des

Peut-on voir dans cette affirmation en Kabylie de "l'intégration dans la famille française même avec abandon du statut", la volonté de cetains évolués à accepter la "douce-violence", c'est - à -dire la naturalisation automatique prononcée par l'Administration, ce qui rejoindrait l'idée d'El-OKBI, le fait du "Prince" à qui on doit obéissance, sans pour autant perdre sa foi.

Cependant, la réaction des milieux Oulémas ne s'est pas faite attendre, car "La Défense", sous le titre "dangeureux bobards", tout en dénonçant cetains bruits qui courent à propos des dispositions à l'abandon du statut personnel, réaffirme l'attachement de la majorité de la population musulmane à la revendication contenue dans la Charte du 7 juin 1936, "pour le projet VIOLLETTE, pour le maintien du statut personnel"; ensuite, l'auteur ironise sur certains "évolués trop pressés de franchir le pas...Cette vieille et stupide formule de la "douce violence". Cela est même probable. Mais que peut l'opinion de quelques égarés par rapport à l'immense majorité du peuple musulman qui s'est prononcé sans détour pour cette formule, la seule possible : citoyenneté dans le statut ou rien!"(11).

Cette situation n'a pas influé sur le comportement des membres de la Commission qui ont poursuivi leur enquête. Mais une fois de retour à Alger, une deuxième entrevue fut organisée où l'Association des Oulémas était représentée officiellement par les chioukhs, Ben-BADIS, Mubarek-EL-MILI, EL-IBRAHIMI, Larbi TEBESSI, et Lamine LAMOUDI; c'est au cours de cet entretien que la position des Oulémas au sujet des différents problèmes fut réaffirmée avec plus de netteté.

En effet, la délégation fut reçue par le Président et les membres de la Commission parlementaire, le 16 avril 1937, au Palais des Assemblées algériennes; comme à l'accoutumée, différentes questions lui furent prosées; et la question la plus importante tourna autour du "statut personnel", c'est ainsi que fut évoqué le fait du "Prince", point de vue soutenu par le Chiekh EL-OKBI lors de l'entrevue du 6 mars dernier. C'est alors que la réponse fut nette de la part du Chiekh Mubarek-EL-MILI, réponse selon laquelle, il n'y aura pas de consentement sauf en ce qui concerne le service militaire; ce dernier est considéré selon Ben BADIS, comme un devoir consenti par les musulmans sans pour autant perdre le bénéfice du statut personnel; aussi ce ne serait que justice de voir ces devoirs consentis récompensés par l'actroi des droits politiques, et le Gouvernement français devra tenir compte du fait qu'une pareille mesure (atteinte au statut personnel)

musulmans si on attentait à ce statut, El-OKBI reprend les poins de vue exprimés lors du débat sur la naturalisation, en admettant qu'à son avis, les musulmans n'ont pas le droit de demander ce qui pourrait être contraire à leur religion; seulement "si le Prince" le Gouvernement ordonne cette chose là, nous sommes obligés de nous incliner. "Quant à lui, il ne peut s'opposer à une décision que le Gouvernement aurait prise en dehors de la volonté de ceux qui sont concernès. De surcoit, "nous acceptons le fait du Prince, c'est - à - dire que nous nous soumettions et, dans ce cas, il n'y aurait pas de soulèvement, mais à contre coeur et parce que nous aurions le sentiment que notre faiblesse nous oblige à nous incliner"(10).

Ensuite, El-OKBI fit le procés de la sûreté et de l'Administration en général. Enfin, revenant aux revendications propres aux Oulémas, le Cheikh demanda :

- le libre exercice du culte dans les mosquées,

- la vulgarisation de la langue arabe,

- l'application intégrale du projet VIOLLETTE(11).

Au demeurant, et après un itinéraire assez long qui a amené la dite Commission à visiter nombre de localités et de villes algériennes, et au cours duquel une unanimité s'était faite autour de l'urgence du vote du projet BLUM-VIOLLETTE, ainsi que toutes les questions se rapportant au statut personnel ou aux questions inhérentes à la situation économique et sociale des musulmans.

Partout où la Commission était de passage, des cahiers de revendications lui furent remis par les représentants des différentes formations, tant musulmans qu'européens. En réalité tous les désidérata étaient connus, et les membres de la Commission ont eu le loisir d'en apprendre et de faire le rapprochement entre les différentes revendications présentées; il en est ressorti que le Président LAGROSILLIERE aurait estimé que : "l'enquête aurait pu se terminer à Bougie car la Commission étant suffisamment éclairée par l'enquête faite en Kabylie, où individus et groupements ont été à peu prés unanimes dans leurs revendications (intégration dans la famille française même avec abandon du statut"(12).

En revanche, c'est à partir de Philippeville que les membres de la Commission auraient constaté que les individualités ou les groupement entendus étaient plus préoccupés de leur intérêt particulier et de rivalités mesquines que de l'intérêt général(13)

Créé avec
nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

amènerait des troubles dans la colonie et entraînerait des évènements dont personne ne peut prévoir les conséquences "et" au lieu de remédier à la situation qui est déjà excessivement grave, qui demande un remède énergique et efficace, ce serait l'aggraver dangereusement",(15) et projette des relations futures entre la France et l'Algérie.

Les griefs concernant le statut personnel, tournèrent lors du grand débat de janvier 1937 autour des points suivants :

a/ La polygamie

b/ Le droit du "Djebr" (contrainte) à propos du mariage de la fille impubère.

c/ Les droits successoraux.

La réponse des Oulémas à ces trois points fut aussi nette que les précédentes. Ainsi, Ben-BADIS affirma-t-il, que la polygamie fait partie de ce statut, et de ce fait elle ne doit pas être exclue; quant à la plygamie en tant que telle : "il est certain qu'à l'heure actuelle, la polygamie n'existe plus en Algérie,"(16) seulement, il y a une grande différence entre la réalité telle qu'elle est actuellement, et la volonté d'attenter à un principe contenu dans le statut personnel.

Quant aux deux derniers points, le droit de contrainte est pour Ben-BADIS "une question secondaire" contrairement aux règles successorales qui ne doivent en aucun cas être modifiées; car les modifier serait attenter à un principe du statut personnel.

Cette question du statut personnel épuisée, Ben-BADIS formula une autre revendication non moins importante, c'est celle de la "réorganisation de la justice musulmane"; par réorganisation, Ben-BADIS entend" améliorer les conditions de recrutement des Cadis et, en même temps, l'harmonisation... du droit musulman avec l'esprit moderne, tout en respectant les pricipes fondamentaux du Coran".(17) Au cours de cette même entrevue, il a été question du loyalisme envers la France, et Ben-BADIS d'assurer que l'Association des Oulémas ne s'est jamais prononcée pour la rupture avec la France, mais considère que "chaque peuple doit garder ses traits caracteristiques; enfin "je suis pour la fraternité, et l'égalité entre les deux peuples"(18). Puis, Ben-BADIS fut interrogé sur la teneur de certaines publications et affirmations dans son journal "Ech-chihab", autour de la nation et de l'arabisme; il répondit qu'e"en tant qu'algériens " nous avons du sang arabe", et "nous

sommes musulmans dans tout le sens du mot"; cependant, ce que les musulmans demandent c'est " la fraternité avec le peuple français. Nous ne voulons pas vivre en esclaves français, mais en hommes libres, sous l'autorité française;"(19)

Enfin ce furent des questions se rapportant à la naturalisation, et aux panarabisme et panislamisme, c'est-à-dire concernant d'éventuels liens avec d'autres mouvements se réclamant de ces deux devises; au sujet de la naturalisation, c'est le refus catégorique, dans la mesure où il y a conciliation entre droits politiques et conservation du statut personnel; quand au second mouvement, l'Association se défend d'avoir des liens ou de recevoir des directives de tel ou tel mouvement; et Ben-BADIS d'affirmer que : " nous ne voulons suivre que nous mêmes, nos directives et nos aspirations. Nous sommes avec la France. Nous resterons avec la France", et Lamine LAMOUDI d'ajouter: "jusqu'au jour où la France nous repoussera".(20)

A la fin de la longue entrevue, le Cheikh EL-IBRAHIMI exhorta la France à poursuivre en Algérie une politique libérale, sans tenir compte des propos malintentionnés, et s'insurgea contre l'idée dune éventuelle séparation de la France car : "Ceux qui prétendent que nous voulons nous séparer de la France sont ceux qui désireraient précisément que nous nous séparions d'elle. Qant à nous, nous n'avons jamais fait une semblable déclaration; mais lorsque nous demandons quelque chose, ils cherchent à nous en éloigner".(21)

Certes, toutes les questions n'ont pu être examinées lors de cette séance, et de ce fait, l'Association des Oulémas avait remis un rapport dans lequel sont consignés :

a/ Les buts que poursuit l'Association,

b/ Les greifs de l'Association à l'encontre de l'Adminstration algérienne,

c/ L'action des Oulémas et leur participation au Congrés Musulman Algérien du 7 juin 1936,

d/ Et enfin, les revendications propres aux Oulémas à savoir :

"I. La liberté des prèches dans toutes les Mosquées existant sur le territoire algérien; en faisant remarquer que cette liberté n'est pas réclamée seulement pour eux, mais pour tous les musulmans algériens, sans distinction ni exception entre les adversaires et les partisans des Marabouts

nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

"2. La liberté de presse de langue arabe,

3. La liberté d'enseignement de la langue arabe dans les écoles privées par des maîtres dont le choix doit être laissé aux parents soucieux de l'avenir de leurs enfants,

4. La levée de toutes les mesures d'exception et de toutes les interdictions dont ils ont été frappés par des circulaires administratives".(22)

Dans ce même rapport, la question -clé du statut personnel et sa consevation pour le bénéfie de la citoyenneté française (projet BLUM-VIOLLETTE) n'a pas égé omise. Aussi, l'Association des Oulémas affirme qu'elle est seul représentant qualifié dans ce domaine pour parler de ce problème combien délicat : " A ce props, nous tenons à déclarer hautement, solonnellement à messieurs les Membres de la Commission d'Enquête qu'aucun musulman algérien ne consentirait à abandonner son statut personnel pour accéder aux droits politiques et que toute atteinte qui y serait portée équivaudrait à une atteinte à la liberté religieuse".(23)

Cette volonté de s'ériger en défenseurs exclusifs du "Statut personnel" et de tout ce qui touche à la vie du musulman, apparaît comme le leitmotiv des Oulémas; ceux -ci, par une prise de position aussi catégorique veulent faire sentir à la Commission parlementaire ainsi qu'au Gouvernement, qu'ils représentent en fait un parti non négligeable pour la solution des problèmes qui se posent aux mususlmans algériens. Leurs prérogatives pourraient donc s'étendre à d'autres domaines exclusivement réservés aux Elus et aux autres formations "nationalistes"; car l'adhésion à la Charte revendicative du Congrès musulman et aux revendications qui y sont contenues, et tout en jouant un rôle actif pour sa tenue et son succès - ont fait apparaître les Oulémas comme une force politique de premier plan.

En effet, la venue de cette Commission parlementaire d'enquête fut aussi une occasion pour affirmer davantage l'action des Oulémas dans le domaine politique, même si les revendications qui leur sont propres sont loin de ce domaine; pouvons-nous comprendre aussi par revendications "propres aux Oulémas" qu'ils ont été les seuls à les avoir formulées, en s'associant bien sûr aux formations d'ordre social, économique et politique. C'est ainsi qu'El-Bassaïr publia une "opinion d'un groupe d'Algériens musulmans sur l'amélioration de la situation actuelle en Algérie", en forme de "Lettre ouverte à la commission parlementaire d'enquête".

Créé avec nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

Cette lettre ouverte commença d'abord par énumérer les griefs à l'encontre de l'Administration algérienne, et de ses méfaits concernant: l'administration des Contributions, celle des Forêts, des Communes mixtes, ainsi que l'Administration des Territoires du Sud, dans lesquels "s'exerce une dictature militaire, on arrête même quiconque se trouve en possession d'une feuille écrite en arabe et on lui inflige une peine minimum de trois mois de prison au cours desquels on l'astreint aux travaux les plus pénibles sous forme de corvée.(24)" Quant à la situation sociale, économique et sanitaire, elle est des plus malheureses; ce groupe suggère à la Commission lors de son déplacement de constater "de visu" la différence flagrante entre la situation misérable des musulmans et celle des européens repus et arrogants: "Ceux-ci sont riches, heureux, repus des bien-faits de la civilisation française dans la mesure où les indigènes sont pauvres et malheureux. Il est honteux Messieurs les Délégués d'offrir ce spectacle et ce contraste de vie aux yeux des touristes étrangers. Nous n'exagérerons pas si nous disons que la situation des indigènes est, aujourd'hui, plus maleureuse que celle des siècles d'abandon d'avant la conquête.(25)

Cette misère des musulmans algériens décrite à la Commission parlementaire n'est-elle pas "le fait d'agissements et de procédés regrettables qui doivent retenir l'attention du peuple français juste, humain et compatissant?"; aussi, une fois ces constatations transmises outre - Méditerrannée, l'opinion française ne restera pas dans l'expectative, et influencera ainsi l'octroi des réformes tant attendues; car "instruite de ces faits, la nation française pourra administrer le remède énergique qui combattra cette maladie virulente."(26) Enfin, la lettre ouverte énuméra toute une liste de revendications économiques, sociales et politiques, en insistant surtout sur la représentation équitable des musulmans aux Assemblées locales, ainsi que l'urgence d'une représentation au Parlement, sans omettre les revendications propres aux Oulémas déjà mentionnées dans le rapport remis à la Commission parlementaire lors de la séance du 16 avril 1937.

Les revendications contenues dans la lettre ouverte furent reprises par l'Association des Oulémas; ils dénoncèrent les détracteurs qui voyaient ces revendications sous l'angle économique seulement, et pour qui il s'agit du "pain" uniquement afin que la situation des musulmans soit améliorée. A ces détracteurs, les Oulémas répliquèrent que l'Algérie ne revendique pas uniquement du "pain", mais elle a aussi des revendications à formuler, qui sont d'ordre économique, social, politique et religieux.(27)

dans la famille française l'émancipation politique et sociale, à laquelle une évolution lente mais profonde les a préparés. Ce serait alors -et pour de bon cette fois- la naissance d'un nationalisme algérien dont il est impossible d'ores et déjà de mesurer les conséquences. Et c'est entre ces deux alternatives que les colons ont à choisir: "une assimilation politique graduelle ou un mouvement nationaliste indigène"(30).

En revanche, ces notes pessimistes ne vont pas au delà d'une mise en garde, et d'un appel au Gouvernement du Front Populaire afin que les doléances des musulmans soient entendues, et que la Commission et les résultats de l'enquête ne resteront pas lettre morte; car il n'est nullement dans l'intention des Oulémas, en parlant de désespoir d'opter pour d'autre moyens, ou de verser dans l'intransigeance ou le nationalisme le plus radical; ce serait alors contraire à la mission qu'ils se sont fixée, et les buts avoués de leur action réformatrice. Et, pour dissiper tout malentendu sur ce point bien précis de "nationalisme" qui équivaut à la séparation, l'Association des Oulémas par l'intermédiaire de son trésorier général, Mubarek-EL-MILI, leva toute ambiguité et réaffirma qu'il n'y a pas en Algérie un groupement dont le programme soit aussi modéré dans ses buts que celui de l'Association, et qu'elle oeuvre au rapprochement entre les deux peuples, algérien et français; cependant, si l'on se refuse à croire ses intentions et que l'on persévère à lui appliquer l'épithète de "nationaliste", eh bien l'Association en est fière et entend poursuivre sa mission. Donc: "Ce sont là des précisions que nous avons jugé nécessaire de donner au Gouvernement de Front Populaire et à la Commission parlementaire d'enquête, et nous avons le ferment espoir que la confiance que nous avons placée dans l'un comme dans l'autre ne sera pas déçue."(31)

Enfin le séjour de la Commission parlementaire d'enquête terminé, elle rentra en France chargée d'une documentation écrite ou orale, susceptible de l'éclairer sur la situation politique, économique sociale et religieuse en Algérie; ce séjour a été donc l'occasion pour tout un chacun et surtout pour les représentants de la population musulmane de fournir toute documentation nécessaire, afin de plaider la cause des musulmans algériens. Ces derniers n'en attendent pas moins que les résultats de cette grande enquête leur fussent favorables; c'est ainsi que les services de renseignements apportent quant à eux les appréciations suivantes : "... Il n'est pas hors de doute que la masse indigène attend maintenant avec impatience peut- être aussi avec quelque angoisse,

Cependant, il ne faut pas perdre de vue qu'il y a eu plusieurs Commissions d'enquête, venues en Algérie recenser et s'enquérir des problèmes que rencontrent la population musulmane, afin d'en trouver des remèdes appropriés; mais aucune n'a été suivie d'effets. C'est dans ce sens, et à la lumière des expériences précédentesque Ben-BADIS apporta une note pessimiste quant à l'utilité de cegenre de procédés; même si la Commission parlementaire tout au long de ses périple et contacts a été impartiale, et que son Président LAGROSILLIERE a eu droit à toutes les sollicitudes et à l'estime des populations musulmanes, et des Oulémas en particulier.

Cette note pessimiste conduisit Ben-BADIS à ironiser sur l'efficacité de la Commission à faire admettre les réformes escomptées; c'est pourquoi, les musulmans algériens ont raison de désespérer de ces méthodes qui s'appuient sur: "le vieux système du recours aux Commissions d'enquête, qui constitue un des palliatifs dont se masque l'Administration pour échapper à ses devoirs envers les indigènes. C'est pourquoi, les Algériens n'en courent aucun blâme s'ils perdent tout espoir des enquêtes et des promesses qu'on puisse proposer à leur entendement, ni même désespérer du Gouvernement français."(28)

Ce pessimisme se retrouva tout au long de l'année 1937; c'est ainsi que La Défense, dès janvier 1937, formula une mise en garde contre un éventuel rejet du projet BLUM-VIOLETTE, et le désespoir qu'engendrerait un tel rejet chez les musulmans: "si notre projet était rejeté par le parlement ce serait pour nous la plus grande déception, le plus grand désespoir. Nous constaterions alors que la France, ne nous a jamais aiméset, à notre tour, nous ne croirions plus à ses promesses, nous ne l'aimerions plus, et ce serait notre devoir et notre droit."(29)

Puis lors du séjour de la Commission parlementaire d'enquête, et sous le titre; "A la croisée des chemins" l'éditorialiste de ce même journal s'interrogeait sur les conséquences qui résulteraient au cas où le projet ne passerait pas; car il n'est pas exclu que les musulmans s'orientent vers d'autres solutions; en effet, il est de voir toute cette unanimité lors des méetings et des motions et télégrammes pour s'en convaincre qu'une nouvelle étape vient d'être franchie, et que les musulmans refusent désormais leur situation actuelle.

Aussi, les colons devraient s'accommoder de représentants musulmans au Parlement et le Gouvernement ne pas céder à ur intransigeance, sinon ces moyens seraient de chercher "ailleurs q.e

Créé avec nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

le résultat de cette grande enquête autour de laquelle il a été fait tant de bruit et dont elle espère avoir le bénéfice dans le domaine politique et le domaine économique".(32)

Comment donc, les musulmans algériens ne seraient pas confiants dans la mission du Président LAGROSILLIERE et de la Commission qu'il présida lors de son périple à travers l'Algérie? le Président avait déclaré bien avant la rédaction du rapport et de sa diffusion, qu'il était partisan de l'octroi de la citoyenneté française à l'élite musulmane avec la conservation de son statut personnel, car dit-il : "...Il n' y a pas d'autre solution au problème musulman que la pleine citoyenneté dans le statut personnel; et la Commission d'enquête que je préside ne peut pas moins faire que proposer d'appliquer les principes qui sont à la base de la démocrtie française"(33).

Même une fois le rapport rédigé, une copie fut envoyée à Tyeb-El-OKBI par LAGROSILLIERE lui- même; c'est - dire l'impact des Oulémas dans la société algérienne et l'estime dont ils jouissent auprés de lui. Le rapport fut jugé satisfaisant par eux et ils projetaient même d'en faire plusieurs exemplaires, "...les dirigeants de l'Associations des Oulémas réformistes se montrent satisfaits du rapport.

Il est question d'en faire tirer de nombreux exemplaires en Arabe et en Français et de les distrubuer aux responsables musulmans d'Algérie".(34)

Le rapport déjà cité ne renferme pas moins de (80) pages, fruit d'une riche documentation, et où l'on trouve consignées toutes les réactions tant musulmanes qu'européennes. LAGROSILLIERE y énuméra toutes les réactions concernant les problèmes soulevés lors du grand débat autour du projet BLUM- VIOLLETTE, à savoir :

- un collège électoral spécial ou unique,

- les controverses au sujet du statut personnel, considéré par les adversaires du projet gouvernemental comme étant de caractère privilégié, et de surcroit inadmissible.

En effet, en analysant ces réactions, le rapport précise que les musulmans algériens étaient unanimes dans leur soutien au dit projet, parce qu'il répond à leurs voeux maintes fois exprimés,

- collège électoral unique - et maintien du statut personnel; en revanche, LAGROSILLIERE n'a rencontré que deux exceptions à

Créé avec nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

la règle, représentées, l'une par L'ETOITLE-Nord-Africaine, et l'autre par un élu local de Mostaganem, le docteur BENTAMI.(35)

En conclusion du rapport, LAGROSILLIERE préconisa l'adoption du projet BLUM-VIOLETTE, tout en incluant les améliorations suivantes:

1- Que le projet ne doit pas se contenter de l'octroi du droit de vote ou de l'éligibilité seulemnt, mais bien davantage, l'octroi de la pleine citoyenneté française, à l'instar des Communes du Sénégal.

2- Et qu'il soit élargi aussi aux Anciens Combattants.

LAGROSILLIERE entendait par ces améliorations, préserver les intérêt de la France en Algérie, afin que sa souveraineté soit renforcée, par un geste qui extirperait tout antagonisme entre les populations vivant dans ce pays. Enfin le vote du projet BLUM-VIOLLETTE ainsi amélioré, entraînera "l'adhésion unanime de l'opinion indigène ... et sera interprété comme un signe de sollicitude et d'affection de la France pour ses populations musulmanes ... Enfin loin de faire obstacle à la politique d'assimilation qui demeure nécessaire et qui devra être poursuivie, il la favorisera en créant dans la population algérienne une catégorie de citoyens qui seront le trait d'union entre les citoyens français d'origine européenne et la masse indigène."(36)

Le rapport de la Commission parlementaire d'enquête est fin prêt, et le rédacteur en a tiré la conclusion favorable au projet gouvernemental assorti de quelques améliorations. Cependant, si le projet n'a pas été exhumé des tiroirs de la chambre, il n'en demeure pas moins vrai que les musulmans algériens s'inquiètent fortement et demandent que les débats s'ouvrent sans tarder; car cette attente est préjudiciable à leur cause, et ne peut qu'accentuer les méfiances vis-à-vis du Gouvernement du Front Populaire pour ses promesse de réformes non tenues.

C'est pour attirer l'attention des forces républicaines que La Défense consacre un article à ce sujet sous le titre: "A l'action Messieurs les élus du Front Populaire?", dans lequel, il est fait un appel pressant au Gouvernamant du Front Populaire afin qu'il passe à l'action et sorte de cet immobilisme qui a caractérisé tous les gouvernements précédents; et les musulmans algériens n'ont pas perdu leur confiance dans le dit Gouvernement, seulement "ils s'étonnent d'autant plus de la carence du Gouvernement actuel que leurs revendications ont été reconnues légitimes et qu'ils ont reçu à cet égard les plus belles promesses. Ils en ont assez des discours.. Ils veulent des actes!"(37)

Notes

(1) . Le Comité exécutif comprenait 18 membres, représentant : Les Elus, les Oulémas, les partis : P. C. A et S. F. I. O (avec étiquette = militants).
(2) . La Défense, 5. 23. 1937.
(3) . Ibid
(4) . El-BASSAIR, 12. 3. 1937.
(5) . Ibid, 12. 3. 1937.
(6) . Ibid, 26. 3. 1937.
7). Renseignements, Alger, 8 mars 1937, Archives d'Outre-Mer, (Aix en Provence) dossier I2HI3.
(8) . Comte-rendu, Séance du 6.3.1937, page 3, (A. O. M), dossier, I2HI3.
(9) Ibid, Page 4.
(10). Ibid : Page 4.
(11). Reseignements, Op. Cité,
(12) . Reseignements, Alger, 6.4.1937.
(13). Ibid(14)
(14) . La Défense, 2.4.1937.
(15) . Compte rendu, Séance du 16 avril 1937, Page 15.
(16) . Ibid, Page 17.
(17) . Ibid, Page 20.
(18) . Ibid, Page21.
(19) . Ibid, Page 24.
(20) . Compte- rendu, Op. Cité, Page 25.
(21) . Compte rendu, Op. Cité, Page 26.
(22) . Rapport présenté par l'Association des Oulémas au Président et aux membres de la C. P. E, lors de la séance du 16. 4. 1937.
(23) . Ibid, Page 5.
(24) . EL-BASSAIR, 12. 3. 1937
(25) . EL-BASSAIR, 19. 3. 1937
(26) . Ibid , 19. 3. 1937
(27) . EL-BASSAIR, 26. 3. 1937
(28) . Ech-chihab, Avril 1937.
(29) . La Défense, 22. 1. 1937.
(30) . La Défense, 19. 3. 1937.
(31) . EL- BASSAIR, 30. 4. 1937, et La Défense, 7. 5. 1937
(32) . C. I. E, Oran, avril 1937, (centre d'informations et d'études . Préfecture)
(33) . Oran- Républicain, 10. 6. 1937.
(34) . C. I. E, Alger, 22. 11. 1937.
(35) . Le Docteur BENTAMI est citoyen français, conseiller municipal, et président de la section du P. P. F de DORIOT. Ce citoyen français estimait en effet, que l'abandon du statut
par les "naturalisés" et son maintien au profit des nouvelles catégories, représente un privilège pour ces derniers.

La discution par les chambres du projet tarde à voir le jour, et cet appel confirme l'attente et aussi la crainte de ne pas le voir aboutir; aussi, il est significatif que d'aucuns fassent le bilan du Gouvernement du Front Populaire pour en arriver à la conclusion, que tout a changé pour les ouvriers français, cependant rien n'a été entrepris de l'autre côté, en faveur des musulmans algériens; c'est ainsi que la Défense dresse le bilan du dit Gouvernement: "Après 17 mois de Front Populaire, la condition sociale de l'ouvrier français s'est sensiblement améliorée, son droit au travail, ses libertés politiques et jusqu'à ses loisirs sont désormais protégés", par contre "... les prisons regorgent de militants musulmans ... le fellah, l'ouvrier, l'artisan gémissent sous le poids d'une misère toujours croissante."(38)

Créé avec nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

" L'ISLAMISATION DE L'ESPACE SENEGAMBIEN ET LA RESISTANCE A LA PENETRATION COLONIALE."

Khaled Sabeur Cherif

- INTRODUCTION

Les phénomènes socio-politiques, et partant le rôle et la place de l'islam dans la société sénégambienne, ne peuvent être appréhendés qu'à la condition d'interroger le double passé du Sénégal et de la Gambie; à savoir les périodes anté-coloniale et coloniale. Il nous sembe en effet utile, pour la compréhension du sujet que nous nous sommes proposés d'étudier, d'exposer brièvement les différentes phases qui ont conduit à l'islamisation de l'espace sénégambien.

Ceci dit, nous visons un double objectif par cette présentation des deux phases historiques : d'une part, mettre en exergue l'ancienneté des relations transahariennes et, d'autre part, l'importance du vecteur religieux qui lie les populations "arabo-berbères" et "négro-africaines" de cette partie de l'Afrique de l'ouest.

- CADRE HISTORIQUE ET PROBLEMATIQUES DES SOURCES

Reconstituer l'histoire précoloniale de l'Afrique subsaharienne en général et de l'espace sénégambien en particulier n'est pas chose aisée pour le chercheur. Cela est dû principalement à l'absence de documents écrits. Cet état de fait est renforcé par un mythe que l'on trouve dans la littérature européenne selon lequel "l'Afrique est un continent sans histoire". En effet, pour certain auteurs européens du siècle dernier, l'histoire de l'Afrique a commencé le jour où ils ont foulé le sol de ce continent. Plusieurs facteurs en fait, peuvent expliquer ce "trou noir" concernant l'histoire précoloniale de l'Afrique. Premièrment, on dispose de trés peu de sources écrites sur l'histoire ancienne de l'Afrique. Subsaharienne. Les quelques récits que l'on possède aujourd'hui au demeurant insuffisamment exploités, sont l'oeuvre de voyageurs arabes et portuguais(1).

(36) . LAGROSILLIERE (J.), Rapport de la Sous-Commission d'enquete parlementaire en Algérie, mars-avril 1937, 80 P. A. O. M, dossier, N° 12 H. 13, Page 80.
(37) . La Défense, 19. 11. 1937.
(38) . La Défense, 19. 11. 1937.

Créé avec nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

Deuxièment, les historiens du XIXème siècle n'ont pas accordé dans leur investigation une très grande importance à la tradition orale. Certes, ce mode de transmission n'est pas toujours fiable, mais il n'en demeure pas moins qu'il reste une source d'information non négligeable. Depuis l'époque des indépendances les Africains ont entrepris eux-mêmes de regrouper et de fixer par écrit la riche tradition orale. Leurs investigations ont permis de combler certaines lacunes de l'histoire de l'Afrique précoloniale, grâce notamment à l'apport de l'archéologie, de la linguistique et de l'anthropologie. Au demeurant, l'absence de sources écrites concernant l'histoire ancienne de ces contrées reste un handicap certain pour les chercheurs.

A l'époque précoloniale, le territoire que l'on nomme aujourd'hui le Senegal a connu des entités politiques qui avaient chacune sa propre organisation sociale et politique. Au plan historique, cette période, qui s'étend des origines à l'arrivée des Européens sur les côtes Sénégambiennes, a été riche en évènements et a connu des phases de prospérité et de déclin, de calme interne et d'instabilité; "les communautés ont subi des modifications importantes dues aux unifications, aux influences externes (Islam) ou bien à l'occupation du trône par un étranger, comme celà se produit souvent"(2).

A l'origine, après le dessèchement progressif du Sahar(3) et l'imigration des populations noires vers le Sud et l'Ouest, les cultivateurs Sérer et Wolof ont fondé le Tekrur. Situé sur l'actuelle courbe du fleuve Sénégal, l'Empire du Tekrur a développé de grandes villes et étendit sa souveraineté sur les Etats voisine(4) qu'il unifia progressivement.

Le royaume du Tekrur est passé au Xème siècle sous la domination de l'Empire de Ghana(5). Ce dernier, fondé probablement dés le IIIème siècle, a connu son apogée du IXème au XIème siècle sous la direction des Sarakolé.

Le roi du Ghana s'est imposé en effet trés tôt aux autres royaumes jusqu'aux Berbères d'Aoudaghost. Il tirait par ailleurs sa richesse principalement du commerce de l'or et du sel avec les Arabes et les Bérbères venus du Nord. Au milieu du XIème siècle, les Almoravides ont lancé un mouvement de"guerre Sainte" qui s'est soldé par la destruction de la Capitale du Ghana (Coumbi-Saleh) en 1076. Les provinces et royaumes tributaires de l'Empire de Ghana se sont rendus alors indépendants.

Créé avec nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

L'épopée almoravide a eu des conséquences directes sur l'évolution du Royaume de Tekrur. En effet, celui-ci, au contact avec le Maghréb et le commerce arabe, a trouvé dans le mouvement almoravide" à la fois le moyen de répandre l'Islam et celui d'accroître la prospérité d'une aristocratie qui tire beaucoup des razzias qu'elle opère sur ses voisins. Ce n'est pas un hasard : l'annexion des régions aurifères du Ngalam et l'extension vers le Ndaw des (Lamlam) coïncide avec cette époque de grande poussée vers la Maghréb"(6).

Au demeurant, la "conquête" almoravide a été à l'origine d'un vaste mouvement mioratoire dans le Sénégal de la fin du XIème siècle. Les Wolof se sont établis dans le Waalo et le Cayor et les Sérer dans les Baol et le Sine-Saloum; alors que les Peut du Tekrur ont embrassé la nouvelle religion.

Les évènements politiques intervenus au Tekrur à la fin du XIème siècle ont eu de profondes incidences sur l'évolution politique de l'espace sénégambien. Les populations réfractaires à la nouvelle religion sont venus peupler les espaces du Kayor, du Ndiander, du Sine et au-delà.

" Cette émigration coïncide d'ailleurs avec les luttes qui devaient résulter de pareilles circonstances. Le Tekrur, fortement ébranlé mais agrandi, se maintiendra plus ou moins dans les limites qu'il avait atteintes jusqu'à la conquête du Mali"(7).

Le XIIeme siècle et le début du XIIIeme siècle ont été une période de confusion en Afrique Occidentale. En 1235, le jeune Roi manding, Soundjata, est parvenu a conquérir un Empire bien plus étendu que l'ancien Ghana.

L'Empire du Mali, qui englobait une partie de l'Ouest Sénégalais(8), atteignait au Sud, les contreforts du Fouta-Djalon, à l'Est le Niger et au Nord la ville de Oualata(9). Notons que c'est a partir de cette époque que "des guerriers manding. Les Guelewar, partant des confins de la Guine et de la Haute-Casamance, ont envahi le Sine-Saloum, et se sont intègres aux autochtones. Serer qu'ils soumirent. D'autres peuples manding, antérieurement établis dans la Basse-Gambie, avec l'arrivée des Serer, venus du Tekrur, ont été repoussés vers la Casamance, où ils se sont constitues en clans inorganisés, les Diola, les Floup, les Balante"(10).

A l'aube du Xème siècle, avec l'arrivée des Européens sur les côtes Sénégambiennes, commençait le déclin de l'Empire du Mali.

Tegne), le Sine (Etat du Bour-Sine), le Boundou (dirige par l'Almamy), des entités politiques manding de la Gambie et au sud-est de l'actuel Sénégal. le XVIIIeme siècle était caractérisé en outre par une remarquable progression de l'Islam. Déjà, au XVIIeme siècle, la "guerre des marabouts" (1673-1675), avait révèlé une première réaction organisée contre la traître esclavagiste.

A l'aube du XIXeme siècle, la présence française se réduisait a quelques anciens comptoires de traite esclavagiste : C'était notamment le cas de Saint-Louis, de Gorée, de Rufisque et de Joal. Jusqu'à l'arrivée de Faidherbe et l'expansion de la culture arachidière, la colonisation n'avait guère dépassé la côte atlantique.

Cependant, les besoins accrus en matières premières destinées aux industries manufacturieres et les rivalités sans cesse grandissantes entres les différentes puissances colonisatrices (notamment entre les français et les Anglais) ont abouti à une nouvelle politique de mise en valeur des anciens comptoires à partir de 1850. L'espace Sénégambien est devenu alors un objet de convoitise entre les différentes puissances européennes. Le colonisateur français avait compris l'importance stratégique que représentait le territoire Sénégalais pour son expansion dans tout le reste de l'Afrique Occidentale; comme d'ailleurs devait lui servir, l'Algérie en 1830, pour son extension dans tous le Maghréb.

Cette nouvelle stratégie de mise en valeur des anciens comptoirs a été mise en oeuvre par Faidherbe(14). Ainsi, de 1854 à 1864, tout le littoral compris entre les fleuves Sénégal et Saloum est passé sous la domination française. Pour ce faire, des postes militaires furent établis en Casamance qui a été achetée au Portugais. Par ailleurs, des traités de protectorat permettaient à l'occupant de contrôler la vallée du Sénégal.

A partir de 1876, l'expansion coloniale est accélérée. Pour atteindre le fleuve Niger le colonisateur a étendu sa domination sur tout le territoire Sénégalais. Il s'est heurté, toutefois, dans son entreprise expansionniste a de violentes résistances intérieures : Dans les régions situées au Nord de la Gambie, Maba Diakhou Ba lançait un mouvement d'unification ; tandis qu'au Cayor, sur le haut fleuve Sénégal et au Boundou, Lat Dior Diop, Alboury N'Diaye et Mamadou Lamine Drame s'opposaient par les armes a la pénétration coloniale. Dans les régions méridionales (Casamance), la résistance au colonisateur fut menée, entre autre, par Fodé Kaba Doumbouya. Au demeurant, l'absence d'unité et de coordination

En outre, l'axe commercial transaharien occidental perdait de sa vitalité au profit de l'axe central qui débouchait au Sud, sur la boucle du fleuve Niger. Au Nord, les tribus arabes hillaliennes bloquaient l'avancée des Berbères vers le Sud. Sur les rives du fleuve Sénégal, sous l'impulsion de Koli Tenguela, un vaste ensemble s'est constitue, regroupant les Peul disperses : C'est le début du règne de la dynastie des Denyanke. En même temps, au Sud de l'embouchure du fleuve Sénégal les wolof fondait le Djolof. Celui-ci rassemblait les Wolof et les Serer; et comprenait le Waalo, le Kayor, le Baol, le Sine, le Saloum, le Dimar et une partie du Bambouk. Notons par ailleurs que les premiers contacts avec les Portugais se situaient à cette époque. En effet, des 1448, le Waalo et le Kayor faisaient déjà du commerce avec les Portugais. Ce bouleversement des voies commerciales traditionnelles, du Maghréb vers l'Afrique subsaharienne au profit de la voie atlantique, constitue la période la plus importante de l'histoire de la Sénégambie, par ses répercussions politiques, économiques et sociales.

Pendant des siècles, en effet, le commerce transaharien avait mis en relation les deux rives du Sahara; il constituait en outre une des principales formes d'échanges entre le bassin du fleuve Sénégal et le monde extérieur, notamment avec le Maroc a travers la Mauritanie actuelle. Déjà au XIem siècle, l'Empire Almoravide avait noue entre les deux rives du Sénégal et le "Maghrib El-Aksa" de nouveaux liens, avec l'Adrar mauritanien comme relais, par la voie du Sahara atlantique(11). A cet égard, "des villes du sous, de Noul, des villes de l'Anti-Atlas du pays de l'indigo (Dara et Sijilamass), les convois de chameaux emportaient du cuivre et des draps, de la verroterie et d'autres bijoux en coquille et en pierre, des cauris et des parfums, des drogues et des dattes. Avec ces produits les marchands du Nord achetaient à Ghana, à Aoudaghost et Tekrur, de l'or, des esclaves, de la gomme et de l'ambre gris"(12).

Le Royaume du Djolof s'est disloqué vers 1566 et "les provinces d'Oualo, de Kayor, de Baol, de Sine et plusieurs autres qui en dépendaient ont forme autant de petits royaumes, depuis que leurs gouverneurs se sont fait déclarer rois, ne voulant plus reconnaître le Bourba Ouolof pour leur souverain(13).

L'espace Sénégambien était divisé au XVIIIeme siècle en de multitudes entités politiques qui pratiquaient la traite esclavagiste. Celles-ci étaient issues, pour la plupart, de l'éclatement des anciens royaumes : Le Waalo (Royaume de Brak), le Baol (dirige par le

Créé avec nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

apparaît, en effet, que l'islamisation du Tekrur est bien antérieur au mouvement almorative.

Ceci dit, avec l'action des prosélytes almoravides (1040-1147), l'Islam change de face. Ce mouvement lui donne en effet un nouvel essor dans le bassin du fleuve Sénégal. Sans vouloir reprendre dans le détail la genèse de ce mouvement, notons cependant, qu'en 1034, de retour du pèlerinage à la Mecque, le Roi d'Aoudaghost, Yahya Ibn Ibrahim et le prédicateur Abdellah Ibn Yacine, décident de mener un "jihad" contre le relâchement des moeurs de la société Aoudaghostienne. Les enseignements du Cheikh (Abdellah Ibn Yacine) se sont heurtes toutefois à l'hostilité d'une fraction des Berbères Sanhaja. Le prédicateur Ibn Yacine dut alors se retirer et fonder un "Ribat"(17) dans une île du bas Sénégal, au Sud du Tekrur. En 1042, sortis de leur retraite, les "Murabitun" lancent alors une action prosélytique de grande envergure en direction du Nord et du Sud : en 1063, le successeur de Yahya Inb Ibrahim, Youcef Inb Tachfin fondait Marrakech. En 1069, il s'emparait de Fès, puis, appelé en Espagne, il a défait Alphonse, Roi de Castille. Tandis que cette fraction septentrionale du mouvement almoravide s'avançait en direction des Pyrénées, la branche méridionale, menée par Abou Bakr Ben Omar tentait, non sans difficultés, de maintenir sa domination sur Ghana. Les hostilités ont duré 14 ans et c'est seulement en 1077 que l'Etat sarakhole de Ghana fut réduit à néant. Cet évènement historique que constitue le "jihad Almoravide" marquait l'entrée officielle de l'Islam au Soudan Occidental. En effet, s'il avait eu pour conséquence l'islamisation des Sarakholé et des Toucouleur, il a permis, comme nous l'avons précédemment souligné, à l'aristocratie tekrourienne, qui pratiquait un commerce florissant avec les Maghréb, d'accroître sa prospérité et de propager l'Islam dans les religions méridionales. Après le mouvement almoravide du Xème siècle, l'espace sénégambien et partant le Soudan occidental n'ont pas connu d'autres mouvements proselytiques avant le XVIème siècle.

S'agissant du territoire sénégalais, on sait que les nomades Maures n'ont jamais cessé leur mouvement expansionniste et prosélytique vers le Sud. La période qui s'étend du XVIIème au début du XXème siècle fut par excellence l'age d'or des "jihad" en Afrique subsaharienne et plus particulièrement au Soudan Central et Occidental. le Sénégal a connu durant cette longue période plusieurs mouvement de type jihadiste. La "guerre des marabouts(18), dans la région du fleuve fut le prélude à une série de "guerre saintes", qui ont touché l'ensemble du territoire sénégalais.

entre ces différents mouvements de résistances, ont abouti à la mainmise du colonisateur sur tout le territoire sénégalais et gambien et, dés 1891, la conquête coloniale était pratiquement achevée.

ISLAMISATION ET RESISTANCE A LA PENETRATION COLONIALE

Que l'on considère aujourd'hui l'Islam comme une religion autochtone ou comme une religion importée, c'est incontestablement la religion dominante dans l'espace sénégambien, tant par le nombre de ses adeptes que par l'influence qu'elle exerce sur la vie politique, économique et socio-culturelle.

L'Islam a été introduit dans cette région il y a presque mille ans. On distingue généralement deux phases dans l'introduction de l'Islam en Afrique subsaharienne : entre le Xème siècle et le XVI siècle, la religion islamique fut propagée dans ces contrées principalement par les marchands venus du Nord, l'action prosélyte menée par les Almoravides et certains souverains locaux. L'islam atteingnit alors en premier lieu les érudits, les princes et les marchands. La seconde phase de la propagation de l'Islam au sud du Sahara n'eut lieu qu'aux XVIII et XIX siècles. La religion musulman a touche alors un plus grand nombre d'habitants.

La religion révélée au Prophète MOHAMMAD (P. S. L) il y a 15 siècles, a bouleversé les structures sociales, religieuses, politiques, économiques et culturelles de l'espace senegambien. Aussi, nous nous proposons dans ce qui suit de passer en revue les différentes phases historiques de son islamisation et la résistance des autochtones à la pénétration coloniale.

Les plus anciens documents qui parlent du Sénégal ou du moins de sa partie septentrionale, sont l'oeuvre de géographes et d'historiens arabes.El-Bekri (mort en 1094) rapporte, par exemple, qu'aussitôt après Sunghan(15), entre l'Ouest et la Oibla, sur le Nil (il s'agit du fleuve Sénégal), se trouve la ville de Tekrur. Ses habitants sont des noirs : Ils adoraient des dakakir (idoles). Il en fut ainsi jusqu'à Wara diabe (warajabi), fils de Rabis devint leur souverain, se convertit à l'Islam et introduit la loi musulmane. Il les décida à s'y conformer après avoir dessille leurs yeux à la vérité. Ensuite Wara Diabe mourut en 432 H (1040). Les gens de Tekrur sont aujourd'hui musulmans"(16)

Ce passage d'El-Bekri, même s'il ne concerne qu'une partie du territoire sénégalais actuel, nous livre une précision utile. Il

Créé avec nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

L'extension du mouvement du marabout Nasir ad Din au monde Wolof a eu de profondes répercussions sur la situation politique et religieuse de la senegambie. En effet, tous les mouvements de "guerre sainte" qui se sont déroules ultérieurement dans cette région" ont trouvé en lui (le jihad de Nasir ad Din) leur inspiration"[19]. Cette longue période de "l'Islam guerrier" en Sénégambie a pris fin en 1893 avec le "jihad" conduit par le marabout Fodé Kaba en Casamance.

Il n'est pas dans notre intention, dans ce qui suit, de reconstituer la genèse des multiples "jihad" qui se sont déroulée en sénégambie. Nous visons en fait, à travers l'exposé succinct de ces différents mouvements, de mettre en exergue le rôle joue par les Maures dans la diffusion de l'Islam, notamment dans la région du fleuve, et partant, de définir la nature des liens qui existaient entre les deux rives du fleuve Sénégal. En outre, l'étude de ces différents mouvements nous permettra de mieux saisir l'importance du "phénomène marboutique" au Sénégal actuel.

L'histoire de la région Nord-Ouest du Sénégal a été dominée par la descente successive de tribus maures venues de Mauritanie. Ces diverse pulsations avaient pour cause, notamment, l'arrivée massive d'immigrants arabes venus d'Egypte ou du Yémen[20]. Ces derniers ont provoqué , dans leur avancée vers le Sur marocain, la rupture de l'axe caravanier du Sahara Occidental et refoulé les nomades mauritaniens vers les rives du fleuve Sénégal et la côte atlantique. Cette rupture du faisceau commercial a eu de profondes répercussions tant au Nord qu'au Sud du Sahara. On sait , en effet, qu'a cette époque, le Maroc de la dynastie des Saadeens traversait une grave crise économique et politique due, en partie, à la rupture de la voie occidentale et au déclin du commerce transsahrien. Le marasme économique a été aggrave, nous dit Ismail Hamet; par le manque "de la main-d'oeuvre des nègres, indispensable à l'exploitation des richesses sahariennes"[21]. Dans cette situation de crise un mouvement puritain, conduit par Sidi Mohamed al-Ayyachi, porta son action contre les chrétiens dont le commerce ruinait le pays. Sans pouvoir établir une corrélation entre ce mouvement né au Maroc et celui de Mauritanie, nous assistons à la même époque à l'apparition, au Sud, d'un mouvement similaire de réaction contre le commerce atlantique. Ce fut le mouvement de Nasir ad Din. Celui-ci, qui avait pour cadre les confins mauritaniens, a débordé sur la région du fleuve où les quatre Royaumes du Waalo, du Fouta, du Cayor et du Djolof ont été directement impliquées dans ce conflit. Nous nous contentons

Créé avec nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

d'évoquer ici la phase Sénégambienne de ce mouvement. Ce dernier avait pour cause non seulement le conflit ethnique arabo-bérbère mais aussi les pratiques jugées peu orthodoxes de l'aristocratie peul du Fouta Toro et Wolof des rives du fleuve Sénégal. Il semble cependant que la principale motivation ait été la lutte contre la traite atlantique.

En effet, le commerce caravaniers, qui était entre les mains bérbères, s'est heurté aux Français de Saint-Louis, solidement établis sur l'embouchure du fleuve Sénégal et pratiquant un négoce florissant d'esclaves et de gomme avec les aristocraties locales. Cette "concurrence, nous dit B. Barry, entre le commerce atlantique, domine par les puissances européennes, et le commerce caravanier, monopolisé par les Bérbères constituera, jusqu'à la conquête coloniale, la toile de fond de l'histoire économique du fleuve Sénégal"[22].

Ceci dit, le "prophète Nasir ad Din, tout en combattant les Arabes Banu Hassan, s'est tourné ves l'aristocratie peul et Wolof associée aux Français. Le conflit dura cinq années (1673-1677) et s'est terminé par la défaite de Nasir ad Din. Notons cependant que son action a eu une grande portée, notamment en milieu wolof. L'Islam s'est en effet développé parmi les Wolof et a pris la forme d'un mouvement anti-aristocratique et anti-européen. Ainsi, influencés par les musulmans maures et toucouleur, l'islamisation des Wolof s'est présentée comme une "réaction populaire contre la domination d'une classe dirigeante exploitant ses sujets sans vergogne avec l'appui des infidèles"[23]. A l'issue de ce conflit la défaite des marabouts consacra la victoire de l'aristocratie saint-louisienne qui était de plus en plus impliquée dans la traite humaine. Les souverains Wolof étaient aidés dans leur entreprises esclavagiste par les Ceddo (esclaves de la couronne). Ces derniers, laissant derrière eux une "réputation de grands ivrognes et de pillards incorrigibles"[24], étaient à l'origine de l'instabilité politique permanente dans les Royaumes Wolof. Par ailleurs, avec leur appui" les Etats Wolof furent parmi les principaux fournisseurs d'esclaves entre le XVIIeme et XVIIIème siècle"[25]. Notons enfin, à propos de l'épopée de Nasir ad Din que "les marabouts vaincus au Fouta Toro, furent les ancêtres spirituels de ceux qui, avec Souleyman Bal, feront, par les armes, la révolution toorode de 1776. Cette révolution , dirigée principalement contre la domination maure, ayant pour but aussi de mettre fin aux effets néfastes de la traite négrière, montre bien la continuité de ce mouvement maraboutique qui sous le couvert de l'Islam, recouvre

considérés comme des "collaborateurs"[33]. Le successeur de Souleyman Bal, Abdul kadir, a pris le titre d'Almamy, inaugurant ainsi le règne de 34 Almamy au Fouta Tooro. Bientôt, il édifiait un Empire théocratique et tentait d'étendre son mouvement aux Etats Wolof voisins, mais sans succès. Cet échec était dû principalement à l'intervention des français de Saint-Louis, aidés par les Maures et le Damel (Roi du Cayor). Le Brak (Roi) du Waalo qui s'était converti à l'islam avec un grand nombre de ses sujets, abjura et rallia les coalises. Cependant, ses sujets refusèrent d'abandonner leur nouvelle croyance, renforçant ainsi le camp des Toorobe. Depuis lors, "la citadelle musulmane du Fouta tooro n'a pas cessé d'exercer une profonde influence sur le peuple Wolof"[34], celui-ci deviendra d'ailleurs l'un des principaux vecteurs de l'Islam en territoire Sénégalais.

Au moment ou les troupes françaises foulaient le sol algérien un mouvement de type mahdiste a vu le jour sur les rives du fleuve Sénégal. Il s'agit de la "guerre sainte" menée par les marabouts Diile Fatima Tyam et Nyaga Issa, dans la province du Waalo. Leur action était dirigée contre l'aristocratie des Brak alliée du colonisateur et des Maures. Ils projetaient, à l'instar des Almamy du Fouta, d'établir "un gouvernement théocratique". Toutefois, leur action fut brisée par le colonisateur français, qui voyait dans l'expansion de ce mouvement une menace, notamment en direction des forts de Richard-Toll et Dagana, clefs de voûte de leur commerce sur le fleuve.

Cependant, de tous les mouvements de type prosélytique que nous venons d'évoquer, il semble que celui mené par El Hadj Omar Tall soit le seul qui ait eu le plus de retentissement, du moins dans cette partie de l'Afrique subsaharienne. Ainsi, un demi-siecle après le mouvement Toorobe mené par Souleyman Bal, El Hadj Omar s'est révolté à son tour, non seulement contre l'occupant français, mais aussi contre la "révolution trahie"[35], des Toorobe. Sans reprendre dans le détail les événements connus et souvent traités de ce mouvement politico-religieux, nous nous bornerons dans ce qui va suivre, à mettre en exergue sa signification et sa portée, notamment au Sénégal. Rappelons cependant que l'épopée Omarienne a dure 15 années (1849-1864) et que celui-ci, face à la pression du pouvoir colonial et l'oligarchie du Fouta, fut force à s'etablir à l'Est pour y fonder son "dar al-islam". Rappelons en outre, qu'a peu près à la même époque un autre mouvement vit le jour au Nord du Sahara : Il s'agit du jihad de l'Emir Abdel Kader (1832-1847), en Algérie. Ce dernier s'est appuyé sur la Qadiriya

davantage une volonté idéologique, politique, économique et sociale dans les Etats Sénégambiens"[26].

En 1725, un autre mouvement de type jihadiste s'est produit au Sud-Est du Sénégal actuel (Fouta-Djalon et Boundou). Il était conduit par des marabouts (karamoko) et des pasteurs peul venus de Fouta Tooro et du Macina. Les karamoko, dont le but était franchement proselytique, portèrent leur action contre" quiconque, indigène ou peul, était incapable de réciter la profession de foi, était mis à mort ou réduit en esclavage"[27]. A l'issue de ce mouvement un Etat théorique, dirige par un Imam (Almamy)[28], s'est constitué dans le Fouta-Djalon et le Boundou. Il s'est maintenu jusqu'à la colonisation française.

Un autre mouvement de type jihadiste a secoue le Fouta tooro en 1776. Il s'agit de la révolution toorodo, qui inaugura, à l'instar du Fouta-Djalon, le règne des Almamy. Cette révolution était dirigée, comme nous l'avons précédemment souligné, contre la dynastie des peul Denyande et ses allies maures. Les précurseurs de ce mouvement considéraient, en effet, les Denyanke comme des anti-religieux et des "païens". En réalité, comme le suggeèrech. Coulon"les Denyanke n'étaient guèrre (païens) . comme le prétendaient les Toorbe, mais leur Islam était plus un (Islam de cour) qu'un Islam militant. Il s'accommodait, en outre, du maintien des croyances ancestrales"[29].

Cependant, il semble que le véritable mobile du soulèvement des toorobe ait été surtout une opposition"à la tyrannie d'un régime (des Denyanke) qui faisait le jeu des chefs maures[30] et marocains, et notamment des nazzias qu'ils effectuaient pour obtenir des esclaves"[31]. En effet, les besoins des Rois du Maroc en esclaves étaient tels, que sous le règne du Sultan Moulya Ismail, par exemple," les maures du Maroc, Fes, Tamdant faisait un commerce considérable en Guinée", le négoce" était avantageux pour les deux côtés. Les Maures pour du sel, des petits miroirs, des joujoux, rapportaient une quantité considérable d'or, des dents d'éléphants et de nombreux esclaves"[32].

Ainsi, on comprend la réaction des Toorobe dominés à l'encontre des Denyanke qui ne faisaient rien pour protéger leurs sujets contre les exactions maures et la traite européenne des esclaves. Telles sont, nous semble-t-il, les véritables motivations qui ont poussé les instigateurs de ce mouvement (Souleyman Bal et son successeur Abdul Kadir), à s'opposer au pouvoir des Denyanke,

Créé avec nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

les liens entre les populations des deux rives du Sahara, que le colonisateur essaya en vain de rompre, se sont intimement resserrés.

En outre, les fréquents échanges entre, d'une part, les écoles de Fès et de Tlemcen et , d'autre par, les lettres du Fouta Sénégalais expliquent la vivacité de l'islam dans cette région et les liens qui n'ont cessé d'exister entre les musulmans des deux rives du Sahara.

Après l'épopée omarienne, d'autres marabouts suivirent son exemple. Parmi eux, citons le marabout toucouleur Ma ba Diakhou qui a propagé l'Islam dans le Baol et le Saloum. Mâ ba était accompagné, dans son entreprise de conversion et de résistance à l'occupant français, par des figures illustres, qui ont marqué durablement le Sénégal. Il s'agit d'El-Hadj abdoulaye Niasse, père d'el-hadj Ibrahim Niasse, de Omar Anta Sali, père d'Ahmadou Bamba fondateur du mouridisme, et le Damel du Cayor, Lat Dior Diop.Ma ba a succombe le 17 juillet 1867 lors de sa tentative de la prise du Sine.

Après sa mort, d'autres marabouts ont relevé l'étendard de l'Islam. C'est le cas notamment d'Ahmadou Cheikhou, dit le tijani, de Mamadou Lamine, de Fode Kaba...etc. C'est avec l'action proselytique de ce dernier, en Casamance, que le "jihad"armé pris fin vers 1893, et que débuta une nouvelle gère, celle du "djihad pacifique".

Nous avons vu dans les deux phases précédentes de l'islamisation du Sénégal, que dès les premières heures de son implantation sur les rives du fleuve, elle a été l'oeuvre de marchands venus du Nord. Par la suite, la propagation de l'Islam fut conduite par des marabouts autochtones sous la forme violente contre la tyrannie des pouvoirs locaux, aidés par les esclaves de la couronne (les Ceddo) et le colonisateur français. La troisième période de l'islamisation du Sénégal fut dominée par l'action prosélytique pacifique des confréries. Cette dernière p' ase, qui se poursuit d'ailleurs de nos jours, a ouvert la voie a ce que l'on nomme "l'Islam maraboutique". Ce front pionnier de l'Islam" ne cesse de s'étendre, notamment dans les régions humides et pluvieuses de la savane, là justement ou la caravane venue du Nord ne pouvait y accéder. Ainsi, face a la pénétration coloniale, les confréries constituèrent des pôles de résistances, des cellules de refus. C'est donc, "essentiellement par des mouvements religieux que les sociétés africaines...ont réagi face au pouvoir absolu"[41] qu'il ait été local, africain, ou externe, européen.

pour mener son action alors qu'El-hajd Omar trouva en la voie Tijaniya[36] le moyen de s'opposer au colonisateur et à l'oligrachie du Fouta sénégalais. L'épopée de l'Empire du Cheikh Omar fut sans nul doute lors de la prise de la Capitale du Royaume peul du Macina, en 1862. Deux années plus tard ((1864), le prédicateur toucouleur disparut dans des circonstances encore mal expliquées dans la grotte de Deguimbere, sur la falaise de Bandiagara, au Mali.

Il est certain que de tous les mouvements que nous venons d'évoquer plus haut, celui d'El -Hadj Omar est l'un de ceux qui ont marque le plus cette partie du continent africain. L'épopée omarienne a fait l'objet de plusieurs interprétations. Pour cetains, El-Hadj Omar était venu contrecarrer la confrérie Qadiriya qui, à force de se compromettre avec les intérêts de l'élite dirigeante toucouleur, a perdu de sa vitalité. "La voie Tijane, plus récente et donc moins compromise avec l'ordre établi, était a ses yeux (Al-Hadj Omar) le meilleur véhicule pour renouer avec les idéaux du Prophète et la pureté de l'Islam primitif"[37]. La marabout toucouleur envisageait, selon Y.Saint-Martin, la constitution d'un grand Empire Toucouleur" autour d'une foi revivifiée par la prédication et le wird Tijani"[38].Pour d'autres, le prédicateur toucouleur, sans aller jusqu'à s'allier avec le pouvoir colonial, n'avait pas une attitude foncièrement hostile et belliqueuse a son égard. "Il n'y a pas tant "résistance nationale", nous dit Y. Saint-Martin, que choc en définitive, de deux impérialisme cherchant à s'exercer sur les mêmes"régions"[39]. Or, d'autres auteurs, notamment africains, ont mis, au contraire, l'accent sur la résistance d'El-Hadj Omar à l'occupation française, en le présentant comment un nationaliste acharné et un grand résistant a l'impérialisme européen.

Ceci dit, qu'il ait été un prédicateur visant à instaurer un Empire régi par le Wird Tijani ou un farouche opposant a l'impérialisme français, El-Hadj Omar a été, peut être, un "anti-sultan", dont l'action était plus d'un ascète soufi que d'un chef temporel[40].

En tous cas, il est une autre conséquence du mouvement d'El-Hadj Omar qui merite d'être relevée ici : C'est la propagation de la Tijaniya. Car, si cette voie mystique, née dans l'Oasis d'Ain Mahdi (Algérie), avait été introduite au Soudan occidental par la tribu des Idaw Ali, le principal propagandiste de cette "tariqa" au Sud du Sahara fut incontestablement le toucouleur El-Hadj Omar. Des lors, par le truchement de cette confrérie originaire du Nord,

nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

Notes

(1) - Tels que les récits d'Inb Hawqal (Xème siècle), d'El Bekri et d'Ibn Khaldun (XIème siècle), Ibn Battuta (XVIème siècle) et Hassan Al Wazan, leo Africanus (XVIème siècle). Parmi les récits des explorateurs Portugais citons celui de Ca Da Mosto (XVème siècle).

(2) - Hessiling (G). Histoire politique du Séngal : Institution, droit et société. Paris, Ed. Karthala, 1985, P 106.

(3) - Probablement entre 2000 et 1500 Av. J. C.

(4) - Tels que les Etats de Silla, de Ngalam et de Diarisso, situées à la limites Est de l'Empires du Tekrur.

(5) - Série Abs soh. chronique de Fouta Sénégalais. (Traduit par M. Delaffosse) Paris, Ed. Leroux, 1873, P 18

(6) - Diagne P. Pouvoir politique traditionnel en Afrique Occidentale. Paris, Ed. Présence Africaine, 1967, P 44.

(7) - Diagne P. Op. Cit. P 45.

(8) - Traoré B. Naissance et évolution de l'Etat Sénégalais. Thèse de Doctorat d'Etat, Paris, 1972, P. 6.

(9) - Devise J. Routes de commerce et échages en Afrique Occidentale en relation avec la Méditérrnée. In, Revue d'Histoire Economique et Sociale, Vol. I-II, N°10, année 1972, P 42-73/357-397

(10) - Traoré B. Ibid. P. 6.

(11) - Barry B. Le Royaume du Waalo : Le Sénégal avant la conquête. Paris, Ed. Maspéro, 1972, P81.

(12) - Godinho M. L'économie de l'Empire portugais au XVème siècle et XVIème siècle. Paris, Ed. SEVPEN, 1969, P104-105.

(13) - Cf. Adamson (1750), cité par Traoré B. Op. Cit. P8.

(14) - Rappelons que le Gouvernement Faidherbea servi en Algérie contre l'Emir Abdel Kader (1832-1847).

(15) - Notons qu'il y a de nombreuses hypothèses quant à l'origine du mot Sénégal. Pour certains il s'agirait du mot Wolof signifiant "Piroque". Pour d'autres, l'étymologie de cet hydronyme viendrait des Berbères Z'anga qui peuplaient la rive droite du fleuve. C'est généralement cette interprétation qui est retenue. En effet, en berbère Z'naga de Mauritanie le Cayor, s'appelle toujours Sunghan; de même qu'au Maroc, on désigne l'esclave noir par le terme, Isemgan. C'est de ce terme que les Européens en contact avec les Maures du fleuve ont formé le mot, Sénégal.

(16) - Cité par A. Samb. Un essai sur la contribution du Sénégal à la littérature d'expression arabe. Dakar, I. F. A. N, 1972, P 18.

(17) - Signifie littéralement "Ceux du monastère". C'est de ce terme que l'on a formé le mot "marabout" ou "almoravide" par l'intermédiaire de la langue espagnol.

(18) - CF. Barry B. La guerre des marabouts dans la région du fleuve Sénégla de 1673 à 1677. In, Bulletin de l'I. F. A. N. T XXXIII, série B, N°3, 1971, P564-589.

NOTICE BIBLIOGRAPHIQUE -

AMIN (S) - Le monde des affaires Sénégalais. Paris, Ed. de Minuit, 1969, 205P.

BARRY (B) - Le royaume du Waalo : Le Sénégal avant la conquête. Paris, Ed. Maspero, 1972, 393P.

BEHRMAN (L.C) - Muslim brotherhood and politics in Sénégal. Cambridge-Harvard University Press, 1970, 166P.

COULON (CH) - Le marabout et le prince. paris, Ed. Pedome, 1981, 317P.

COULON (CH) - Les musulmans et le pouvoir en Afrique. Paris, Ed. Karthal, 1983, 169P.

CRUISE O'BRIEN (D) - Sainte and politicians. Essays in the organisation of a Senegalese peasant society. Londres, Cambridge University Press, 1975.

DECRANE (PH) - Le Sénégal et la Gambie. Que sais-je? Paris, Ed.PUF, 1985, 127P.

MACASSOUBA (M) - L'Islam au Sénégal : Demain les mollahs? Paris, Ed. Karthala, 1985, 219P.

NICOLAS (G) - Dynamique de l'Islam au Sud du Sahara. Paris, Ed. POF, 1981, 335P.

SAMB (A) - Essai sur la contribution du Sénégal à la littérature arabe. Dakar, IFAN, N∞83, 972, 534P.

Créé avec nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

The United States and Algeria 1776 - 1800

by Ali Tablit

Since independence the countries of North Africa have been occupied almost exclusively with the establishment of a new society.

An important part of this activity has been directed towards a solution to the problem of symbols and values : The construction of an image of themselves for their own contemplation and for export to the world outside. One aspect of this general problem of acculturation is considered with interpretations of history and the evaluation of one' own place in historical evolution.

Starting from the premiss that North African history has largely been a monopoly of French scholaship since 1830.

Contemporary historical writers in Morocco, Algeria, Tunisia, and Lybia have found it essential, before entering upon problems of historical interpretation, to rewrite their own history.

Teaching and learning North African history remains an activity that may still consider mildly eccentric and certainly esoteric. This attitude reflects, 1 am afraid, a somewhat narrow provincialism, an isolationsist determination that seems misplaced in an age when the world is becoming more and more interdependent. Algeria has vast oil and gaz reserves. While morocco has mineral phosphate deposits that dwarf the holding of similiar resources anywhere else in the world.

Since North African Countries have resources the industrial nations want and since Maghribi governments are independent the rest of the world will have to deal with them as diplomatic equals, not as the subjects of a friendly imperial power, nor as weak development world powers that can be dominated, through economic or technical means. So, we can discover, instead, people who are different but not inferior.

It is the purpose af this essay presented here to explore the nature and origins of various attitudes that have affected Western views of the Maghrib.

(19) - CF. Nocolas G. Dynamique de l'Islam au Sud du Sahara. Paris, Ed. POF, 1981, P50
(20) - Tels que les Banu Hillal et les Banu Souleim. Les derniers arrivés, au XVIIème siècle, étaient les Banu Hassan.
(21) - Cité par B. Barry. OP. Cit. P136.
(22) - CF. Barry B. OP. Cit. P 84.
(23) - CF. G. Nicolas. Op. Cit. P 40.
(24) - Monteil V. Lat Dior, Damel du Kayo (1842-1886) et l'islamisation des wolof. In, Esquisses Sénégalaises, Dakar, IFAN, 1966, P 87.
(25) - Coulon Ch. Le marabout et le prince. Paris, Ed. Pedone, 1981, P 60.
(26) - Barry B. La guerre des marabouts. Op. Cit. P 588.
(27) - CF. G. Nicolas. Op. Cit. P 50.
(28) - Le terme Almamy, vient du mot arabe al-Imam qui désigne le chef de la prière et plus largemet le chef de la communauté des croyants.
(29) - Ch. Coulon. Op. Cit. P 19.
(30) - Notons que les Maures étaient encouragés dans leur entreprises esclavagiste par le Gouvernement Anglais (O'Hara) de Saint-Louis, qui a été occupée par les Anglais de 1758 à 1779.
(31) - Ch. Coulon. Ibid.
(32) - J. Barbot. A supplement to the description of the Coast of Guinea, Cité par B. Barry. Op. Cit. P 84.
(33) - Ch. Coulon. Op. Cit. P 19.
(34) - G. Nicolas. Op. Cit. P 50.
(35) - Ch. Coulon. Les musulmans et le pouvoir en Afrique noire. Paris, Ed. karthala, 1983, P 29.
(36) - La Tijaniya fut fondée par Sidi Ahmed Tijani, originaire d'Aïn Mahdi à l'Ouest de Laghouat dans le Sud Algérien.
(37) - Ch. Coulon. Op. Cit. P 33.
(38) - Ibid.
(39) - Ibid.
(40) - Dumont F. L'anti-sultan ou Al-Hadj Omar Tall du Fouta, combattant de la foi. Dakar/Abidjan. N. E. A, 1974, P 244.
(41) -Ch. Coulon. Les Musulmans et le pouvoir..., Op. Cit, P 27.

Créé avec nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

African Muslims or non-muslims, in other parts of the continent, simply did not qualify.

So, there is still a need for better understanding. Perhaps these studies of past prejudices will help us determine to look for the positive in contemporary Maghribi culture. We can learn from the past if we will.

I think also that there are cogent reasons why North Africa should merit the particular attention of American scholars other than which is accorded it as an apprendage to the Near East or as a misfit in the field of African studies. First, there is the obvious reason that the new role of the United States as a world power makes it in cumblent upon American scholar to study all areas of the world. The erea of North Africa currently occupies an important place in the United States Foreign Affairs, as it did in the period of "Barbary" States and during world war II.

Professor, Lowell Ragatz, of European history in George Washington University, had written on march 8, 1943.

At a lecture delivered to members of the Lend- Lease Administrations African Mission at the Mission Training School.

"Gentlemen you are about to engage in a most important piece of work. Your undertaking will prove a decisive factor in determining the success or failure of America's role in the post - war era ... The United States will play a leading part in shaping the NEW WORLD ORDER ... we can not ignore our responsabilities a second time and success in your African venture will be a highly significant step in the right direction... We will have a dominant voice in shaping of the destinies of the Europe and the new world".

It is necessary to have first of all, some idea of the diplomatic and maritime relations existing generally between the North African States, Morocco, Algeria, Tunisia, and Libya, and the European Powers at that time.

The European powers, for the use of the Mediterranean water-ways, had to pay the North African States, Protection-money for this, a treaty was usually signed providing for the payment of a lamp sum of money and a regular subsidy, in some cases in return for the safety of shipping and commerce for those European powers also paid what was described as "consular presents" either in cash or in goods, especially military and naval stores. If a European power failed to establish some treaty

It was not very long ago that most North African seemed unaware that North Africans had a history of their own. Foreigners assumed that Maghribi achievements were due entirely to colonial influence. Thus, American scholars studied French colonial policy from a European or Western point of view. Only the last four decades have American scholars taken North African history seriously. Recent historians have not been satisfied with French or English interpretations, and they have begun to see Algerian, Tunisian, and Maroccan history as chapters of African history rather than as segments of Western military or diplomatic history.

It may be argued that a knowledge of North African history is valuable not only because it can facilitate peaceable and constructive interaction between our own societies and American Society, but also because it aids us in understanding American Society.

The study of North African history has its own obvious rewards which are beyond the comparative judgement suggested above. We may wonder, for example, why western attitudes towards the Maghrib have always' seemed so HARSH. By working with Maghribi history, one should get a clearer-understanding of Maghribi culture and of how and why it evolved as it did.I am obliged to mention that the United States Policies toward North Africa were generally subordinated to franco-american relations in the first half of the twentieth century.

France ruled in Algeria, Tunisia, and most Morocco, and the United States did not question the STATUS QUO. American therefore turned a deaf ear to Maghribi Nationalists. Even after the second world war, when the United States presence in the erea grew, changes came primarily because of perceived American strategic and economic interest. Concern for North African Nationalism was clearly of secondary importance, especially as it tended to be confused with communism from an American Point of view. North Africans were still viewd as inferior and probably incapable of self-development or of any important advances except as appendages of the west.

Whenever Europeans colonized, they held fast to other double-standards : Liberty, Equality, and Fraternity was a good ideal in Post - 1789 France, however, it need not be applied to the Maghrib. Later, after the Wilsonian principle of the right to self-determination was pronounced, writers and politicians believed it was for Europeans only. Africans, whether, they were North

nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

1698, and the first issue of the Bradford Press in New-York, was to authorize subscriptions for the redemption of Christian Slaves in Algiers. More money was raised than was used, and under the terms of the subscription the balance was given to Trinity Church, New-York, and was invested in land, which in time came to be of great value".

The European states in order to protect their commerce, had the choice either of paying certain sums per head for each captive, which in reality was a premium on capture, or of buying entire freedom for their commerce by the expenditure of a large sums yearly. The treaty renewed by France, in 1788; with Algiers, was for fifty years, and it was agreed to pay $ 200.000 annualy, besides large presents distributed according to Custom every ten years, and a great sum given down.

The peace of Spain with Algiers is said to have cost from three to five millions of dollars. There is reason to believe that at the same time England was paying an annual tribute of about $ 280.000. England was the only power sufficiently strong on the sea to put down the Algerian ships.

When the American Revolution broke out they no longer had the safeguards for their commerce that had been given to them by England, and it was therefore that in their very first negociations for a treaty with France they desired to have an article inserted into the treaty that the King of France should secure the inhabitants of the United States, and their vessels and effects against all attacks or depredations from any of the "Barbary" powers.

This article was inserted at the first draft of the plan treaties of Tuesday, September 17, 1776, as following :

Art. VII "The most Christian shall protect, defend and secure, as far as in his power, the subjects, people and inhabitants of the said United States and every of them, and their vessels and effects of every kind, against all attacks, assaults, violences, injuries, depredations of plunderings by or from the king or Emperor Morocco, or Fez, and the States of Algiers, Tunis and Tripoli, and any of them, and every other Prince, state and power, on the coast of Barbary in Africa and the subjects of the said king, emperor, States and powers, and of every of them, in the same manner, and as effectually and fully, and as much to the benefit advantage ease and safety of the said United States and every of them, and of the subjects, people, and inhabitants thereof to all intents and purposes

relationship with any of North African States, or if it failed at any time to honour its treaty obligations, such a European power forfeited the friendship of the North African State concerned and thereby subjected its Mediterranean trafic to a penalty in the form of privateering.

Any captive made by the North African State had to be redeemed by payment of money calculated on the basis of the value of the vessel together with that of the merchandize carried and the number of the crew.

So many changes have taken place during the 18 th century that it is difficult for us to realize that only two centuries ago the Mediterranean was so unsafe that the merchant ships of every nation stood in danger of capture by Algerian ships, unless they were protected either by an armed convoy or by tribute paid to the "barbary" states yet we can scarcely open a book of travels during the last two centuries with mention being made of the immense risks to which every one was exposed who ventured by sea from Marseilles to Naples. The French dramatist Regnard was captured on an English ship going from civita vecchia to Toulon, and served for a time as a slave in Algiers at the end of the seventeenth century, and Jacob Leisler, who played such an important part in the early colonial history of New York. To go much further back, the great Cervantes was a slave in Algiers during four years.

The First American captivity in Algiers of which there is a record may have been that of William Harris, a founder of Rhode Island, Harris went to Providence in 1636 with Roger Williams, of bad disposition, he soon became an enemy of Williams because of a dispute about certain lands lying between Providence and Warwich. In 1679, after three trips to London, Harris got a colonial court ruling that a special Marshal was to be appointed to put him in possession of the dispute lands.

He went secretly to Boston, where he embarked for England in the ship Unity, which was captured on January 24, 1680, by an Algerian ship. Harris and his shipmates were sold as as slaves, and was more than year before he was redeemed. Connecticut, for which colony he was acting as agent, eventually paid L 459 17s 5d, the full amount for his redemption. He died three days after reaching London.

Other American captivities followed "it is a striking fact that a proclamation of Benjamin Flecher, Governor of Pennsylvania, in

Créé avec nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

Archibald Ross, her mate and twenty-one others, including the captain, received sentence of slavery for life at Algiers.

On july 21, 1785, the schooner, Maria of Boston, Isaac Stevens Master, bound to Cadiz, who taken by the Algerians, and on the thirtieth, the Dolphin, Richard O'Brien, master, sailing from Philadelphia.

The officers and crews, twenty-one persons in number, were reduced to slavery, although, the captains were far better treated than the seamen.

The American prisoners at Algiers wrote to the American Consul at Casiz that they had been enslaved.

The British Consul at Algiers had done what he could for them. They asked aid from the Congress of the United States, and estimated that ransom for all twenty-one would be from four to six hundred pounds sterling. They wrote a second letter dated january 26, 1786, stating that they were all well provided for by the Count d'Espilly, Consul of Spain, through the intercession of Mr. Carmicheal at Madrid and Mr. Jefferson, then was Minister at the Court of France. The Swedish consul also gave them warmest attention.

This letter was signed by Richard O'Brien of the ship Dolphin, who in later years was United States Consul at Algiers. The American slaves all worked at various trades, each was allowed fifteen ounces of bread daily, this the spanish consul supplemented by four pence sterling per day, and he also secured the parole of the captains by a personal bond of five hundred pounds Sterling. In 1783, senor Julian Alfredo Princepe, a vice-consul of Spain in Philadelphia, presented to that society two of the curious old Mediterranean passes.

The number of American slaves was never lärge in comparison with those of European origin. Blyth tells us that a lively interest in favor of the unhappy Christians in slavery among the barbarlans was felt in indifferent parts of Europe. Two Catholic Orders raised money in 1785 to redeem 313 French captives, and they paraded in Paris on october nineteenth. The oldest of them was eighty, and has been thirty years a slave. At this time there were about tweleve hundred Christian slaves in Algiers". and "The number of American prisoners in 1793, amonted to about a hundred and thirty, among were captains Stevens and O'Brien, whose crews had been reduced to ten by the plague".

as the king and kingdom of Great Britain, before the commencement of the present war, protected, defended, and secured the people and inhabitants of the said United States, then called the British colonies, in America, their vessels and effects, against all such attacks, assaults, violences, injuries depredations and plunderings".

It was found impossible to insert this article in the treaty of 1778, and instead of that the king agreed to "employ his good offices".

According to a report made in 1790, by Mr. Jefferson, when secretary of state, "before the war of independence, about one-sixth of the wheat and flour exported from the United States, and about one-fourth in value of their dried and pickled fish, and some rice. There were then employed in the trade about twenty thousand tons of navigation and tweleve thousand seamen".

The nuisance of American captivities in "Barbary" remained unabated until after the Revolution, and was one of the first matters to worry the new government.

At this time Algiers was independent. The sublime Porte maintained a fiction of suzerainty over Algiers and other North African States. What this amounted to is indicated by an incident related by Blyth.

He says that on the occasion of the first capture of two Russian ships by the Algerians, in 1786, application was made for their release through Turkey, and the answer of the Dey to the Turkish envoy was about as follows : "...Tell the Emperor... that I am sove reing as well as himself, and that it rests with me, and me alone, ... to make peace or war ... I command you to make known to the emperor that I value not his friendship, neither do I Care for his anger".

O viously no treaty with Turkey would bind one of the North African States. Each had to be dealt with separately. Only Russia and Austria insisted that Turkey exercised responsible souvereignty over North Africa as a whole.

The more detailed records of the eighteenth century, so for as American captivities are concerned, related to Algiers. The most circumstancial, as narrated by Blyth, concerned the ship Julius Caesar of Philadelphia, commanded by captain Squires, which was captured about 1784, bound from Charles Twon to Cadiz

nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

Already, in May, 1784, Congress had authorized a commission to be issued to Mr. Adams, Dr. Franklin, and Mr. Jefferson, empowering them either directly or through commissioners applied to the French Minister, Count de Vergennes, asking his advice about the conduct of negociations, and requesting the good offices of Louis XVI to be interposed with the Emporor of Morocco. After Franklin had return to America, in July, 1785, Adams and Jefferson,finding their hands full with European negociations, appointed Thomas Barcly to negociatiate with Morocco, and John lamb to negociate with Algiers. A few Months o fterward Jefferson was persuaded to go to London and meet Abd Arrhman, the Tripolitan ambassador, with whom Mr. Adams had already had some discussion. Adams, account of these preliminary conferences amusing. He writes to Mr. Jay : His excellency replied that Turkey, Tripoli, Tunis, Algiers, and Morocco were sovereigns of the Mediterranean, and that no nation could navigate that sea without a treaty of peace with them.

Adams and Jefferson found the terms too exorbitant. The Ambassador demanded as the lowest price for a perpetual peace £ 30.000 for his employers and £ 3,000 for himself, that Tunis would probably treat on the same terms, but he could not answer for Algiers or Morocco. Peace with all four powers would cast at least $ 1.000.000 and Congress had appropriated only $ 80.000.

That their minds were full of this subject may be seem from the constant references to it in their correspondence.

Mr. Adams was strongly opposed to war, on account of the expense, and prefferred the payment of tribute. "As long as France, England, Holland, and the Emperor, will submit to be tribulary to these vobbers, and even encourage them, to what purpose should we make war upon them".

Mr. Adams believed that war would be greatly more expensive than tribute "And when you leave of fighting, you must pay as much money as it would cost you now for peace. We ought not to fight them at all, unless we determine to fight them forever. The thought, I fear, it too rugged for our people to bear. To fight them at the expense of millions, and make peace, after all,. by. giving more money and large presents than would now procure perpetual peace seems not to be economical".

The masters and crews of ten American ships were brought into Algiers from the Algerian expeditions of october 1793.

At the end of February, 1794, there remained a hundred and twenty-six American slaves in Algiers, from the seizure of at least thirteen ships between 1785 and 1794, of which tweleve were listed, namely, the Dolphin and the president of Pennsylvania, the Hope and the Minerva of New-York. The Thomas, the Jane, the Polly, the Maria, and the Jay of Massachusetts, the Georges of Rhode Island, the Olive Branch of New Hampshire, and the Dispatch of Virginia.

O'Brien's Census must have been incomplete, for there is record of a Boston man who had been ten years a captive in Algiers, arriving home from Cadiz, having been ransomed by the payment of three thousand dollars by his friends.

Twenty had already died in a plague epidemic and there were further deaths from the same cause fourteen by August first. Colonel David Humphreys, appointed by President Washington as Minister Plenipotentiary to the North African States and American consul for Algiers, left America in April 1795, with Joseph Donaldson af Philadelphia, who had been appointed consul for Tunis and Tripoli.

They were instructed to make treaties and procure the release of Americans from slavery.

A treaty, signed at Lisbon on November 28, 1795; was ratified by President Washington and secretary of State Timothy Pickering, March 6, 1796.

This strange document obsequiously recognized the legality of American captives being held as slaves in Algiers if taken wihout a passport on broad on enemy ship. The article on slavery read : "No citizen of the United States ... shall be obliged to redeem any slave against his will, even should he be his brother, neither shall the owner of a slave be forced to sell him against his will ... should any American citizen be taken on board an ennemy ship... having a regular passport, specifying they are citizens of the United States, they shall be immediately set at liberty. On the contrary, they having no passport, they and their property shall be considered lawfull prize, as this Regency know their friends by their passports".

Créé avec
nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

Richard O'Brien, one of the captured sea-captains, wrote to Mr. Carmichael, American chargé d'affairs at Madrid, on june 24, 1790. "That Mr. Lamb could speak nothing but English, that the French Consul and Count d'Espilly, the Spanish ambassador, would not take the trouble to explain Mr. Lamb,s propositions, as the terms of the peace would be advantageous to the Algerians, and that the French and spaniards advised Mr. Lamb to return to America, that the Algerians would not make peace with the United States of America".

Subsequently the wekil Hadji said to Mr. O'Brien that : "He hoped, if the Americans sent an American to Algiers to make the peace, they would send a man who could speak the spanish or Italian language. He ridiculed much the sending a man that no one could understand what he had to say".

About O'Brien himself, John Quincy Adams wrote, thirty years later. "O'Brien is an old trishman, who was one Consul-general at Algiers, chiefly because he had been nine or ten years a slave there.

He was a master of a vessel, and is an exact copy of smollett's nouvel sailors. His discourse is patched up entirely of sea phrases, and he prides himself upon nothing so much as his language".

The Dey, however, received Mr. Lamb and his secretary, Mr. Randall, Politely, and even informed them that he was well acquainted with the exploits of general Washington, for whom he fell great admiration, but, whenever, excepted to see him a full-length portrait, that he might hang it up in his Palace. The feeling of regard for general Washington dit not, however, diminish the prices of the captives, which, according to Mr. Lambs, were $ 6.000 each for three captains, $ 4.000 for the males and passangers, and $ 1.400 for each of the seamen, besides a customary duty of eleven per cent. On the whole amount. This made about $ 2.800 a captive, while the agents had authority to offer only $ 200 the captives redeemed by the French had cost $ 300 a man, whith the expenses, had amounted to about $ 500.

In 1792, on the proposition of General Washington, the Senate agreed to conclude a treaty with Algiers, provided that it should not cost more than $ 40.000 as a ransom for the thirteen Americans $ 25.000 as a present to the Dey on its signature, and $ 25.000 more annually. The negociations were entrusted to admiral Paul Johnes, and were considered to confidential and secret that all the papers were made out in Mr. Jeffersons own handwriting.

Mr. Jefferson quite as decidely prferred war. He wrote to Mr. Adams :

1. Justice is in favor of this opinion.

2. Honor favors it

3. It will procure us respect in Europe, and respect is a safeguard to interest.

4. It will arm the federal head with the sagest of all instruments of coercion over its delinquent members.

5. I think it least expensive.

6. Equally effectual.

Every other method having failed, Barcly proceeded to Morocco, and Lamb to Algiers.

Barclay concluded a treaty with the Emperor of Morocco on July 16, 1787, without particular difficulty. This was, 1 believe, the first treaty made with any power in which neither tribute no presents were stipulated. Although without a naval force it was naturally impossible to secure its accurate observance except by occasional presents. The treaty was concluded for fifty years. Soon afterward the Emperor died, and it was necessary to have it recognized by his successor. Twenty-thousand dollars were appropriated for this purpose, which, were distributed in presents, and in 1795, a formal ratification of the treaty was made.

Lamb, however, entirely failed in his negociations at Algiers. He had been sent here by Jefferson and Adams with many misgivings, but he had brought recommandations from Congress, had. "Followed for many years the Barbary trade, and seemed intimately acquainted with those states".

They did not feel sure either of his abilities or of his integrity, they sent a Mr. Randall with him as clerck to "attend to his proceedings" and give information if he saw anything going amiss. When afterward, under the pretext of ill health, lamb declined to return either to Congress, to Mr. Adams or to Mr. Jefferson, they feared some malversation. "J am persuaded that an angel sent on this business", says Mr. Jefferson, "and so much limited in his terms, could heve done nothing. But should Congress propose to try the line of negociation again, I think they will perceive that Lamb is not a proper agent".

Créé avec nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

proves that this envy, jealously, and hotred will never be appeased, and that they will leave nothing unattempted to effect our ruin. As a further confirmation, it is worthy of remark that the same British agent obtained a truce at the same time between the States of Holland and the Dey, for six months, whereby we and the Hanse Towns are now left the only prey to those barbarians".

On Mr. Church's representations the Portuguese arranged to give American merchant vessels the convoy of their ships of war whenever practicable. There were-then sixteen American and thirty Hanseatic vessels in the port of Lisbon.

Mr. Thomas Pinkney, the American minister at London, had a conversation on this subject with Lord Grenville, who assured him that England. "Had not the least intention or thougtht of injuring US, that they conceived they had done no more than their friendship for a good ally required of them.

But that the measure was also particulary advantageous to themselves, as they wanted the co-opération of the Portuguese fleet to act against their common enemy, which it was at liberty to do when no longer employed in blocking up the Algerine fleet".

He assured him that no opposition would be made to the Portuguese convoy to vessels already in their harbors.

Meanwhile, the captives were sending home petitions to Congress begging that some thing should be done for them, and captain O'Brien, in a remarkable letter to the President, considered that the only effectual means that could be employed ware a fleet of thirty ships.

Colonel David Humpreys wrote :

"If we mean to have a commerce, we must have a naval force, would tend more toward enabling us to maintain our neutrality in the actual critical state of our affairs in Europe than all the declarations reasoning, concessions, and sacrifices that can possibly be made".

Congress began at least to see affairs from the same point of view, and on January 2, 1794, the House of Representatives resolved that "Naval force adequate for the protection of the commerce of the United States against the Algerine forces ought to be provided".

There seems to have been a suspicion that there might be some opposition at Algiers on the part of other powers, for it was known that a Mr. Simpson, of Gibraltar, by the direction of the Messrs. Bulkley of Lisbon, had offered a contract to the Dey to redeem all the American captives for $ 34.792.

It was not known who the parties to this contract were, it was, indeed, never carried out, and Jones was instructed to deny all knowledge of it. Jones unfortunately died at this time, in Paris, and Barclay, was suceeded him, also died in Lisbon.

There was therefore some delay before colonel David Humphrey, the American Minister at Lisbon, was appointed potentiary. Eight hundred thousand dollaras were placed at his disposal. Humphreys never went directly to Algiers. But while in the south of Spain, endeavoring to get across to the North African coast, received unwelcome, but not entirely unlooked for, news that the Portuguese squadron, therefore, which had guarded the straits of Gibraltar, was withdrawn, and that allowed the Algerian fleet to get out into the Atlantic. The immediate result of this was that in a single cruise ten of American vessels were captured, and in November, 1793, the number of American prisonners of Algiers amounted to one hundred and fifteen men, among whom there remained only of the original captives of 1785.

The Portuguese minister of foreign Affairs assured Mr. Church, American Consult at Lisbon, that the truce "was as unexpected to the court of Portugal as it could be to us, and if it was not quite so unwelcome, yet it was by no means agreable to their court, who never intended to conclude either a peace or truce with the Dey, without giving timely notice to all their friends, that they might avoid the dangers to which they might otherwise be exposed by trusting to the Protection of the Portuguese ships of war stationed in the Mediterranean".

Portugal had indeed expressed to England and Spain a desire for their co-operation in obtaining a lasting peace, and the English Consul at Algiers had therefore, not only without authority, but without even consulting the Portuguese government, concluded this truce in behalf of Portugal. England guaranteed that Portugal should be a tribute equal to one-third of that paid by Spain, although, the Portuguese had refused to pay one farthing.

"The conduct of the British in this business leaves no room to doubt or mistake their object, which was evidently aimed at us, and

nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

$ 21.600 a year in naval stores, 20.000 on the presentation of a consul.

Biennial presents to the officers of the government, estimated at $ 17.000, as well as incidental and continual presents on the promotion of the principal officers of the Dey and Regency, and for the attainment of any important object.

The United States fell behind in their payments, and in 1978, sent four armed vessels to the Dey as arrearages.

From september 5, 1795, when the treaty was first draft, until the payments were made the following july, the slaves were in despair at the protraction of their misery. When Mr. Barlow finally informed them that they werc about to be released, they could not believe it. Oders came, however, from the Dey for them to appear before him. "They bade an eternal adieu to the huge stones of Bab-El-Wad, and were arraigned in the Dey, presence, who sat in State, attended by the prime minister, the Aga, and other officers, of government, the head clerk presented each with a tiscoree or passport, they repaired with all expedition to the port of the marine, and embarked on board the ship "La Fortune", which had been chartered for conveying them to Marseilles. The number had been reduced by plague and by death from fatigue to eighty-five. They scattered to several ships at Marseilles. but the majority went a broad a Swedish ship to proceded to America, whith the two sons of the Duke of Orleans as fellow passengers.

On february 8, 1797, "they were brought to Philadelphia in carriages, escorted by many hundreds of their fellow citizens who went out to meet them".

Now I would like to present the story of the frigate "Crescent" which was offered as a present from the United States to the I daughter of the Dey, Hassan.

Tris frigate carried thirty-six guns, and was built at Portsmouth, New Hampshire. She was expected to arrive at Algiers in september, 1797, butactually sailed for her destination in january, 1798. cooper, gives in his history a contemporary newspaper notice of the event :

In the same year authority was given to build six frigates, and to procure ten smaller vessels to be equipped as galleys.

Negociations, however, continued to go on. Pierre Eric skjöldebrand the brother of the Swedish consul at Algiers, having become interested in the fate of the Americans, gave some advice and offered his assistance to the American government.

He wrote that the European jealousies at Algiers were so great that it was difficult for any nation to obtain a peace, and that the Dey wars averse to marking peace at any price.

"Because" said he, "If I were to make peace with every body, what should I do with my corsairs ? What should I do with my soldiers ? They would take off my head for the want of other prizes, not being able to live upon their miserable allowance"

But Skjöldbrand thought that by the payment of a sufficient amount of money in ways which he specifed, together with an annual tribute and occasional presents, peace might be obtained.

1 march, 1795, Joseph Donaldson, who had been appointed as a consul at Tunis and Tripoli, was associated in the negociations with Humphreys, to whom Joel Barlow, the poet of the "Columbiad" was afterward added, and they were authorized to employ the services of Skjöldebrad. Much seems, to have depended on the manner in which the negociations was carried on, and stress was laid upon the fact that the Americans had previously employed the Jewish House of Bassara and Co, all whose efforts had been countermind by their agents of the Dey. By transferring. the business from Bassara to Bacri, and by liberal promises, the Swedes had got the matters into such train that Donaldson, who arrived in Algiers only on the 3d of September, was able to conclude a treaty on the 5 th.

In marking this treaty, however, the American had been obliged to follow the usage of European powers, not only pay a large sum for the purpose of obtaining peace, but an annual tribute, in order to keep American vessels from being captured in the future.

The total cost of fulfilling the treaty was estimated at $ 992.463.25 that included $ 642.500 paid at Algiers to the and to his officials and h:. brokers, a frigate of thirty-six guns, built and furnished in the United States and the naval stores and tribute of the first year, ıe Americans were bound to pay besides this sum about

Créé avec nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

objection was made by American government.

In October, 1800, the Dey informed colonel Tobias Lear, consul general at Algiers that he intended to send an ambassador to the Porte, at Constantinople, with the usual presents, and for that George Washington, which had happened to be at that time in the harbor of Algiers. At that time, the Americans had never had any relations with the Turks, nor had they any treaty with any of the Italian States who were at war with Algiers.

The captain was, of course, without orders on the subject. To the objections of the Consul, the Dey Threatened war, Plunder, and captivity unless the vessel should go. More than this, it was necessary to hoist the Algerian flag at the maintop of the frigate. It was found impossible to refuse, not only was the Algerian flag raised, but it was saluted with seven guns, a compliment which ultimately cost the United States $ 40.000 the only satisfaction was, that after arriving at her destination, the George Washington was the first American ships to raise the American flag in the Bosphorus.

CRESCENT FRIGATE

Portsmouth, Jan., 20, 1798

On thursday morning about sunrise, a gun was discharged from the Crescent frigate, as a signal for getting under way, and at 10.A.M. she cleared the harbour, with a fine leading breeze. Our best wishes follow captain Newman, his officers and men. May the arrive in Safety at the place of their destination, and present to the Dey of Algiers one of the finest specimens of elegant naval architecture which was ever borne on the Piscataqua's waters.

Blow all ye winds that fill the prosperous sail, and hushed in peace be every adverse gale.

The crescent is a present from the United States to the Dey, as a compensation for delay in not fulfilling our treaty stipulations in proper time.

Richard O'Brien, ESQ, who was ten years a prisoner at Algiers, took passage in the abouve frigate, and it to reside at Algiers as Consul general of the United States to all Barbary States. The Crescent has many valuable presents on board for the Dey; and when she sailed was supposed to be worth at least three hundred thousand dollars.

Twenty-six barrels of dollars constituted a part of her cargo. It is worthy of remark that the captain, chief the officers, and many of the privates in the Crescent frigate have been prisoners at Algiers".

A treaty was made by Barlow with Tripoli in November, 1796. On similar terms to that made with Algiers, indeed, the Dey of Algiers advanced to the United States the money necessary to obtain the peace, and the treaty was made under his guarantee.

By the tenth article the money and presents given to the Dey were to be considered full payment, and no presence of any periodical tribute for further payment was ever to be made by either party. This clause naturally did not hold good. The Tripolitans became dissatisfied with the more advantageous terms which had been obtained by the Algerians, and even had a dispute been referred to the Dey of Algiers, as has been stipulated for, it could not be excepted that he would decide in the American favor.

For negociations with Tunis, Barlow had employed a Franch trader by the name of famin, who in 1797 succeeded in concluding a treaty with the Bey. But it contained some articles to which great

Créé avec nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

SELECTED BIBLIOGRAPHY

American States Papers, Foreign Relations (A.S.P.F.R.) Washington, 1834, vols. I-IV.

American States Papers, Naval Affairs (A.S.P.N. Aff.) Washington, 1834-1861, IV vols.

Aldrich, M. Almy, History of the U.S. marine Corps, Boston, 1875.

Barnby G. Henry, Prisoners of Algiers : American-Algerian war, 1785-1797, London and New-York, 1966.

Blyth, Stephen Cleveland, History of the war between the United States and Tripoli, and Other Barbary powers, Salem 1806.

Burnett, C. Edmund, Letters of members of the Continental Congress, 8 vols. Washington; 1921-36, VII.

Carey, Mathiew, A. short account of Algiers Philadelphia, 1794.

Cathcart, James Leander, the Captives, eleven years a prisonner in Algiers. La porte Indiana, 1899.

Clark, Thomas, naval history of the United States from the commencement of the Revolutionary war to the present time. Juanuary 3, 1814. 2 ed.

Cooper, J. Fenimore, Lives distinguished Naval Oficers, vol. I. Philadelphia, 1846.

Emmons, F. George, Navy of the United States from the Commencement, 1775 to 1853, Washington, 1853.

Felton C.C., The life of William Eaton, Boston 1838.

Fitzpatrick, John C., The writing of George Washington, 39 vols. Washington, 1931-44, XXX.

Goldsborough, Charles W. The United States Naval chronicle, vol. I, Washington, 1824.

Gottschalk, Louis. Lafayette between the American and the French Revolutions 1783-1789, The University of Chicago Press, 1950.

Hunt, Gaillard, Journals of the Continental Congress, 1774-1789. 39 vols. Washington, 1904-37, XXVI.

CONCLUSION

In taking a general view of the relations between the United States and Algiers over the period covered by this paper, one observes a number of significant results.

On the one hand, American captives had been liberated, peace had been established with the most formidable the Maghrib powers, the Algerians ruler had promised to aid the United States in forming treaties with Tripoli and Tunis, and there had been constructed a small naval armament which provided greater to American Commerce.

(The Act of March 27, 1794). But, on the other hand, the United States government had paid a huge sum for ransomand for the initial peace, it had made valuable concessions in the form of presents not stipulated by the treaty, it had bound it se.. to pay an annual tribute in naval stores which would used for "Piratical" purposes.

Créé avec nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

Irwin, Ray W. The Diplomatic Relations of the United States with the Barbary Powers, 1776-1816. The University of North carolina Press, 1931

Johnson, Henry P. The correspondance and Public Papers of John Jay, 4 vols. N.Y., 1890-93 v. III.

Journals of the Continental Congress 1774-1789 (J.CC.) 34 vols., ed. by W.C. Ford (vols. 1-15).

G. Hunt (16-27), J.C. Fitzpatrick (28-31), and R.R. Hill (32-34) Washingtonn U.S. Government Printing Office 1904-37.

King, Rufus, The life and Correspondence of Rufus King, N.Y., 1894-1900 I.

Lewis Winston B. "The Birth of a Navy", in United States Naval Institute Proceeding C.I. 1975, pp. 22-23, 63.

Massachusetts Historica/Society Proceedings, second ser. Boston, 1889, Vol. IV New-Yo k Commercial Advertiser 1811.

Pennsylvania Gazette, october 19, 1785.

Prentiss, Charles, Life of General William Eaton, Brookfield, 1813.

Shaler, William, Sketches of Algiers, Boston, 1826.

Stephens, J.W., Hist and Geog. Account of Algiers, containing of events relative to Americans captives, 2d ed. Brooklyn, 1800.

Sherburne, life of John Paul Jones, N.Y., 1851.

Todds, C.B. life and letters of Joel Bralow, N.Y. 1800.

U.S. States Department : The Diplomatic Correspondence of the United States of America from the signing of the definitive treaty of peace 10 th sept., 1783, to the adoption of the Constitution, march 4, 1789, 7 vols. Washington, 1833, II.

U.S. Navy Department : Barbary Powers letter book 1799-1808, 2 vols. MS.

U.S. Navy Department : Ships service book, 1801-1809, I vol., MS.

This book contains much information relating to the wars with the Barbary Powers.

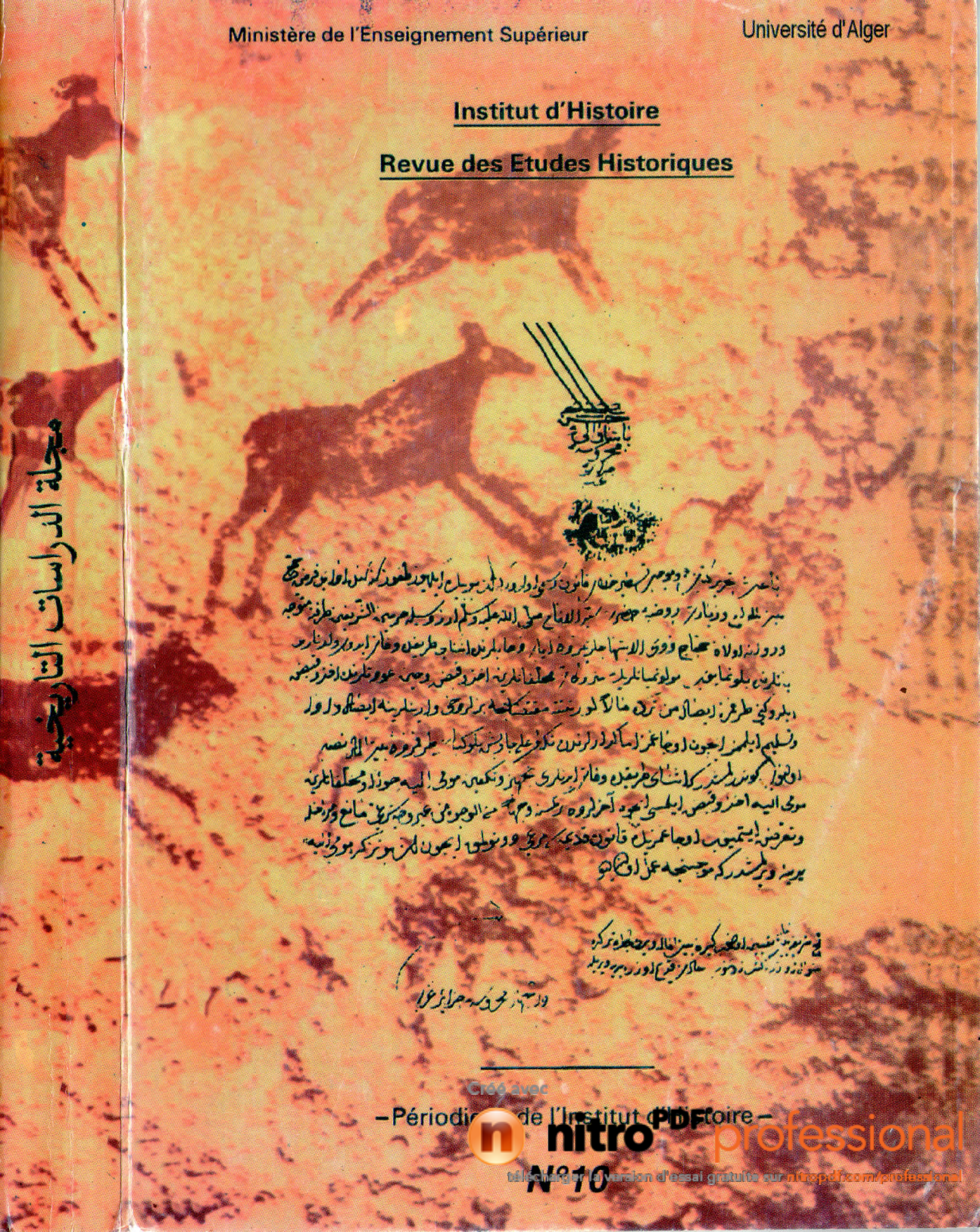
Créé avec nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

Ministère de l'Enseignement Supérieur

Université d'Alger

Institut d'Histoire

Revue des Etudes Historiques



مجلة الدراسات التاريخية

– Périodique de l'Institut d'Histoire –

N°10

Créé avec nitro PDF professional
téléchargez la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional